التدبر والبيان

في

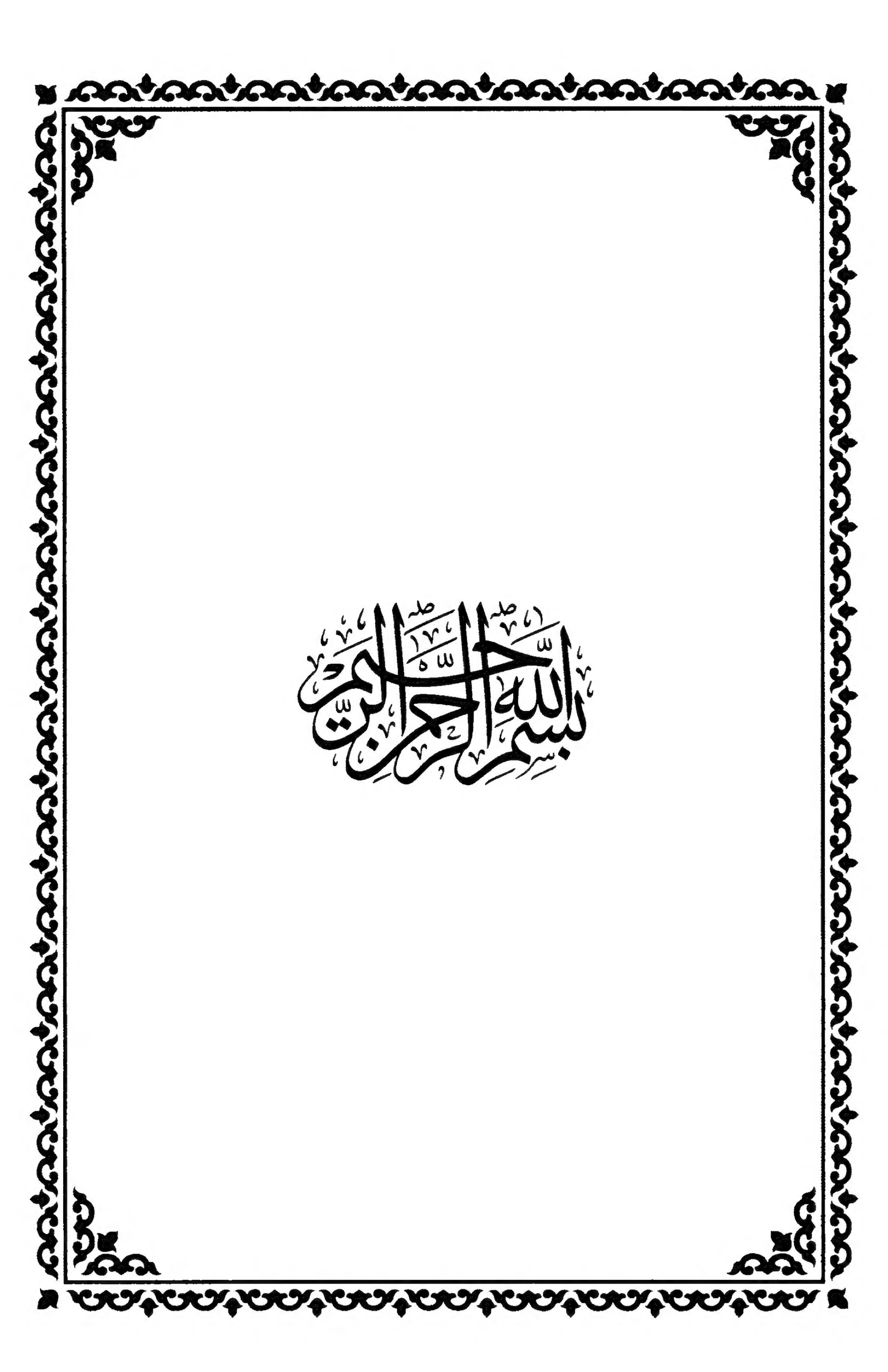
تفسير القرآن بصحيح السنن

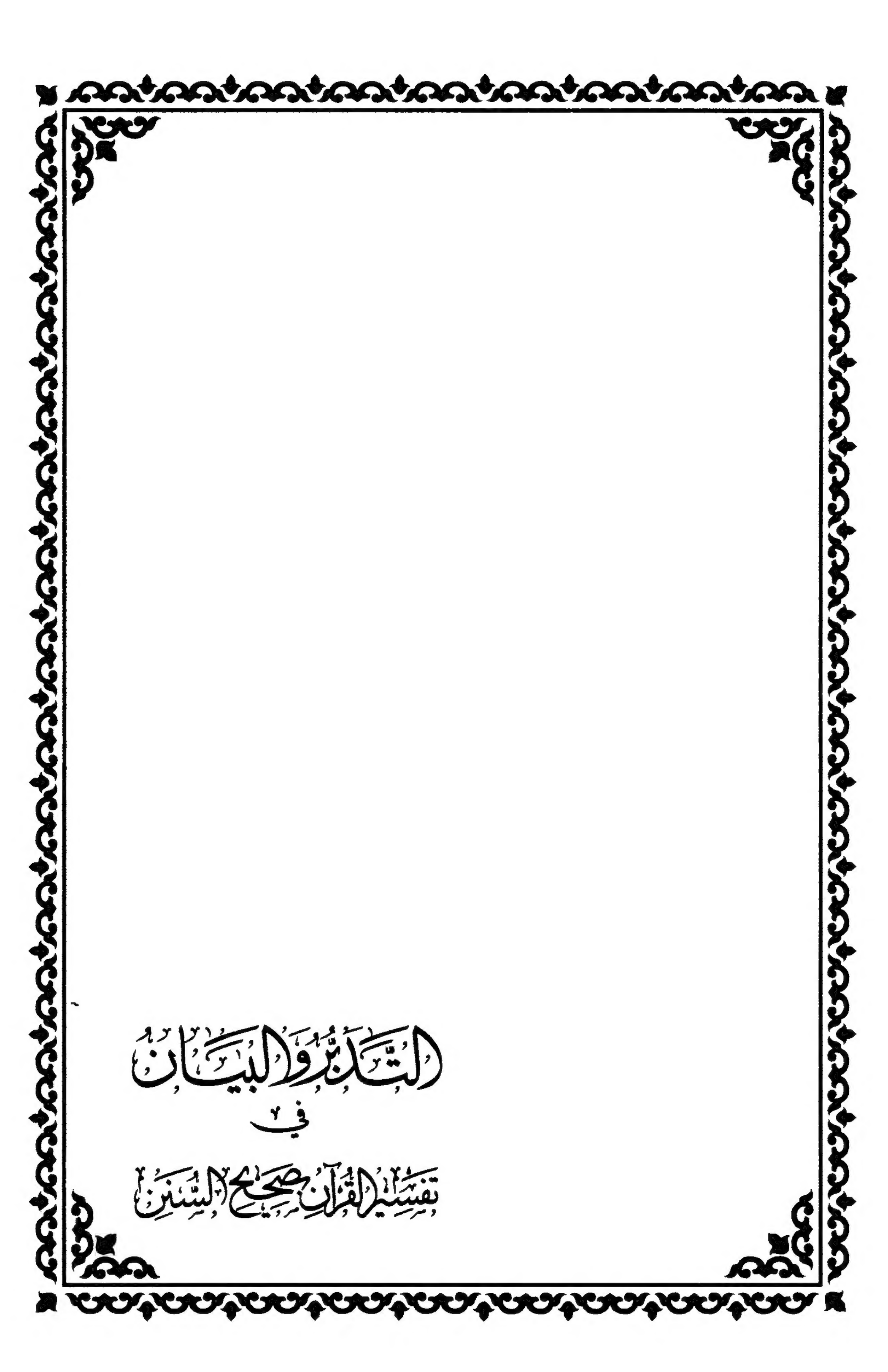
تأليف الأستاذ الدكتور

أبي سهل محمد بن عبد الرحمن المغراوي

المجلد الرابع والعشرون

الفرقان - الشعراء


بسم الله الرحمن الرحيم



التدبر والبيان

في

تفسير القرآن بصحيح السنن



الطَّبعَة الأولى

١٤٣٥ هـ - ٢٠١٤ م

الكتاب : التدبر والبيان
في تفسير القرآن بصحيح السنن

Title : AT-TADABBUR WAL-BAYĀN
FĪ TAFSĪR AL-QUR'ĀN BI ṢAḤĪḤ AS-SUNAN

Classification: Exegesis — التصنيف : تفسير

المؤلف : أبو سهل محمد بن عبد الرحمن المغراوي

Author : Abu Sahl Muhammad ben Abdur-Rahman Al-Maghrawi.

Pages (40 Volumes) 22072 (40 مجلداً) عدد الصفحات

Size 17x24 cm قياس الصفحات

Year 2014 A.D - 1435 H. سنة الطباعة

Printed in : Lebanon — بلد الطباعة : لبنـــان

Edition : 1st — الطبعة : الأولى

رقم الإيداع القانوني : ٢٠١٤ MO ٠٤٢٨

ردمك : ٩٧٨ - ٩٩٥٤ - ٣٣ - ١٤٧ - ٧



سورة الفرقان

أغراض السورة

قال ابن عاشور: «اشتملت هذه السورة على الابتداء بتمجيد اللَّه تعالى وإنشاء الثناء عليه، ووصفه بصفات الإلهية والوحدانية فيها. وأدمج في ذلك التنويه بالقرآن، وجلال منزله، وما فيه من الهدى، وتعريض بالامتنان على الناس بهديه وإرشاده إلى اتقاء المهالك، والتنويه بشأن النبي ﷺ.

وأقيمت هذه السورة على ثلاث دعائم:

الأولى: إثبات أن القرآن منزل من عند اللَّه، والتنويه بالرسول المنزل عليه ﷺ، ودلائل صدقه، ورفعة شأنه عن أن يكون له حظوظ الدنيا، وأنه على طريقة غيره من الرسل، ومن ذلك تلقى قومه دعوته بالتكذيب.

الدعامة الثانية: إثبات البعث والجزاء. والإنذار بالجزاء في الآخرة، والتبشير بالثواب فيها للصالحين، وإنذار المشركين بسوء حظهم يومئذ، وتكون لهم الندامة على تكذيبهم الرسول، وعلى إشراكهم واتباع أئمة كفرهم.

الدعامة الثالثة: الاستدلال على وحدانية اللَّه وتفرده بالخلق وتنزيهه عن أن يكون له ولد أو شريك، وإبطال إلاهية الأصنام، وإبطال مازعموه من بنوة الملائكة لله تعالى.

وافتتحت في آيات كل دعامة من هذه الثلاث بجملة ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى﴾ الخ.

قال الطيبي: مدار هذه السورة على كونه ﷺ مبعوثًا إلى الناس كافة، ينذرهم ما بين أيديهم وما خلفهم ولهذا جعل براعة استهلالها ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ

لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾﴾. وذكر بدائع من صنعه تعالى جمعا بين الاستدلال والتذكير. وأعقب ذلك بتثبيت الرسول ﷺ على دعوته ومقاومته الكافرين، وضرب الأمثال للحالين ببعثة الرسل السابقين وما لقوا من أقوامهم مثل: قوم موسى وقوم نوح وعاد وثمود وأصحاب الرس وقوم لوط. والتوكل على اللَّه، والثناء على المؤمنين به، ومدح خصالهم ومزايا أخلاقهم، والإشارة إلى عذاب قريب يحل بالمكذبين»(١).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أن القرآن أنزل على سبعة أوجه، وجواز القراءة بكل واحد منها

* عن عمر بن الخطاب قال: سمعت هشام بن حكيم بن حزام يقرأ سورة الفرقان في حياة رسول اللَّه ﷺ، فاستمعت لقراءته، فإذا هو يقرأ على حروف كثيرة لم يقرئنيها رسول اللَّه ﷺ، فكدت أساوره في الصلاة، فتصبرت حتى سلم، فلببته بردائه فقلت: من أقرأك هذه السورة التي سمعتك تقرأ؟ قال: أقرأنيها رسول اللَّه ﷺ فقلت: كذبت. فإن رسول اللَّه ﷺ قد أقرأنيها على غير ما قرأت، فانطلقت به أقوده إلى رسول اللَّه ﷺ فقلت: إني سمعت هذا يقرأ سورة الفرقان على حروف لم تقرئنيها فقال رسول اللَّه ﷺ **«أرسله اقرأ يا هشام»**. فقرأ عليه القراءة التي سمعته يقرأ، فقال رسول اللَّه ﷺ: **«كذلك أنزلت، ثم قال: اقرأ يا عمر»**. فقرأت القراءة التي أقرأني، فقال رسول اللَّه ﷺ: **«كذلك أنزلت. إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرؤوا ما تيسر منه»**(٢).

★ غريب الحديث:

أساوره: أواثبه وأقاتله.

لببته: إذا جعلت في عنقه ثوبا أو غيره وجررته به.

---

(١) التحرير والتنوير (١٨/ ٣١٤و٣١٥).

(٢) أخرجه: أحمد (١/ ٤٠)، والبخاري (٩/ ٢٨/ ٤٩٩٢)، ومسلم (١/ ٥٦٠/ ٨١٨)، وأبو داود (٢/ ١٥٨-١٥٩/ ١٤٧٥)، والترمذي (٥/ ١٧٧-١٧٨/ ٢٩٤٣)، والنسائي (٢/ ٤٨٩/ ٩٣٧).

★ **فوائد الحديث:**

قال الحافظ أبو عمر بن عبد البر: «قد اختلف الناس في معنى هذا الحديث اختلافا كبيرا».

ثم ذكر رَحِمَهُ اللَّهُ أقوال أهل العلم في المعنى المراد من نزول القرآن على سبعة أحرف.

فمن قائل: معناها سبع قراءات، وهذا قول الخليل بن أحمد.

ومن قائل: سبعة أنحاء وأصناف وأنواع: زاجر، وآمر، وحلال، وحرام، ومحكم ومتشابه، وأمثال. وقد رد هذا القول جماعة من أهل العلم حتى قال أحمد بن أبي عمران: من قال في تأويل السبعة الأحرف هذا القول فتأويله فاسد.

ومن قائل: سبع لغات متفرقات على لغات العرب يمنها ونزارها.. وهذا قول أبيّ في تأويل هذا الحديث، وزعم قوم قصر هذه اللغات السبعة على لغة مضر دون غيرها، ورد هذا بأن في مضر شواذ لا يجوز أن يقرأ القرآن عليها، مثل: كشكشة قيس وعنعنة تميم، فأما كشكشة قيس فإنهم يجعلون كاف المؤنث شينا فيقولون في ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾[1]: (قد جعل ربش تحتش سريا). وأما عنعنة تميم فيقولون في ﴿فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ﴾[2] (عسى الله عن يأتي بالفتح) وبعضهم يبدل السين تاء فيقول في «الناس»: (النات).

قال الحافظ: «وهذه لغات يرغب بالقرآن عنها ولا يحفظ عن السلف فيه شيء منها»[3].

قال ابن الجزري: «وقيل الناسخ، والمنسوخ، والخاص، والعام، والمجمل، والمبين، والمفسر..

وقيل: الوعد، والوعيد، والمطلق، والمقيد، والتفسير، والإعراب، والتأويل..

وقيل: ليس المراد بالسبعة حقيقة العدد بحيث لا يزيد ولا ينقص بل المراد

---

(١) مريم: الآية (٢٤).

(٢) المائدة: الآية (٥٢).

(٣) فتح البر (٤/ ٥٧٧-٥٨٠).

السعة والتيسير وأنه لا حرج عليهم في قراءته بما هو من لغات العرب من حيث إن شاء اللَّه تعالى أذن لهم في ذلك، والعرب يطلقون لفظ السبع والسبعين والسبعمائة ولا يريدون حقيقة العدد»[(١)].

قال الحافظ: «وقالوا: إنما معنى السبعة الأحرف: سبعة أوجه من المعاني المختلفة المتقاربة بألفاظ مختلفة نحو: (أقبل، وتعال، وهلم).. وهذا القول هو الذي ارتضاه الحافظ رَحِمَهُ اللَّهُ ورد ما سواه وفنده. وقال: (وعلى هذا الكثير من أهل العلم)، ثم أورد من الآثار وأقوال علماء الأمصار ما يبين به هذا الاختيار وأنه هو الصواب والصحيح من الأقوال: (فهذا معنى الحروف المراد بهذا الحديث واللَّه أعلم، إلا أن مصحف عثمان الذي بأيدي الناس اليوم وهو منها حرف واحد، وعلى هذا أهل العلم فاعلم»)[(٢)].

قال ابن الجزري: «ولا زلت أستشكل هذا الحديث وأفكر فيه وأمعن النظر من نيف وثلاثين سنة حتى فتح اللَّه علي بما يمكن أن يكون صوابا إن شاء اللَّه، وذلك أني تتبعت القرآت صحيحها وشاذها، وضعيفها ومنكرها، فإذا هو يرجع اختلافها إلى سبعة أوجه من الاختلاف لا يخرج عنها وذلك:

إما في الحركات بلا تغيّر في المعنى والصورة: نحو (البخل) بأربعة، و(يحسب) بوجهين.

أو بتغير في المعنى فقط نحو: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ﴾[(٣)] ﴿وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾[(٤)] و(أَمَهٍ)[(٥)].

وإما في الحروف بتغير المعنى لا الصورة نحو (تبلوا) و(تتلو) و(ننحيك ببدنك لتكون لمن خلفك) و(ننجيك ببدنك).

أو عكس ذلك نحو (بصطة وبسطة والصراط والسراط).

أو بتغيرهما نحو (أشد منكم ومنهم، ويأتل ويتأل، وفامضوا إلى ذكر الله).

وإما في التقديم والتأخير نحو (فيقتلون ويقتلون، وجاءت سكرت الحق بالموت).

---

(١) النشر في القراءات العشر (١/ ٢٤-٢٦).

(٢) فتح البر (٤/ ٥٨٣-٥٩٢) مختصرا.

(٣) البقرة: الآية (٣٧).

(٤) يوسف: الآية (٤٥).

(٥) الأَمَهُ: النسيان.

أو في الزيادة والنقصان نحو (وأوصى ووصى، والذكر والأنثى).

فهذه سبعة أوجه لا يخرج الاختلاف عنها، وأما نحو اختلاف الإظهار، والإدغام، والروم، والإشمام، والتفخيم، والترقيق، والمد، والقصر، والإمالة، والفتح، والتحقيق، والتسهيل، والإبدال، والنقل مما يعبر عنه بالأصول فهذا ليس من الاختلاف الذي يتنوع فيه اللفظ والمعنى؛ لأن هذه الصفات المتنوعة في أدائه لا تخرجه عن أن يكون لفظا واحدا، ولئن فرض فيكون من الأول»[١].

قال **أبو جعفر الطحاوي**: «كانت هذه السبعة للناس في الحروف لعجزهم عن أخذ القرآن على غيرها؛ لأنهم كانوا أميين لا يكتبون إلا القليل منهم، فكان يشق على كل ذي لغة منهم أن يتحول إلى غيرها من اللغات، ولو رام ذلك لم يتهيأ إلا بمشقة عظيمة، فوسع لهم في اختلاف الألفاظ إذا كان المعنى متفقا فكانوا كذلك حتى كثر من يكتب منهم، وحتى عادت لغاتهم إلى لسان رسول اللّه ﷺ فقرأوا بذلك على تحفظ ألفاظه. فلم يسعهم حينئذ أن يقرأوا بخلافهما وبان بما ذكرنا أن تلك السبعة الأحرف إنما كانت في وقت خاص، لضرورة دعت إلى ذلك، ثم ارتفعت تلك الضرورة فارتفع حكم هذه السبعة الأحرف وعاد ما يقرأ به القرآن إلى حرف واحد»[٢].

تنبيه:

قال **ابن الجزري**: «لا يجوز أن يكون المراد هؤلاء السبعة القراء المشهورين وإن كان يظنه بعض العوام؛ لأن هؤلاء السبعة لم يكونوا خلقوا ولا وجدوا، وأول من جمع قراءاتهم أبو بكر بن مجاهد في أثناء المائة الرابعة»[٣].

وفي الحديث أن هذه السورة -سورة الفرقان-: «سميت في عهد النبي ﷺ وبمسمع منه» أفاده ابن عاشور»[٤].

* * *

(١) النشر في القراءات العشر (١/ ٢٦-٢٧).
(٢) انظر فتح البر (٤/ ٥٩٣-٥٩٤ وما بعدها).
(٣) النشر في القراءات العشر (١/ ٢٤).
(٤) التحرير (١٩/ ٣١١).

قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١﴾

★ غريب الآية:

تبارك: مأخوذ من البركة، وهي كثرة الخير وزيادته. وتأتي تبارك بمعنى تمجد وتعظم.

نذيرا: بمعنى منذرا، وهو المحذر مما فيه هلاك أو أذى.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يقول تعالى حامدا لنفسه الكريمة على ما نزله على رسوله الكريم من القرآن العظيم، كما قال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَـٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ۝١ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ۝٢ مَّـٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ۝٣﴾[1] وقال هاهنا: ﴿تَبَارَكَ﴾ وهو تفاعَلَ من البركة المستقرة الدائمة الثابتة ﴿ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ نزل: فعَّل، من التكرر، والتكثر، كما قال: ﴿وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ﴾[2]؛ لأن الكتب المتقدمة كانت تنزل جملة واحدة، والقرآن نزل مُنَجَّمًا مُفَرَّقًا مُفَصَّلا آيات بعد آيات، وأحكاما بعد أحكام، وسورًا بعد سُوَر، وهذا أشد وأبلغ، وأشد اعتناءً بمن أنزل عليه كما قال في أثناء هذه السورة: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَـٰهُ تَرْتِيلًا ۝٣٢ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ۝٣٣﴾[3]. ولهذا سماه هاهنا الفرقان؛ لأنه يفرق بين الحق والباطل، والهدى والضلال، والغي والرشاد، والحلال والحرام.

وقوله: ﴿عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾: هذه صفة مدح وثناء؛ لأنه أضافه إلى عبوديته، كما وصفه بها في أشرف أحواله، وهي ليلة الإسراء، فقال: ﴿سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾[4]، وكما وصفه بذلك في مقام الدعوة إليه: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟

---

(١) الكهف: الآيات (١-٣).
(٢) النساء: الآية (١٣٦).
(٣) الفرقان: الآيتان (٣٢و٣٣).
(٤) الإسراء: الآية (١).

يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾ ﴾[١]، وكذلك وصفه عند إنزال الكتاب عليه ونزول الملك إليه، فقال: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ ﴾.

وقوله: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ أي: إنما خصَّه بهذا الكتاب المفصل العظيم المبين المحكم الذي: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَـٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ ﴾[٢]، الذي جعله فرقانا عظيما ليخصه بالرسالة إلى من يستظل بالخضراء، ويستقل على الغبراء.. كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ ﴾[٣]»[٤].

قال الشنقيطي: وقوله: «﴿ٱلْفُرْقَانَ﴾ يعني: هذا القرآن العظيم، وهو مصدر زيدت فيه الألف والنون كالكفران والطغيان والرجحان، وهذا المصدر أريد به اسم الفاعل؛ لأن معنى كونه فرقانًا أنه فارق بين الحق والباطل، وبين الرشد والغي، وقال بعض أهل العلم: المصدر الذي هو الفرقان بمعنى اسم المفعول؛ لأنه نزل مفرقًا، ولم ينزل جملة.

واستدل أهل هذا القول بقوله تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَـٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ﴾[٥] الآية، وقوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَـٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ ﴾[٦] وقوله في هذه الآية الكريمة: نزل بالتضعيف يدل على كثرة نزوله أنجمًا منجمًا.

قال بعض أهل العلم: ويدل على ذلك قوله في أول سورة آل عمران: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٣﴾ ﴾[٧] الآية. قالوا عبر في نزول القرآن بنزل بالتضعيف لكثرة نزوله وأما التوراة والإنجيل، فقد عبر في نزولهما بأنزل التي لا تدل على تكثير؛ لأنهما نزلا جملة في وقت واحد، وبعض الآيات لم يعتبر فيها كثرة نزول القرآن كقوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَـٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ ﴾[٨] وقوله في هذه الآية ﴿عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾. قال فيه بعض العلماء. ذكره

---

(١) الجن: الآية (١٩).
(٢) فصلت: الآية (٤٢).
(٣) الأعراف: الآية (١٥٨).
(٤) تفسير القرآن العظيم (٥/ ١٣٣-١٣٤).
(٥) الإسراء: الآية (١٠٦).
(٦) الفرقان: الآية (٣٢).
(٧) آل عمران: الآية (٣).
(٨) الكهف: الآية (١).

صفة العبودية مع تنزيل الفرقان يدل على أن العبودية لله هي أشرف الصفات»[١].

قال ابن القيم: «وأما البركة فكذلك نوعان أيضًا:

أحدهما: بركة هي فعله -تبارك وتعالى-، والفعل منها بارك، ويتعدى بنفسه تارة وبأداة «على» تارة وبأداة «في» تارة، والمفعول منها مبارك، وهو ما جعل كذلك فكان مباركا بجعله تعالى.

والنوع الثاني: بركة تضاف إليه إضافة الرحمة والعزة، والفعل منها تبارك، ولهذا لا يقال لغيره ذلك ولا يصلح إلا له ﷻ، فهو سبحانه المبارك وعبده ورسوله كما قال المسيح عليه السلام: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾[٢] فمن بارك اللَّه فيه وعليه فهو المبارك.

وأما صفته تبارك فمختصة به تعالى كما أطلقها على نفسه بقوله: ﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[٣]، ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾[٤]، ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾[٥]، ﴿وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾﴾[٦]، ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾[٧]، ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ﴾[٨]، ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا﴾[٩]. أفلا تراها كيف اطردت في القرآن جارية عليه مختصة به لا تطلق على غيره، وجاءت على بناء السعة والمبالغة كتعالى وتعاظم ونحوهما، فجاء بناء تبارك على بناء تعالى الذي هو دال على كمال العلو ونهايته، فكذلك تبارك دال على كمال بركته وعظمها وسعتها، وهذا معنى قول من قال من السلف: تبارك: تعاظم.

وقال آخر: معناه أن تجيء البركات من قبله فالبركة كلها منه. وقال غيره: كثر خيره وإحسانه إلى خلقه. وقيل: اتسعت رأفته ورحمته بهم. وقيل: تزايد عن كل شيء وتعالى عنه في صفاته وأفعاله ومن هنا قيل معناه: تعالى وتعاظم، وقيل: تبارك تقدس، والقدس: الطهارة. وقيل: تبارك أي باسمه يبارك في كل شيء.

---

(١) أضواء البيان (٦/ ٢٦٤).
(٢) مريم: الآية (٣١).
(٣) الأعراف: الآية (٥٤).
(٤) الملك: الآية (١).
(٥) المؤمنون: الآية (١٤).
(٦) الزخرف: الآية (٨٥).
(٧) الفرقان: الآية (١).
(٨) الفرقان: الآية (١٠).
(٩) الفرقان: الآية (٦١).

وقيل: تبارك ارتفع والمبارك المرتفع ذكره البغوي. وقيل: تبارك أي البركة تكتسب وتنال بذكره.

وقال ابن عباس: جاء بكل بركة. وقيل: معناه ثبت ودام بما لم يزل ولا يزال، ذكره البغوي أيضًا. وحقيقة اللفظة أن البركة كثرة الخير ودوامه، ولا أحد أحق بذلك وصفا وفعلا منه -تبارك وتعالى-؛ وتفسير السلف يدور على هذين المعنيين وهما متلازمان، لكن الأليق باللفظة معنى الوصف لا الفعل، ؛ فإنه فعل لازم مثل تعالى وتقدس وتعاظم، ومثل هذه الألفاظ ليس معناها أنه جعل غيره عاليا ولا قدوسا ولا عظيما هذا مما لا يحتمله اللفظ بوجه، وإنما معناها في نفس من نسبت إليه فهو المتعالي المتقدس، فكذلك تبارك لا يصح أن يكون معناها بارك في غيره، وأين أحدهما من الآخر لفظا ومعنى؟ هذا لازم وهذا متعد، فعلمت أن من فسر تبارك بمعنى ألقى البركة وبارك في غيره لم يصب معناها، وإن كان هذا من لوازم كونه متباركا، فتبارك من باب مجد، والمجد كثرة صفات الجلال والسعة والفضل، وبارك من باب أعطى وأنعم؛ ولما كان المتعدي في ذلك يستلزم اللازم من غير عكس فسر من فسر من السلف اللفظة بالمتعدي لينتظم المعنيين فقال: مجيء البركة كلها من عنده، أو البركة كلها من قبله، وهذا فرع على تبارك في نفسه»[1].

قال السعدي: «هذا بيان لعظمته الكاملة، وتفرده [بالوحدانية] من كل وجه، وكثرة خيراته وإحسانه فقال: ﴿تَبَارَكَ﴾ أي: تعاظم، وكملت أوصافه، وكثرت خيراته، الذي من أعظم خيراته ونعمه أن نزل هذا القرآن الفارق بين الحلال والحرام والهدى والضلال وأهل السعادة من أهل الشقاوة، ﴿عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ محمد ﷺ، الذي كمل مراتب العبودية وفاق جميع المرسلين، ﴿لِيَكُونَ﴾ ذلك الإنزال للفرقان على عبده ﴿لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ ينذرهم بأس الله ونقمه ويبين لهم مواقع رضا الله من سخطه، حتى إن من قبل نذارته وعمل بها كان من الناجين في الدنيا والآخرة الذين حصلت لهم السعادة الأبدية والملك السرمدي، فهل فوق هذه النعمة وهذا الفضل والإحسان شيء؟ فتبارك الذي هذا من بعض إحسانه

(١) بدائع الفوائد (٢/ ١٨٥-١٨٦).

وبركاته»[١] .

وفي الآية من الفوائد :

إثبات علو الله على خلقه .

إثبات نبوة محمد ﷺ ورسالته .

الرد على من أنكر رسالته ﷺ .

الدلالة على أن الجن مكلفون ، وتتضمن الدلالة على أنهم يثابون على الحسنات ويجازون على السيئات .

أن من بلغه القرآن فقد قامت عليه الحجة لقوله : ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾[٢] .

الرد على الذين رفعوه ﷺ فوق منزلته .

الرد على من زعم أن كلام الله وكلام رسوله لايفيد اليقين . فلو كان الأمر كما زعم المبتدعة لم يقم بالقرآن حجة على المكلفين .

الحكمة من إرسال الرسل وإنزال الكتب .

كمال غناه وقيامه بنفسه وحاجة الخلائق إليه .

أن القرآن منزل غير مخلوق .

لطف الله بخلقه حيث أرسل إليهم رسلا مبشرين ومنذرين .

فيها دليل على عظمة وكمال صفاته .

فيها دليل على كثرة خيرات الله ونعمه ، ومن أعظمها إنزال القرآن الكريم .

أن القرآن نزل منجما مفرقا .

اعتناء الله بكتابه القرآن ورسوله محمد ﷺ .

الرد على من أنكر الجن»[٣] .

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٣/ ٣٩٦) .

(٢) الأنعام : الآية (١٩) .

(٣) الأسئلة والأجوبة الأصولية لعبد العزيز المحمد السلمان ص (١٧٦-١٨٠) .

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان عموم رسالته ﷺ إلى الثقلين

* عن جابر بن عبد اللَّه ﷺ أن النبي ﷺ قال: «أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجدا وطهورا، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل، وأحلت لي المغانم ولم تحل لأحد قبلي، وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة»(١).

★ **فوائد الحديث:**

تقدم الكلام على غريبه وفوائده عند قوله تعالى من سورة الأعراف: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾(٢) الآية وباللَّه التوفيق.

* * *

---

(١) أخرجه: أحمد (٣/ ٣٠٤)، والبخاري (١/ ٥٧٤/ ٣٣٥) واللفظ له، ومسلم (١/ ٣٧٠-٣٧١/ ٥٢١)، والنسائي (١/ ٢٢٩-٢٣١/ ٤٣٠).

(٢) الأعراف: الآية (١٥٨).

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ۝٢﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يعني بقوله: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الذي له سلطان السماوات والأرض ينفذ في جميعها أمره وقضاءه، ويمضي في كلها أحكامه، يقول: فحقّ على من كان كذلك أن يطيعه أهل مملكته، ومن في سلطانه، ولا يعصوه، يقول: فلا تعصوا نذيري إليكم أيها الناس، واتبعوه، واعملوا بما جاءكم به من الحق ﴿وَلَمْ يَتَّخِذْ﴾ يقول: تكذيبا لمن أضاف إليه الولد، وقال: الملائكة بنات اللَّه، ما اتخذ الذي نزل الفرقان على عبده ﴿وَلَدًا﴾، فمن أضاف إليه ولدا فقد كذب وافترى على ربه ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾ يقول تكذيبا لمن كان يضيف الألوهة إلى الأصنام ويعبدها من دون اللَّه من مشركي العرب، ويقول في تلبيته: لبيك لا شريك لك، إلا شريكا هو لك تملكه وما ملك، كذب قائلو هذا القول، ما كان لله من شريك في مُلكه وسلطانه، فيصلح أن يعبد من دونه. يقول -تعالى ذكره-: فأفردوا أيها الناس لربكم الذي نزل الفرقان على عبده محمد نبيه ﷺ الألوهة، وأخلصوا له العبادة دون كلّ ما تعبدونه من دونه من الآلهة والأصنام والملائكة والجنّ والإنس، فإن كلّ ذلك خلقه وفي ملكه، فلا تصلح العبادة إلا لله الذي هو مالك جميع ذلك، وقوله: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ يقول -تعالى ذكره-: وخلق الذي نزل على محمد الفرقان كل شيء، فالأشياء كلها خلقه وملكه، وعلى المماليك طاعة مالكهم، وخدمة سيدهم دون غيره. يقول: وأنا خالقكم ومالككم، فأخلصوا لي العبادة دون غيري، وقوله: ﴿فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ يقول: فسوّى كل ما خلق، وهيأه لما يصلح له، فلا خلل فيه ولا تفاوت»[1].

قال الشنقيطي: وقد أثنى -جل وعلا- على نفسه في هذه الآية الكريمة بخمسة

(١) جامع البيان (١٨/ ١٨٠).

أمور، هي أدلة قاطعة على عظمته، واستحقاقه وحده لإخلاص العبادة له:

الأول منها: أنه هو الذي له ملك السموات والأرض.

والثاني: أنه لم يتخذ ولدًا، ﷻ عن ذلك علوًّا كبيرًا.

والثالث: أنه لا شريك له في ملكه.

والرابع: أنه هو خالق كل شيء.

والخامس: أنه قدر كل شيء خلقه تقديرًا، وهذه الأمور الخمسة المذكورة في هذه الآية الكريمة جاءت موضحة في آيات أخر.

أما الأول منها: وهو أنه له ملك السموات والأرض، فقد جاء موضحًا في آيات كثيرة كقوله تعالى في سورة المائدة: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾(١) الآية. وقوله تعالى في سورة النور: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾(٢) وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾(٣) الآية.

وجميع الآيات التي ذكر فيها -جل وعلا- أن له الملك، فالملك فيها شامل لملك السموات والأرض، وما بينهما وغير ذلك. كقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ﴾(٤) الآية، وقوله تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾(٥) الآية، وقوله تعالى: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾(٦) وقوله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ﴾(٧) الآية. وقوله تعالى: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾(٨)، والآيات الدالة على أن له ملك كل شيء كثيرة جدًا معلومة.

وأما الأمر الثاني: وهو كونه تعالى لم يتخذ ولدًا، فقد جاء موضحًا في آيات كثيرة، كقوله تعالى: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝﴾(٩)، وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ۝﴾(١٠)، وقوله

(١) المائدة: الآية (٤٠).
(٢) النور: الآية (٤٢).
(٣) فاطر: الآية (١٣).
(٤) آل عمران: الآية (٢٦).
(٥) الملك: الآية (١).
(٦) غافر: الآية (١٦).
(٧) الأنعام: الآية (٧٣).
(٨) الفاتحة: الآية (٤).
(٩) الإخلاص: الآيتان (٣و٤).
(١٠) الجن: الآية (٣).

تعالى: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٞ وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٞۖ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا ۝٨٨ لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا ۝٨٩ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا ۝٩٠ أَن دَعَوۡاْ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٗا ۝٩١ وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ۝٩٢ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا ۝٩٣﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗا ۝٤ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٖ وَلَا لِأٓبَآئِهِمۡۚ كَبُرَتۡ كَلِمَةٗ تَخۡرُجُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبٗا ۝٥﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿أَفَأَصۡفَىٰكُمۡ رَبُّكُم بِٱلۡبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًاۚ إِنَّكُمۡ لَتَقُولُونَ قَوۡلًا عَظِيمٗا ۝٤٠﴾[4]، وقوله تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٖ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنۡ إِلَٰهٍۚ﴾ إلى قوله: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾[5]، والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة..

وأما الأمر الثالث: وهو كونه تعالى لم يكن له شريك في الملك، فقد جاء موضحًا في غير هذا الموضع، كقوله تعالى في آخر سورة بني إسرائيل ﴿وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ فِي ٱلۡمُلۡكِ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلِيّٞ مِّنَ ٱلذُّلِّۖ وَكَبِّرۡهُ تَكۡبِيرَۢا ۝١١١﴾[6] الآية، وقوله تعالى في سورة سبأ: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا لَهُمۡ فِيهِمَا مِن شِرۡكٖ وَمَا لَهُۥ مِنۡهُم مِّن ظَهِيرٖ ۝٢٢﴾[7]، وقوله تعالى: ﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ﴾[8]؛ لأن قوله: الواحد القهار يدل على تفرده بالملك، والقهر، واستحقاق إخلاص العبادة، كما لا يخفى. إلى غير ذلك من الآيات.

وأما الأمر الرابع: وهو أنه تعالى خلق كل شيء، فقد جاء موضحًا في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٞ وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٞۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ۝١٠١ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ فَٱعۡبُدُوهُۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ﴾[9]، وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ۝٦٢ كَذَٰلِكَ يُؤۡفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ﴾[10] إلى

---

(١) الأنعام: الآية (١٠١).
(٢) مريم: الآيات (٨٨-٩٣).
(٣) الكهف: الآيتان (٤و٥).
(٤) الإسراء: الآية (٤٠).
(٥) المؤمنون: الآية (٩١).
(٦) الإسراء: الآية (١١١).
(٧) سبأ: الآية (٢٢).
(٨) غافر: الآية (١٦).
(٩) الأنعام: الآيتان (١٠١و١٠٢).
(١٠) غافر: الآيتان (٦٢و٦٣).

غير ذلك من الآيات.

وأما الأمر الخامس: وهو أنه قدَّر كل شيء خلقه تقديرًا، فقد جاء أيضًا في غير هذا الموضع كقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ۝٤٩﴾[3] إلى غير ذلك من الآيات»[4].

قال ابن عطية: «وتقدير الأشياء هو حدها بالأمكنة، والأزمان، والمقادير، والمصلحة، والإتقان»[5].

قال السعدي: «﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: له التصرف فيهما وحده، وجميع من فيهما مماليك وعبيد له مذعنون لعظمته خاضعون لربوبيته، فقراء إلى رحمته الذي ﴿لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾ وكيف يكون له ولد أو شريك وهو المالك وغيره مملوك، وهو القاهر وغيره مقهور، وهو الغني بذاته من جميع الوجوه، والمخلوقون مفتقرون إليه فقرا ذاتيا من جميع الوجوه؟.

وكيف يكون له شريك في الملك ونواصي العباد كلهم بيديه، فلا يتحركون أو يسكنون ولا يتصرفون إلا بإذنه، فتعالى اللّه عن ذلك علوا كبيرا، فلم يقدره حق قدره من قال فيه ذلك، ولهذا قال: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ شمل العالم العلوي والعالم السفلي من حيواناته ونباتاته وجماداته، ﴿فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ أي: أعطى كل مخلوق منها ما يليق به ويناسبه من الخلق وما تقتضيه حكمته من ذلك، بحيث صار كل مخلوق لا يتصور العقل الصحيح أن يكون بخلاف شكله وصورته المشاهدة؛ بل كل جزء وعضو من المخلوق الواحد لا يناسبه غير محله الذي هو فيه. قال تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣﴾[6] وقال تعالى: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾[7]»[8].

* * *

(١) الأعلى: الآيتان (٢و٣).
(٢) الرعد: الآية (٨).
(٣) القمر: الآية (٤٩).
(٤) أضواء البيان (٦/ ٢٦٥-٢٦٧).
(٥) المحرر الوجيز (٤/ ١٩٩).
(٦) الأعلى: الآيات (١-٣).
(٧) طه: الآية (٥٠).
(٨) تيسير الكريم الرحمن (٣/ ٣٩٦-٣٩٧).

قوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾﴾

★ غريب الآية:

نشورا: النشور: مصدر نُشر الميت نشورا، وهو أن يُبعث ويحيا بعد الموت.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- مقرعا مشركي العرب بعبادتهم ما دونه من الآلهة، ومعجبا أولي النهى منهم، ومنبههم على موضع خطأ فعلهم وذهابهم عن منهج الحقّ، وركوبهم من سبل الضلالة ما لا يركبه إلا كل مدخول الرأي، مسلوب العقل: واتخذ هؤلاء المشركون بالله من دون الذي له مُلك السماوات والأرض وحده من غير شريك، الذي خلق كل شيء فقدّره. آلهة: يعني أصناما بأيديهم يعبدونها، لا تخلق شيئًا وهي تخلق، ولا تملك لأنفسها نفعا تجرّه إليها، ولا ضرّا تدفعه عنها ممن أرادها بضرّ، ولا تملك إماتة حيّ، ولا إحياء ميت، ولا نشره من بعد مماته، وتركوا عبادة خالق كلّ شيء، وخالق آلهتهم، ومالك الضرّ والنفع، والذي بيده الموت والحياة والنشور»[1].

قال ابن كثير: «يخبر تعالى عن جهل المشركين في اتخاذهم آلهة من دون الله، الخالق لكل شيء، المالك لأزمَّة الأمور، الذي ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن. ومع هذا عَبَدُوا معه من الأصنام ما لا يقدر على خلق جناح بعوضة، بل هم مخلوقون، ولا يملكون لأنفسهم ضرّا ولا نفعًا، فكيف يملكون لعابديهم؟ ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا﴾ أي: ليس لهم من ذلك شيء، بل ذلك مرجعه كله إلى الله ﷻ، الذي هو يحيي ويميت، وهو الذي يعيد الخلائق يوم القيامة أولهم وآخرهم، ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾[2]، كقوله: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا

---

(١) جامع البيان (١٨/ ١٨١).

(٢) لقمان: الآية (٢٨).

وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِٱلْبَصَرِ﴾(١)، وقوله: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾(٢)، ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴿١٩﴾﴾(٣)، ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾(٤). فهو اللَّه الذي لا إله غيره ولا رب سواه، ولا تنبغي العبادة إلا له؛ لأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن. وهو الذي لا ولد له ولا والد، ولا عديل ولا بديل ولا وزير ولا نظير، بل هو الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوا أحد»(٥).

قال الشنقيطي: «ذكر -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة أن الآلهة التي يعبدها المشركون من دونه، متصفة بستة أشياء كل واحد منها برهان قاطع، أن عبادتها مع اللَّه، لا وجه لها بحال، بل هي ظلم متناه، وجهل عظيم، وشرك يخلد به صاحبه في نار جهنم، وهذا بعد أن أثنى على نفسه -جل وعلا- بالأمور الخمسة المذكورة في الآية التي قبلها التي هي براهين قاطعة، على أن المتصف بها هو المعبود وحده، والأمور الستة التي هي من صفات المعبودات من دون الله:

الأول منها: أنها لا تخلق شيئًا، أي لا تقدر على خلق شيء.

والثاني منها: أنها مخلوقة كلها، أي خلقها خالق كل شيء.

والثالث: أنها لا تملك لأنفسها ضرًا ولا نفعًا.

الرابع والخامس والسادس: أنها لا تملك موتًا، ولا حياة، ولا نشورًا، أي بعثًا بعد الموت، وهذه الأمور الستة المذكورة في هذه الآية الكريمة، جاءت مبينة في مواضع أخر من كتاب اللَّه تعالى.

أما الأول منها: وهو كون الآلهة المعبودة من دون اللَّه لا تخلق شيئًا، فقد جاء مبينًا في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ﴾(٦) الآية. وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾﴾(٧) وقوله تعالى في

(١) القمر: الآية (٥٠).
(٢) النازعات: الآيتان (١٣و١٤).
(٣) الصافات: الآية (١٩).
(٤) يس: الآية (٥٣).
(٥) تفسير القرآن العظيم (٥/ ١٣٥).
(٦) الحج: الآية (٧٣).
(٧) النحل: الآيتان (٢٠-٢١).

سورة فاطر ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾(١) وقوله تعالى في سورة لقمان: ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾(٢) وقوله تعالى في الأحقاف: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ۖ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤﴾﴾(٣). وقوله تعالى: ﴿۞ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾﴾(٤) وقد بين تعالى في آيات من كتابه الفرق بين من يخلق، ومن لا يخلق؛ لأن من يخلق هو المعبود، ومن لا يخلق لا تصح عبادته، كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾(٥) الآية. أي وأما من لم يخلقكم فليس برب ولا بمعبود لكم كما لا يخفى. وقوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾﴾(٦) وقوله تعالى: ﴿أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ﴾(٧) أي ومن كان كذلك، فهو المعبود وحده -جل وعلا- وقوله تعالى: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾﴾(٨)

وأما الأمر الثاني منها: وهو كون الآلهة المعبودة من دونه مخلوقة، فقد جاء مبينًا في آيات من كتاب اللَّه كآية النحل والأعراف، المذكورتين آنفًا.

أما آية النحل فهي قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ﴾(٩) فقوله: وهم يخلقون صريح في ذلك. وأما آية الأعراف فهي قوله تعالى: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾﴾ إلى غير ذلك من الآيات.

وأما الأمر الثالث منها: وهو كونهم لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًا، فقد جاء مبينًا أيضًا في مواضع من كتاب اللَّه، كقوله تعالى: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾(١٠). وكقوله تعالى: ﴿أَيُشْرِكُونَ

---

(١) فاطر: الآية (٤٠).
(٢) لقمان: الآية (١١).
(٣) الأحقاف: الآية (٤).
(٤) الكهف: الآية (٥١).
(٥) البقرة: الآية (٢١).
(٦) النحل: الآية (١٧).
(٧) الرعد: الآية (١٦).
(٨) الأعراف: الآية (١٩١).
(٩) النحل: الآية (٢٠).
(١٠) الرعد: الآية (١٦).

مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾﴾[1] ومن لا ينصر نفسه فهو لا يملك لها ضرًا ولا نفعًا. وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾﴾[2] وقوله تعالى: ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾[3] الآية. وفيها الدلالة الواضحة على أنهم لا يملكون لأنفسهم شيئًا، وقوله تعالى: ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ﴾[4] الآية إلى غير ذلك من الآيات.

وأما الرابع والخامس والسادس من الأمور المذكورة: أعني كونهم لا يملكون موتًا، ولا حياة، ولا نشورًا. فقد جاءت أيضًا مبينة في آيات من كتاب اللّه كقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[5]. فقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، يدل دلالة واضحة على أن شركاءهم ليس واحد منهم يقدر أن يفعل شيئًا من ذلك المذكور في الآية، ومنه الحياة المعبر عنها بخلقكم، والموت المعبر عنه بقوله: ثم يميتكم، والنشور المعبر عنه بقوله: ثم يحييكم، وبين أنهم لا يملكون نشورًا بقوله: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓا۟ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾﴾[6]، وبين أنهم لا يملكون حياة ولا نشورا في قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾﴾[7] الآية، وبين أنه وحده الذي بيده الموت والحياة في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا﴾[8] وقوله تعالى: ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا﴾[9] الآية، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[10] الآية، وقوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا

(١) الأعراف: الآيتان (١٩١و١٩٢).
(٢) الأعراف: الآية (١٩٧).
(٣) الأعراف: الآيات (١٩٣-١٩٥).
(٤) الحج: الآية (٧٣).
(٥) الروم: الآية (٤٠).
(٦) الأنبياء: الآية (٢١).
(٧) يونس: الآية (٣٤).
(٨) آل عمران: الآية (١٤٥).
(٩) المنافقون: الآية (١١).
(١٠) نوح: الآية (٤).

فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾[١] الآية، وقوله تعالى: ﴿قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ﴾[٢] الآية، إلى غير ذلك من الآيات. وهذا الذي ذكرنا من بيان هذه الآيات بعضها لبعض معلوم بالضرورة من الدين»[٣].

قال الرازي: احتج بعض أصحابنا بقوله: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ على أن فعل العبد مخلوق لله تعالى، فقال: إن الله تعالى عاب هؤلاء الكفار من حيث عبدوا ما لا يخلق شيئًا، وذلك يدل على أن من خلق يستحق أن يعبد، فلو كان العبد خالقًا لكان معبودًا إلهًا. . لأنه تعالى ذكر النشور، ومعناه: أن المعبود يجب أن يكون قادرًا على إيصال الثواب إلى المطيعين والعقاب إلى العصاة، فمن لا يكون كذلك وجب أن لا يصلح للإلهية»[٤].

قال عبد الرحمن السعدي: «ولما بين كماله وعظمته وكثرة إحسانه كان ذلك مقتضيا لأن يكون وحده المحبوب المألوه المعظم المفرد بالإخلاص وحده لا شريك له ناسب أن يذكر بطلان عبادة ما سواه فقال: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾﴾.

أي: من أعجب العجائب، وأدل الدليل على سفههم ونقص عقولهم؛ بل أدل على ظلمهم، وجراءتهم على ربهم أن اتخذوا آلهة بهذه الصفة، في كمال العجز أنها لا تقدر على خلق شيء؛ بل هم مخلوقون؛ بل بعضهم مما عملته أيديهم. ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ أي: لا قليلا ولا كثيرا؛ لأنه نكرة في سياق النفي.

﴿وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا﴾ أي: بعثا بعد الموت، فأعظم أحكام العقل بطلان إلهيتها، وفسادها، وفساد عقل من اتخذها آلهة وشركاء للخالق لسائر المخلوقات من غير مشاركة له في ذلك، الذي بيده النفع والضر، والعطاء والمنع، الذي يحيي ويميت، ويبعث من في القبور ويجمعهم ليوم النشور، وقد جعل لهم دارين دار الشقاء والخزي والنكال لمن اتخذ معه آلهة أخرى، ودار الفوز والسعادة والنعيم المقيم لمن اتخذه وحده معبودا»[٥].

---

(١) البقرة: الآية (٢٤).
(٢) غافر: الآية (١١).
(٣) الأضواء (٦/ ٢٦٨-٢٧١).
(٤) التفسير الكبير (٢٤/ ٤٩-٥٠).
(٥) تيسير الكريم الرحمن (٣/ ٣٩٧-٣٩٨).

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾﴾

★ **غريب الآية:**

إفك: الإفك: الكذب. وحقيقته: كل مصروف عن وجهه الذي يحق أن يكون عليه.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: وقال هؤلاء الكافرون بالله، الذين اتخذوا من دونه آلهة: ما هذا القرآن الذي جاءنا به محمد ﴿إِلَّا إِفْكٌ﴾ يعني: إلا كذب وبهتان ﴿افْتَرَاهُ﴾ اختلقه وتخرّصه بقوله: ﴿وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ﴾ ذكر أنهم كانوا يقولون: إنما يعلِّم محمدا هذا الذي يجيئنا به اليهود، فذلك قوله: ﴿وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ﴾ يقول: وأعان محمدا على هذا الإفك الذي افتراه يهود..

وقوله: ﴿فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا﴾ فقد أتى قائلو هذه المقالة، يعني الذين قالوا: ﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ﴾ ظلما، يعني بالظلم: نسبتهم كلام الله وتنزيله إلى أنه إفك افتراه محمد ﷺ. وقد بيَّنا فيما مضى أن معنى الظلم: وضع الشيء في غير موضعه، فكأن ظلم قائلي هذه المقالة القرآن بقيلهم هذا وصفهم إياه بغير صفته، والزور: أصله تحسين الباطل. فتأويل الكلام: فقد أتى هؤلاء، القوم في قيلهم ﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ﴾ كذبًا محضًا»(١).

قال الشنقيطي: وما ذكره -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة من أن الكفار كذبوه وادعوا عليه أن القرآن كذب اختلقه، وأنه أعانه على ذلك قوم آخرون جاء مبينًا في آيات أخر كقوله تعالى: ﴿وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَٰذَا سَاحِرٌ

---

(١) جامع البيان (١٨/ ١٨١-١٨٢).

كَذَّابٌ ﴿٤﴾﴾[(١)] وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾﴾[(٢)] وقوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴿٥﴾﴾[(٣)] وقوله تعالى: ﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ﴾[(٤)] الآية. والآيات في ذلك كثيرة معلومة.

وما ذكره -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة من أنهم افتروا على النبي ﷺ، أنه أعانه على افتراء القرآن قوم آخرون جاء أيضًا موضحًا في آيات أخر كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾[(٥)] وقوله تعالى: ﴿فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾﴾[(٦)] أي: يرويه محمد ﷺ عن غيره إن هذا إلا قول البشر، وقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾﴾[(٧)] كما تقدم إيضاحه في الأنعام، وقد كذبهم الله -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة فيما افتروا عليه من البهتان بقوله: ﴿فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا﴾»[(٨)].

قال ابن كثير: «وهذا الكلام -لسخافته وكذبه وبهْته منهم- كُلّ أحد يعلم بطلانه، فإنه قد عُلم بالتواتر وبالضرورة: أن محمدًا رسول الله لم يكن يعاني شيئًا من الكتابة، لا في أول عمره ولا في آخره، وقد نشأ بين أظهرهم من أول مولده إلى أن بعثه الله نحوا من أربعين سنة، وهم يعرفون مدخله ومخرجه، وصدقه، وبره وأمانته ونزاهته من الكذب والفجور وسائر الأخلاق الرذيلة، حتى إنهم لم يكونوا يسمونه في صغره إلى أن بُعِث إلا الأمين، لما يعلمون من صدقه وبره. فلما أكرمه الله بما أكرمه به، نصبوا له العداوة، وَرَموه بهذه الأقوال التي يعلم كل عاقل براءته منها، وحاروا فيما يقذفونه به، فتارة من إفكهم يقولون: ساحر، وتارة يقولون: شاعر، وتارة يقولون: مجنون، وتارة يقولون: كذاب، وقال الله تعالى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾﴾[(٩)]»[(١٠)].

---

(١) ص: الآية (٤).
(٢) النحل: الآية (١٠١).
(٣) ق: الآية (٥).
(٤) الأنعام: الآية (٦٦).
(٥) النحل: الآية (١٠٣).
(٦) المدثر: الآية (٢٤).
(٧) الأنعام: الآية (١٠٥).
(٨) أضواء البيان (٦/ ٢٧٤-٢٧٥).
(٩) الإسراء: الآية (٤٨).
(١٠) تفسير القرآن العظيم (٥/ ١٣٥).

قال عبد الرحمن السعدي: «ولما قرر بالدليل القاطع الواضح صحة التوحيد وبطلان ضده قرر صحة الرسالة وبطلان قول من عارضها واعترضها فقال: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾﴾[1] أي: وقال الكافرون بالله الذي أوجب لهم كفرهم أن قالوا في القرآن والرسول: إن هذا القرآن كذب كذبه محمد، وإفك افتراه على الله وأعانه على ذلك قوم آخرون.

فرد الله عليهم ذلك بأن هذا مكابرة منهم وإقدام على الظلم والزور، الذي لا يمكن أن يدخل عقل أحد وهم أشد الناس معرفة بحالة الرسول ﷺ وكمال صدقه، وأمانته، وبره التام، وأنه لا يمكنه لا هو ولا سائر الخلق أن يأتوا بهذا القرآن الذي هو أجل الكلام وأعلاه، وأنه لم يجتمع بأحد يعينه على ذلك فقد جاءوا بهذا القول ظلما وزورا»[2].

* * *

(١) الفرقان: الآيات (٤-٦).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٣/ ٣٩٨).

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ۝٥﴾

★ **غريب الآية:**

بكرة: البكرة: هي أول النهار.

أصيلًا: أي: عشية.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «فتأويل الكلام: وقال هؤلاء المشركون بالله، الذين قالوا لهذا القرآن ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٌ ٱفۡتَرَىٰهُ﴾ محمد ﷺ: هذا الذي جاءنا به محمد أساطير الأوّلين، يعنون أحاديثهم التي كانوا يسطرونها في كتبهم، اكتتبها محمد ﷺ من يهود، ﴿فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ﴾ يعنون بقوله: ﴿فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ﴾ فهذه الأساطير تقرأ عليه»[1].

قال ابن ناصر السعدي: «ومن جملة أقاويلهم فيه، أن قالوا: هذا الذي جاء به محمد ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا﴾ وهذا القول منهم فيه عدة عظائم:

منها: رميهم الرسول الذي هو أبر الناس وأصدقهم بالكذب والجرأة العظيمة.

ومنها: إخبارهم عن هذا القرآن الذي هو أصدق الكلام وأعظمه وأجله بأنه كذب وافتراء.

ومنها: أن في ضمن ذلك أنهم قادرون أن يأتوا بمثله وأن يضاهي المخلوق الناقص من كل وجه للخالق الكامل من كل وجه بصفة من صفاته، وهي الكلام.

ومنها: أن الرسول قد علمت حالته وهم أشد الناس علما بها، أنه لا يكتب ولا يجتمع بمن يكتب له وهم قد زعموا ذلك»[2].

---

(١) جامع البيان (١٨/ ١٨٣).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٤٥٩).

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: وقوله: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يقول -تعالى ذكره-: قل يا محمد لهؤلاء المكذّبين بآيات اللّه من مشركي قومك: ما الأمر كما تقولون من أن هذا القرآن أساطير الأولين، وأن محمداً ﷺ افتراه وأعانه عليه قوم آخرون؛ بل هو الحقّ، أنزله الربّ الذي يعلم سرّ من في السماوات ومن في الأرض، ولا يخفى عليه شيء، ومحصي ذلك على خلقه، ومجازيهم بما عزمت عليه قلوبهم، وأضمروه في نفوسهم»[١].

قال ابن كثير: «وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ دعاء لهم إلى التوبة والإنابة، وإخبار بأن رحمته واسعة، وأن حلمه عظيم، مع أن من تاب إليه تاب عليه. فهؤلاء مع كذبهم وافترائهم وفجورهم وبهتهم وكفرهم وعنادهم، وقولهم عن الرسول والقرآن ما قالوا، يدعوهم إلى التوبة والإقلاع عما هم فيه إلى الإسلام والهدى، كما قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾﴾[٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ﴿١٠﴾﴾[٣]. قال الحسن البصري: انظروا إلى هذا الكرم والجود، قتلوا أولياءه وهو يدعوهم إلى التوبة والرحمة»[٤].

---

(١) جامع البيان (١٨/ ١٨٣).

(٢) المائدة: الآيتان (٧٣و٧٤).

(٣) البروج: الآية (١٠).

(٤) تفسير القرآن العظيم (٥/ ١٣٦).

قال ابن باديس: «القرآن أعجز العرب ببلاغته، حتى عرفوا وعرف العلماء بلسانهم المرتاضين ببيانهم- أنه ليس مثله من طوق البشر. هذه هي الناحية الظاهرة في إعجاز القرآن والاستدلال به له ولمن أتى به ﷺ.

وهنالك ناحية أخرى هي أعظم وأعم: وهي ناحيته العلمية التي يذعن لها كل ذي فهم من جميع الأمم، في كل قطر وفي كل زمن.

وهذه الناحية هي التي احتج بها في هذا الموطن:

فقد استدل على أن القرآن لا يمكن أن يكون أتى به محمد من عنده، ولا يمكن أن يستعين عليه بغيره، ولا أن يكون من أوضاع الأوائل، بأنه ينطوي على أشياء من أسرار هذا الكون لا يعلمها إلا خالقه، فمن ذلك:

ما أنبأ به من أسرار الأمم الخالية، وبين من أسرار الكتب الماضية.

وما أنبأ من أحداث مستقبلة، وما ذكر من حقائق كونية، كانت لذلك العهد عند جميع البشر مجهولة؛ كالزوجية في كل شيء، وسبح الكواكب في الفضاء، وسير الشمس إلى مستقر مجهول معين عند اللَّه لها.

وغير ذلك من أسرار العمران والاجتماع، وما تصلح عليه حياة الإنسان، مما تتوالى على تصديقه تجارب العلماء إلى اليوم وإلى ما بعد اليوم.

فكتاب اشتمل على كل هذه الأسرار لا يمكن أن يأتي به مخلوق.

⋆ ترغيب:

قد دعانا اللَّه إلى العلم ورغبنا فيه في غير ما آية، وأعلمنا أنه خلق لنا ما في السموات وما في الأرض جميعًا.

وأمرنا بالنظر فيما خلقه لنا وأعلمنا هنا أن هذه المخلوقات أسرار بينها القرآن واشتمل عليها.

وكان ذلك من حجته العلمية على الخلق فكان في هذا ترغيب لنا في التقصي في العلم والتعمق في البحث، لنطلع على كل ما نستطيع الاطلاع عليه من تلك الأسرار: أسرار آيات الأكوان والعمران، وآيات القرآن؛ فنزداد علما وعرفانا، ونزيد الدين حجة وبرهانا، ونجني من هذا الكون جلائل ودقائق النعم، فيعظم شكرنا للرب

الكريم المنعم. فقهنا اللّه في كتابه، ووفقنا إلى الاهتداء به، والسير على سنته»[١].

قال العلامة عبد الرحمن السعدي: «﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: أنزله من أحاط علمه بما في السماوات وما في الأرض، من الغيب والشهادة والجهر والسر كقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾﴾[٢].

ووجه إقامة الحجة عليهم أن الذي أنزله هو المحيط علمه بكل شيء، فيستحيل ويمتنع أن يقول مخلوق ويتقول عليه هذا القرآن، ويقول: هو من عند اللّه وما هو من عنده، ويستحل دماء من خالفه وأموالهم، ويزعم أن اللّه قال له ذلك، واللّه يعلم كل شيء ومع ذلك فهو يؤيده وينصره على أعدائه، ويمكنه من رقابهم وبلادهم فلا يمكن أحدا أن ينكر هذا القرآن، إلا بعد إنكار علم اللّه، وهذا لا تقول به طائفة من بني آدم سوى الفلاسفة الدهرية.

وأيضًا فإن ذكر علمه تعالى العام ينبههم: ويحضهم على تدبر القرآن، وأنهم لو تدبروا لرأوا فيه من علمه وأحكامه ما يدل دلالة قاطعة على أنه لا يكون إلا من عالم الغيب والشهادة، ومع إنكارهم للتوحيد والرسالة من لطف اللّه بهم، أنه لم يدعهم وظلمهم بل دعاهم إلى التوبة والإنابة إليه ووعدهم بالمغفرة والرحمة إن هم تابوا ورجعوا فقال: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا﴾ أي: وصفه المغفرة لأهل الجرائم والذنوب، إذا فعلوا أسباب المغفرة وهي الرجوع عن معاصيه والتوبة منها. ﴿رَّحِيمًا﴾ بهم حيث لم يعاجلهم بالعقوبة وقد فعلوا مقتضاها، وحيث قبل توبتهم بعد المعاصي، وحيث محا ما سلف من سيئاتهم، وحيث قبل حسناتهم، وحيث أعاد الراجع إليه بعد شروده والمقبل عليه بعد إعراضه إلى حالة المطيعين المنيبين إليه»[٣].

* * *

(١) تفسير ابن باديس (١٥٩-١٦١).

(٢) الشعراء: الآيات (١٩٢-١٩٤).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (٣/ ٣٩٩).

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «فتأويل الكلام: وقال المشركون ما لهذا الرسول يعنون محمدًا ﷺ، الذي يزعم أن اللَّه بعثه إلينا يأكل الطعام كما نأكل، ويمشي في أسواقنا كما نمشي ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ﴾ يقول: هلا أنزل إليه ملَك إن كان صادقا من السماء، فيكون معه منذرا للناس، مصدّقا له على ما يقول، أو يلقى إليه كنز من فضة أو ذهب، فلا يحتاج معه إلى التصرّف في طلب المعاش ﴿أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ﴾ يقول: أو يكون له بستان ﴿يَأْكُلُ مِنْهَا﴾..

وقوله: ﴿وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ يقول: وقال المشركون للمؤمنين باللَّه ورسوله: ﴿إِن تَتَّبِعُونَ﴾ أيها القوم باتباعكم محمدا ﴿إِلَّا رَجُلًا﴾ به سحر»[1].

قال ابن العربي: «وهذا إنما أوقعهم فيه عنادهم؛ لأنه لما ظهرت عليهم المعجزة، ووضحت في صدقه الدلالة لم يقنعهم ذلك، حتى سألوه آيات أخر سواها وألف آية كآية عند المكذب بها، وأوقعهم أيضًا في ذلك جهلهم حين رأوا الأكاسرة والقياصرة والملوك الجبابرة يترفعون عن الأسواق أنكروا على محمد ﷺ ذلك، واعتقدوه ملكا يتصرف بالقهر والجبر، وجهلوا أنه نبي يعمل بمقتضى النهي والأمر، وذلك أنهم كانوا يرونه في سوق عكاظ ومجنة العامة، وكان أيضًا يدخل الخلصة بمكة، فلما أمرهم ونهاهم قالوا: هذا ملك يطلب أن يتملك علينا، فما له يخالف سيرة الملوك في دخول الأسواق، وإنما كان يدخلها لحاجته، أو لتذكرة

(١) جامع البيان (١٨/ ١٨٤).

الخلق بأمر اللَّه ودعوته، ويعرض نفسه على القبائل في مجتمعهم، لعل اللَّه أن يرجع إلى الحق بهم»[١].

قال ابن عاشور: «كنّوا بأكل الطعام والمشي في الأسواق عن مماثلة أحواله لأحوال الناس تذرعًا منهم إلى إبطال كونه رسولًا لزعمهم أن الرسول عن اللَّه تكون أحواله غير مماثلة لأحوال الناس، وخصّوا أكل الطعام والمشي في الأسواق لأنهما من الأحوال المشاهدة المتكررة، ورد اللَّه عليهم قولهم هذا بقوله: ﴿وَيَمْشُونَ فِي ٱلْأَسْوَاقِ﴾[٢]. ثم انتقلوا إلى اقتراح أشياء تؤيد رسالته فقالوا: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾. وخصوا من أحوال الرسول حال النذارة لأنها التي أنبتت حقدهم عليه»[٣].

قال الشنقيطي: «فمن الآيات الدالة على قولهم مثل ما ذكر عنهم في هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾[٤] وقوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾﴾[٥]، وقوله تعالى عنهم: ﴿فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا﴾[٦] الآية وقوله تعالى: ﴿فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾﴾[٧] الآية. وقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا۟ وَتَوَلَّوا۟ ۚ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ﴾[٨] الآية. وقوله تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾[٩]»[١٠].

وقال أيضًا: «وهذه الأمور الثلاثة المذكورة في هذه الآية الكريمة التي اقترحها الكفار وطلبوها بشدة وحث، تعنتًا منهم وعنادًا، جاءت مبينة في غير هذا الموضع، فبين -جل وعلا- في سورة هود اقتراحهم، لنزول الكنز، ومجيء الملك معه، وأن ذلك العناد والتعنت قد يضيق به صدره ﷺ وذلك في قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ

---

(١) أحكام القرآن (٣/ ١٤١٤).
(٢) الفرقان: الآية (٢٠).
(٣) التحرير والتنوير (١٩/ ٣٢٧).
(٤) المؤمنون: الآيتان (٣٣و٣٤).
(٥) الإسراء: الآية (٩٤).
(٦) المؤمنون: الآية (٤٧).
(٧) القمر: الآية (٢٤).
(٨) التغابن: الآية (٦).
(٩) إبراهيم: الآية (١٠).
(١٠) أضواء البيان (٦/ ٢٧٩).

مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾ ﴾[1]، وبين -جل وعلا- في سورة بني إسرائيل اقتراحهم الجنة، وأوضح أنهم يعنون بها بستانًا من نخيل وعنب، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ ﴾[2] واقتراحهم هذا شبيه بقول فرعون في موسى: ﴿فَلَوْلَآ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾[3] تشابهت قلوبهم فشابهت أقوالهم»[4].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان أحكام السوق

مقدمة:

قال الغزالي: «أما بعد: فإن رب الأرباب ومسبب الأسباب جعل الآخرة دار الثواب والعقاب، والدنيا دار التمحل، والاضطراب، والتشمر، والاكتساب، وليس التشمر في الدنيا مقصورا على المعاد دون المعاش، بل المعاش ذريعة إلى المعاد ومعين عليه، فالدنيا مزرعة الآخرة ومدرجة إليها.. ولن ينال رتبة الاقتصاد من لم يلازم في طلب المعيشة منهج السداد، ولن ينتهض من طلب الدنيا وسيلة إلى الآخرة وذريعة ما لم يتأدب في طلبها بآداب الشريعة..

اعلم أن تحصيل علم هذا الباب واجب على كل مسلم مكتسب؛ لأن طلب العلم فريضة على كل مسلم، وإنما هو طلب العلم المحتاج إليه، والمكتسب يحتاج إلى علم الكسب، ومهما حصل علم هذا الباب وقف على مفسدات المعاملة فيتقيها وما شذ عنه من الفروع المشكلة فيقع على سبب إشكالها فيتوقف فيها إلى أن يسأل، فإنه إذا لم يعلم أسباب الفساد بعلم جملي فلا يدري متى يجب عليه التوقف والسؤال، ولو قال: لا أقدم العلم ولكني أصبر إلى أن تقع لي الواقعة فعندها أتعلم وأستفتي فيقال له: وبم تعلم وقوع الواقعة مهما لم تعلم جمل مفسدات العقود؟ فإنه يستمر في التصرفات ويظنها صحيحة مباحة فلابد له من هذا القدر من علم التجارة ليتميز له المباح عن المحظور، وموضع الإشكال عن موضع الوضوح، ولذلك

---

(١) هود: الآية (١٢).
(٢) الإسراء: الآيتان (٩٠و٩١).
(٣) الزخرف: الآية (٥٣).
(٤) أضواء البيان (٦/ ٢٨٢).

روي عن عمر رضي الله عنه أنه كان يطوف السوق ويضرب بعض التجار بالدرة ويقول: لا يبيع في سوقنا إلا من يفقه، وإلا أكل الربا شاء أم أبى»[١].

تعريف السوق:

قال ابن منظور: «والسُّوق موضع البياعات. ابن سيده: السُّوق التي يُتعامل فيها، تذكر وتؤنث... والجمع أسواق..»[٢].

قال ابن حجر: «هو اسم لكل مكان وقع فيه التبايع بين من يتعاطى البيع»[٣].

قال ابن منظور: «وسميت بها لأن التجارة تجلب إليها وتساق المبيعات نحوها»[٤].

قال النووي: «قيل سميت بذلك لقيام الناس فيها على سوقهم»[٥].

السوق شر البقاع وأبغضها إلى الله:

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**أحب البلاد إلى اللَّه مساجدها، وأبغض البلاد إلى اللَّه أسواقها**»[٦].

* عن سلمان قال: «**لا تكونن إن استطعت أول من يدخل السوق ولا آخر من يخرج منها، فإنها معركة الشيطان، وبها ينصب رايته**»[٧].

★ غريب الحديث:

معركة: موضع القتال لمعاركة الأبطال بعضهم بعضا فيها ومصارعتهم.

★ فوائد الحديثين:

قال الطيبي: «قوله: «**أحب البلاد**» لعل تسمية المساجد والأسواق بالبلاد خصوصا تلميح إلى قوله تعالى: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ﴾[٨]..

(١) إحياء علوم الدين (٢/ ٦٠-٦٤).
(٢) لسان العرب (١٠/ ١٦٧) مادة سوق.
(٣) فتح الباري (٤/ ٤٣١).
(٤) لسان العرب (١٠/ ١٦٨) مادة سوق.
(٥) شرح مسلم (٤/ ١٣٩)
(٦) رواه: مسلم (١/ ٤٦٤/ ٦٧١).
(٧) رواه: مسلم (٤/ ١٩٠٦/ ٢٤٥١).
(٨) الأعراف: الآية (٥٨).

وذلك لأن زوار المسجد ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ﴾(١) الآية، وقصاد الأسواق شياطين الجن والإنس من الغفلة الذين غلبهم الحرص والشدة، وذلك لا يزيد إلا قربا من اللَّه تعالى ومن أوليائه، وهذا لا يورث إلا دنوا من الشيطان وحزبه، اللهم إلا من يعمد إلى طلب الحلال الذي يصون به دينه وعرضه، ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾(٢) ويجوز أن يقدر مضاف، فيرجع الضمير في (مساجدها) و (أسواقها) إليه، أي أحب بقاع البلاد مساجدها واللَّه أعلم»(٣).

وسبب البغض يقول النووي: «لأنها محل الغش والخداع والربا والأيمان الكاذبة واختلاف الوعد والإعراض عن ذكر اللَّه وغير ذلك مما في معناه»(٤).

قال ابن علان: «أتى بالجملة تنبيها على أن التكاليف على هذه الأمة حسب طاقتها وقدر استطاعتها، وعلل ما ينهى عنه بقوله: «**فإنها**» أي السوق «**معركة الشيطان**» أي يريد فيها القبائح من الغش والخداع والأيمان الكاذبة، والأفعال المنكرة ويريد ذلك لأوليائه من الإنس «**وبها ينصب رايته**» والمبادرة إليها دخولا والتأخير منها خروجا فيه عناية بما هو منسوب للشيطان مبغض للرحمن، ولا ينافي ذلك الأمر بالتبكير وأنه سبب للبركة لأنه يبكر من بيته لطلب الرزق فيبدأ بالمسجد ويفتتح بالطاعة، فإذا قامت السوق أول النهار فلا يكون أول داخل إليه، فإذا جمع بين التبكير وترك المنهي عنه»(٥).

قال النووي: «فشبه السوق وفعل الشيطان بأهلها ونيله منهم بالمعركة؛ لكثرة ما يقع فيها من أنواع الباطل كالغش والخداع، والأيمان الخائنة، والعقود الفاسدة، والنجش، والبيع على بيع أخيه، والشراء على شرائه، والسوم على سومه، وبخس المكيال والميزان.

قوله: «**وبها تنصب رايته**» إشارة إلى ثبوته هناك، واجتماع أعوانه إليه للتحريش بين الناس، وحملهم على هذه المفاسد المذكورة، ونحوها، فهي موضعه وموضع أعوانه»(٦).

---

(١) النور: الآية (٣٧).
(٢) البقرة: الآية (١٧٣).
(٣) شرح الطيبي (٣/ ٩٣٠-٩٣١).
(٤) شرح النووي على مسلم (٥/ ١٤٦).
(٥) دليل الفالحين (٤/ ٦٧٩).
(٦) شرح مسلم (٦/ ١٦).

قال المناوي: «فإن قلت: كيف قرن المساجد بالأسواق؟ وكم من بقاع شر من الأسواق؟ قلت: ذهب في التقابل إلى معنى الالتهاء والاشتغال، وأن الأمر الديني يدفعه الأمر الدنيا والأسواق معدن الالتهاء عن ذكر الله وما والاه»[١].

قال العيني معلقا على تبويب البخاري «باب الصلاة في مسجد السوق» قال: «هذا باب في بيان جواز الصلاة في مسجد السوق ويروى في مساجد السوق بلفظ الجمع.. وقال الكرماني: المراد بالمساجد مواضع إيقاع الصلاة لا الأبنية الموضوعة للصلاة من المساجد، فكأنه قال: باب الصلاة في مواضع الأسواق. وقال ابن بطال: روي أن الأسواق شر البقاع، فخشي البخاري أن يوهم من رأى ذلك الحديث أنه لا تجوز الصلاة في الأسواق استدلالا به، فجاء بحديث أبي هريرة، إذ فيه إجازة الصلاة في السوق وإذا جازت الصلاة في السوق فرادى فكان أولى أن يتخذ فيه مسجد للجماعة. وقال بعضهم: موقع الترجمة الإشارة إلى أن الحديث الوارد في الأسواق شر البقاع، وأن المساجد خير البقاع، كما أخرجه البزار وغيره لا يصح إسناده، ولو صح لم يمنع وضع المسجد في السوق لأن بقعة المسجد حينئذ تكون بقعة خير.

قلت: كل منهم قد تكلف، أما الكرماني فإنه ارتكب المجاز من غير ضرورة، وأما ابن بطال فإنه من أين تحقق خشية البخاري مما ذكره حتى وضع هذا الباب؟ وأما القائل الثالث فإنه أبعد جدا؛ لأنه من أين علم أن البخاري أشار به إلى ما ذكره؟ والأوجه أن يقال: إن البخاري لما أراد أن يورد حديث أبي هريرة الذي فيه الإشارة إلى أن صلاة المصلي لا تخلو إما أن تكون في المسجد الذي بنى لها، أو في بيته هو منزله، أو السوق، وضع بابا فيه جواز الصلاة في المسجد الذي في السوق، وإنما خص هذا بالذكر من بين الثلاثة لأنه لما كان السوق موضع اللغط واشتغال الناس بالبيع والشراء والأيمان الكثيرة فيه بالحق والباطل، وربما كان يتوهم عدم جواز الصلاة فيه من هذه الجهات خصه بالذكر»[٢].

---

(١) فيض القدير (٤/ ١٥٩)

(٢) عمدة القاري (٣/ ٥٤٢-٥٤٣).

حكم دخول السوق:

* عن عطاء بن يسار قال: لقيت عبد اللَّه بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قلت: أخبرني عن صفة رسول اللَّه ﷺ في التوراة قال: أجل، واللَّه إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن: «**يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وحرزا للأميين، أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ، ولا سخاب في الأسواق، ولا يدفع بالسيئة السيئة، ولكن يعفوا ويغفر، ولن يقبضه اللَّه حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا: لا إله إلا اللَّه، ويفتح بها أعينًا عميًا وآذانًا صمًّا وقلوبًا غلفًا**»(١).

★ غريب الحديث:

حرزا: بكسر المهملة وسكون الراء، بعدها زاي أي حصنا.

للأميين: الذين هم على أصل ولادة أمهم لم يتعلموا الكتابة والحساب فهم على جبلتهم الأولى، وقيل: الأمي الذي لا يكتب.

فظ: سيء الخلق.

سخاب: السخب والصخب بمعنى الصياح.

الملة العوجاء: أي ملة العرب ووصفها بالعوج لما دخل فيها من عبادة الأصنام.

صم: من الصمم: فقدان حالة السمع.

غلف: كل شيء فيه غلاف. يقال: سيف أغلف، وقوس غلفاء، ورجل أغلف: إذا لم يكن مختونا.

★ فوائد الحديث:

قال ابن حجر: «يستفاد منه أن دخول الإمام الأعظم السوق لا يحط من مرتبته؛ لأن النفي إنما ورد في ذم السخب فيها لا عن أصل الدخول»(٢).

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ١٧٤)، والبخاري (٤/ ٤٣١/ ٢١٢٥).

(٢) فتح الباري (٤/ ٤٣١).

قال ابن العربي: «لما كثر الباطل في الأسواق، وظهرت فيها المناكر، كره علماؤنا دخولها لأرباب الفضل، والمهتدى بهم في الدين، تنزيها لهم عن البقاع التي يعصى اللَّه فيها.. وعندي أنه يدخل كل سوق للحاجة إليه ولا يأكل فيه فإن ذلك إسقاط للمروءة وهدم للحشمة ومن الأحاديث الموضوعة على رسول اللَّه ﷺ: «**الأكل في السوق دناءة**»[1] وهو حديث موضوع، لكن رويناه من غير طريق ولا أصل له في الصحة ولا وصف»[2].

قال القرطبي: «فحق على من ابتلاه اللَّه بالسوق أن يخطر بباله أنه قد دخل محل الشيطان ومحل جنوده، وأنه إن أقام هناك هلك، ومن كانت هذه حاله اقتصر منه على قدر ضرورته، وتحرز من سوء عاقبته وبليته»[3].

آداب دخول السوق:

للسوق في الإسلام آداب كثيرة، وحرمات عديدة، ينبغي أن تصان فلا تنتهك، وتحفظ فلا تخدش، ولا يستهان بها، ولنا القدوة في ذلك بنبينا محمد ﷺ، فمن سيرته نستنبط جملة من الآداب التي كان يأمر بها أو ينهى عنها أثناء دخوله إلى السوق وإشرافه عليه ومتابعته سير المعاملات فيه، فقد كان ﷺ لا يرى منكرا إلا غيره وأزاله، ولا معروفا إلا أقره ورغب في المواظبة عليه والالتزام به، مستمدا كل ذلك من توجيهات وتعليمات ربه ﷻ، قال تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾[4] وفي ما يلي جملة من هذه الآداب.

الدعاء:

* عن عمر قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**من قال في سوق: لا إله إلا اللَّه وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، بيده الخير يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير.**

---

(١) ذكره ابن الجوزي في الموضوعات (٢/ ٢٣٥)، ورواه عبد بن حميد في (المنتخب من المسند) (١/ ٤٢١/ ١٤٤٤)، والخطيب في التاريخ (٣/ ١٦٣) و(٧/ ٢٨٣)، وابن عدي في الكامل (٢/ ٨٠) و(٦/ ١٣٩)، انظر السلسلة الضعيفة الألباني (٢٤٦٥).

(٢) أحكام القرآن (٣/ ١٤١٤-١٤١٥).

(٣) الجامع لأحكام القرآن (١٣/ ١٦).

(٤) النجم: الآيتان (٣و٤).

كتب اللَّه له بها ألف ألف حسنة ومحا عنه بها ألف ألف سيئة، وبنى له بيتا في الجنة»[1].

★ فوائد الحديث:

قال العيني: «الحكمة في حصول هذا الأجر العظيم كأنه لما كان أهل السوق مشتغلين بالتجارات والمكاسب، وهم في غفلة عن ذكر ربهم، بل أكثرهم مبتلون بالأيمان الفاجرة والكذبات، وكان هذا بينهم ممن ذكر اللَّه تعالى، واشتغل بأمر الآخرة مخالفة لهم، وتعظيما لربه ﷻ، لا جرم حصل له هذا الأجر العظيم، وما ذلك على اللَّه بعزيز، ويختص برحمته من يشاء، واللَّه ذو الفضل العظيم، وباعتبار أن هذه الكلمات مشتملة على التهليل والتوحيد والثناء على اللَّه تعالى بالصفات الجميلة»[2].

قال الطيبي: «إنما خص السوق بالذكر لأنه مكان الاشتغال عن اللَّه وعن ذكره بالتجارة والبيع والشراء، فمن ذكر اللَّه تعالى فيه دخل في زمرة من قيل في حقه: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾[3]. قال الشيخ العارف[4] أبو عبد اللَّه الحكيم الترمذي: إن أهل الأسواق قد افترض العدو منهم حرصهم؛ وشحهم، فنصب كرسيه وركز رايته، وبث جنوده، ورغبهم في هذا الفاني، فصيرها عدة وسلاحا لفتنته بين مطفف في كيل، وطايش في ميزان، ومنفق السلعة بالحلف الكاذب، وحمل عليهم حمله، فهزمهم إلى المكاسب الردية، وإضاعة الصلاة، ومنع الحقوق؛ فما داموا في هذه الغفلة، فهم على خطر من نزول العذاب، فالذاكر فيما بينهم يرد غضب اللَّه، ويهزم جند الشيطان، ويتدارك بدفع ما حث عليهم من تلك الأفعال، قال اللَّه تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾[5] فيدفع بالذاكرين عن أهل الغفلة»[6].

---

(١) أخرجه: أحمد (١/ ٤٧)، والترمذي (٥/ ٤٥٨/ ٣٤٢٦)، وابن ماجه (٢/ ٧٥٢/ ٢٢٣٥)، والحاكم (١/ ٥٣٩) كلهم من طريق عمرو بن دينار قهرمان آل الزبير، وصححه من طريق مسروق بن المرزبان عن حفص بن غياث عن هشام بن حسان عن عبد اللَّه بن دينار عن ابن عمر وحسنه الشيخ الألباني أنظر السلسلة الصحيحة رقم (٣١٣٩).

(٢) العلم الهيب (ص: ٥٣٣).

(٣) النور: الآية (٣٧).

(٤) سبق التنبيه على هذه العبارة في سورة الفاتحة: الآية (٦) بما أغنى عن الإعادة.

(٥) البقرة: الآية (٢٥١).

(٦) شرح الطيبي (٦/ ١٨٩٩).

قال البنا: «وظاهر الحديث حصول الثواب لقائل هذا الذكر سرا أو جهرا، والأفضل الجهر به؛ لأنه فيه تذكير للقائلين حتى يقولوا مثل قوله، ففيه القول والنفع المتعدي»[1].

قال العيني: «فإن قلت: هل يحصل كل عبد هذا عند كل قول؟ قلت: ظاهر الحديث يدل على حصول هذا كله عند كل قول، فإن قلت: إذا فرض أن شخصا قال هذا في عمره ألف مرة مثلا أو أكثر، فإذا حصل في كل مرة ألف ألف درجة، يكون هذا عددا بالغا إلى نهاية عظيمة؟ قلت: فليكن، فحنان اللَّه أوسع من هذا، ورحمة اللَّه أعظم من هذا، أفلا سمعت أن آخر من يدخل الجنة يعطى مثل ملك الدنيا سبع مرات؟ فإذا كان العرش العظيم، الذي لم يقدر الواصفون أن يصفوه سقف الجنان، فما يكون حد الجنان؟ ولا يدرى ذلك إلا اللَّه فلا تتعجب من هذا، بل تعجب من رحمة اللَّه التي وسعت كل شيء، حيث أعطى من فضله وكرمه هذا المقدار العظيم لقائل هذا القول اليسير، الذي يمكن أن يقوله القائل في جميع الأحوال والأوقات، من غير تكلف بدن ولا مال، وما ذاك إلا كرامة لهذه الأمة، ببركة سيد الأولين والآخرين»[2].

الصدق والأمانة:

*** عن أبي سعيد عن النبي ﷺ قال: «التاجر الصدوق الأمين مع النبيين، والصديقين، والشهداء»[3].**

★ فوائد الحديث:

قال ابن العربي: «وهذا الحديث وإن لم يبلغ درجة المتفق عليه من الصحيح فإن معناه صحيح؛ لأنه جمع الصدق، والشهادة بالحق، والنصح للخلق، وامتثال الأمر المتوجه إليه من قبل الرسول ﷺ، وإن زاغ عن هذا بعث كما قال في الحديث الذي رواه وصححه عن رفاعة أنه خرج مع النبي ﷺ إلى المصلى فرأى الناس يتبايعون

(١) الفتح الرباني (١٤/ ٢٥٦).
(٢) العلم الهيب (ص: ٥٣٥).
(٣) أخرجه: الترمذي (٣/ ٥١٥/ ١٢٠٩) وقال: حديث حسن، والطبراني في المعجم الأوسط (٧/ ٢٤٣)، والحاكم (٢/ ٦)، وصححه الألباني في الصحيحة (٣٤٥٣).

فقال: يا معشر التجار فاستجابوا لرسول الله ﷺ فقال: «**إن التجار يبعثون يوم القيامة فجارًا إلا من اتقى وبر وصدق**»[(١)][(٢)].

قال الطيبي: «قوله: «**مع النبيين والصديقين**» بعد قوله: «**التاجر الصدوق الأمين**»، حكم مرتب على الوصف المناسب وهو من قوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ﴾[(٣)] وذلك أن اسم الإشارة يشعر أن ما بعده جدير بمن قبله، لاتصافه بصفة إطاعة الله ورسوله. وإنما قلنا: إن الوصف مناسب للحكم؛ لأن «**الصدوق**» بناء مبالغة من الصدق كالصديق، وإنما يستحق التاجر هذا الوصف إذا كثر تعاطيه الصدق قولا وفعلا، وهذا أخص أوصاف النبيين، وكذلك «**الأمين**» بناء مبالغة فحكمه حكم الصدوق؛ لأن الأنبياء ليسوا غير أمناء الله على عباده، فلا غرو ولا عجب لمن اتصف بهذين الوصفين أن ينخرط في زمرة النبيين والصديقين والشهداء، وقليل ما هم»[(٤)].

قال المباركفوري: «قال في اللمعات كلاهما أي الصدوق والأمين- من صيغ المبالغة تنبيه على رعاية الكمال في هذين الصفتين حتى ينال هذه الدرجة»[(٥)].

النصح والإفصاح وعدم التدليس:

* عن حكيم بن حزام رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**البيعان بالخيار ما لم يتفرقا -أو قال: حتى يتفرقا- فإن صدقا وبينا بورك لهما في بيعهما وإن كتما وكذبا محقت بركة بيعهما**»[(٦)].

★ فوائد الحديث:

قال ابن بطال: «وأصل هذه الباب أن نصيحة المسلم للمسلم واجبة، وقد كان رسول الله يأخذها في البيعة على الناس كما يأخذ عليهم الفرائض، قال جرير:

---

(١) أخرجه: أحمد (٣/ ٤٢٨)، والترمذي (٣/ ٥١٥-٥١٦/ ١٢١٠) وقال: حسن صحيح، وابن ماجه (٢/ ٧٢٦/ ٢١٤٦)، وصححه ابن حبان (١١/ ٢٧٦).

(٢) عارضة الأحوذي (٥/ ٢٠٩).

(٣) النساء: الآية (٦٩).

(٤) شرح الطيبي (٧/ ٢١١٧-٢١١٨).

(٥) تحفة الأحوذي (٤/ ٣٣٥).

(٦) أخرجه: البخاري (٤/ ٣٨٨/ ٢٠٧٩)، ومسلم (٣/ ١١٦٤/ ١٥٣٢).

«بايعت رسول اللَّه على السمع والطاعة، فشرط علي والنصح لكل مسلم»[1] وأمر المؤمنين بالتحاب والمؤاخاة في اللَّه، قال: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»[2] فحرم بهذا كله غش المؤمنين وخديعتهم»[3].

قال ابن حجر: «والغرض منه قوله: «فإن صدقا وبينا بورك لهما في بيعهما إلخ وقوله: صدقا أي من جانب البائع في السوم ومن جانب المشتري في الوفاء، وقوله: «وبينا» أي لما في الثمن والمثمن من عيب فهو من جانبيهما وكذا نقصه. وفي الحديث حصول البركة لهما إن حصل منهما الشرط وهو الصدق والتبيين، ومحقها إن وجد ضدهما وهو الكذب والكتم، وهل تحصل البركة لأحدهما إذا وجد منه المشروط دون الآخر؟ ظاهر الحديث يقتضيه، ويحتمل أن يعود شؤم أحدهما على الآخر بأن تنزع البركة من المبيع إذا وجد الكذب أو الكتم من كل واحد منهما، وإن كان الأجر ثابتا للصادق المبين، والوزر حاصل للكاذب الكاتم»[4].

قال الغزالي: «فكل ما يستضر به المعامل فهو ظلم، وإنما العدل لا يضر بأخيه المسلم، والضابط الكلي فيه: أن لا يحب لأخيه إلا ما يحب لنفسه؛ فكل ما لو عومل به شق عليه وثقل على قلبه فينبغي أن لا يعامل غيره به؛ بل ينبغي أن يستوي عنده درهمه ودرهم غيره. قال بعضهم: من باع أخاه بدرهم وليس يصلح له لو اشتراه لنفسه إلا بخمسة دوانق فإنه قد ترك النصح المأمور به في المعاملة ولم يحب لأخيه ما يحب لنفسه، . . فقد فهموا من النصح أن لا يرضى لأخيه إلا ما يرضاه لنفسه، ولم يعتقدوا أن ذلك من الفضائل وزيادة المقامات، بل اعتقدوا أنه من شروط الإسلام الداخلة تحت بيعتهم، وهذا أمر يشق على أكثر الخلق، فلذلك يختارون التخلي للعبادة والاعتزال عن الناس؛ لأن القيام بحقوق اللَّه مع المخالطة والمعاملة مجاهدة لا يقوم بها إلا الصديقون، ولن يتيسر ذلك على العبد إلا بأن

---

(١) أخرجه: أحمد (٤/ ٣٦١) مختصرا، والبخاري (٣/ ٣٤٠/ ١٤٠١)، ومسلم (١/ ٧٥/ ٥٦)، والترمذي (٤/ ٢٨٦/ ١٩٢٥)، والنسائي (٧/ ١٥٨/ ٤١٦٧) مختصرا.

(٢) أخرجه: أحمد (٣/ ١٧٦)، والبخاري (١/ ٧٨/ ١٣)، ومسلم (١/ ٦٧/ ٤٥)، والترمذي (٤/ ٥٧٥/ ٢٥١٥)، والنسائي (٨/ ٤٨٩/ ٥٠٣١)، وابن ماجه (١/ ٢٦/ ٦٦) من حديث أنس.

(٣) شرح ابن بطال (٦/ ٢١٣).

(٤) فتح الباري (٤/ ٣٩٠-٣٩١).

يعتقد أمرين:

أحدهما: أن تلبيسه العيوب وترويجه السلع لا يزيد في رزقه؛ بل يمحقه ويذهب ببركته وما يجمعه من مفرقات التلبيسات يهلكه اللَّه دفعة واحدة، فقد حكي أن واحدًا كان له بقرة يحلبها ويخلط بلبنها الماء ويبيعه فجاء سيل فغرّق البقرة فقال بعض أولاده: إن تلك المياه المتفرقة التي صببناها في اللبن اجتمعت دفعة واحدة وأخذت البقرة. كيف وقد قال ﷺ: **«البيعان إذا صدقا ونصحا بورك لهما في بيعهما، وإذا كتما وكذبا نزعت بركة بيعهما»**..

فإذًا لا يزيد مال من خيانة، كما لا ينقص من صدقة، ومن لا يعرف الزيادة والنقصان إلا بالميزان لم يصدق بهذا الحديث. ومن عرف أن الدرهم الواحد قد يبارك فيه حتى يكون سببًا لسعادة الإنسان في الدنيا والدين، والآلاف المؤلفة قد ينزع اللَّه البركة منها حتى تكون سببًا لهلاك مالكها بحيث يتمنى الإفلاس منها ويراه أصلح له في بعض الأحوال، فيعرف معنى قولنا: إن الخيانة لا تزيد في المال والصدقة لا تنقص منه.

والمعنى الثاني: الذي لا بد من اعتقاده ليتم له النصح ويتيسر عليه: أن يعلم أن ربح الآخرة وغناها خير من ربح الدنيا، وأن فوائد أموال الدنيا تنقضي بانقضاء العمر وتبقى مظالمها وأوزارها فكيف يستجيز العاقل أن يستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير، والخير كله في سلامة الدين..

والغش حرام في البيوع والصنائع جميعًا، ولا ينبغي أن يتهاون الصانع بعمله على وجه لو عامله به غيره لما ارتضاه لنفسه، بل ينبغي أن يحسن الصنعة ويحكمها، ثم يبين عيبها إن كان فيها عيب، فبذلك يتخلص. وسأل رجل حذاء بن سالم فقال: كيف لي أن أسلم في بيع النعال؟ فقال: اجعل الوجهين سواء، ولا تفضل اليمنى على الأخرى وجود الحشو، وليكن شيئًا واحدًا تامًا، وقارب بين الخرز، ولا تطبق إحدى النعلين على الأخرى ومن هذا الفن ما سئل عنه أحمد بن حنبل رحمه الله من الرفو بحيث لا يتبين، قال: لا يجوز لمن يبيعه أن يخفيه، وإنما يحل للرفا إذا علم أنه يظهره أو أنه لا يريده للبيع فإن قلت: فلا تتم المعاملة مهما وجب على الإنسان

أن يذكر عيوب المبيع، فأقول: ليس كذلك، إذ شرط التاجر أن لا يشتري للبيع إلا الجيد الذي يرتضيه لنفسه لو أمسكه ثم يقنع في بيعه بربح يسير، فيبارك اللَّه فيه، ولا يحتاج إلى تلبيس، وإنما تعذر هذا لأنهم لا يقنعون بالربح اليسير، وليس يسلم الكثير إلا بتلبيس، فمن تعود هذا لم يشتر المعيب، فإن وقع في يده معيب نادرًا فليذكره وليقنع بقيمته. باع ابن سيرين شاة فقال للمشتري: أبرأ إليك من عيب فيها إنها تقلب العلف برجلها. وباع الحسن بن صالح جارية فقال للمشتري: إنها تنخمت مرة عندنا دمًا، فهكذا كانت سيرة أهل الدين، فمن لا يقدر عليه فليترك المعاملة أو ليوطن نفسه على عذاب الآخرة»[١].

إقامة الميزان والاحتياط فيه:

* عن سويد بن قيس قال: جلبت أنا ومخرفة العبدي بزا من هجر فجاءنا رسول اللَّه ﷺ فساومنا سراويل وعندنا وزان يزن بالأجر فقال له النبي ﷺ: «يا وزان زن وأرجح»[٢].

⋆ غريب الحديث:

هجر: مدينة، وهي قاعدة البحرين، وربما قيل الهجر بالألف واللام، وقيل: ناحية البحرين كلها هجر، وهو الصواب.

ساومنا: المساومة: المجاذبة بين البائع والمشتري على السلعة وفصل ثمنها.

أرجح: من أرجح الميزان أي: أثقله حتى مال.

⋆ فوائد الحديث:

قال ابن كثير: «قد أمر اللَّه -تعالى- بالوفاء في الكيل والميزان، فقال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ۝٣٥﴾[٣] وقال: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[٤]، وقال: ﴿وَأَقِيمُوا

---

(١) إحياء علوم الدين (٢/ ٧٤-٧٧).

(٢) أخرجه: أبو داود (٣/ ٦٣١/ ٣٣٣٦)، والترمذي (٣/ ٥٩٨/ ١٣٠٥) وقال: حسن صحيح، والنسائي (٧/ ٣٢٧/ ٤٦٠٦)، وابن ماجه (٢/ ٧٤٨/ ٢٢٢٠). (٣) الإسراء: الآية (٣٥).

(٤) الأنعام: الآية (١٥٢).

﴿ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ۝٩﴾[1]. وأهلك اللَّه قوم شعيب ودمَّرهم على ما كانوا يبخسون الناس في المكيال والميزان»[2].

قال الغزالي: «ولا يخلص من هذا إلا بأن يرجح إذا أعطى، وينقص إذا أخذ، إذ العدل الحقيقي قلما يتصور، فليستظهر بظهور الزيادة والنقصان، فإن من استقصى حقه بكامله يوشك أن يتعداه وكان بعضهم يقول، لا أشتري الويل من اللَّه بحبة فكان إذا أخذ نقص نصف حبة، وإذا أعطى زاد حبة، وكان يقول: ويل لمن باع بحبة جنة عرضها السموات والأرض، وما أخسر من باع طوبى بويل وإنما بالغوا في الاحتراز من هذا وشبهه لأنها مظالم لا يمكن التوبة منها، إذ لا يعرف أصحاب الحبات حتى يجمعهم ويؤدي حقوقهم، ولذلك لما اشترى رسول اللَّه ﷺ شيئًا قال للوازن لما كان يزن ثمنه: «**زن وأرجح**»[3].

قال المناوي: «وذلك ندب منه إلى إرجاح الوزن، ومثله الكيل عند الإيفاء لا الاستيفاء لقوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ﴾ لمعنيين العدل والإحسان ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾[4] أما العدل فإنه لا تتحقق براءة ذمته إلا بأن يرجحه بعض الرجحان فيصير قليل الرجحان من طريق الورع والعدل الواجب كأن يغسل جزءا من الرأس ليتحقق استيعاب الوجه، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب. والثاني: الإحسان إلى من له الحق»[5].

كراهية رفع الصوت بالخصام واللجاج:

* عن عطاء بن يسار قال: لقيت عبد اللَّه بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، قلت: أخبرني عن صفة رسول اللَّه ﷺ في التوراة، قال: «**أجل، واللَّه إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن، ياأيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا، وحرزا للأميين، أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل؛ ليس بفظ، ولا غليظ، ولا سخاب في الأسواق، ولا يدفع بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويغفر، ولن يقبضه اللَّه حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا: لا إله إلا اللَّه، ويفتح بها أعينا عميا،**

---

(١) الرحمن: الآية (٩).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٢٣٧).
(٣) إحياء علوم الدين (٢/ ٧٧).
(٤) النحل: الآية (٩٠).
(٥) فيض القدير (٤/ ٦٥).

وآذانا صما، وقلوبا غلفا»[1].

★ غريب الحديث:

تقدم شرح غريبه «حكم دخول السوق».

★ فوائد الحديث:

قال العيني: «فالسخب مذموم في نفسه ولا سيما إذا كان في الأسواق، وهي مجمع الناس من كل جنس، ولا يسخب فيها إلا كل فاجر شرير، ولو لم يكن السخب مذموما مكروها لما قال اللّٰه تعالى في التوراة في حق سيد الخلق: «**ولا سخابا في الأسواق**» ولا كان بسخاب في غير الأسواق»[2].

قال محمد بن قاسم جسوس: ««**في الأسواق**» ليس بقيد، بل المعنى: أنه لا يصخب في الأسواق التي هي محل الخصومات، فيكون عدم صخبه في غير الأسواق من باب أحرى، أي لأنه ليس ممن ينافس في الدنيا وجمعها حتى يخاصم عليها ويرفع صوته لأجلها.. وهذا لا ينافي جهره بالقراءة حال الصلاة، ولا مبالغته في رفع الصوت حال الخطبة خلافا لما في جمع الوسائل حيث جعل قوله في الأسواق احترازًا عن رفع صوته بالقراءة والخطبة»[3].

المسامحة والاعتدال في الربح:

* عن جابر بن عبد اللّٰه رضي الله عنه أن رسول اللّٰه ﷺ قال: «**رحم اللّٰه رجلا سمحا إذا باع، وإذا اشترى، وإذا اقتضى**»[4].

★ غريب الحديث:

سمحًا: أي: سهلًا.

اقتضى: طلب قضاء حقه بسهولة وعدم إلحاف.

---

(١) البخاري (٤/ ٤٣١/ ٢١٢٥).

(٢) عمدة القاري (٨/ ٤٠٦).

(٣) الفوائد الجلية (ص: ٣٣٧).

(٤) البخاري (٤/ ٣٨٤/ ٢٠٧٦).

★ **فوائد الحديث:**

قال الحافظ: «فيه الحض على السماحة في المعاملة واستعمال معالي الأخلاق، وترك المشاحة، والحض على ترك التضييق على الناس في المطالبة، وأخذ العفو منهم»(١).

قال الغزالي: «قد أمر اللَّه تعالى بالعدل والإحسان جميعًا، والعدل سبب النجاة فقط، وهو يجري من التجارة مجرى رأس المال. والإحسان سبب الفوز ونيل السعادة، وهو يجري من التجارة مجرى الربح، ولا يعد من العقلاء من قنع في معاملات الدنيا برأس ماله، فكذا في معاملات الآخرة، فلا ينبغي للمتدين أن يقتصر على العدل واجتناب الظلم ويدع أبواب الإحسان، وقد قال الله: ﴿وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ﴾(٢) وقال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾(٣) وقال سبحانه: ﴿إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾(٤) ونعني بالإحسان: فعل ما ينتفع به المعامل وهو غير واجب عليه، ولكنه تفضل منه، فإن الواجب يدخل في باب العدل وترك الظلم وقد ذكرناه، وتنال رتبة الإحسان بواحد من ستة أمور:

الأول: في المغابنة، فينبغي أن لا يغبن صاحبه بما لا يتغابن به في العادة، فأما أصل المغابنة فمأذون فيه؛ لأن البيع للربح، ولا يمكن ذلك إلا بغبن ما، ولكن يراعي فيه التقريب، فإن بذل المشتري زيادة على الربح المعتاد إما لشدة رغبته أو لشدة حاجته في الحال إليه، فينبغي أن يمتنع من قبوله، فذلك من الإحسان. ومهما لم يكن تلبيس لم يكن أخذ الزيادة ظلمًا وقد ذهب بعض العلماء إلى أن الغبن بما يزيد على الثلث يوجب الخيار، ولسنا نرى ذلك، ولكن من الإحسان أن يحط ذلك الغبن..

الثاني: في احتمال الغبن، والمشتري إن اشترى طعامًا من ضعيف أو شيئًا من فقير فلا بأس أن يحتمل الغبن ويتساهل، ويكون به محسنًا. فأما إذا اشترى من غني تاجر يطلب الربح زيادة على حاجته، فاحتمال الغبن منه ليس محمودًا، بل هو

---

(١) فتح الباري (٤/ ٣٨٥).
(٢) القصص: الآية (٧٧).
(٣) النحل: الآية (٩٠).
(٤) الأعراف: الآية (٥٦).

تضييع مال من غير أجر ولا حمد . .

الثالث : في استيفاء الثمن وسائر الديون والإحسان فيه : مرة بالمسامحة وحط البعض، ومرة بالإمهال والتأخير، ومرة بالمساهلة في طلب جودة النقد، وكل ذلك مندوب إليه ومحثوث عليه . .

الرابع : في توفية الدين : ومن الإحسان فيه حسن القضاء، وذلك بأن يمشي إلى صاحب الحق ولا يكلفه أن يمشي إليه يتقاضاه . . ومهما قدر على قضاء الدين فليبادر إليه وليسلم أجود مما شرط عليه وأحسن وإن عجز فلينو قضاءه مهما قدر . .

الخامس : أن يقيل من يستقيله، فإنه لا يستقيل إلا متندم مستضر بالبيع، ولا ينبغي أن يرضى لنفسه أن يكون سبب استضرار أخيه . .

السادس : أن يقصد في معاملته جماعة من الفقراء بالنسيئة وهو في الحال عازم على أن لا يطالبهم إن لم تظهر لهم ميسرة، فقد كان في صالحي السلف من له دفتران للحساب : أحدهما ترجمته مجهولة، فيه أسماء من لا يعرفه من الضعفاء والفقراء، وذلك أن الفقير كان يرى الطعام أو الفاكهة فيشتهيه فيقول : أحتاج إلى خمسة أرطال مثلًا من هذا وليس معي ثمنه، فكان يقول : خذه واقض ثمنه عند الميسرة ولم يكن يعد هذا من الخيار، بل عد من الخيار من لم يكن يثبت اسمه في الدفتر أصلًا ولا يجعله دينًا، لكن يقول : خذ ما تريد، فإن يسر لك فاقض، وإلا فأنت في حل منه وسعة، فهذه طرق تجارات السلف وقد اندرست، والقائم به محي لهذه السنة، وبالجملة؛ التجارة محك الرجال، وبها يمتحن دين الرجل وورعه، ولذلك قيل :

لا يغرنك من المرء ... قميص رقعه
أو إزار فوق كعب ... الساق منه رفعه
أو جبين لاح فيه ... أثر قد قلعه
ولدى الدرهم فانظر ... غيه أو ورعه»[1]

---

(١) الإحياء (٢/ ٧٩-٨٢).

الإمساك بنصل النبل أو نحوه إذا مر بالسوق:

* عن أبي موسى عن النبي ﷺ قال: «**إذا مر أحدكم في مسجدنا أو في سوقنا- ومعه نبل فليمسك على نصالها أو قال: فليقبض بكفه- أن يصيب أحدا من المسلمين منها بشيء**»(١).

⋆ **غريب الحديث:**

نبل: السهام العربية ولا واحد لها من لفظها فلا يقال: نبلة وإنما يقال: سهم ونشابة.

نصالها: النصل حديدة الرمح والسهم والسكين.

⋆ **فوائد الحديث:**

قال الحافظ: «قوله: «**فليقبض بكفه**» أي: على النصال، وليس المراد خصوص ذلك، بل يحرص على أن لا يصيب مسلما بوجه من الوجوه كما دل عليه التعليل بقوله: «**أن يصيب أحدا من المسلمين منها بشيء**»»(٢).

قال النووي: «في هذا الأدب وهو الإمساك بنصالها عند إرادة المرور بين الناس في مسجد، أو سوق، أو غيرهما.. وفيه اجتناب كل ما يخاف منه الضرر»(٣).

* * *

(١) أخرجه: البخاري (١٣/ ٧٠٧٥/ ٢٩)، ومسلم (٤/ ٢٠١٩/ ٢٦١٥).
(٢) فتح الباري (١٣/ ٣١).
(٣) شرح مسلم (١٦/ ١٣٩).

قوله تعالى: ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلۡأَمۡثَٰلَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ سَبِيلٗا ۝٩﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن ناصر السعدي: «ولما كانت هذه الأقوال منهم عجيبة جدا قال تعالى: ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلۡأَمۡثَٰلَ﴾ وهي: أنه هلا كان ملكا وزالت عنه خصائص البشر؟ أو معه ملك لأنه غير قادر على ما قال، أو أنزل عليه كنز أو جعلت له جنة تغنيه عن المشي في الأسواق أو أنه كان مسحورا.

﴿فَضَلُّواْ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ سَبِيلٗا﴾ قالوا أقوالا متناقضة كلها جهل وضلال وسفه، ليس في شيء منها هداية بل ولا في شيء منها أدنى شبهة تقدح في الرسالة، فبمجرد النظر إليها وتصورها يجزم العاقل ببطلانها ويكفيه عن ردها، ولهذا أمر تعالى بالنظر إليها وتدبرها والنظر: هل توجب التوقف عن الجزم للرسول بالرسالة»[(١)].

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- لنبيه محمد ﷺ: انظر يا محمد إلى هؤلاء المشركين الذين شبهوا لك الأشباه بقولهم لك: هو مسحور، فضلوا بذلك عن قصد السبيل، وأخطؤوا طريق الهدى والرشاد، فلا يستطيعون يقول: فلا يجدون سبيلا إلى الحقّ، إلا فيما بعثتك به، ومن الوجه الذي ضلوا عنه»[(٢)].

قال ابن كثير: كل أحد ممن له أدنى فهم وعقل يعرف كذبهم وافتراءهم في ذلك؛ ولهذا قال: ﴿فَضَلُّواْ﴾ أي: عن طريق الهدى، ﴿فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ سَبِيلٗا﴾ وذلك أن كل من خرج عن الحق فإنه ضال حيثما توجه؛ لأن الحق واحد ومنهجه متحد، يُصَدّق بعضه بعضا»[(٣)].

قال الرازي: «وبيانه أن الذي يتميز الرسول به عن غيره هو المعجزة. وهذه

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٤٦٢).

(٢) جامع البيان (١٨/ ١٨٤).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٥/ ١٣٧).

الأشياء التي ذكروها لا يقدح شيء منها في المعجزة، فلا يكون شيء منها قادحًا في النبوة، فكأنه تعالى قال: انظر كيف اشتغل القوم بضرب هذه الأمثال التي لا فائدة فيها لأجل أنهم لما ضلوا وأرادوا القدح في نبوتك لم يجدوا إلى القدح فيه سبيلًا ألبتة؛ إذ الطعن عليه إنما يكون بما يقدح في المعجزات التي ادعاها لا بهذا الجنس من القول، وفيه وجه آخر وهو أنهم لما ضلوا لم يبق فيهم استطاعة قبول الحق، وهذا إنما يصح على مذهبنا وتقريره بالعقل ظاهر، وذلك لأن الإنسان إما أن يكون مستوى الداعي إلى الحق والباطل، وإما أن يكون داعيته إلى أحدهما أرجح من داعيته إلى الثاني، فإن كان الأول فحال الاستواء ممتنع الرجحان فيمتنع الفعل، وإن كان الثاني فحال رجحان أحد الطرفين يكون حصول الطرف الآخر ممتنعًا، فثبت أن حال رجحان الضلالة في قلبه استحال منه قبول الحق، وما كان محالًا لم يكن عليه قدرة، فثبت أنهم لما ضلوا ما كانوا مستطيعين»[1].

* * *

(١) التفسير الكبير (٢٤/ ٥٣-٥٤).

قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ١٠﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: يقول -تعالى ذكره-: تقدس الذي إن شاء جعل لك خيرا من ذلك.

واختلف أهل التأويل في المعني ب: ﴿ذَٰلِكَ﴾ التي في قوله: ﴿جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ﴾ فقال بعضهم: معنى ذلك: خيرا مما قال هؤلاء المشركون لك يا محمد: هلا أوتيته وأنت لله رسول، ثم بين -تعالى ذكره- عن الذي لو شاء جعل له من خير مما قالوا، فقال: ﴿جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾..

وقال آخرون: عني بذلك المشي في الأسواق، والتماس المعاش.

قال أبو جعفر: والقول الذي ذكرناه عن مجاهد في ذلك أشبه بتأويل الآية؛ لأن الشركين إنما استعظموا أن لا تكون له جنة يأكل منها وأن لا يلقى إليه كنز، واستنكروا أن يمشي في الأسواق وهو لله رسول، فالذي هو أولى بوعد اللّه إياه أن يكون وعدا بما هو خير ما كان عند المشركين عظيما، لا مما كان منكرا عندهم، وعني بقوله: ﴿جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ بساتين تجري في أصول أشجارها الأنهار. وقوله: ﴿وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا﴾ يعني: بالقصور البيوت المبنية»[1].

قال السعدي: «﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ﴾ أي: خيرًا مما قالوا، ثم فسره بقوله: ﴿جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا﴾ مرتفعة مزخرفة، فقدرته ومشيئته لا تقصر عن ذلك ولكنه تعالى -لما كانت الدنيا عنده في غاية البعد والحقارة- أعطى منها أولياءه ورسله ما اقتضته حكمته منها، واقتراح أعدائهم بأنهم هلا رزقوا منها رزقا كثيرا جدا ظلم وجراءة.

---

(١) جامع البيان (١٨/ ١٨٥-١٨٦).

ولما كانت تلك الأقوال التي قالوها معلومة الفساد وأخبر تعالى أنها لم تصدر منهم لطلب الحق، ولا لاتباع البرهان وإنما صدرت منهم تعنتا وظلما وتكذيبا بالحق، قالوا ما في قلوبهم من ذلك»[١].

قال الرازي: «وإنما أدخل ﴿إِن﴾ تنبيهًا للعباد على أنه لا ينال ذلك إلا برحمته، وأنه معلق على محض مشيئته وأنه ليس لأحد من العباد على اللَّه حق لا في الدنيا ولا في الآخرة»[٢].

* * *

(١) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٤٦٣).

(٢) التفسير الكبير (٢٤/ ٥٥).

قوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾﴾

★ **غريب الآية:**

سعيرا: السعير: النار الموقدة. يقال: سعرت النار وسعرتها وأسعرتها بمعنى واحد؛ أي: أضرمتها.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: يقول -تعالى ذكره-: ما كذب هؤلاء المشركون بالله، وأنكروا ما جئتهم به يا محمد من الحق من أجل أنك تأكل الطعام، وتمشي في الأسواق، ولكن من أجل أنهم لا يوقنون بالمعاد، ولا يصدقون بالثواب والعقاب تكذيبا منهم بالقيامة، وبعث الله الأموات أحياء لحشر القيامة. ﴿وَأَعْتَدْنَا﴾ يقول: وأعددنا لمن كذب ببعث الله الأموات أحياء بعد فنائهم لقيام الساعة، نارا تسعر عليهم»[(١)].

قال السعدي: «والمكذب المتعنت الذي ليس له قصد في اتباع الحق، لا سبيل إلى هدايته ولا حيلة في مجادلته وإنما له حيلة واحدة وهي نزول العذاب به، فلهذا قال: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾ أي: نارا عظيمة قد اشتد سعيرها، وتغيظت على أهلها واشتد زفيرها»[(٢)].

قال الشنقيطي: وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾ يدل على أن التكذيب بالساعة كفر مستوجب لنار جهنم، . . وهذان الأمران المذكوران في هذه الآية الكريمة، وهما تكذيبهم بالساعة، ووعيد الله لمن كذب بها بالسعير جاءا موضحين في آيات أخر، أما تكذيبهم بيوم القيامة لإنكارهم البعث، والجزاء بعد الموت، فقد جاء في آيات كثيرة عن طوائف الكفار كقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾﴾[(٣)] وقوله

---

(١) جامع البيان (١٨/ ١٨٦).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٤٦٣).

(٣) الدخان: الآيتان (٣٤و٣٥).

تعالى: ﴿مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ﴾[١] إلى غير ذلك من الآيات.

وأما كفر من كذب بيوم القيامة ووعيده بالنار، فقد جاء في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيۡبَ فِيهَا قُلۡتُم مَّا نَدۡرِي مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنّٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُسۡتَيۡقِنِينَ ٣٢ وَبَدَا لَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ٣٣ وَقِيلَ ٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰكُمۡ كَمَا نَسِيتُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَا وَمَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ٣٤﴾[٢] فقوله: ﴿وَمَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ﴾ بعد قوله: ﴿قُلۡتُم مَّا نَدۡرِي﴾ الآية، يدل على أن قولهم: ﴿مَّا نَدۡرِي مَا ٱلسَّاعَةُ﴾ هو سبب كون النار مأواهم، وقوله بعده: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذۡتُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوٗا﴾[٣] لا ينافي ذلك لأن من اتخاذهم آيات اللّه هزوًا تكذيبهم الساعة، وإنكارهم البعث كما لا يخفى، وكقوله تعالى: ﴿۞ وَإِن تَعۡجَبۡ فَعَجَبٞ قَوۡلُهُمۡ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَاقِهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٥﴾[٤]»[٥].

وفي الآية قال الرازي: «أن الجنة مخلوقة بقوله تعالى: ﴿أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾[٦] وعلى أن النار التي هي دار العقاب مخلوقة بهذه الآية وهي قوله: ﴿وَأَعۡتَدۡنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾ وقوله: ﴿وَأَعۡتَدۡنَا﴾ إخبار عن فعل وقع في الماضي، فدلت الآية على أن دار العقاب مخلوقة»[٧].

قال ابن عاشور: «وإنما قصر تكذيبهم على الساعة لأنهم كذبوا بالبعث فهم بما وراءه أحرى تكذيبًا»[٨].

* * *

(١) يس: الآية (٧٨).

(٢) الجاثية: الآيات (٣٢-٣٤).

(٣) الجاثية: الآية (٣٥).

(٤) الرعد: الآية (٥).

(٥) أضواء البيان (٦/ ٢٨٥-٢٨٦).

(٦) آل عمران: الآية (١٣٣).

(٧) التفسير الكبير (٢٤/ ٥٦).

(٨) التحرير والتنوير (١٩/ ٣٣٢).

قوله تعالى: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ۝١٢﴾

★ **غريب الآية:**

تغيظا: أي غليانا وأزيزا كغليان القدر ومنه قيل لشدة الغضب: غيظ.

زفيرا: الزفير: تردد النفس حتى تنتفخ الضلوع منه.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «إذا رأت هذه النار التي اعتدناها لهؤلاء المكذبين أشخاصهم من مكان بعيد، تغيظت عليهم، وذلك أن تغلي وتفور، يقال: فلان تغيظ على فلان، وذلك إذ غضب عليه، فغلى صدره من الغضب عليه، وتبين في كلامه، ﴿وَزَفِيرًا﴾، وهو صوتها.

فإن قال قائل: وكيف قيل: ﴿سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا﴾ والتغيظ: لا يسمع، قيل معنى ذلك: سمعوا لها صوت التغيظ من التلهب والتوقد»[1].

قال الشنقيطي: «وما ذكره -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة بين بعضه في سورة الملك، فأوضح فيها شدة غيظها على من كفر بربها، وأنهم يسمعون لها أيضًا شهيقًا مع الزفير الذي ذكره في آية الفرقان، هذه، وذلك في قوله تعالى: ﴿إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ ۝٧ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۝٨﴾[2] أي يكاد بعضها ينفصل عن بعض من شدة غيظها، على من كفر بالله تعالى..»[3].

وقال أيضًا: «اعلم أن التحقيق أن النار تبصر الكفار يوم القيامة، كما صرح الله بذلك في قوله هنا: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ ورؤيتها إياهم من مكان بعيد، تدل على بصرها كما لا يخفى، كما أن النار تتكلم كما صرح الله به في قوله: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ

---

(١) جامع البيان (١٨/ ١٨٦-١٨٧).

(٢) الملك: الآيتان (٧و٨).

(٣) أضواء البيان (٦/ ٢٨٨).

ﭐﻣۡﺘَﻸۡتِ وَتَقُولُ هَلۡ مِن مَّزِيدٖ ﴿٣٠﴾ ﴾[(١)] والأحاديث الدالة على ذلك كثيرة، كحديث محاجة النار مع الجنة، وكحديث اشتكائها إلى ربها، فأذن لها في نفسين، ونحو ذلك، ويكفي في ذلك أن اللَّه -جل وعلا- صرح في هذه الآية، أنها تراهم وأن لها تغيظًا على الكفار، وأنها تقول: هل من مزيد. واعلم أن ما يزعمه كثير من المفسرين وغيرهم، من المنتسبين للعلم من أن النار لا تبصر، ولا تتكلم، ولا تغتاظ. وأن ذلك كله من قبيل المجاز، أو أن الذي يفعل ذلك خزنتها كله باطل ولا معول عليه لمخالفته نصوص الوحي الصحيحة بلا مستند، والحق هو ما ذكرنا.

وقد أجمع من يعتد به من أهل العلم على أن النصوص من الكتاب والسنة، لا يجوز صرفها عن ظاهرها إلا لدليل يجب الرجوع إليه، كما هو معلوم في محله»[(٢)].

قال ابن المنير: قوله: «﴿إِذَا رَأَتۡهُم مِّن مَّكَانِۢ بَعِيدٖ سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظٗا وَزَفِيرٗا ﴿١٢﴾﴾ قال فيه: هو من قولهم: دور بني فلان تترا: أي على المجاز، قال أحمد: لا حاجة إلى حمله على المجاز فإن رؤية جهنم جائزة وقدرة اللَّه صالحة، وقد تظافرت الظواهر على وقوع هذا الجائز، وعلى أن اللَّه تعالى يخلق لها إدراكا حسيا وعقليا، ألا ترى إلى قوله: ﴿سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظٗا وَزَفِيرٗا﴾ وإلى محاجتها مع الجنة، وإلى قولها: -هل من مزيد- وإلى اشتكائها إلى ربها، فأذن لها في نفسين، إلى غير ذلك من الظواهر التي لا سبيل إلى تأويلها إذ لا محوج إليه، ولو فتح باب التأويل والمجاز في أحوال المعاد لتطوح الذي يسلك ذلك إلى وادي الضلالة، والتحيز إلى فرق الفلاسفة، فالحق أنا متعبدون بالظاهر ما لم يمنع مانع واللَّه أعلم»[(٣)].

قال أبو السعود: «قوله تعالى: ﴿مِّن مَّكَانِۢ بَعِيدٖ﴾ إشعارٌ بأنَّ بُعدَ ما بينهما وبينهم من المسافة حين رأتهُم خارجٌ عن حدود البُعدِ المعتاد في المسافات المعهودةِ وفيه مزيدُ تهويلٍ لأمرها»[(٤)].

* * *

(١) ق: الآية (٣٠).
(٢) أضواء البيان (٦/ ٢٨٨-٢٨٩).
(٣) الانتصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال (٣/ ٨٣).
(٤) تفسير أبي السعود (٦/ ٢٠٦).

قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أُلْقُواْ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْاْ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُواْ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُواْ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾﴾

★ **غريب الآية:**

مقرنين: مقيدين: بالقرن، وهو الحبل.

ثبورا: هلاكا ودمارا. وثبر الرجل فهو مثبور: إذا هلك.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: وإذا ألقي هؤلاء المكذّبون بالساعة من النار مكانا ضيقا، قد قرنت أيديهم إلى أعناقهم في الأغلال ﴿دَعَوْاْ هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾.

واختلف أهل التأويل في معنى الثبور، فقال بعضهم: هو الويل..

وقال آخرون: الثبور: الهلاك.

قال أبو جعفر: والثبور في كلام العرب: أصله انصراف الرجل عن الشيء، يقال منه: ما ثبرك عن هذا الأمر: أي ما صرفك عنه، وهو في هذا الموضع دعاء هؤلاء القوم بالندم على انصرافهم عن طاعة الله في الدنيا، والإيمان بما جاءهم به نبيّ الله ﷺ حتى استوجبوا العقوبة منه، كما يقول القائل: وا ندامتاه، واحسرتاه على ما فرطت في جنب الله»[(١)].

قال الرازي: «ومعنى ﴿وَٱدْعُواْ ثُبُورًا كَثِيرًا﴾: أنكم وقعتم فيما ليس ثبوركم منه واحدًا، إنما هو ثبور كثير، إما لأن العذاب أنواع وألوان لكل نوع منها ثبور لشدته وفظاعته، أو لأنهم كلما نضجت جلودهم بدلوا غيرها، أو لأن ذلك العذاب دائم خالص عن الشوب فلهم في كل وقت من الأوقات التي لا نهاية لها ثبور، أو لأنهم ربما يجدون بسبب ذلك القول نوعًا من الخفة، فإن المعذب إذا صاح وبكى وجد بسببه نوعًا من الخفة فيزجرون عن ذلك، ويخبرون بأن هذا الثبور سيزداد كل يوم

(١) جامع البيان (١٨/ ١٨٧-١٨٨).

ليزداد حزنهم وغمهم نعوذ بالله منه»[(١)].

قال الشنقيطي: «وما ذكره هنا من أنهم يلقون في مكان ضيق من النار، جاء مذكورًا أيضًا في غير هذا الموضع كقوله تعالى: ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ۝ فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ۝﴾[(٢)] وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ۝ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌ ۝﴾[(٣)] ومعنى مؤصدة في الموضعين بهمز، وبغير همز: مطبقة أبوابها، مغلقة عليهم كما أوضحناه بشواهد العربية في سورة الكهف في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ﴾[(٤)] ومن كان في مكان مطبق مغلق عليه، فهو في مكان ضيق، والعياذ بالله، وقد ذكر أن الواحد منهم يجعل في محله من النار بشدة كما يدق الوتد في الحائط، وعن ابن مسعود: «**أن جهنم تضيق على الكافر كتضييق الزج على الرمح**». والزج بالضم: الحديدة التي في أسفل الرمح.

وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿مُقَرَّنِينَ﴾: أي في الأصفاد بدليل قوله تعالى في سورة إبراهيم: ﴿وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى الْأَصْفَادِ ۝﴾[(٥)] والأصفاد القيود. والأظهر أن معنى مقرنين: أن الكفار يقرن بعضهم إلى بعض في الأصفاد والسلاسل، وقال بعض أهل العلم: كل كافر يقرن هو وشيطانه، وقد قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَالَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ ۝﴾[(٦)]»[(٧)].

* * *

(١) التفسير الكبير (٢٤/ ٥٨).
(٢) الهمزة: الآيتان (٨و٩).
(٣) البلد: الآيتان (١٩و٢٠).
(٤) الكهف: الآية (١٨).
(٥) إبراهيم: الآية (٤٩).
(٦) الزخرف: الآية (٣٨).
(٧) أضواء البيان (٦/ ٢٩١).

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَ ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ﴿١٦﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: يقول -تعالى ذكره-: قل يا محمد لهؤلاء المكذّبين بالساعة: أهذه النار التي وصف لكم ربكم صفتها وصفة أهلها خير؟ أم بستان الخلد الذي يدوم نعيمه ولا يبيد، الذي وعد من اتقاه في الدنيا بطاعته فيما أمره ونهاه؟ وقوله: ﴿كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا﴾ يقول: كانت جنة الخلد للمتقين جزاء أعمالهم لله في الدنيا بطاعته، وثواب تقواهم إياه، ومصيرا لهم، يقول: ومصيرا للمتقين يصيرون إليها في الآخرة. وقوله: ﴿لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ﴾ يقول: لهؤلاء المتقين في جنة الخلد التي وعدهموها الله ما يشاءون مما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين، ﴿خَٰلِدِينَ﴾ فيها، يقول: لابثين فيها ماكثين أبدا، لا يزولون عنها ولا يزول عنهم نعيمها. وقوله: ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا﴾ وذلك أن المؤمنين سألوا ربهم ذلك في الدنيا حين قالوا: ﴿وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾[1] يقول الله -تبارك وتعالى-: وكان إعطاء الله المؤمنين جنة الخلد التي وصف صفتها في الآخرة وعدا وعدهم الله على طاعتهم إياه في الدنيا، ومسألتهم إياه ذلك»[2].

قال الشنقيطي: «والمعروف في علم العربية أن صيغة التفضيل تقتضي المشاركة بين المفضل والمفضل عليه فيما فيه التفضيل، إلا أن المفضل أكثر فيه وأفضل من المفضل عليه، ومعلوم أن المفضل عليه في الآيات المذكورة الذي هو عذاب النار لا خير فيه البتة، وإذن فصيغة التفضيل فيها إشكال.

والجواب عن هذا الإشكال من وجهين:

---

(١) آل عمران: الآية (١٩٤).

(٢) جامع البيان (١٨/ ١٨٩).

الأول: أن صيغة التفضيل قد تطلق في القرآن، وفي اللغة مرادًا بها مطلق الاتصاف، لا تفضيل شيء على شيء..

الثاني: أن من أساليب اللغة العربية أنهم إذا أرادوا تخصيص شيء بالفضيلة، دون غيره جاءوا بصيغة التفضيل، يريدون بها خصوص ذلك الشيء بالفضل، كقول حسان بن ثابت رضي الله عنه:

أتهجوه ولست له بكفء فشرُّكما لخيركما الفداء

وكقول العرب: الشقاء أحب إليك أم السعادة؟ وقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ﴾[1] لآية.. وعلى كل حال فعذاب النار شر محض لا يخالطه خير ألبتة كما لا يخفى»[2].

قال السعدي: «لما بين جزاء الظالمين ناسب أن يذكر جزاء المتقين فقال: ﴿قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَ ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ﴿١٦﴾﴾ أي: قل لهم -مبينا لسفاهة رأيهم واختيارهم الضار على النافع-: ﴿أَذَٰلِكَ﴾ الذي وصفت لكم من العذاب ﴿وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ التي زادها تقوى الله فمن قام بالتقوى فالله قد وعده إياها، ﴿كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً﴾ على تقواهم ﴿وَمَصِيرًا﴾ موئلا يرجعون إليها، ويستقرون فيها، ويخلدون دائما أبدا.

﴿لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ﴾ أي: يطلبون وتتعلق بهم أمانيهم ومشيئتهم، من المطاعم والمشارب اللذيذة، والملابس الفاخرة، والنساء الجميلات، والقصور العاليات، والجنات والحدائق المرجحنة، والفواكه التي تسر ناظريها وآكليها من حسنها وتنوعها وكثرة أصنافها، والأنهار التي تجري في رياض الجنة وبساتينها، حيث شاءوا يصرفونها ويفجرونها أنهارا من ماء غير آسن، وأنهارا من لبن لم يتغير طعمه، وأنهارا من خمر لذة للشاربين، وأنهارا من عسل مصفى، وروائح طيبة، ومساكن مزخرفة، وأصوات شجية تأخذ من حسنها بالقلوب، ومزاورة الإخوان، والتمتع بلقاء الأحباب، وأعلى من ذلك كله التمتع بالنظر إلى وجه الرب الرحيم، وسماع

---

(١) يوسف: الآية (٣٣).

(٢) أضواء البيان (٦/ ٢٩٥-٢٩٦).

كلامه، والحظوة بقربه، والسعادة برضاه، والأمن من سخطه، واستمرار هذا النعيم ودوامه وزيادته على ممر الأوقات وتعاقب الآنات ﴿كَانَ﴾ دخولها والوصول إليها ﴿عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْئُولًا﴾ يسأله إياها، عباده المتقون بلسان حالهم ولسان مقالهم، فأي الدارين المذكورتين خير وأولى بالإيثار؟ وأي: العاملين عمال دار الشقاء أو عمال دار السعادة أولى بالفضل والعقل والفخر يا أولي الألباب؟

لقد وضح الحق واستنار السبيل فلم يبق للمفرط عذر في تركه الدليل، فنرجوك يا من قضيت على أقوام بالشقاء وأقوام بالسعادة أن تجعلنا ممن كتبت لهم الحسنى وزيادة، ونستغيث بك اللهم من حالة الأشقياء ونسألك المعافاة منها»(١).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في صفة الجنة

* عن سهل بن سعد الساعدي قال: شهدت من رسول الله ﷺ مجلسا وصف فيه الجنة حتى انتهى. ثم قال ﷺ في آخر حديثه: «**فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر**»(٢).

★ **فوائد الحديث:**

قال ابن حجر: «قوله: «**ولا خطر على قلب بشر**» زاد ابن مسعود في حديثه»ولا يعلمه ملك مقرب ولا نبي مرسل«**أخرجه ابن أبي حاتم، وهو يدفع قول من قال: إنما قيل: البشر لأنه يخطر بقلوب الملائكة. والأولى حمل النفي فيه على عمومه فإنه أعظم في النفس**»(٣).

هذا ويأتي الكلام على هذا الحديث مستوفى في سورة السجدة عند قوله ﷻ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾(٤).

* * *

(١) تيسير الكريم الرحمن (٣/ ٤٠٢-٤٠٣).

(٢) أخرجه: أحمد (٥/ ٣٣٤)، ومسلم (٤/ ٢١٧٥-٢٨٢٥).

(٣) فتح الباري (٨/ ٦٦٢).

(٤) السجدة: الآية (١٧).

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٨﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يقول تعالى مخبرًا عما يَقَع يوم القيامة من تقريع الكفار في عبادتهم مَن عبدوا من دون اللَّه، من الملائكة وغيرهم، فقال: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾. قال مجاهد: عيسى، والعُزَير، والملائكة. ﴿فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ﴾ أي: فيقول الرب -تبارك وتعالى- للمعبودين أأنتم دعوتم هؤلاء إلى عبادتكم من دوني، أم هم عبدوكم من تلقاء أنفسهم، من غير دعوة منكم لهم؟ كما قال اللَّه تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾﴾[1]؛ ولهذا قال تعالى مخبرًا عما يُجيب به المعبودون يوم القيامة: ﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾ قرأ الأكثرون بفتح «النون» من قوله: ﴿نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾ أي: ليس للخلائق كلهم أن يعبدوا أحدا سواك، لا نحن ولا هم، فنحن ما دعوناهم إلى ذلك، بل هم فعلوا ذلك من تلقاء أنفسهم من غير أمرنا ولا رضانا ونحن براء منهم ومن عبادتهم، كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ

(١) المائدة: الآيتان (١١٦و١١٧).

أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾[(١)]. وقرأ آخرون: «مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا أَنْ نُتَّخَذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ» أي: ما ينبغي لأحد أن يعبدنا، فإنا عبيد لك، فقراء إليك. وهي قريبة المعنى من الأولى.

﴿وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ﴾ أي: طال عليهم العمر ﴿حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ﴾ أي: نسوا ما أنزلته إليهم على ألسنة رسلك، من الدعوة إلى عبادتك وحدك لا شريك لك ﴿وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا﴾»[(٢)].

قال السعدي: فلما نزهوا أنفسهم أن يدعوا لعبادة غير الله أو يكونوا أضلوهم ذكروا السبب الموجب لإضلال المشركين فقالوا: ﴿وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ﴾ في لذات الدنيا وشهواتها ومطالبها النفسية، ﴿حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ﴾ اشتغالا في لذات الدنيا وانكبابا على شهواتها، فحافظوا على دنياهم وضيعوا دينهم ﴿وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا﴾ أي: بائرين لا خير فيهم ولا يصلحون لصالح، لا يصلحون إلا للهلاك والبوار، فذكروا المانع من اتباعهم الهدى وهو التمتع في الدنيا الذي صرفهم عن الهدى، وعدم المقتضي للهدى وهو أنهم لا خير فيهم، فإذا عدم المقتضي ووجد المانع فلا تشاء من شر وهلاك، إلا وجدته فيهم»[(٣)].

قال الرازي: «الآية تدل على أنه لا تجوز الولاية والعداوة إلا بإذن الله، فكل ولاية مبنية على ميل النفس ونصيب الطبع فذاك على خلاف الشرع»[(٤)].

قال أبو السعود: «﴿وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ﴾ استدراك مسوقٌ لبيان أنَّهم هم الضَّالُّون بعد بيان تنزههم عن إضلالهم، وقد نُعي عليهم سوءُ صنيعِهم حيث جعلُوا أسبابَ الهداية أسبابًا للضَّلالة أي: ما أضللناهم ولكنَّك متعتهم وآباءَهم بأنواع النِّعم ليعرفوا حقَّها ويشكروها فاستغرقُوا في الشَّهواتِ وانهمكُوا فيها ﴿حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ﴾ أي غفَلوا عن ذكرِك أو عن التَّذكرِ في آلائِك والتَّدبرِ في آياتِك فجعلُوا أسبابَ الهداية بسوء اختيارِهم ذريعةً إلى الغَواية»[(٥)].

قال ابن عاشور: «ووصف العباد هنا تسجيل على المشركين بالعبودية وتعريض بكفرانهم حقها»[(٦)].

---

(١) سبأ: الآيتان (٤٠و٤١).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٥/ ١٤١).
(٣) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٤٦٨).
(٤) التفسير الكبير (٢٤/ ٦٤).
(٥) تفسير أبي السعود (٦/ ٢٠٩).
(٦) التحرير والتنوير (١٨/ ٣٣٨).

قوله تعالى : ﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ۚ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾﴾

⋆ غريب الآية:

صرفًا : الصرف : رد الشيء من حالة إلى حالة، أو إبداله بغيره؛ أي : لا يقدرون أن يصرفوا عن أن أنفسهم العذاب، أو أن يصرفوا أنفسهم عن النار.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير : «يقول -تعالى ذكره- مخبرا عما هو قائل للمشركين عند تبرّي من كانوا يعبدونه في الدنيا من دون اللَّه منهم : قد كذّبوكم أيها الكافرون من زعمتم أنهم أضلوكم، ودعوكم إلى عبادتهم بما تقولون، يعني بقولكم، يقول : كذّبوكم بكذبكم . . فما يستطيع هؤلاء الكفار صرف عذاب اللَّه حين نزل بهم عن أنفسهم، ولا نصرها من اللَّه حين عذّبها وعاقبها . . ﴿وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا﴾ يقول -تعالى ذكره- للمؤمنين به : ﴿وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ﴾ أيها المؤمنون- يعني بقوله : ﴿وَمَن يَظْلِم﴾ ومن يشرك باللَّه فيظلم نفسه، فذلك نذقه عذابا كبيرا كالذي ذكرنا أنَّا نذيقه الذين كذّبوا بالساعة»[(١)] .

قال ابن عاشور : «يشمل عمومه جميع الناس، ويكون خطاب ﴿مِنكُمْ﴾ لجميع المكلفين . ويفيد ذلك أن المشركين المتحدث عنهم معذبون عذابًا كبيرًا، والعذاب الكبير هو : عذاب جهنم»[(٢)] .

قال ابن القيم : «فهذا حال عباد الشيطان يوم لقاء الرحمن فواسوء حالهم حين امتيازهم عن المؤمنين إذا سمعوا النداء ﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ ۖ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ اعْبُدُونِي ۚ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾﴾[(٣)]»[(٤)] .

---

(١) جامع البيان (١٨/ ١٩٢-١٩٣).
(٢) التحرير والتنوير (١٨/ ٣٤٢).
(٣) يس : الآيات (٥٩-٦٢).
(٤) إغاثة اللهفان (٢/ ٣٥٣).

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي: «ثم قال تعالى جوابا لقول المكذبين: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾(١) ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ فما جعلناهم جسدا لا يأكلون الطعام وما جعلناهم ملائكة، فلك فيهم أسوة، وأما الغنى والفقر فهو فتنة وحكمة من اللَّه تعالى كما قال: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً﴾ الرسول فتنة للمرسل إليهم واختبار للمطيعين من العاصين والرسل فتناهم بدعوة الخلق، والغني فتنة للفقير والفقير فتنة للغني، وهكذا سائر أصناف الخلق في هذه الدار دار الفتن والابتلاء والاختبار.

والقصد من تلك الفتنة ﴿أَتَصْبِرُونَ﴾ فتقومون بما هو وظيفتكم اللازمة الراتبة فيثيبكم مولاكم أم لا تصبرون فتستحقون المعاقبة؟

﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ يعلم أحوالكم، ويصطفي من يعلمه يصلح لرسالته ويختصه بتفضيله ويعلم أعمالكم فيجازيكم عليها إن خيرا فخير، وإن شرا فشر»(٢).

قال ابن جرير: «وهذا احتجاج من اللَّه -تعالى ذكره- لنبيه على مشركي قومه الذين قالوا: ﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ وجواب لهم عنه يقول لهم جلّ ثناؤه: وما أنكر يا محمد هؤلاء القائلون: ما لهذا الرسول يأكل الطعام، ويمشي في الأسواق، من أكلك الطعام، ومشيك في الأسواق، وأنت لله رسول، فقد علموا أنا ما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق، كالذي تأكل أنت وتمشي، فليس لهم عليك بما قالوا من

(١) الفرقان: الآية (٧).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٣/ ٤٠٥).

ذلك حجة»(١).

قال ابن كثير: «وذلك لأنهم يحتاجون إلى التغذي به ﴿وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ﴾ أي: للتكسب والتجارة، وليس ذلك بمناف لحالهم ومنصبهم؛ فإن الله تعالى جعل لهم من السمات الحسنة، والصفات الجميلة، والأقوال الفاضلة، والأعمال الكاملة، والخوارق الباهرة، والأدلة الظاهرة، ما يستدل به كل ذي لب سليم، وبصيرة مستقيمة، على صدق ما جاءوا به من الله ﷻ. ونظير هذه الآية الكريمة قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ﴾(٢) ﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ﴿٨﴾﴾(٣)»(٤).

قال القرطبي: «هذه الآية أصل في تناول الأسباب، وطلب المعاش بالتجارة والصناعة وغير ذلك»(٥).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في الحث على تناول الأسباب، وأن ذلك لا ينافي التوكل على الله ﷻ

* عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «**بعثت بالسيف حتى يعبد الله لا شريك له، وجعل رزقي تحت ظل رمحي، وجعل الذلة والصغار على من خالف أمري، ومن تشبه بقوم فهو منهم**»(٦).

★ **غريب الحديث:**

رمحي: الرمح: من السلاح معروف واحد الرماح وجمعه أرماح.

---

(١) جامع البيان (١٨/ ١٩٤). (٢) يوسف: الآية (١٠٩).

(٣) الأنبياء: الآية (٨).

(٤) تفسير القرآن العظيم (٦/ ١٤١-١٤٢) بتصرف يسير.

(٥) الجامع لأحكام القرآن (١٣/ ١٤).

(٦) ذكره البخاري في صحيحه تعليقا بصيغة التمريض (٦/ ١٢٢)، ووصله الإمام أحمد (٢/ ٥٠)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٥/ ٣١٣)، ومن طريقهما الحافظ في تغليق التعليق (٣/ ٤٤٥-٤٤٦) وقال: له شاهد بإسناد حسن لكنه مرسل. وأورده الهيثمي في المجمع (٥/ ٢٦٧) وقال: رواه الطبراني وفيه عبد الرحمن بن ثابت ابن ثوبان وثقه ابن المديني وأبو حاتم وغيرهما وضعفه أحمد وغيره وبقية رجاله ثقات. وحسن إسناده الشيخ الألباني في الإرواء (٥/ ١٠٩/ ١٢٦٩) ولأبي داود الجملة الأخيرة منه.

الصغار: الصغر والصغار وهو الذل والهوان.

* عن الزبير بن العوام ﷺ، عن النبي ﷺ قال: «**لأن يأخذ أحدكم حبله فيأتي بحزمة الحطب على ظهره فيبيعها فيكف اللَّه بها وجهه خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه**»[(١)].

* عن عمر بن الخطاب، أنه سمع النبي ﷺ يقول: «**لو أنكم توكلون على اللَّه حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصًا وتروح بطانًا**»[(٢)].

★ غريب الحديث:

تغدو خماصًا وتروح بطانًا: أي: تغدو بكرة وهي جياع وتروح عشاء وهي ممتلئة الأجواف.

* عن ابن عباس ﷺ قال: قال: كان أهل اليمن يحجون ولا يتزودون، ويقولون: نحن المتوكلون، فإذا قدموا مكة سألوا الناس، فأنزل اللَّه تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ﴾[(٣)].

★ فوائد الأحاديث:

قال القرطبي - مستدلا بالأحاديث السالفة الذكر ردا على بعض مشايخ زمانه القائلين: إن الأنبياء ﷺ إنما بعثوا ليسنوا الأسباب للضعفاء -: «هذا قول لا يصدر إلا من الجهال والأغبياء، و الرعاع السفهاء، أو من طاعن في الكتاب والسنة العلياء، وقد أخبر اللَّه تعالى في كتابه عن أصفيائه ورسله وأنبيائه بالأسباب والاحتراف فقال وقوله الحق: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ﴾[(٤)]، وقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾ قال العلماء: أي يتجرون ويحترفون.. وقال تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا﴾[(٥)]

---

(١) رواه: أحمد (١/ ١٦٧)، والبخاري (٣/ ٤٢٧/ ١٤٧١)، ابن ماجه (١/ ٥٨٨).

(٢) أخرجه: أحمد (١/ ٣٠)، والترمذي (٤/ ٤٩٥/ ٢٣٤٤)، وابن ماجه (٢/ ١٣٩٤/ ٤١٦٤)، والحاكم (٤/ ٣١٨)، وابن حبان (الاحسان ٢/ ٥٠٩/ ٧٠٣).

(٣) أخرجه: البخاري (٣/ ٤٨٩/ ١٥٢٣)، وأبو داود (٢/ ٣٤٩/ ١٧٣٠)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٠٠/ ١١٠٣٣).

(٤) الأنبياء: الآية (٨٠).

(٥) الأنفال: الآية (٦٩).

وكان الصحابة ﷺ يتجرون ويحترفون وفي أموالهم يعملون، ومن خالفهم من الكفار يقاتلون، أتراهم ضعفاء! بل هم كانوا والله الأقوياء، وبهم الخلف الصالح اقتدى، وطريقهم فيه الهدى والاهتداء.

قال: إنما تناولوها لأنهم أئمة الاقتداء، فتناولوها مباشرة في حق الضعفاء، فأما في حق أنفسهم فلا، وبيان ذلك أصحاب الصفة.

قلت: لو كان ذلك لوجب عليهم و على الرسول معهم البيان، كما ثبت في القرآن ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾[1] وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾[2]. وهذا من البينات والهدى. وأما أصحاب الصفة فإنهم كانوا ضيف الإسلام عند ضيق الحال، فكان ﷺ إذا أتته صدقة خصهم بها، وإذا أتته هدية أكلها معهم، وكانوا مع هذا يحتطبون ويسوقون الماء إلى أبيات رسول الله ﷺ. كذا وصفهم البخاري وغيره. ثم لما افتتح الله عليهم البلاد ومهد لهم المهاد تأمروا، وبالأسباب أمروا. ثم إن هذا القول يدل على ضعف النبي ﷺ وأصحابه؛ لأنهم أيدوا بالملائكة وثبتوا بهم، فلو كانوا أقوياء ما احتاجوا إلى تأييد الملائكة وتأييدهم إذ ذلك سبب من أسباب النصر، نعوذ بالله من قول وإطلاق يؤول إلى هذا، بل القول بالأسباب والوسائط سنة الله وسنة رسوله، وهو الحق المبين، والطريق المستقيم الذى انعقد عليه إجماع المسلمين، وإلا كان يكون قوله الحق: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾[3] الآية مقصورا على الضعفاء، وجميع الخطابات كذلك.

وفى التنزيل حيث خاطب موسى الكليم ﴿ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ﴾[4] وقد كان قادرا على فلق البحر دون ضرب عصا. وكذلك مريم عليها السلام ﴿وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾[5] وقد كان قادرا على سقوط الرطب دون هز ولا تعب، ومع هذا كله فلا ننكر أن يكون رجل يلطف به ويعان، أو تجاب دعوته، أو يكرم بكرامة في

(١) النحل: الآية (٤٤).
(٢) البقرة: الآية (١٥٩).
(٣) الأنفال: الآية (٦٠).
(٤) الشعراء: الآية (٦٣).
(٥) مريم: الآية (٢٥).

خاصة نفسه أو لأجل غيره، ولا تهدّ لذلك القواعد الكلية والأمور الجميلة. هيهات هيهات! لا يقال فقد قال اللَّه تعالى: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾[1] فإنا نقول: صدق اللَّه العظيم، وصدق رسوله الكريم، وأن الرزق هنا المطر بإجماع أهل التأويل، بدليل قوله: ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ رِزْقًا﴾[2] وقال: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ﴾[3] ولم يشاهد ينزل من السماء على الخلق أطباق الخبز ولا جفان اللحم، بل الأسباب أصل في وجود ذلك، . . وقد يسمى الشيء بما يؤول إليه، وسمي المطر رزقا لأنه عنه يكون الرزق، وذلك مشهور في كلام العرب. . فالعجب العجب ممن يدعي التجريد والتوكل على التحقيق، ويقعد على ثنيات الطريق، ويدع الطريق المستقيم، والمنهج الواضح القويم. . ولم ينقل عن النبي ﷺ وأصحابه رضوان اللَّه عليهم أنهم خرجوا إلى أسفارهم بغير زاد وكانوا المتوكلين حقا. والتوكل اعتماد القلب على الرب في أن يلم شعثه ويجمع عليه أربه، ثم يتناول الأسباب بمجرد الأمر. وهذا هو الحق.

سأل رجل الإمام أحمد بن حنبل فقال: إني أريد الحج على قدم التوكل.

فقال: اخرج وحدك، فقال: لا، إلا مع الناس.

فقال له: أنت إذن متكل على أجربتهم»[4].

وفي الحديث إشارة يقول الحافظ: «إلى فضل الرمح، وإلى حل الغنائم لهذه الأمة، وإلى أن رزق النبي ﷺ جعل فيها لا في غيرها من المكاسب، ولهذا قال بعض العلماء إنها أفضل المكاسب»[5].

تنبيه:

قال البنا: «يعني أن معظم رزقه كان من ذلك، وإلا فقد كان يأكل من جهات أخرى كالهدية والهبة وغيرهما»[6].

قال الحافظ: «فيه الحض على التعفف عن المسألة والتنزه عنها ولو امتهن المرء

---

(١) الذاريات: الآية (٢٢).

(٢) غافر: الآية (١٣).

(٣) ق: الآية (٩).

(٤) الجامع لأحكام القرآن (١٣/ ١٢-١٣).

(٥) فتح الباري (٦/ ١٢٢).

(٦) الفتح الرباني (٢٢/ ٤٠).

نفسه في طلب الرزق وارتكب المشقة في ذلك، ولولا قبح المسألة في نظر الشارع لم يفضل ذلك عليها وذلك لما يدخل على السائل من ذلّ السؤال ومن ذلّ الرد إذا لم يعط ولما يدخل على المسؤول من الضيق في ماله إن أعطى كل سائل، وأما قوله: «خير له» فليست بمعنى أفعل التفضيل إذ لا خير في السؤال مع القدرة على الاكتساب، والأصح عند الشافعية أن سؤال من هذا حاله حرام، ويحتمل أن يكون المراد بالخير فيه بحسب اعتقاد السائل وتسميته الذي يعطاه خيرا وهو في الحقيقة شر، واللَّه أعلم»[١].

قال ابن رجب: «وهذا الحديثُ أصل في التوكُّل، وأنَّه من أعظم الأسباب التي يُستجلب بها الرزقُ؛ قال اللَّه ﷻ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا * وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ﴾[٢]..

واعلم أنَّ تحقيق التوكل لا يُنافي السَّعي في الأسباب التي قدَّر اللَّه سبحانه المقدورات بها، وجرت سُنَّته في خلقه بذلك، فإنَّ اللَّه تعالى أمر بتعاطي الأسباب مع أمره بالتوكُّل، فالسَّعيُ في الأسباب بالجوارح طاعةٌ له، والتوكُّلُ بالقلب عليه إيمانٌ به، كما قال اللَّه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ﴾[٣]، وقال: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ﴾[٤] وقال: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ﴾[٥]. وقال سهل التُّستَري: من طعن في الحركة يعني: في السعي والكسب فقد طعن في السُّنة، ومن طعن في التوكل، فقد طعن في الإيمان، فالتوكل حالُ النَّبيِّ ﷺ، والكسب سنَّتُه، فمن عمل على حاله، فلا يتركنّ سنته.

ثم إنَّ الأعمال التي يعملها العبدُ ثلاثةُ أقسام:

أحدُها: الطاعات التي أمر اللَّه عباده بها، وجعلها سببًا للنَّجاة مِنَ النَّار ودخولِ الجنَّة، فهذا لابُدَّ من فعله مع التوكُّل على اللَّه فيه، والاستعانة به عليه، فإنَّه لا حولَ ولا قُوَّة إلا به، وما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، فمن قصَّرَ في شيءٍ ممَّا وجب

(١) فتح الباري (٣/ ٤٢٨).
(٢) الطلاق: الآيتان (٢و٣).
(٣) النساء: الآية (٧١).
(٤) الأنفال: الآية (٦٠).
(٥) الجمعة: الآية (١٠).

عليه من ذلك، استحقَّ العقوبة في الدنيا والآخرة شرعًا وقدرًا. قال يوسف بنُ أسباط: كان يُقال: اعمل عمل رجل لا يُنجيه إلا عملُه، وتوكَّلْ توكُّلَ رجلٍ لا يُصيبه إلا ما كُتِبَ له.

والثاني: ما أجرى اللَّه العادة به في الدُّنيا، وأمر عباده بتعاطيه، كالأكلِ عندَ الجوعِ، والشُّرب عندَ العطشِ، والاستظلال من الحرِّ، والتدفؤ من البرد ونحو ذلك، فهذا أيضًا واجب على المرء تعاطي أسبابه، ومن قَصَّر فيه حتى تضرَّر بتركه مع القُدرة على استعماله، فهو مُفرِّطٌ يستحقُّ العقوبة، لكن اللَّه سبحانه قد يقوِّي بعضَ عباده من ذلك على مالا يَقوى عليه غيرُه، فإذا عَمِلَ بمقتضى قوَّته التي اختص بها عن غيره، فلا حرجَ عليه، ولهذا كان النَّبيُّ ﷺ يُواصلُ في صيامه، وينهى عَنْ ذلك أصحابه، ويقول لهم: «إنِّي لستُ كهيئتكم، إني أُطْعَمُ وأُسقى»[1]، وفي رواية: «إنِّي أظلُّ عند ربي يُطعمني ويسقيني»، وفي رواية: «إنَّ لي مُطْعِمًا يُطعمني، وساقيًا يسقيني».

والأظهر أنَّه أراد بذلك أنَّ اللَّه يُقوِّيه ويُغذيه بما يُورده على قلبه من الفتوح القدسية، والمنحِ الإلهية، والمعارف الربانية التي تُغنيه عن الطعام والشراب بُرهةً مِنَ الدَّهر، كما قال القائل:

لها أَحاديثُ مِنْ ذِكراكَ تَشغَلُها ... عَنِ الشَّرابِ وتُلهيهَا عَنِ الزَّادِ
لها بِوجْهِكَ نُورٌ تَستَضِيءُ به ... وقْتَ المَسيرِ وفي أعقابها حَادي
إذا اشتَكَتْ من كلالِ السَّيرِ أوْعَدها ... رَوْحُ القدوم فتحيى عندَ مِيعادِ
فلا تجوع ولا تظمأ وما ضعفت ... ولا تظل إذا كانت لها هادِ

وقد كان كثيرٌ من السَّلف لهم مِن القُوَّة على تركِ الطعام والشراب ما ليس لغيرهم، ولا يتضرَّرونَ بذلك..

القسم الثالث: ما أجرى اللَّه العادة به في الدنيا في الأعمِّ الأغلب، وقد يخرِقُ العادة في ذلك لمن يشاء من عباده، وهو أنواع:

منها ما يخرقه كثيرًا، ويغني عنه كثيرًا من خلقه كالأدوية بالنسبة إلى كثيرٍ من

---

(١) أخرجه: أحمد (٣/ ٨)، والبخاري (٤/ ٢٦١/ ١٩٦٨)، وأبوداود (٢/ ٧٦٧/ ٢٣٦١).

البلدان وسكان البوادي ونحوها. وقد اختلف العلماءُ: هل الأفضل لمن أصابه المرض التداوي أم تركه لمن حقَّق التوكل على الله؟ وفيه قولان مشهوران، وظاهر كلام أحمد أنَّ التوكلَ لمن قوي عليه أفضلُ، لِمَا صحَّ عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**يَدخُلُ مِنْ أُمَّتي الجنَّة سبعون ألفًا بغير حساب**»[1] ثم قال: «**هم الذين لا يتطيَّرون ولا يَسترقون ولا يَكتوون وعلى ربِّهم يتوكَّلون**».

ومن رجح التداوي قال: إنَّهُ حال النَّبيِّ ﷺ الذي كان يُداوم عليه، وهو لا يفعلُ إلاّ الأفضلَ، وحمل الحديثَ على الرُّقى المكروهة التي يُخشى منها الشركُ بدليل أنَّه قرنها بالكي والطِّيرة وكلاهما مكروه.

ومنها ما يَخرِقُهُ لِقليلٍ من العامة، كحصول الرِّزق لمن ترك السعي في طلبه، فمن رزقه اللَّه صدق يقين وتوكل، وعَلِمَ من اللَّه أنَّه يَخرِقُ له العوائد، ولا يُحوجه إلى الأسباب المعتادة في طلب الرزق ونحوه، جاز له تَركُ الأسباب، ولم يُنكر عليه ذلك، وحديث عمر هذا الذي نتكلم عليه يدلُّ على ذلك، ويدلُّ على أنَّ النَّاس إنَّما يُؤتون مِنْ قلَّة تحقيق التوكُّل، ووقوفهم مع الأسباب الظاهرة بقلوبهم ومساكنتهم لها، فلذلك يُتعبون أنفسَهم في الأسباب، ويجتهدون فيها غاية الاجتهاد، ولا يأتيهم إلاّ ما قُدِّر لهم، فلو حَقَّقوا التوكُّلَ على اللَّه بقلوبهم، لساقَ اللَّه إليهم أرزاقهم مع أدنى سببٍ، كما يسوقُ إلى الطَّير أرزاقها بمجرَّدِ الغدوِّ والرواح، وهو نوعٌ من الطَّلب والسَّعي، لكنه سعيٌ يسيرٌ»[2].

قال ابن القيم: «بل لا تتم حقيقة التوحيد إلا بمباشرة الأسباب التي نصبها اللَّه مقتضيات لمسبباتها قدرا وشرعا، وأن تعطيلها يقدح في نفس التوكل، كما يقدح في الأمر والحكمة ويضعفه من حيث يظن معطلها أن تركها أقوى في التوكل، فإن تركها عجزا ينافي التوكل الذي حقيقته اعتماد القلب على اللَّه في حصول ما ينفع العبد في دينه ودنياه ودفع ما يضره في دينه ودنياه، ولا بد مع هذا الاعتماد من مباشرة الأسباب وإلا كان معطلًا للحكمة والشرع فلا يجعل العبد عجزه توكلا ولا توكله عجزا»[3].

---

(١) أخرجه: أحمد (٤/ ٤٣٦)، ومسلم (١/ ١٩٨/ ٢١٨).

(٢) جامع العلوم والحكم (٢/ ٤٩٦-٥٠٢)

(٣) زاد المعاد (٤/ ١٥).

قوله تعالى: ﴿۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾﴾

★ **غريب الآية:**

لا يرجون: أي لا يخافون. والرجاء: تأميل المرجو والخوف من فواته.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: وقال المشركون الذين لا يخافون لقاءنا، ولا يَخْشَون عقابنا، هلا أنزل اللَّه علينا ملائكة، فتخبرَنا أن محمدًا محقّ فيما يقول، وأن ما جاءنا به صدق، أو نرى ربنا فيخبرنا بذلك، كما قال جلّ ثناؤه مخبرا عنهم: ﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾﴾[1] ثم قال بعد: ﴿أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا﴾[2] يقول الله: لقد استكبر قائلو هذه المقالة في أنفسهم، وتعظموا ﴿وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ يقول: وتجاوزوا في الاستكبار بقيلهم ذلك حدّه»[3].

قال السعدي: «أي: قال المكذبون للرسول المكذبون بوعد اللَّه ووعيده الذين ليس في قلوبهم خوف الوعيد ولا رجاء لقاء الخالق.

﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ﴾ أي: هلا نزلت الملائكة تشهد لك بالرسالة وتؤيدك عليها أو تنزل رسلا مستقلين، أو نرى ربنا فيكلمنا ويقول: هذا رسولي فاتبعوه؟ وهذا معارضة للرسول بما ليس بمعارض بل بالتكبر والعلو والعتو.

﴿لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ حيث اقترحوا هذا الاقتراح، وتجرأوا هذه الجرأة، فمن أنتم يا فقراء ويا مساكين حتى تطلبوا رؤية اللَّه وتزعموا أن الرسالة متوقف ثبوتها

---

(١) الإسراء: الآية (٩٠).

(٢) الإسراء: الآية (٩٢).

(٣) جامع البيان (١٩/١).

على ذلك؟ وأي كبر أعظم من هذا؟ .

﴿وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ أي: قسوا وصلبوا عن الحق قساوة عظيمة، فقلوبهم أشد من الأحجار، وأصلب من الحديد لا تلين للحق، ولا تصغي للناصحين فلذلك لم ينجع فيهم وعظ ولا تذكير، ولا اتبعوا الحق حين جاءهم النذير؛ بل قابلوا أصدق الخلق وأنصحهم وآيات اللَّه البينات بالإعراض والتكذيب والمعارضة، فأي عتو أكبر من هذا العتو؟ ولذلك بطلت أعمالهم واضمحلت، وخسروا أشد الخسران»[١].

قال الشنقيطي: «وهذه الآية الكريمة تدل على أن تكذيب الرسل بعد دلالة المعجزات، ووضوح الحق وعنادهم والتعنت عليهم بطلب إنزال الملائكة، أو رؤية اللَّه استكبار عن الحق عظيم وعتو كبير يستحق صاحبه النكال، والتقريع، ولذا شدد اللَّه النكير على من تعنت ذلك التعنت واستكبر عن قبول الحق، كما في قوله تعالى: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾[٢] وقوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَانًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾﴾[٣] الآية وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾﴾[٤]»[٥].

وقال أيضًا: «والحق الذي لا شك فيه: أن المؤمنين يرون اللَّه بأبصارهم يوم القيامة كما تواترت به الأحاديث عن الصادق المصدوق ﷺ، ودلت عليه الآيات القرآنية منطوقًا ومفهومًا»[٦].

قال أبو السعود: «وفيه من الدِّلالةِ على غايةِ قُبح ما هُم عليه والإشعارِ بالتَّعجبِ من استكبارِهم وعُتوِّهم ما لا يخفى»[٧].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٣/ ٤٠٥-٤٠٦).
(٢) البقرة (١٠٨).
(٣) النساء: الآية (١٥٣).
(٤) البقرة: الآية (٥٥).
(٥) أضواء البيان (٦/ ٣٠٤).
(٦) أضواء البيان (٦/ ٣٠٥).
(٧) تفسير أبي السعود (٦/ ٢١١).

قال ابن عاشور: «وفي الآية إيماء إلى أن النبوة لا تكون بالاكتساب وإنما هي إعداد من الله تعالى قال: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾[1]»[2].

* * *

(١) الأنعام: الآية (١٢٤).

(٢) التحرير والتنوير (١٩/٦).

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال عبد الرحمن السعدي: «﴿يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾ وذلك أنهم لا يرونها مع استمرارهم على جرمهم وعنادهم إلا لعقوبتهم وحلول البأس بهم، فأول ذلك عند الموت إذا تنزلت عليهم الملائكة قال اللّه تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾(١) ثم في القبر حيث يأتيهم منكر ونكير فيسألهم عن ربهم، ونبيهم، ودينهم فلا يجيبون جوابا ينجيهم فيحلون بهم النقمة، وتزول عنهم بهم الرحمة، ثم يوم القيامة حين تسوقهم الملائكة إلى النار ثم يسلمونهم لخزنة جهنم الذين يتولون عذابهم ويباشرون عقابهم، فهذا الذي اقترحوه وهذا الذي طلبوه إن استمروا على إجرامهم لا بد أن يروه ويلقوه، وحينئذ يتعوذون من الملائكة ويفرون ولكن لا مفر لهم. ﴿وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُواْ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُواْ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴿٣٣﴾﴾(٢)»(٣).

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: يوم يرى هؤلاء الذين قالوا: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ بتصديق محمد الملائكة فلا بشرى لهم يومئذ بخير ﴿وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ يعني: أن الملائكة يقولون للمجرمين: حجرًا محجورًا حرامًا محرمًا عليكم اليوم البشرى أن تكون لكم من اللّه ومن الحجر قول المتلمس:

حنا إلى نخلة القصوى فقلت لها حجر حرام ألا تلك الدهاريس

ومنه قولهم: حجر القاضي على فلان، وحجر فلان على أهله، ومنه حجر

(١) الأنعام: الآية (٩٣).
(٢) الرحمن: الآية (٣٣).
(٣) تيسير الكريم الرحمن (٣/ ٤٠٦-٤٠٧).

الكعبة؛ لأنه لا يدخل إليه في الطواف وإنما يطاف من ورائه ومنه قول الآخر:

فهممت أن ألقى محجرا   فلمثلها يلقى إليه المحجر

أي مثلها يركب منه المحرم. و اختلف أهل التأويل في المخبر عنهم بقوله: ﴿وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ ومن قائلوه، فقال بعضهم: قائلو ذلك الملائكة للمجرمين نحو الذي قلنا فيه..

و قال آخرون: ذلك خبر من اللَّه عن قيل المشركين إذا عاينوا الملائكة..

قال أبو جعفر: و إنما اخترنا القول الذي اخترنا في تأويل ذلك من أجل أن الحجر هو الحرام، فمعلوم أن الملائكة هي التي تخبر أهل الكفر أن البشرى عليهم حرام، وأما الاستعاذة فإنها الاستجارة و ليست بتحريم ومعلوم أن الكفار لا يقولون للملائكة حرام عليكم فيوجه الكلام إلى أن ذلك خبر عن قيل المجرمين للملائكة»[1].

قال ابن كثير: «وذلك يصدق على وقت الاحتضار حين تبشرهم الملائكة بالنار، والغضب من الجبار، فتقول الملائكة للكافر عند خروج روحه: اخرجي أيتها النفس الخبيثة في الجسد الخبيث، اخرجي إلى سموم وحميم، وظل من يحموم، فتأبى الخروج، وتتفرق في البدن، فيضربونه كما قال اللَّه تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾[2] الآية وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ﴾[3] أي: بالضرب، ﴿أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ ولهذا قال في هذه الآية الكريمة: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ وهذا بخلاف حال المؤمنين حال احتضارهم فإنهم يبشرون بالخيرات وحصول المسرات قال اللَّه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا

---

(١) جامع البيان (١٩/ ١-٣).

(٢) الأنفال: الآية (٥٠).

(٣) الأنعام: الآية (٩٣).

تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾[(١)]..

وقال آخرون: بل المراد بقوله: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ﴾ يعني يوم القيامة قاله مجاهد، والضحاك، وغيرهما، ولا منافاة بين هذا وما تقدم، فإن الملائكة في هذين اليومين: يوم الممات ويوم المعاد تتجلى للمؤمنين وللكافرين فتبشر المؤمنين بالرحمة والرضوان، وتخبر الكافرين بالخيبة والخسران فلا بشرى يومئذ للمجرمين»[(٢)].

قال الرازي: «إنما يقال للكافر لابشرى؛ لأن الكافر وإن كان ضالا مضلا إلا أنه يعتقد في نفسه أنه كان هاديا مهتديا، فكان يطمع في ذلك الثواب العظيم، ولأنهم ربما عملوا مارجوا فيه النفع كنصرة المظلوم، وعطية الفقير، وصلة الرحم، ولكنه أبطلها بكفره فبين سبحانه أنهم في أول الأمر يشافهون بما يدل على نهاية اليأس والخيبة، وذلك هو النهاية في الإيلام وهو المراد من قوله: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ﴾[(٣)]»[(٤)].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في تبشير الملائكة المجرمين بالنار وغضب الجبار

* عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ: **«إذا حضر المؤمن أتته ملائكة الرحمة بحريرة بيضاء فيقولون: اخرجي راضية مرضيا عنك إلى روح الله وريحان ورب غير غضبان، فتخرج كأطيب ريح المسك، حتى أنه ليناوله بعضهم بعضا حتى يأتون به باب السماء فيقولون: ما أطيب هذه الريح التي جاءتكم من الأرض، فيأتون به أرواح المؤمنين فلهم أشد فرحا به من أحدكم بغائبه يقدم عليه، فيسألونه ماذا فعل فلان؟ ماذا فعل فلان؟ فيقولون: دعوه، فإنه كان في غم الدنيا، فإذا قال: أما أتاكم؟ قالوا: ذهب به إلى أمه الهاوية، وإن الكافر إذا احتضر أتته ملائكة العذاب بمسح فيقولون: اخرجي ساخطة مسخوطا عليك إلى عذاب الله ﷻ، فتخرج كأنتن**

---

(١) فصلت: الآيات (٣٠-٣٢).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٦/ ١٠٩-١١٠).

(٣) الزمر: الآية (٤٧).

(٤) التفسير الكبير (٢٤/ ٧١).

ريح جيفة، حتى يأتون به باب الأرض فيقولون: ما أنتن هذه الريح حتى يأتون به أرواح الكفار»[1].

★ **غريب الحديث:**

روح وريحان: استراحة والريحان الرزق وقيل البقاء أي هذان له معا وهو الخلود مع الرزق.

حميم: الماء الحار غاية الحرارة.

غساق: بالتخفيف والتشديد مايغسق من صديد أهل النار يقال: غسقت العين إذا سال دمعها.

★ **فوائد الحديث:**

قال الطيبي: «رد صلوات الله عليه الريطة على الأنف لما كوشف له وشم من نتن ريح روح الكافر كما أنه ﷺ غطى رأسه حين مر بالحجر لما شاهد من عذاب أهلها»[2].

* * *

(١) أخرجه: النسائي (٤/ ٣٠٦-٣٠٧/ ١٨٣٢)، وابن حبان (الإحسان ٧/ ٢٨٤-٢٨٥/ ٣٠١٤)، والحاكم (١/ ٣٥٣) وأورد له متابعات وقال: «هذه الأسانيد كلها صحيحة»، وأقره الذهبي وقال: «الكل صحيح».

(٢) شرح المشكاة (٤/ ١٣٧٨).

قوله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾

⋆ **غريب الآية:**

هباء: الهباء: غبار كالشعاع يدخل من الكوة مع ضوء الشمس.

منثورا: متفرقا. يقال: نثر الشيء: إذا نشره وفرقه.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: يقول -تعالى ذكره-: ﴿وَقَدِمْنَآ﴾ وعمدنا إلى ما عمل هؤلاء المجرمون ﴿مِنْ عَمَلٍ﴾ ومنه قول الراجز:

وَقَدِمَ الخَوَارِجُ الضُّلَالُ ... إِلَى عِبَادِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا
إِنَّ دِمَاءَكُم لَنَا حَلَالُ

يعني بقوله: قدم: عمد..

وقوله: ﴿فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ يقول: فجعلناه باطلا»[1].

قال ابن كثير: «وذلك لأنها فقدت الشرط الشرعي، إما الإخلاص فيها، وإما المتابعة لشرع اللّه. فكل عمل لا يكون خالصًا وعلى الشريعة المرضية، فهو باطل. فأعمال الكفار لا تخلو من واحد من هذين، وقد تجمعهما معا، فتكون أبعد من القبول حينئذ»[2].

قوله: ﴿هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ قال ابن جرير: «هو ما تسفيه الرياح من التراب، وتذروه من حطام الأشجار ونحو ذلك.. وقال آخرون: «هو الماء المهراق»[3].

وقال ابن كثير: «وحاصل هذه الأقوال التنبيهُ على مضمون الآية، وذلك أنهم عملوا أعمالا اعتقدوا أنها شيء، فلما عرضت على الملك الحكم العدل الذي

(١) جامع البيان (١٩/ ٣-٤).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٥/ ١٤٤).
(٣) جامع البيان (١٩/ ٤).

لا يجور ولا يظلم أحدا، إذا بها لا شيء بالكلية. وشبهت في ذلك بالشيء التافه الحقير المتفرق، الذي لا يقدر منه صاحبه على شيء بالكلية، كما قال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيْءٍۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٨﴾﴾[1] وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًاۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْۗ﴾[2] وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا﴾[3]»[4].

قال ابن كثير: «وهذا يوم القيامة، حين يحاسب اللّٰه العباد على ما عملوه من الخير والشر، فأخبر أنه لا يتحصل لهؤلاء المشركين من الأعمال -التي ظنوا أنها منجاة لهم- شيء»[5].

وفي الآية قال مكي الناصري: «إشارة إلى أن روح الأعمال كلها هو الإيمان باللّٰه، والسعي في مرضاة اللّٰه، فمتى كان الإنسان فاقدا لهذين الشرطين كانت أعماله كالجسم بدون روح، لا عبرة بها، ولا قيمة لها، ولا ثواب عليها، وإن كانت في الظاهر من محاسن الأعمال، ومكارم الخلال، اللهم إلا إذا انتقل صاحبها من الكفر إلى الإيمان، ومن النفاق إلى الإخلاص، فإن اللّٰه يثيبه على ما عمل من أعمال سالفة تدخل في عداد الحسنات، ويتوب عليه فيما عمل من أعمال سابقة تندرج في عداد السيئات.. ونظيره في تصوير خيبة الكفار فيما عملوه وأملوه، قوله تعالى في آية ثانية: ﴿كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ﴾[6]، وقوله تعالى: في آية ثالثة: ﴿كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ﴾، وقوله تعالى في آية رابعة: ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾﴾[7]، وفي نفس الموضوع سبق قوله تعالى في سورة الكهف: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾[8]»[9].

---

(١) إبراهيم: الآية (١٨).
(٢) البقرة: الآية (٢٦٤).
(٣) النور: الآية (٣٩).
(٤) المصدر السابق ص (١٠٥/٤).
(٥) تفسير القرآن العظيم (٥/ ١٤٤).
(٦) النور: الآية (٣٨).
(٧) الفيل: الآية (٥).
(٨) الكهف: الآيتان (١٠٣و١٠٤).
(٩) التيسير (٤/ ٣٢٢-٣٢٣).

قال عبد الرحمن السعدي : «﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ﴾ أي : أعمالهم التي رجوا أن تكون خيرا لهم وتعبوا فيها . ﴿فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ أي : باطلا مضمحلا قد خسروه، وحرموا أجره، وعوقبوا عليه، وذلك لفقده الإيمان وصدوره عن مكذب لله ورسله، فالعمل الذي يقبله اللَّه ما صدر عن المؤمن المخلص المصدق للرسل المتبع لهم فيه»[١] .

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان أن من خالف ظاهره باطنه أذهب اللَّه أعماله، وكانت عليه حسرة وندامة

* عن ثوبان عن النبي ﷺ أنه قال : «**لأعلمن أقوامًا من أمتي يأتون يوم القيامة بحسنات أمثال جبال تهامة بيضًا ، فيجعلها اللَّه ﷻ هباءً منثورًا** . قال ثوبان : يا رسول الله! صفهم لنا جلهم لنا أن لا نكون منهم ونحن لا نعلم ، قال : **أما إنهم إخوانكم ومن جلدتكم، ويأخذون من الليل كما تأخذون، ولكنهم أقوام، إذا خلوا بمحارم اللَّه انتهكوها**»[٢] .

★ غريب الحديث:

جلّهم لنا : بالجيم، من التجلية؛ أي : اكشف حالهم لنا .

من جلدتكم : بكسر الجيم؛ أي : من جنسكم .

يأخذون من الليل : أي : يأخذون من عبادة الليل نصيبًا .

انتهكوها : يقال : انتهك الشيء : أذهب حرمته، وانتهك الحرمات أو المحرمات : تناولها بما لا يحلّ .

تهامة : موضع ما بين ذات عرق إلى مرحلتين من وراء مكة .

★ فوائد الحديث:

في هذا الحديث قال صفاء الضاوي : «التحذير من مشابهة حال أناس لهم عبادة

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٣/ ٤٠٧).

(٢) أخرجه : ابن ماجه (٢/ ١٤١٨/ ٤٢٤٥) وقال البوصيري : إسناده صحيح رجاله ثقات. وقال المنذري في الترغيب (٣/ ٢٤٣-٢٤٢) : رواه ابن ماجه ورواته ثقات.

وفيهم طاعة ومجاهدة، على أنهم إذا خلوا بمحارم اللَّه وقعوا فيها وانتهكوها، فلم يكن في قلوبهم من التقوى ما يكفي لحجزهم عن الحرام، فتأكل سيئاتهم حسناتِهم، فلا يجدون منها يوم القيامة شيئًا»[1].

قال ابن القيم: «فيا شدة الحسرة عندما يعاين المبطل سعيه وكده هباء منثورا، ويا عظم المصيبة عندما تبين بوارق آماله وأمانيه خلبًا وغرورًا، فما ظن من انطوت سريرته على البدعة والهوى والتعصب للآراء بربه ﷻ يوم تبلى السرائر، وما عذر من نبذ كتاب اللَّه وسنة رسوله ﷺ وراء ظهره في يوم لا ينفع فيه الظالمين المعاذر، أفيظن المعرض عن كتاب اللَّه وسنة رسوله ﷺ أن ينجو غدا بآراء الرجال، ويخلص من مطالبة اللَّه تعالى له بكثرة البحوث، والجدال، أو ضروب الأقيسة، وتنوع الأشكال، أو بالشطحات والمشارات وأنواع الخيال، هيهات واللَّه لقد ظن أكذب الظن ومنى نفسه أبين المحال، وإنما ضمنت النجاة لمن حكم هدى اللَّه تعالى على غيره، وتزود التقوى، وأتم بالدليل، وسلك الصراط المستقيم، واستمسك من التوحيد واتباع الرسول بالعروة الوثقى التي لا انفصام لها واللَّه سميع عليم»[2].

* * *

(١) إهداء الديباجة (٥/ ٥٦٦).

(٢) اجتماع الجيوش الإسلامية ص (٨٣).

قوله تعالى: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾﴾

★ **غريب الآية:**

مقيلا: المقيل: وقت القيلولة، وهي شدة الحر وسط النهار.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الرازي: «اعلم أنه سبحانه لما بين حال الكفار في الخسارة الكلي والخيبة التامة شرع في وصف أهل الجنة تنبيها على أن الحظ كل الحظ في طاعة اللّه تعالى»[1].

قال ابن جرير: «وقوله جلّ ثناؤه: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾﴾ يقول -تعالى ذكره-: أهل الجنة يوم القيامة خير مستقرّا، وهو الموضع الذي يستقرّون فيه من منازلهم في الجنة من مستقرّ هؤلاء المشركين الذين يفتخرون بأموالهم، وما أوتوا من عرض هذه الدنيا في الدنيا، وأحسن منهم فيها مقيلا.

فإن قال قائل: وهل في الجنة قائلة؟ فيقال: ﴿وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ فيها؟ قيل: معنى ذلك: وأحسن فيها قرارًا في أوقات قائلتهم في الدنيا، وذلك أنه ذكر أن أهل الجنة لا يمرّ فيهم في الآخرة إلا قدر ميقات النهار من أوّله إلى وقت القائلة، حتى يسكنوا مساكنهم في الجنة، فذلك معنى قوله: ﴿وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾.

قال أبو جعفر: وإنما قلنا: معنى ذلك: خير مستقرًّا في الجنة منهم في الدنيا؛ لأن اللّه -تعالى ذكره- عَمَّ بقوله: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾﴾ جميع أحوال الجنة في الآخرة أنها خير في الاستقرار فيها، والقائلة من جميع أحوال أهل النار، ولم يخُصّ بذلك أنه خير من أحوالهم في النار دون الدنيا، ولا في الدنيا دون الآخرة، فالواجب أن يعمَّ كما عمّ ربنا جلّ ثناؤه، فيقال: أصحاب الجنة يوم القيامة خير مستقرًّا في الجنة من أهل النار في الدنيا والآخرة،

---

(١) أفاده الرازي في التفسير الكبير (٢٤/ ٧٣).

وأحسن منهم مقيلا وإذا كان ذلك معناه، صحّ فساد قول من توهم أن تفضيل أهل الجنة بقول الله: ﴿خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا﴾ على غير الوجه المعروف من كلام الناس بينهم في قولهم: هذا خير من هذا، وهذا أحسن من هذا»[١].

قال الشنقيطي: «هذه الآية الكريمة تدل على انقضاء الحساب في نصف نهار؛ لأن المقيل القيلولة أو مكانها وهي الاستراحة نصف النهار في الحر، وممن قال بانقضاء الحساب في نصف نهار: ابن عباس، وابن مسعود، وعكرمة وابن جبير لدلالة هذه الآية، على ذلك كما نقله عنهم ابن كثير وغيره..

مع أنه تعالى ذكر أن مقدار يوم القيامة خمسون ألف سنة في قوله تعالى: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾[٢].

والظاهر في الجواب: أن يوم القيامة يطول على الكفار ويقصر على المؤمنين، ويشير لهذا قوله تعالى: بعد هذا بقليل ﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾﴾[٣] فتخصيصه عسر ذلك اليوم بالكافرين: يدل على أن المؤمنين ليسوا كذلك وقوله تعالى: ﴿فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴿١٠﴾﴾[٤] يدل بمفهوم مخالفته على أنه يسير على المؤمنين غير عسير كما دل عليه قوله تعالى: ﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ ۖ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾﴾[٥].. ومن المعلوم أن السرور يقصر به الزمن والكروب والهموم سبب لطوله كما قال أبو سفيان ابن الحارث رضي الله عنه يرثي رسول الله ﷺ:

أرقت فبات ليلي لا يزول وليل أخي المصيبة فيه طول

وقال الآخر:

فقصارهن مع الهموم طويلة وطوالهن مع السرور قصار

وقد أجاد من قال:

ليلى وليلى نفي نومي اختلافهما في الطول والطول طوبى لي لو اعتدلا
يجود بالطول ليلى كلما بخلت بالطول ليلى وإن جادت به بخلا

---

(١) جامع البيان (١٩/ ٥-٦).
(٢) المعارج: الآية (٤).
(٣) الفرقان: الآية (٢٦).
(٤) المدثر: الآيتان (٩و١٠).
(٥) القمر: الآية (٨).

ومثل هذا كثير في كلام العرب جدًّا. وأما على قول من فسر المقيل بأنه: المأوى، والمنزل، كقتادة رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فلا تعارض في الآيتين أصلا لأن المعنى على هذا القول أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرًّا وأحسن مأوى ومنزلًا، والعلم عند اللَّه تعالى»(١).

* * *

(١) دفع إيهام الاضطراب (١٩٣-١٩٤).

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي: «يخبر تعالى عن عظمة يوم القيامة وما فيه من الشدة والكروب، ومزعجات القلوب فقال: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ﴾ وذلك الغمام الذي ينزل اللَّه فيه، ينزل من فوق السماوات فتنفطر له السماوات وتشقق وتنزل ملائكة كل سماء فيقفون صفا صفا، إما صفا واحدا محيطا بالخلائق، وإما كل سماء يكونون صفا ثم السماء التي تليها صفا وهكذا. القصد أن الملائكة -على كثرتهم وقوتهم- ينزلون محيطين بالخلق مذعنين لأمر ربهم لا يتكلم منهم أحد إلا بإذن من اللَّه، فما ظنك بالآدمي الضعيف خصوصا الذي بارز مالكه بالعظائم، وأقدم على مساخطه ثم قدم عليه بذنوب وخطايا لم يتب منها، فيحكم فيه الملك الخلاق بالحكم الذي لا يجور ولا يظلم مثقال ذرة ولهذا قال: ﴿وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا﴾ لصعوبته الشديدة وتعسر أموره عليه، بخلاف المؤمن فإنه يسير عليه خفيف الحمل. ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾﴾[1].

وقوله: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ﴾ أي: يوم القيامة ﴿ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ لا يبقى لأحد من المخلوقين ملك ولا صورة ملك، كما كانوا في الدنيا، بل قد تساوت الملوك ورعاياهم والأحرار والعبيد والأشراف وغيرهم، ومما يرتاح له القلب، وتطمئن به النفس وينشرح له الصدر أن أضاف الملك في يوم القيامة لاسمه "الرحمن" الذي وسعت رحمته كل شيء وعمت كل حي وملأت الكائنات وعمرت بها الدنيا والآخرة، وتم بها كل ناقص وزال بها كل نقص، وغلبت الأسماء الدالة عليه الأسماء الدالة على الغضب وسبقت رحمته غضبه وغلبته، فلها السبق والغلبة، وخلق هذا الآدمي الضعيف وشرفه وكرمه ليتم عليه نعمته، وليتغمده برحمته، وقد

---

(١) مريم: الآيتان (٨٥و٨٦).

حضروا في موقف الذل والخضوع والاستكانة بين يديه ينتظرون ما يحكم فيهم وما يجري عليهم وهو أرحم بهم من أنفسهم ووالديهم فما ظنك بما يعاملهم به، ولا يهلك على اللَّه إلا هالك ولا يخرج من رحمته إلا من غلبت عليه الشقاوة وحقت عليه كلمة العذاب»[١].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة أن الملك الحقيقي لله وحده لا يشاركه فيه أحد

* عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**يقبض اللَّه الأرض ويطوي السماء بيمينه ثم يقول: أنا الملك، أين ملوك الأرض؟**»[٢].

★ فوائد الحديث:

إن الملك الحقيقي لله وحده لا يشاركه فيه أحد. وكل من ملك شيئًا فإنما هو بتمليك اللَّه له. وقد يسمى بعض المخلوقين ملكا إلا أن الذي يستحق هذا الاسم هو اللَّه جل وعز؛ لأنه مالك الملك وليس ذلك لأحد غيره.

قال ابن القيم: «ولما كان الملك الحق لله وحده ولا ملك على الحقيقة سواه كان أخنع اسم وأوضعه عند اللَّه وأغضبه له اسم "شاهان شاه" أي ملك الملوك وسلطان السلاطين، فإن ذلك ليس لأحد غير اللَّه، فتسمية غيره بهذا من أبطل الباطل واللَّه لا يحب الباطل. وقد ألحق بعض أهل العلم بهذا «قاضي القضاة» وقال: ليس قاضي القضاة إلا من يقضي الحق وهو خير الفاصلين، الذي إذا قضى أمرا فإنما يقول له: كن فيكون. ويلي هذا الاسم في الكراهة والقبح والكذب سيد الناس وسيد الكل وليس ذلك إلا لرسول اللَّه ﷺ خاصة كما قال: «**أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر**»[٣] فلا يجوز لأحد قط أن يقول عن غيره إنه سيد الناس وسيد

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٤٧٣-٤٧٥).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٧٤)، والبخاري (١١/ ٤٥٢/ ٦٥١٩)، ومسلم (٤/ ٢١٤٨/ ٢٧٨٧)، والنسائي في الكبرى (٤/ ٤٠١/ ٧٦٩٢) (٦/ ٤٤٧/ ٤٤٨/ ١١٤٥٥)، وابن ماجه (١/ ٦٨-٦٩/ ١٩٢).

(٣) أخرجه: أحمد (٣/ ٢)، والترمذي (٥/ ٢٨٨-٢٨٩/ ٣١٤٨) وقال: حسن صحيح، وابن ماجه (٢/ ١٤٤٠/ ٤٣٠٨).

الكل كما لا يجوز أن يقول: إنه سيد ولد آدم»[1].

هذا وقد تقدم الكلام على هذا الحديث في سورة الفاتحة الآية (٤)، وبالله التوفيق.

* * *

(١) زاد المعاد (٢/ ٣٤٠-٣٤١).

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ويوم يعضّ الظالم نفسه المشرك بربه على يديه ندما وأسفًا على ما فرط في جنب اللّه، وأوبق نفسه بالكفر به في طاعة خليله الذي صدّه عن سبيل ربه، يقول: يا ليتني اتخذت في الدنيا مع الرسول سبيلا يعني طريقا إلى النجاة من عذاب اللّه، وقوله: ﴿يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾﴾.

اختلف أهل التأويل في المعنيّ بقوله: ﴿ٱلظَّالِمُ﴾ وبقوله: ﴿فُلَانًا﴾ فقال بعضهم: عني بالظالم: عقبة بن أبي معيط؛ لأنه ارتدّ بعد إسلامه، طلبا منه لرضا أُبيّ بن خلف، وقالوا: فلان هو أُبيّ..

وقال آخرون: عنى بفلان: الشيطان»[(١)].

قال ابن كثير: «وسواء كان سبب نزولها في عقبة بن أبي مُعَيط أو غيره من الأشقياء، فإنها عامة في كل ظالم، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾﴾[(٢)] فكل ظالم يندم يوم القيامة غاية الندم، ويَعَض على يديه قائلا: ﴿يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾﴾ يعني: مَن صرفه عن الهدى، وعدل به إلى طريق الضلالة من دعاة الضلالة، وسواء في ذلك أمية بن خلف، أو أخوه أبي بن خلف، أو غيرهما»[(٣)].

قال الشنقيطي: «وندم الكافر يوم القيامة وحسرته الذي دلت عليه هذه الآية،

(١) جامع البيان (١٩/ ٧-٨).
(٢) الأحزاب: الآيات (٦٦-٦٨).
(٣) تفسير القرآن العظيم (٥/ ١٤٩).

جاء موضحًا في آيات أخر، كقوله تعالى في سورة يونس: ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَۖ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾[1]. وقوله تعالى في سورة سبأ ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِيٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ﴾[2] الآية وقوله تعالى: ﴿يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾[3] الآية. والحسرة أشد الندامة وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّاۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾﴾[4] إلى غير ذلك من الآيات، وما ذكره هنا من أن الكافر يتمنى أن يكون آمن بالرسول في دار الدنيا، واتخذ معه سبيلًا: أي طريقًا إلى الجنة في قوله هنا: ﴿يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ جاء موضحًا في آيات أخر كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾﴾[5] وقوله تعالى: ﴿يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ﴿٢٤﴾﴾[6] وقوله تعالى: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾﴾[7] إلى غير ذلك من الآيات»[8].

قال الرازي: «قالت الرافضة: هذا الظالم هو رجل بعينه وإن المسلمين غيروا اسمه وكتموه وجعلوا فلانًا بدلًا من اسمه، وذكروا فاضلين من أصحاب رسول الله..».

وهذا القول يقول الرازي: «لا يتم إلا بالطعن في القرآن وإثبات أنه غير وبدل ولا نزاع في أنه كفر»[9].

قال ابن القيم: «فكل من اتخذ خليلا غير الرسول يترك لأقواله وآرائه ما جاء به الرسول ﷺ فإنه قائل هذه المقالة لا محالة. ولهذا، هذا الخليل كنى عنه باسم فلان إذ لكل متبع أولياء من دون الله فلان وفلان. فهذا حال الخليلين المتخالين على خلاف طاعة الرسول ﷺ مآل تلك الخلة إلى العداوة واللعنة؛ كما قال تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذِۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾[10] وقد ذكر تعالى حال هؤلاء الأتباع وحال من اتبعوهم في غير موضع من كتابه كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ

---

(١) يونس: الآية (٥٤).
(٢) سبأ: الآية (٣٣).
(٣) الأنعام: الآية (٣١).
(٤) البقرة: الآية (١٦٧).
(٥) الأحزاب: الآية (٦٦).
(٦) الفجر: الآية (٢٤).
(٧) الحجر: الآية (٢).
(٨) أضواء البيان (٦/٣١٣-٣١٤).
(٩) التفسير الكبير (١٢/٧٦-٧٧).
(١٠) الزخرف: الآية (٦٧).

وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾﴾[1].

تمنى القوم طاعة اللَّه ورسوله حين لا ينفعهم ذلك، واعتذروا بأنهم أطاعوا كبراءهم ورؤساءهم، واعترفوا بأنهم لا عذر لهم في ذلك، وأنهم أطاعوا السادات والكبراء، وعصوا الرسول، وآلت تلك الطاعة والموالاة إلى قولهم: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾﴾. وفي بعض هذا عبرة للعاقل وموعظة شافية وباللَّه التوفيق»[2].

قال ابن باديس: «فالآية وإن كانت في الكافر والمشرك، فهي تتناول بطريق الاعتبار أهل الأهواء والبدع، وبهذا كانت الآية متناولة بوعظها وترهيبها جميع الخلق ممن لم يدخل في الإسلام، أو دخل فيه ولم يلتزم سنة نبيه ﷺ..

لما كان خليل المرء بهذه المنزلة فعليك أن تختار من تخالل، فلا تخال إلا من حسنت سريرته، واستقامت سيرته، وغلب الصواب على أقواله وأعماله، ليكون دليلك إلى الخير، وسائقك إليه، مع محافظتك على إرادتك وتمييزك معه على كل حال.

إذا أردت أن تعرف شر خلانك، وأحقهم بهجرك له وابتعادك عنه: فانظر فيما يرغبك هو فيه، وما يرغبك عنه.

فإذا وجدته يرغبك عن القرآن، وعما جاء به القرآن فإياك وإياه، فتلك أصدق علامة على خبثه وسوء عاقبة قربه، فابتعد عنه في الدنيا قبل أن تعض على يديك على صحبتك له في الأخرى.

وإذا وجدته يرغبك في القرآن وما جاء به القرآن، فذلك الخليل الزكي الصادق، فاستمسك به، وحافظ عليه.

وإن خلة أسست على الرجوع إلى القرآن، والتحاب على القرآن، والتناصح بالقرآن؛ لخلة نافعة دنيا وأخرى؛ لأنها أسست على أساس التقوى، وقد قال تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾[3]»[4].

---

(١) الأحزاب: الآيات (٦٦-٦٨).

(٢) الرسالة التبوكية (ص: ١٤٤-١٤٥).

(٣) الزخرف: الآية (٦٧).

(٤) تفسير ابن باديس (ص: ١٧١-١٧٢).

قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي ۗ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنسَانِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -جلّ ثناؤه- مخبرا عن هذا النادم على ما سلف منه في الدنيا، من معصية ربه في طاعة خليله: لقد أضلني عن الإيمان بالقرآن، وهو الذكر، بعد إذ جاءني من عند اللَّه، فصدّني عنه، يقول الله: ﴿وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنسَانِ خَذُولًا﴾ يقول: مسلما لما ينزل به من البلاء غير منقذه ولا منجيه»[١].

قال السعدي: «﴿لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي ۗ﴾ حيث زين له ما هو عليه من الضلال بخدعه وتسويله. ﴿وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنسَانِ خَذُولًا﴾ يزين له الباطل ويقبح له الحق، ويعده الأماني ثم يتخلى عنه ويتبرأ منه كما قال لجميع أتباعه حين قضي الأمر، وفرغ اللَّه من حساب الخلق ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم ۖ مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ ۖ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ﴾[٢] الآية. فلينظر العبد لنفسه وقت الإمكان وليتدارك الممكن قبل أن لا يمكن، وليوال من ولايته فيها سعادته وليعاد من تنفعه عداوته وتضره صداقته. واللَّه الموفق»[٣].

قال الشنقيطي: «ومن الآيات الدالة على أن الشيطان يخذل الإنسان قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم ۖ مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ ۖ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ

(١) جامع البيان (٩/ ١٩).
(٢) إبراهيم: الآية (٢٢).
(٣) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٤٧٥-٤٧٦).

أَلِيمٌ﴾(١) وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾﴾(٢) الآية..

وهذه الآية الكريمة تدل على أن قرين السوء قد يدخل قرينه النار، والتحذير من قرين السوء مشهور معروف، وقد بين -جل وعلا- في سورة الصافات: أن رجلًا من أهل الجنة أقسم بالله أن قرينه كاد يرديه أي: يهلكه بعذاب النار، ولكن لطف الله به فتداركه برحمته وإنعامه فهداه وأنقذه من النار، وذلك في قوله تعالى: ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾﴾(٣) إلى قوله تعالى: ﴿فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾﴾(٤)»(٥).

* * *

(١) إبراهيم: الآية (٢٢).
(٢) الأنفال: الآية (٤٨).
(٣) الصافات: الآيتان (٥١و٥٢).
(٤) الصافات: الآيات (٥٥-٥٧).
(٥) أضواء البيان (٦/ ٣١٥-٣١٦).

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَارَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الرازي: «اعلم أن الكفار لما أكثروا من الاعتراضات الفاسدة ووجوه التعنت ضاق صدر الرسول ﷺ وشكاهم إلى اللَّه تعالى وقال: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَارَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا﴾»(١).

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: وقال الرسول يوم يعضّ الظالم على يديه: يا ربِّ إن قومي الذين بعثتني إليهم لأدعوهم إلى توحيدك اتخذوا هذا القرآن مهجورا»(٢).

قال الناصري: «حذر كتاب اللَّه أمة الإجابة أمة سيدنا محمد ﷺ- من إهمال كتاب اللَّه، وتجاهل ما تضمنه من عقائد وشرائع وتعاليم أخلاقية، وتوجيهات كونية، مؤكدا أن خاتم الأنبياء والمرسلين سيشكو أمته إلى ربه، شكوى لوم ومؤاخذة وتقريع، على هجرها للقرآن، وتمسكها بعقائد غير مطابقة لعقائده، وحكمها بشرائع مناقضة لشرائعه، وأخذها في حياتها بسلوك منحرف دخيل لا يتفق مع مبادئه. وبديهي أن اللَّه تعالى الذي اصطفى لرسالته محمدا من بين خلقه لا يهمل شكوى خاتم أنبيائه ورسله، وسيؤاخذ الذين هجروا الذكر الحكيم في الدنيا والآخرة، وهذه الشكوى الصارخة هي التي تضمنها قوله تعالى هنا: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَارَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾﴾ وقومه ﷺ يشمل أمته كلها من البداية إلى النهاية، سواء من عاصر الرسالة ومن جاء بعدها إلى يوم الدين. أما عقاب من عامل كتاب اللَّه بالهجران والنسيان، فقد جاء صريحا واضحا في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴿١٢٤﴾

---

(١) التفسير الكبير (٢٤/ ٧٨).

(٢) جامع البيان (١٩/ ٩).

قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِيٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾ ﴾[1]»[2].

قال ابن القيم: «هجر القرآن أنواع:

أحدها: هجر سماعه والإيمان به والإصغاء إليه.

والثاني: هجر العمل به، والوقوف عند حلاله، وحرامه، وإن قرأه وآمن به.

والثالث: هجر تحكيمه والتحاكم إليه في أصول الدين وفروعه، واعتقاد أنه لا يفيد اليقين، وأن أدلته لفظية لا تحصل العلم.

والرابع: هجر تدبره، وتفهمه، ومعرفة ما أراد المتكلم به منه.

والخامس: هجر الاستشفاء والتداوي به في جميع أمراض القلب وأدوائها، فيطلب شفاء دائه من غيره ويهجر التداوي به وكل هذا داخل في قوله: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ ﴾ وإن كان بعض الهجر أهون من بعض»[3].

قال ابن باديس: «في قوله: ﴿يَٰرَبِّ﴾ إظهار لعظيم التجائه، وشدة اعتماده، وتمام تفويضه لمالكه ومدبره أمره، وموالي الإنعام عليه.

وفي التعبير عنهم بقومه وإضافتهم إليه، وفي التعبير عن القرآن باسم الإشارة القريب؛ بيان لعظيم جرمهم بتركهم للقرآن، وهو قريب منهم في متناولهم، وقد أتاهم به واحد منهم، أقرب الناس إليهم، فصدوا وأبعدوا في الصد عمن هو إليهم قريب من قريب، وهذا أقبح الصد وأظلمه»[4].

وقال أيضًا: «شر الهاجرين للقرآن هم الذين يضعون من عند أنفسهم ما يعارضونه به، ويصرفون وجوه الناس إليهم وإلى ما وضعوه عنه؛ لأنهم جمعوا بين صدهم وهجرهم في أنفسهم وصد غيرهم، فكان شرهم متعديا، وبلاؤهم متجاوزا وشر الشر وأعظم البلاء ما كان كذلك..

فانظر في قطرنا وفي غير قطرنا، كم تجد ممن بنى موضعا للصلاة، ووضع كتبا

---

(١) طه: الآيات (١٢٤-١٢٧).

(٢) التيسير في أحاديث التفسير (٤/ ٣١٧).

(٣) الفوائد (١٠٦-١٠٧).

(٤) تفسير ابن باديس (١٧٢)

من عنده، أو مما وضعه أسلافه من قبله، وروجها بين أتباعه، فأقبلوا عليها وهجروا القرآن. وربما يكون بعضهم قصد بما وضع النفع فأخطأ وجهه، إذ لا نفع بما صرف عباده عن كتاب اللّه. وإنما يدعى لله بكتاب الله؛ ولذلك سمي صنيع هذا الواضع بدعة وضلالة»[١].

* * *

(١) المصدر السابق (١٧٥).

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «وقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ﴾ يقول -تعالى ذكره- لنبيه محمد ﷺ: وكما جعلنا لك يا محمد أعداء من مشركي قومك، كذلك جعلنا لكل من نبأناه من قبلك عدوّا من مشركي قومه، فلم تخصص بذلك من بينهم. يقول: فاصبر لما نالك منهم كما صبر من قبلك أولو العزم من رسلنا..

وكفاك يا محمد بربك هاديا يهديك إلى الحقّ، ويبصرك الرشد، ونصيرا: يقول: ناصرا لك على أعدائك، يقول: فلا يهولنك أعداؤك من المشركين، فإني ناصرك عليهم، فاصبر لأمري، وامض لتبليغ رسالتي إليهم»(١).

قال ابن كثير: «جعل لكل نبي عدوا من المجرمين، يدعون الناس إلى ضلالهم وكفرهم، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾(٢)؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ أي: لمن اتبع رسوله، وآمن بكتابه وصدقه واتبعه، فإن اللّه هاديه وناصره في الدنيا والآخرة. وإنما قال: ﴿هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ لأن المشركين كانوا يصدون الناس عن اتباع القرآن، لئلا يهتدي أحد به، ولتغلب طريقتهم طريقة القرآن؛ فلهذا قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ﴾»(٣).

قال ابن باديس: «هؤلاء الذين سماهم اللّه تعالى أعداء لنبيه، ووصفهم

---

(١) جامع البيان (١٩/ ١٠).

(٢) الأنعام: الآيتان (١١٢و١١٣).

(٣) تفسير البقرآن العظيم (٥/ ١٥٠).

بالإجرام، هم أولئك الذين هجروا القرآن وصدوا عنه، فهذا تخويف عظيم ووعيد شديد لكل من كان هاجرا للقرآن العظيم بوجه من وجوه الهجران.

اقتداء وتأس:

حق على حزب القرآن الداعين به والداعين إليه أن يقتدوا بالأنبياء والمرسلين في الصبر على الدعوة، والمضي فيها، والثبات عليها. وأن يداووا أنفسهم عند ألمها واضطرابها، بالتأسي بأولئك السادة الأخيار.

بشارة:

قد وعد اللّه تعالى نبيه بعد ما أمره بالتأسي والصبر بالهداية والنصر. وفي هذا بشارة للدعاة من أمته من بعده، السائرين في الدعوة بالقرآن وإلى القرآن على نهجه، أن يهديهم وينصرهم. كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾[1] معهم بالفضل والنصر والتأييد، هذا عام للمجاهدين المحسنين والحمد لله رب العالمين»[2].

قال السعدي: «قال اللّه مسليًا لرسوله ومخبرا أن هؤلاء الخلق لهم سلف صنعوا كصنيعهم فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ﴾ أي: من الذين لا يصلحون للخير ولا يزكون عليه يعارضونهم ويردون عليهم ويجادلونهم بالباطل.

من بعض فوائد ذلك أن يعلو الحق على الباطل وأن يتبين الحق ويتضح اتضاحًا عظيمًا؛ لأن معارضة الباطل للحق مما تزيده وضوحا وبيانا وكمال استدلال، وأن يتبين ما يفعل اللّه بأهل الحق من الكرامة، وبأهل الباطل من العقوبة، فلا تحزن عليهم ولا تذهب نفسك عليهم حسرات ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا﴾ يهديك فيحصل لك المطلوب ومصالح دينك ودنياك. ﴿وَنَصِيرًا﴾ ينصرك على أعدائك، ويدفع عنك كل مكروه في أمر الدين والدنيا فاكتف به، وتوكل عليه»[3].

* * *

(١) العنكبوت: الآية (٦٩).

(٢) تفسير ابن باديس (١٧٦-١٧٧).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (٣/ ٤٠٩-٤١٠).

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾﴾

★ **غريب الآية:**

ترتيلًا: الترتيل: التبيين في تثبت وترسل. ومنه ثغر رتل: إذا كان بين الأسنان غير متراكبها. وهو المفلج الذي لا لصص فيه.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بالله ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ يقول: هلا نزل على محمد ﷺ القرآن ﴿جُمْلَةً وَٰحِدَةً﴾ كما أنزلت التوراة على موسى جملة واحدة؟ قال الله: ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ تنزيله عليك الآية بعد الآية، والشيء بعد الشيء، لنثبت به فؤادك نزلناه. وقوله: ﴿وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾ يقول: وشيئًا بعد شيء علمناكه حتى تحفظنه، والترتيل في القراءة: الترسل والتثبت. وقال آخرون: معنى الترتيل: التبين والتفسير»(١).

قال الزركشي: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً﴾ يعنون كما أنزل على من قبله من الرسل، فأجابهم الله بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي أنزلناه كذلك مفرقا لنثبت به فؤادك، أي لنقوي به قلبك، فإن الوحي إذا كان يتجدد في كل حادثة كان أقوى للقلب وأشد عناية بالمرسل إليه، ويستلزم ذلك كثرة نزول الملك إليه، وتجديد العهد به وبما معه من الرسالة الواردة من ذلك الجانب العزيز، فحدث له من السرور ما تقصر عنه العبارة، ولهذا كان أجود ما يكون في رمضان لكثرة نزول جبريل عليه السلام»(٢).

قال ابن باديس: «وفي ذلك تقوية له، وأي تقوية لا عن شك كان في قلبه أو تردد

---

(١) جامع البيان (١٩/ ١٠-١١).
(٢) البرهان (١/ ٢٣١).

ولكن البراهين المتوالية، والحجج المتتالية، تزيد في سكون القلب واطمئنانه، وإن كان معقودا من أول أمره على اليقين. فهذا وجه من تثبيت فؤاده بالآيات المتفرقات في النزول.

وقد كان كل نجم من نجوم القرآن ينزل بشيء من العلم والعرفان، مما يرجع إلى العقائد أو الأخلاق أو الأحكام أو التذكير بالأمم الماضية وأخبار الرسل المتقدمين، أو باليوم الآخر أو بسنة اللَّه في المكذبين، إلى غير ذلك من علوم القرآن؛ فيقوى قلبه عند نزول كل نجم بما يكتسبه منه من معرفة وعلم.

وكان يلقى من الجهد والعناء في تبليغ الرسالة ما تضعف عن تحمله القوى البشرية، فإذا نزل عليه القرآن، واتصل بالملك الروحاني النوراني، وقذف في قلبه ذلك الوحي القرآني، تقوى قلبه على تحمل أعباء الرسالة ومشاق التبليغ.

ولما كان البلاء والعناء في سبيل التبليغ متكررا متجددا، كان محتاجا إلى تجديد تقوية قلبه، وكان ذلك مقتضيا لتفريق نزول الآي عليه، فهذه ثلاثة وجوه من التثبت»[1].

قال الناصري: «والحكمة في نزوله مفرقا على تلك الصفة حسبما نصت عليه هذه الآية تتعلق بالرسول مباشرة، وهي تثبيت محتوى آيات القرآن لفظا ومعنى في قلب الرسول، ومساعدته على تلقيه وقراءته بترسل وتمهل وتؤدة، تيسيرا لحفظه أولا، وتمهيدا لتلقينه لأمته ثانيا حسبما أنزل عليه، آية بعد آية، ووقفة بعد وقفة، ويزيد هذا المعنى توضيحا قوله تعالى في سورة القيامة: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾[2] وقوله تعالى في سورة طه ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ﴾[3] وهذا المنهج الإلهي الحكيم في التلقي والتلقين هو المنهج الوحيد الذي يتفق مع ما جاء في خطاب اللَّه لنبيه، واصفا حالته التي كان عليها عند تلقي الرسالة، إذ قال تعالى في سورة الشورى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾[4] قال القاضي عبد الجبار: «فلو أنزل عليه جملة واحدة لكان مخالفا

(١) تفسير ابن باديس (١٧٩).
(٢) القيامة: الآيات (١٦-١٩).
(٣) طه: الآية (١١٤).
(٤) الشورى: الآية (٥٢).

للحكمة». وهناك حكمة أخرى من وراء نزول القرآن منجما مفرقا على فترات متلاحقة دون انقطاع، على تبليغ دين الحق، والمجاهدة يقول الحق في مواجهة خصوم الرسالة الماكرين، الذين طالما حاولوا فتنةالرسول، واستعملوا كل الوسائل المادية والأدبية للضغط عليه وصرفه عن رسالته، وذلك ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾[1] وقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾﴾[2] لكن اللّه عصمه من كيدهم ومكرهم، إذ كلما تجدد اتصال الرسول بالوحي في المواقف الحرجة ازداد قلبه قوة، وتضاعفت ثقته بعناية اللّه ورعايته، وأحس بمدد إلهي جديد يعينه على المزيد من الصبر والثبات، وتخطي العقبات.

وقد تحدث كتاب اللّه في آية أخرى عن حكمة دقيقة من حكم تنجيم القرآن ونزوله مفرقا، وذلك بالنسبة للمرسل إليهم، وهذه الحكمة سبقت الإشارة إليها عند قوله تعالى في سورة الإسراء: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾﴾[3] ذلك أن الإنسانية الضالة التي أراد اللّه أن يخرجها من الظلمات إلى النور لا يمكن أن تقفز من حضيض الجهالة الجهلاء إلى أعلى درجة في السمو والارتقاء، بين عشية وضحاها، إذ لا بد لتحولها عما كانت عليه، وتطورها إلى ما يجب أن تؤول إليه، من وقت كاف تستوعب فيه يوما بعد يوم، ما جاء به القرآن الكريم من عقيدة وشريعة وأخلاق، فقوله تعالى في خطابه لنبيه في سورة الإسراء: ﴿لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ﴾ يفيد أن حكمة اللّه اقتضت أن يكون تبليغ القرآن إلى الناس على مهل، تدريجيا ودون عجلة، حتى يحفظوه ويعوه، ويرتاضوا به ويتبعوه، ويسايروه في حياتهم خطوة خطوة.

وقوله تعالى في نفس السياق: ﴿وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ يشير إلى أن حكمة اللّه اقتضت أن يكون تنزيل القرآن على فترات، ليواجه ما يتجدد في حياة الناس من حوادث ومسائل وشبهات، إذ لا يخفى على أحد ما تزخر به الحياة اليومية في مثل هذه المرحلة الانتقالية الدقيقة، من إلقاء أسئلة محرجة تحتاج الأجوبة الشافية، ومن

---

(١) المائدة: الآية (٤٩).

(٢) الإسراء: الآية (٧٤).

(٣) الإسراء: الآية (١٠٦).

وقوع حوادث معقدة تتوقف على الحلول الكافية، فتنزل آيات القرآن مفرقة تبعا لذلك في الوقت المناسب بما هو مناسب، تثبيتا لفؤاد الرسول والمرسل إليهم، وتأنيسا له ولهم في آن واحد، الأمر الذي يكون أوقع في النفوس، لما فيه من تجاوب ملموس، وإلى هذا المعنى يشير قوله تعالى في هذا الربع ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾﴾[1].

ومجمل القول أن نزول القرآن منجما ومفرقا كان هو الطريق المضمون لتلقي الرسول رسالة ربه على أكمل وجه، ولتلقينه المرسل إليهم آيات الذكر الحكيم، وتكاليف دينهم القويم، وبذلك امتزجت روح الإسلام بنفوس الأفراد والمجتمعات، وقام على أنقاض المجتمع الجاهلي مجتمع إسلامي الطابع، يعتبر هو المثل الأعلى والقدوة الصالحة، لما ينشأ على غراره من المجتمعات»[2].

* * *

(١) الفرقان: الآية (٣٣).

(٢) التيسير (٤/ ٣٢٣-٣٢٦).

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾﴾

★ غريب الآية:

تفسيرا: أصله الظهور والبيان.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ولا يأتيك يا محمد هؤلاء المشركون بمثل يضربونه إلا جئناك من الحق بما نبطل به ما جاءوا به، وأحسن منه تفسيرًا»(١).

قال ابن كثير: «وما هذا إلا اعتناء كبير؛ لشرف الرسول صلوات اللَّه وسلامه عليه، حيث كان يأتيه الوحي من اللَّه بالقرآن صباحا ومساء، ليلا ونهارا، سفرا وحضرا، فكل مرة كان يأتيه الملك بالقرآن كإنزال كتاب مما قبله من الكتب المتقدمة، فهذا المقام أعلى وأجلُّ، وأعظم مكانة من سائر إخوانه من الأنبياء، صلوات اللَّه وسلامه عليهم أجمعين. فالقرآن أشرف كتاب أنزله اللَّه، ومحمد صلوات اللَّه وسلامه عليه، أعظم نبي أرسله اللَّه وقد جمع اللَّه تعالى للقرآن الصفتين معا، ففي الملأ الأعلى أنزل جملة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة في سماء الدنيا ثم نزل بعد ذلك إلى الأرض منجما بحسب الوقائع والحوادث»(٢).

قال ابن القيم: «ولهذا لا تجد كلاما أحسن تفسيرا، ولا أتم بيانا من كلام اللَّه سبحانه، ولهذا سماه سبحانه بيانا، وأخبر أنه يسره للذكر وتيسيره للذكر يتضمن أنواعا من التيسير:

إحداها: تيسير ألفاظه للحفظ. الثاني: تيسير معانيه للفهم.

الثالث: تيسير أوامره ونواهيه للامتثال، ومعلوم أنه لو كان بألفاظ لا يفهمها المخاطب لم يكن ميسرا له؛ بل كان معسرا عليه، فهكذا إذا أريد من المخاطب أن يفهم من ألفاظه ما لا يدل عليه من المعاني أو يدل على خلافه فهذا من أشد التعسير

---

(١) جامع البيان (١٩/ ١١). (٢) تفسير القرآن العظيم (٥/ ١٥١).

وهو مناف للتيسير؛ فإنه لا شيء أعسر على الأمة من أن يراد منهم أن يفهموا كونه سبحانه لا داخل العالم ولا خارجه ولا متصلا به ولا منفصلا عنه ولا مباينا له ولا محايثا ولا يرى بالأبصار عيانا ولا له وجه ولا يد من قوله: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾[1]»[2].

قال السعدي: «فمعانيه كلها حق وصدق لا يشوبها باطل ولا شبهة بوجه من الوجوه، وألفاظه وحدوده للأشياء أوضح ألفاظا وأحسن تفسيرا مبين للمعاني بيانا كاملا. وفي هذه الآية دليل على أنه ينبغي للمتكلم في العلم من محدث ومعلم، وواعظ أن يقتدي بربه في تدبيره حال رسوله، كذلك العالم يدبر أمر الخلق فكلما حدث موجب أو حصل موسم، أتى بما يناسب ذلك من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية والمواعظ الموافقة لذلك.

وفيه رد على المتكلفين من الجهمية ونحوهم ممن يرى أن كثيرا من نصوص القرآن محمولة على غير ظاهرها ولها معان غير ما يفهم منها، فإذا -على قولهم- لا يكون القرآن أحسن تفسيرا من غيره، وإنما التفسير الأحسن -على زعمهم- تفسيرهم الذي حرفوا له المعاني تحريفا»[3].

قال ابن باديس: «إذا تتبعت آيات القرآن وجدتها قد أتت بالعدد الوافر من شبه الضالين واعتراضاتهم، ونقضتها بالحق الواضح والبيان الكاشف في أوجز لفظ وأقربه وأبلغه. وهذا قسم عظيم جليل من علوم القرآن يتحتم على رجال الدعوة والإرشاد أن يكون لهم به فضل عناية، ومزيد دراية وخبرة. ولا نحسب شبهة ترد على الإسلام، إلا وفي القرآن العظيم ردها بهذا الوعد الصادق من هذه الآية الكريمة. فعلينا عند ورود كل شبهة من كل ذي ضلالة أن نفزع إلى آي القرآن، ولا إخالنا إذا أخلصنا القصد وأحسنا النظر إلا واجديها فيها. وكيف لا نجدها في آيات ربنا التي هي الحق وأحسن تفسيرًا؟... وهذا يستدعي صحة الإدراك، وجودة الفهم، ومتانة العلم، لتصور الحق ومعرفته، ويستدعي حسن البيان، وعلوم اللسان، لتصوير الحق وتجليته والدفاع عنه»[4].

---

(١) الإخلاص: الآية (١).
(٢) الصواعق المرسلة (١/ ٣٣١-٣٣٢).
(٣) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٤٧٨).
(٤) تفسير ابن باديس (١٨٣-١٨٤).

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُحۡشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضَلُّ سَبِيلٗا ﴿٣٤﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- لنبيه: هؤلاء المشركون يا محمد، القائلون لك ﴿لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ﴾ ومن كان على مثل الذي هم عليه من الكفر بالله، الذين يحشرون يوم القيامة على وجوههم إلى جهنم، فيساقون إلى جهنم شرّ مستقرًا في الدنيا والآخرة من أهل الجنة في الجنة، وأضل منهم في الدنيا طريقا»[1].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة أن المقربين يحشرون ركبانا ومن دونهم من المسلمين على أقدامهم، وأما الكفار فيحشرون على وجوههم

* عن أنس بن مالك ﷺ أن رجلا قال: «يا نبي الله يحشر الكافر على وجهه يوم القيامة؟ قال: «**أليس الذي أمشاه على الرجلين في الدنيا قادرا على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة**» قال قتادة: بلى وعزة ربنا»[2].

* عن أبي هريرة ﷺ: قال رسول الله ﷺ: «**يحشر الناس يوم القيامة ثلاثة أصناف: صنفا مشاة، وصنفا ركبانا، وصنفا على وجوههم**»، قيل يا رسول الله: وكيف يمشون على وجوههم؟ قال: «**إن الذي أمشاهم على أقدامهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم، أما إنهم يتقون بوجوههم كل حدب وشوك**»[3].

---

(١) جامع البيان (١٩/ ١٢).

(٢) أخرجه: أحمد (٣/ ٢٢٩)، والبخاري (٨/ ٦٣٠/ ٤٧٦٠)، ومسلم (٤/ ٢١٦١/ ٢٨٠٦)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٢٠/ ١١٣٦٧).

(٣) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٦٣)، والترمذي (٥/ ٢٨٥-/ ٣١٤٢) وحسنه.

★ **غريب الحديث:**

حدب: مكان مرتفع.

* عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**إنكم محشورون رجالا وركبانا ويجرون على وجوههم**»[(١)].

★ **فوائد الأحاديث:**

قال الملا علي القاري: «يحشر الناس يوم القيامة ثلاثة أصناف: صنفا مشاة»: بضم الميم: جمع ماش، وهم المؤمنون الذين خلطوا صالح أعمالهم بسيئها (وصنفا ركبانا) أي على النوق وهم بضم الراء جمع راكب، وهم السابقون الكاملون الإيمان، وإنما بدأ بالمشاة جبرا لخاطرهم كما قيل في قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾[(٢)] وفي قوله سبحانه: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا﴾[(٣)] أو لأنهم المحتاجون إلى المغفرة أولا، أو لإرادة الترقي وهو ظاهر. وقال التوربشتي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فإن قيل: لم بدأ بالمشاة بالذكر قبل أولي السابقة؟ قلنا: لأنهم هم الأكثرون من أهل الإيمان. (وصنفا على وجوههم): أي يمشون عليها وهم الكفار (قيل: يا رسول اللَّه، وكيف يمشون على وجوههم؟) أي والعادة أن يمشي على الأرجل قال: «**إن الذي أمشاهم على أقدامهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم**»، يعني وقد أخبر في كتابه بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾[(٤)] وإخباره حق ووعده صدق وهو على كل شيء قدير، فلا ينبغي أن يستبعد مثل ذلك (أما): بالتخفيف للتنبيه (إنهم): أي الكفار (يتقون): أي يحترزون ويدفعون (بوجوههم كل حدب): أي مكان مرتفع (وشوك): أي ونحوه من أنواع ما يتأذى به، والمعنى أن وجوههم واقية لابد أنهم من جميع الأذى لأجل أن غلت أيديهم وأرجلهم، والأمر في الدنيا على عكس ذلك، وإنما كان كذلك لأن الوجه الذي هو أعز الأعضاء لم يضعه ساجدا على التراب، وعدل عنه تكبرا فجعل أمره على العكس.

قال القاضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، **قوله: «يتقون بوجوههم»** يريد بيان هوانهم واضطرارهم

---

(١) رواه: أحمد (٤/ ٤٤٦-٤٤٧) مطولا، والترمذي (٥/ ٢٨٦-٢٨٥/ ٣١٤٣) وحسنه، والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٣٩/ ١١٤٣١).

(٢) فاطر: الآية (٣٢).

(٣) الشورى: الآية (٤٩).

(٤) الفرقان: الآية (٣٤).

إلى حد جعلوا وجوههم مكان الأيدي والأرجل في التوقي عن مؤذيات الطرق والمشي إلى المقصد، لما لم يجعلوها ساجدة لمن خلقها وصورها»[١].

قال القرطبي نقلا عن الغزالي: «في طبع الآدمي إنكار ما لم يأنس به ولم يشاهده، ولو لم يشاهد الإنسان الحية وهي تمشي على بطنها لأنكر المشي من غير رجل، والمشي بالرجل أيضًا مستبعد عند من لم يشاهد ذلك، فإياك أن تنكر شيئًا من عجائب يوم القيامة لمخالفتها قياس الدنيا، فإنك لو لم تشاهد عجائب الدنيا ثم عرضت عليك قبل المشاهدة لكنت أشد إنكارا لها. فأحضر رحمك اللَّه في قلبك صورتك وأنت قد وقفت عاريًا ذليلًا مدحورًا متحيرًا مبهوتًا منتظرًا لما يجري عليك من القضاء بالسعادة أو بالشقاء»[٢].

* * *

---

(١) المرقاة (٩/ ٤٨٥-٤٨٦).

(٢) التذكرة (ص: ٢٠١).

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾﴾

★ **غريب الآية:**

وزيرا: الوزير: المتحمل ثقل أميره وشغله.

تدميرا: التدمير: الإهلاك. يقال: دمر القوم: إذا هلكوا بدخول الهلاك عليهم.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- لنبيه محمد ﷺ يتوعد مشركي قومه على كفرهم بالله، وتكذيبهم رسوله ويخوّفهم من حلول نقمته بهم، نظير الذي يحلّ بمن كان قبلهم من الأمم المكذّبة رسلها ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا﴾ يا محمد ﴿مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ يعني التوراة، كالذي آتيناك من الفرقان ﴿وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا﴾ يعني معينا وظهيرا ﴿فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ يقول: فقلنا لهما: اذهبا إلى فرعون وقومه الذين كذبوا بإعلامنا وأدلتنا، ﴿فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا﴾. وفي الكلام متروك استغني بدلالة ما ذكر من ذكره وهو: فذهبا فكذبوهما فدمرناهم حينئذ»[(١)].

قال الشوكاني: «إن تخصيص موسى بالخطاب في بعض المواطن لكونه الأصل في الرسالة، والجمع بينهما في الخطاب لكونهما مرسلين جميعًا»[(٢)].

قال ابن عاشور: «وقد حصل بهذا النظم إيجاز عجيب اختصرت به القصة فذكر منها حاشيتاها: أولها وآخرها لأنهما المقصود بالقصة وهو استحقاق الأمم التدمير بتكذيبهم رسلهم. والتدمير: الإهلاك، والهلاك: دمور، وإتباع الفعل بالمفعول

---

(١) جامع البيان (١٩/ ١٣).

(٢) فتح القدير (٤/ ١٠٨).

المطلق لما في تنكير المصدر من تعظيم التدمير وهو الإغراق في اليم»[١].

قال عبد الرحمن السعدي: «أشار تعالى إلى هذه القصص وقد بسطها في آيات أخر ليحذر المخاطبين من استمرارهم على تكذيب رسولهم فيصيبهم ما أصاب هؤلاء الأمم الذين قريبًا منهم، ويعرفون قصصهم بما استفاض واشتهر عنهم.

ومنهم من يرون آثارهم عيانًا كقوم صالح في الحجر، وكالقرية التي أمطرت مطر السوء بحجارة من سجيل يمرون عليهم مصبحين وبالليل في أسفارهم، فإن أولئك الأمم ليسوا شرا منهم، ورسلهم ليسوا خيرا من رسول هؤلاء ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٤٣﴾﴾[٢] ولكن الذي منع هؤلاء من الإيمان -مع ما شاهدوا من الآيات- أنهم كانوا لا يرجون بعثا ولا نشورا، فلا يرجون لقاء ربهم، ولا يخشون نكاله، فلذلك استمروا على عنادهم، وإلا فقد جاءهم من الآيات ما لا يبقى معه شك ولا شبهة ولا إشكال ولا ارتياب»[٣].

* * *

---

(١) التحرير والتنوير (١٩/ ٢٦).

(٢) القمر: الآية (٤٣).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (٣/ ٤١١-٤١٢).

قوله تعالى: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: وقوم نوح لما كذبوا رسلنا، وردّوا عليهم ما جاءوهم به من الحقّ، أغرقناهم بالطوفان ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً﴾ يقول: وجعلنا تغريقنا إياهم وإهلاكنا عظة وعبرة للناس يعتبرون بها ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ يقول: وأعددنا لهم من الكافرين باللَّه في الآخرة عذابًا أليمًا، سوى الذي حلّ بهم من عاجل العذاب في الدنيا»[1].

قال ابن كثير: «ومن كذب برسول فقد كذب بجميع الرسل؛ إذ لا فرق بين رسول ورسول، ولو فرض أن اللَّه بعث إليهم كل رسول فإنهم كانوا يكذبونه؛ ولهذا قال: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ﴾، ولم يبعث إليهم إلا نوح فقط، وقد لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عامًا، يدعوهم إلى اللَّه، ويحذرهم نقَمه، فما آمن معه إلا قليل. ولهذا أغرقهم اللَّه جميعًا، ولم يُبْقِ منهم أحدًا، ولم يترك من بني آدم على وجه الأرض سوى أصحاب السفينة فقط.

﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً﴾ أي: عبرة يعتبرون بها، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴿١٢﴾﴾[2]؛ أي: وأبقينا لكم من السفن ما تركبون في لُجَج البحار، لتذكروا نعمة اللَّه عليكم من إنجائكم من الغرق، وجَعْلكم من ذرّية مَن آمن به وصَدّق أمره»[3].

* * *

(١) جامع البيان (١٩/ ١٣).

(٢) الحاقة: الآيتان (١١و١٢).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٥/ ١٥٢).

قوله تعالى : ﴿وَعَادًا وَثَمُودَا وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونَۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾﴾

⋆ غريب الآية:

الرس: البئر التي لم تطو بحجارة أو غيرها. يقال: رس البئر يرسها: إذا حفرها، ورس الميت إذا دفنه وغيبه في الحفرة، و«الرس» هو كل حفرة احتفر كالقبر والبئر والمعدن.

تتبيرًا: التتبير: الإهلاك. والاسم منه: التبار. يقال: تبره يتبره: إذا بالغ في هلاكه.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

تقدم الكلام على قصتي عاد وثمود في سورة الأعراف بما أغنى عن الإعادة. وأما أصحاب الرس، قال ابن جرير: «اختلف أهل التأويل في أصحاب الرس، فقال بعضهم: أصحاب الرس من ثمود..

وقال آخرون: بل هي قرية من اليمامة، يقال لها الفلج..

وقال آخرون: هم قوم رموا بنبيهم في بئر.

وقال آخرون: هي بئر كانت تسمى الرس.

والصواب من القول في ذلك، قول من قال: هم قوم كانوا على بئر، وذلك أن الرّسّ في كلام العرب: كلّ محفور مثل البئر والقبر ونحو ذلك؛ ومنه قول الشاعر:

سَبَقْتَ إلى فَرطٍ باهِلٍ تنابِلَةٍ يَحْفِرُونَ الرِّساسا

يريد أنهم يحفِرون المعادن، ولا أعلم قوما كانت لهم قصة بسبب حفرة، ذكرهم اللّه في كتابه إلا أصحاب الأخدود، فإن يكونوا هم المعنيين بقوله: ﴿وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ﴾ فإنا سنذكر خبرهم إن شاء اللّه إذا انتهينا إلى سورة البروج، وإن يكونوا غيرهم فلا نعرف لهم خبرا، إلا ما جاء من جملة الخبر عنهم أنهم قوم رَسوا

نبيهم في حفرة»[١].

قال القاسمي: «ويروي هنا بعضهم آثارا منكرة لا تصح. كما نبه عليه الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ. فلا يحل الجراءة على روايتها، ولا تنزيل الآية عليها؛ لأنه من قفو ما ليس للمرء به علم. ومثله يحظر الخوض فيه»[٢].

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿وَقُرُونَۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا﴾ أي: وأمما بين أضعاف مَنْ ذُكر أهلكناهم كثيرة؛ ولهذا قال: ﴿وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ﴾ أي: بينا لهم الحجج، ووضَّحنا لهم الأدلة كما قال قتادة: أزحنا عنهم الأعذار ﴿وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا﴾ أي: أهلكنا إهلاكًا، كقوله: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ﴾[٣]. والقرن: هو الأمة من الناس، كقوله: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾﴾[٤] وحدَّه بعضهم بمائة وعشرين سنة. وقيل: بمائة سنة. وقيل: بثمانين سنة. وقيل: أربعين. وقيل غير ذلك. والأظهر: أن القرن هم الأمة المتعاصرون في الزمن الواحد؛ فإذا ذهبوا وخلفهم جيل آخر فهم قرن ثان، كما ثبت في الصحيحين عن رسول اللَّه ﷺ أنه قال: «**خير القرون قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم**»[٥] الحديث»[٦].

* * *

(١) جامع البيان (١٩/ ١٣-١٤).
(٢) محاسن التأويل (١٢/ ٢٦٢).
(٣) الإسراء: الآية (١٧).
(٤) المؤمنون: الآية (٣١).
(٥) البخاري (٧/ ٣/ ٣٦٥٠) ولفظه: «**خير أمتي قرني**»، ومسلم (٤/ ١٩٦٢-١٩٦٣/ ٢٥٣٣).
(٦) تفسير القرآن العظيم (٥/ ١٥٣).

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ولقد أتى هؤلاء الذين اتخذوا القرآن مهجورا على القرية التي أمطرها اللَّه مطر السوء وهي سدوم، قرية قوم لوط. ومطر السوء: هو الحجارة التي أمطرها اللَّه عليهم فأهلكهم بها..

وقوله: ﴿أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا﴾ يقول جلّ ثناؤه: أو لم يكن هؤلاء المشركون الذين قد أتوا على القرية التي أمطرت مطر السوء يرون تلك القرية، وما نزل بها من عذاب اللَّه بتكذيب أهلها رسلهم، فيعتبروا ويتذكروا، فيراجعوا التوبة من كفرهم وتكذيبهم محمدا ﴿بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾ يقول -تعالى ذكره-: ما كذّبوا محمدا فيما جاءهم به من عند اللَّه؛ لأنهم لم يكونوا رأوا ما حلّ بالقرية التي وصفت، ولكنهم كذّبوه من أجل أنهم قوم لا يخافون نشورًا بعد الممات، يعني أنهم لا يوقنون بالعقاب والثواب، ولا يؤمنون بقيام الساعة، فيردعهم ذلك عما يأتون من معاصي الله»[١].

قال الشنقيطي: «وهذان الأمران المذكوران في هذه الآية الكريمة، وهما أن اللَّه أمطر هذه القرية مطر السوء الذي هو حجارة السجيل، وأن الكفار أتوا عليها، ومروا بها جاء موضحًا في آيات أخرى.

أما كون اللَّه أمطر عليها الحجارة المذكورة، فقد ذكره -جل وعلا- في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾﴾[٢]، وبين في سورة الذاريات أن السجيل المذكور نوع من الطين، وذلك في قوله تعالى: ﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾﴾[٣]، ولا شك

---

(١) جامع البيان (١٩/ ١٦).
(٢) الحجر: الآية (٧٤).
(٣) الذاريات: الآيتان (٣٢و٣٣).

أن هذا الطين وقعه أليم، شديد مهلك. كقوله تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾﴾[2] الآية. وأما كونهم قد أتوا على تلك القرية المذكورة فقد جاء موضحًا أيضًا في غير هذا الموضع كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾[3] المراد بأنهم مروا على قرية قوم لوط، أن مرورهم عليها، ورؤيتهم لها خالية من أهلها ليس فيها داع، ولا مجيب؛ لأن اللَّه أهلك أهلها جميعًا لكفرهم وتكذيبهم رسوله لوطا فيه أكبر واعظ وأعظم زاجر عن تكذيب نبينا محمد ﷺ، لئلا ينزل بالذين كذبوه مثل ما نزل بقوم لوط من العذاب والهلاك، ولذا وبخهم على عدم الاعتبار بما أنزل بها من العذاب كقوله في آية الصافات المذكورة: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، وكقوله تعالى: في آية الفرقان هذه: ﴿أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾ فقوله: ﴿أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا﴾: توبيخ لهم على عدم الاعتبار كقوله في الآية الأخرى: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، ومعلوم أنهم يمرون عليها مصبحين، وبالليل وأنهم يرونهم، وكقوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾[4] يعني: أن ديار قوم لوط بسبيل مقيم، أي بطريق مقيم، يمرون فيه عليها في سفرهم إلى الشام، وقوله تعالى: ﴿بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾، أي لا يخافون بعثًا، ولا جزاء أو لا يرجون بعثًا وثوابًا»[5].

* * *

(١) الشعراء: الآية (١٧٣).

(٢) الحجر: الآيات (٧٢-٧٤).

(٣) الصافات: الآيتان (١٣٧و١٣٨).

(٤) الحجر: الآيات (٧٤-٧٦).

(٥) أضواء البيان (٦/ ٣٢٧-٣٢٨).

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُـزُوًا أَهَـٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- لنبيه محمد ﷺ: وإذا رآك هؤلاء المشركون الذين قصصت عليك قصصهم ﴿إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾ يقول: ما يتخذونك إلا سخرية يسخرون منك، يقولون: ﴿أَهَـٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ﴾ إلينا ﴿رَسُولًا﴾ من بين خلقه»(١).

قال الرازي: «اعلم أنه سبحانه لما بين مبالغة المشركين في إنكار نبوته وفي إيراد الشبهات في ذلك، بين بعد ذلك أنهم إذا رأوا الرسول اتخذوه هزوًا فلم يقتصروا على ترك الإيمان به بل زادوا عليه بالاستهزاء والاستحقار، ويقول بعضهم لبعض ﴿أَهَـٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا﴾.. اعلم أن اللّه تعالى أخبر عن المشركين أنهم متى رأوا الرسول أتوا بنوعين من الأفعال أحدهما: أنهم يستهزئون به، وفسر ذلك الاستهزاء بقوله: ﴿أَهَـٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا﴾ وذلك جهل عظيم لأن الاستهزاء إما أن يقع بصورته أو بصفته. أما الأول فباطل لأنه عليه الصلاة والسلام كان أحسن منهم صورة وخلقة، وبتقدير أنه لم يكن كذلك، لكنه ﷺ ما كان يدعي التمييز عنهم بالصورة بل بالحجة. وأما الثاني فباطل لأنه ﷺ ادعى التميز عنهم في ظهور المعجز عليه دونهم، وأنهم ما قدروا على القدح في حجته ودلالته، ففي الحقيقة هم الذين يستحقون أن يهزأ بهم، ثم إنهم لوقاحتهم قلبوا القضية واستهزؤوا بالرسول ﷺ، وذلك يدل على أنه ليس للمبطل في كل الأوقات إلا السفاهة والوقاحة»(٢).

قال السعدي: «أي: وإذا رآك يا محمد هؤلاء المكذبون لك المعاندون لآيات

---

(١) جامع البيان (١٩/ ١٧).
(٢) التفسير الكبير (٢٤/ ٨٦).

اللَّه، المستكبرون في الأرض استهزءوا بك، واحتقروك، وقالوا -على وجه الاحتقار والاستصغار- ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا﴾ أي: غير مناسب ولا لائق أن يبعث اللَّه هذا الرجل، وهذا من شدة ظلمهم وعنادهم وقلبهم الحقائق، فإن كلامهم هذا يفهم أن الرسول -حاشاه- في غاية الخسة والحقارة وأنه لو كانت الرسالة لغيره لكان أنسب.

﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾[1] فهذا الكلام لا يصدر إلا من أجهل الناس وأضلهم، أو من أعظمهم عنادا وهو متجاهل، قصده ترويج ما معه من الباطل بالقدح بالحق وبمن جاء به، وإلا فمن تدبر أحوال محمد بن عبد اللَّه ﷺ وجده رجل العالم وهمامهم ومقدمهم في العقل والعلم واللب والرزانة، ومكارم الأخلاق ومحاسن الشيم والعفة والشجاعة والكرم وكل خلق فاضل، وأن المحتقر له والشانئ له قد جمع من السفه والجهل والضلال والتناقض والظلم والعدوان ما لا يجمعه غيره، وحسبه جهلا وضلالا أن يقدح بهذا الرسول العظيم والهمام الكريم. والقصد من قدحهم فيه واستهزائهم به تصلبهم على باطلهم وغرورا لضعفاء العقول»[2].

* * *

(١) الزخرف: الآية (٣١).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٤٨١-٤٨٢).

قوله تعالى: ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَاۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- مخبرا عن هؤلاء المشركين الذين كانوا يهزءون برسول اللَّه ﷺ إنهم يقولون إذا رأوه: قد كاد هذا يضلنا عن آلهتنا التي نعبدها، فيصدّنا عن عبادتها لولا صبرنا عليها، وثبوتنا على عبادتها ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ﴾ يقول جلّ ثناؤه: سيبين لهم حين يعاينون عذاب اللَّه قد حلّ بهم على عبادتهم الآلهة ﴿مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ يقول: من الراكب غير طريق الهدى، والسالك سبيل الردى أنت أو هم»[١].

قال ابن عاشور: «أما قولهم: ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَاۚ﴾ فالمقصود منه تفاخرهم بتصلبهم في دينهم وأنهم كادوا أن يتبعوا دعوة الرسول بما يلقيه إليهم من الإقناع والإلحاح فكان تأثر أسماعِهم بأقواله يُوشك بهم أن يرفضوا عبادة الأصنام لولا أنهم تريَّثوا، فكان في الريث أن أفاقوا من غِشاوة أقواله وخلابة استدلاله واستبصروا مرآة فانجلى لهم أنه لا يستأهل أن يكون مبعوثًا من عند اللَّه، فقد جمعوا من كلامهم بين تزييف حجته وتنويه ثباتهم في مقام يَستفز غير الراسخين في الكفر. وهذا الكلام مشوب بفَسادِ الوضع ومؤلف على طرائق الدهماء إذ يتكلمون كما يشتهون ويستبلهون السامعين. ومن خلابة المغالطة إسنادهم مقاربة الإضلال إلى الرسول دون أنفسهم ترفعًا على أن يكونوا قاربوا الضلال عن آلهتهم مع أن مقاربته إضلالَهم تستلزم اقترابهم من الضلال»[٢].

قال الرازي: «قولهم: ﴿لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَاۚ﴾ . . يدل هذا القول منهم على جد الرسول ﷺ واجتهاده في صرفهم عن عبادة الأوثان، ولولا ذلك لما قالوا:

---

(١) جامع البيان (١٩/ ١٧).
(٢) التحرير والتنوير (١٩/ ٣٣).

﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾ وهكذا كان ﷺ فإنه في أول الأمر بالغ في إيراد الدلائل والجواب عن الشبهات وتحمل ما كانوا يفعلونه من أنواع السفاهة وسوء الأدب الثالث: أن هذا يدل على اعتراف القوم بأنهم لم يعترضوا ألبتة على دلائل الرسول ﷺ وما عارضوها إلا بمحض الجحود والتقليد لأن قولهم: ﴿لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾ إشارة إلى الجحود والتقليد، ولو ذكروا اعتراضًا على دلائل الرسول ﷺ لكان ذكر ذلك أولى من ذكر مجرد الجحود والإصرار الذي هو دأب الجهال، وذلك يدل على أن القوم كانوا مقهورين تحت حجته ﷺ، وأنه ما كان في أيديهم إلا مجرد الوقاحة..

الآية تدل على أن القوم صاروا في ظهور حجته ﷺ عليهم كالمجانين لأنهم استهزؤوا به أولًا، ثم وصفوه بأنه كاد يضلنا عن آلهتنا لولا أن قابلناه بالجحود والإصرار، فهذا الكلام الأخير يدل على أن القوم سلموا له قوة الحجة وكمال العقل والكلام الأول وهو السخرية والاستهزاء لا يليق إلا بالجاهل العاجز، فالقوم لما جمعوا بين هذين الكلامين دل ذلك على أنهم كانوا كالمتحيرين في أمره، فتارة بالوقاحة يستهزئون منه، وتارة يصفونه بما لا يليق إلا بالعالم الكامل»[(١)].

قال السعدي: «زعموا -قبحهم الله- أن الضلال هو التوحيد وأن الهدى ما هم عليه من الشرك فلهذا تواصوا بالصبر عليه. ﴿وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ ءَالِهَتِكُمْ﴾[(٢)] وهنا قالوا: ﴿لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾ والصبر يحمد في المواضع كلها، إلا في هذا الموضع فإنه صبر على أسباب الغضب وعلى الاستكثار من حطب جهنم. وأما المؤمنون فهم كما قال الله عنهم: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾[(٣)] ولما كان هذا حكما منهم بأنهم المهتدون والرسول ضال وقد تقرر أنهم لا حيلة فيهم توعدهم بالعذاب وأخبر أنهم في ذلك الوقت ﴿حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ﴾ يعلمون علما حقيقيا ﴿مَنْ﴾ هو ﴿أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾﴾[(٤)] الآيات»[(٥)].

---

(١) التفسير الكبير (٢٤/ ٨٦).
(٢) ص: الآية (٦).
(٣) العصر: الآية (٣).
(٤) الفرقان: الآية (٢٧).
(٥) تفسير السعدي (٥/ ٤٨٢).

وفي الآية قال الزمخشري: «دليل على فرط مجاهدة رسول اللَّه ﷺ في دعوتهم، وبذله قصارى الوسع والطاقة في استعطافهم، مع عرض الآيات والمعجزات عليهم حتى شارفوا بزعمهم أن يتركوا دينهم إلى دين الإسلام، لولا فرط لجاجهم واستمساكهم بعبادة آلهتهم»[١].

* * *

(١) الكشاف (٣/ ٩٣).

قوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يعني -تعالى ذكره-: ﴿أَرَءَيْتَ﴾ يا محمد ﴿مَنِ ٱتَّخَذَ﴾ شهوته التي يهواها وذلك أن الرجل من المشركين كان يعبد الحجر، فإذا رأى أحسن منه رمى به، وأخذ الآخر يعبده، فكان معبوده وإلهه ما يتخيره لنفسه»[(١)].

قال ابن كثير: «من كتب اللَّه عليه الشقاوة والضلال، فإنه لا يهديه أحد إلا اللَّه. ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ أي: مهما استحسن من شيء ورآه حسنًا في هوى نفسه، كان دينه ومذهبه، كما قال تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾﴾[(٢)]؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾. قال ابن عباس: كان الرجل في الجاهلية يعبد الحجر الأبيض زمانًا، فإذا رأى غيره أحسن منه عبد الثاني وترك الأول»[(٣)].

قال الزمخشري: «من كان في طاعة الهوى في دينه يتبعه في كل ما يأتي ويذر لا يتبصر دليلًا ولا يصغي إلى برهان. فهو عابد هواه وجاعله إلهه، فيقول لرسوله هذا الذي لا يرى معبودًا إلاّ هواه كيف تستطيع أن تدعوه إلى الهدى أفتتوكل عليه وتجبره على الإسلام وتقول لا بدّ أن تسلم شئت أو أبيت ولا إكراه في الدين؟ وهذا كقوله: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾[(٤)]، ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾﴾[(٥)]»[(٦)].

* * *

(١) جامع البيان (١٩/ ١٧-١٨).
(٢) فاطر: الآية (٨).
(٣) تفسير القرآن العظيم (٥/ ١٥٤).
(٤) ق: الآية (٤٥).
(٥) الغاشية: الآية (٢٢).
(٦) الكشاف (٣/ ٩٣).

قوله تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: أفأنت تكون يا محمد على هذا حفيظا في أفعاله مع عظيم جهله؟ ﴿أَمْ تَحْسَبُ﴾ يا محمد أن أكثر هؤلاء المشركين ﴿يَسْمَعُونَ﴾ ما يتلى عليهم، فيعون ﴿أَوْ يَعْقِلُونَ﴾ ما يعاينون من حجج الله، فيفهمون ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ﴾ يقول: ما هم إلا كالبهائم التي لا تعقل ما يقال لها، ولا تفقه، بل هم من البهائم أضلّ سبيلا لأن البهائم تهتدي لمراعيها، وتنقاد لأربابها، وهؤلاء الكفرة لا يطيعون ربهم، ولا يشكرون نعمة من أنعم عليهم، بل يكفرونها، ويعصون من خلقهم وبرأهم»[١].

قال ابن القيم: «فشبه أكثر الناس بالأنعام، والجامع بين النوعين التساوي في عدم قبول الهدى والانقياد له، وجعل الأكثرين أضل سبيلا من الأنعام؛ لأن البهيمة يهديها سائقها فتهتدي وتتبع الطريق، فلا تحيد عنها يمينا ولا شمالا، والأكثرون يدعوهم الرسل ويهدونهم السبيل فلا يستجيبون ولا يهتدون ولا يفرقون بين ما يضرهم وبين ما ينفعهم، والأنعام تفرق بين ما يضرها من النبات والطريق فتجتنبه وما ينفعها فتؤثره، والله تعالى لم يخلق للأنعام قلوبا تعقل بها، ولا ألسنة تنطق بها، وأعطى ذلك لهؤلاء ثم لم ينتفعوا بما جعل لهم من العقول والقلوب والألسنة والأسماع والأبصار، فهم أضل من البهائم، فإن من لا يهتدي إلى الرشد وإلى الطريق مع الدليل إليه أضل وأسوأ حالا ممن لا يهتدي حيث لا دليل معه»[٢].

قال الشنقيطي: «وإذا علمت ما دلت عليه هذه الآية الكريمة، فاعلم أن الله بينه في غير هذا الموضع كقوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا

---

(١) جامع البيان (١٩/ ١٨).

(٢) إعلام الموقعين (١/ ١٥٩).

مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾[1]، وقوله تعالى في البقرة: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾[2]»[3].

قال السعدي: «ثم سجل تعالى على ضلالهم البليغ بأن سلبهم العقول والأسماع وشبههم في ضلالهم بالأنعام السائمة التي لا تسمع إلا دعاء ونداء، ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾، بل هم أضل من الأنعام؛ لأن الأنعام يهديها راعيها فتهتدي، وتعرف طريق هلاكها فتجتنبه، وهي أيضًا أسلم عاقبة من هؤلاء، فتبين بهذا أن الرامي للرسول بالضلال أحق بهذا الوصف، وأن كل حيوان بهيم فهو أهدى منه»[4].

* * *

(١) الأعراف: الآية (١٧٩).

(٢) البقرة: الآية (١٧١).

(٣) أضواء البيان (٦/ ٣٣٢).

(٤) تيسير الكريم الرحمن (٣/ ٤١٤).

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾﴾

★ غريب الآية:

قبضناه: القبض: ضد البسط. والمراد: نسخ الظل بالشمس.

يسيرًا: سهلًا قريبًا. واليسير: خلاف العسير.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال البقاعي: «ولما بين جمود المعترضين على دلائل الصانع، وتناهي جهلهم، وفساد طريقتهم، وكان المراد من العبد في تعرف ذلك أن ينظر في أفعال سيده بعين الحقيقة نظرًا تفنى لديه الأغيار، فلا يرى إلا الفاعل المختار، خاطب رأس المخلصين الناظرين هذا النظر، حثًا لأهل وده على مثل ذلك، فقال ذاكرًا لأنواع من الدلائل الدالة على وجود الصانع، وإحاطة علمه، وشمول قدرته، مشيرًا إلى أن الناظر في هذا الدليل -لوضوحه في الدلالة على الخالق- كالناظر إلى الخالق، معبرًا بوصف الإحسان تشويقًا إلى إدامة النظر إليه والإقبال عليه»[(١)].

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ يا محمد ﴿كَيْفَ مَدَّ﴾ ربك ﴿ٱلظِّلَّ﴾ وهو ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس..

قوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا﴾ يقول: ولو شاء لجعله دائما لا يزول، ممدودا لا تذهبه الشمس، ولا تنقصه..

وقوله: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ يقول جلّ ثناؤه: ثم دللناكم أيها الناس بنسخ الشمس إياه عند طلوعها عليه، أنه خلْق من خلق ربكم، يوجده إذا شاء، ويفنيه إذا أراد؛ والهاء في قوله: «عليه» من ذكر الظلّ. ومعناه: ثم جعلنا الشمس على الظلّ دليلا. قيل: معنى دلالتها عليه أنه لو لم تكن الشمس التي تنسخه لم يعلم

---

(١) نظم الدرر (١٣/ ٣٩٦-٣٩٧).

أنه شيء، إذ كانت الأشياء إنما تعرف بأضدادها، نظير الحلو الذي إنما يعرف بالحامض والبارد بالحارّ، وما أشبه ذلك . .

وقوله: ﴿ثُمَّ قَبَضۡنَٰهُ إِلَيۡنَا قَبۡضٗا يَسِيرٗا ٤٦﴾ يقول -تعالى ذكره-: ثم قبضنا ذلك الدليل من الشمس على الظلّ إلينا قبضا خفيا سريعا بالفيء الذي نأتي به بالعشيّ»[1].

قال ابن القيم: «ومعنى الآية التنبيه على هذه الدلالة الباهرة الرب سبحانه وعجائب مخلوقاته الدالة عليه، والمعنى: انظر كيف بسط ربك الظل، والظل: ماقبل الزوال، والفيء: بعده، فمده سبحانه وبسطه عند طلوع الشمس فإنه يكون مديدا أطول ما يكون، وجعل الشمس دليلا عليه فإنها هي التي تظهره وتبينه، ثم كلما ارتفعت الشمس شيئًا انقبض من الظل جزء، فلا يزال ينقص يسيرا حتى ينتهي إلى غايته، فإذا أخذت الشمس في الجانب الغربي انبسط بعد انقباضه شيئاحتى يصير كهيئته عند طلوعها. ولهذا كان الزوال يعرف بانتهاء الظل في قصره، فإذا أخذ في الزيادة بعد تناهي قصره فقد تحقق الزوال، ولو شاء اللَّه لجعله ساكنا دائما على حالة واحدة فلا يتحرك بالزيادة والنقصان، فالظل أحد الأدلة الدالة على الخالق سبحانه»[2].

قال السعدي: «أي: ألم تشاهد ببصرك وبصيرتك كمال قدرة ربك وسعة رحمته، أنه مد على العباد الظل وذلك قبل طلوع الشمس ﴿ثُمَّ جَعَلۡنَا ٱلشَّمۡسَ﴾ أي: على الظل ﴿دَلِيلٗا﴾ فلولا وجود الشمس لما عرف الظل فإن الضد يعرف بضده.

﴿ثُمَّ قَبَضۡنَٰهُ إِلَيۡنَا قَبۡضٗا يَسِيرٗا ٤٦﴾ فكلما ارتفعت الشمس تقلص الظل شيئًا فشيئًا، حتى يذهب بالكلية فتوالي الظل والشمس على الخلق الذي يشاهدونه عيانا وما يترتب على ذلك من اختلاف الليل والنهار وتعاقبهما وتعاقب الفصول، وحصول المصالح الكثيرة بسبب ذلك- من أدل دليل على قدرة اللَّه، وعظمته، وكمال رحمته، وعنايته بعباده، وأنه وحده المعبود المحمود المحبوب المعظم، ذو الجلال والإكرام»[3].

---

(١) جامع البيان (١٩/ ١٩-٢٠).

(٢) طريق الهجرتين (٣٤٥).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (٣/ ٤١٤).

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوۡمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾﴾

★ **غريب الآية:**

سباتًا: السبات: الراحة. جعل النوم سباتا لكونه راحة الأبدان. وأصل السبت: القطع. ومنه: يوم السبت لقطع العمل فيه.

نشورًا: أي: ذا نشور، ينتشر فيه الناس لقضاء أغراضهم، فالنهار محل للانتشار وابتغاء الرزق.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: الذي مدّ الظل ثم جعل الشمس عليه دليلا هو الذي جعل لكم أيها الناس الليل لباسا. وإنما قال -جلّ ثناؤه-: ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِبَاسًا﴾ لأنه جعله لخلقه جنة يجتنون فيها ويسكنون، فصار لهم سترا يستترون به، كما يستترون بالثياب التي يُكسونها. وقوله: ﴿وَٱلنَّوۡمَ سُبَاتًا﴾ يقول: وجعل لكم النوم راحة تستريح به أبدانكم، وتهدأ به جوارحكم. وقوله: ﴿وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا﴾ يقول -تعالى ذكره-: وجعل النهار يقظة وحياة من قولهم: نَشر الميتُ، كما قال الأعشى:

حَتى يقُولَ النَّاسُ مِمَّا رأَوْا   يا عَجَبا لِلْمَيِّتِ النَّاشِرِ

ومنه قول الله: ﴿وَلَا يَمۡلِكُونَ مَوۡتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا﴾ وكان مجاهد يقول في تأويل ذلك ما حدثني محمد بن عمرو، قال: ثنا أبو عاصم، قال: ثنا عيسى؛ وحدثني الحارث، قال: ثنا الحسن، قال: ثنا ورقاء، جميعًا عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد، قوله: ﴿وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا﴾ قال: ينشر فيه..

وإنما اخترنا القول الذي اخترنا في تأويل ذلك؛ لأنه عقيب قوله: ﴿وَٱلنَّوۡمَ

سُبَاتًا﴾[١] في الليل. فإذ كان ذلك كذلك، فوصف النهار بأن فيه اليقظة والنشور من النوم أشبه إذ كان النوم أخا الموت. والذي قاله مجاهد غير بعيد من الصواب؛ لأن اللَّه أخبر أنه جعل النهار معاشا، وفيه الانتشار للمعاش، ولكن النشور مصدر من قول القائل: نشر، فهو بالنشر من الموت والنوم أشبه، كما صحّت الرواية عن النبيّ ﷺ أنه كان يقول إذا أصبح وقام من نومه: «**الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا، وإليه النشور**»[٢]»[٣].

قال الشنقيطي: «ذكر -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة: أنه هو الذي جعل لخلقه الليل لباسًا، والنوم سباتًا، وجعل لهم النهار نشورًا، أما جعله لهم الليل لباسًا، فالظاهر أنه لما جعل الليل يغطي جميع من في الأرض بظلامه، صار لباسًا لهم، يسترهم كما يستر اللباس عورة صاحبه، وربما انتفعوا بلباس الليل كهروب الأسير المسلم من الكفار في ظلام الليل، واستتاره به حتى ينجو منهم، ونحو ذلك من الفوائد التي تحصل بسبب لباس الليل كما قال أبو الطيب المتنبي:

وكم لظلام الليل عندي من يد ... تخبر أن المانوية تكذب
وقاك ردى الأعداء تسري إليهم ... وزارك فيه ذو الدلال المحجب

وأما جعله لهم النوم سباتًا فأكثر المفسرين على أن المراد بالسبات: الراحة من تعب العمل بالنهار؛ لأن النوم يقطع العمل النهاري، فينقطع به التعب وتحصل الاستراحة، كما هو معروف. وقال الجوهري في صحاحه: السبات النوم وأصله الراحة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ۝﴾[٤] وقال الزمخشري في الكشاف: والسبات: الموت، والمسبوت: الميت؛ لأنه مقطوع الحياة وهذا كقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ﴾[٥]. فإن قلت: هلا فسرته بالراحة؟ قلت: النشور في مقابلته يأباه إباء العيوف الورد، وهو مرنق اه محل الغرض منه. وإيضاح كلامه: أن النشور هو الحياة بعد الموت كما تقدم إيضاحه، وعليه فقوله: ﴿وَجَعَلَ

(١) الفرقان: الآية (٤٧).
(٢) أخرجه: أحمد (٥/ ٢٨٥)، والبخاري(١١/ ١٣٦/ ٦٣٢١)، ومسلم (٤/ ٢٠٨٣/ ٢٧١١)، وأبوداود (٥/ ٣٠٠/ ٥٠٤٩)، والترمذي (٥/ ٤٤٨ و٤٤٩/ ٣٤١٧)، والنسائي في الكبرى (٦/ ١٩٢/ ١٠٦٠٨)، ابن ماجه (٢/ ١٢٧٧/ ٣٨٨٠).
(٣) جامع البيان (١٩/ ٢٠-٢١).
(٤) النبأ: الآية (٩).
(٥) الأنعام: الآية (٦٠).

ٱلنَّهَارَ نُشُورًا﴾ أي حياة بعد الموت، وعليه فالموت هو المعبر عنه بالسبات في قوله: ﴿وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا﴾[١] وإطلاق الموت على النوم معروف في القرآن العظيم كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾[٢] وقوله: ﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾ فيه دليل على ما ذكره الزمخشري؛ لأن كلا من البعث والنشور، يطلق على الحياة بعد الموت، وكقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾[٣]، وقال الجوهري في صحاحه: والمسبوت الميت والمغشى عليه.

والذين قالوا: إن السبات في الآية الراحة بسبب النوم من تعب العمل بالنهار، قالوا: إن معنى قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا﴾ أنهم ينشرون فيه لمعايشهم، ومكاسبهم، وأسبابهم، والظاهر أن هذا التفسير فيه حذف مضاف، أو هو من النعت بالمصدر، وهذا التفسير يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾﴾[٤] وقوله تعالى في القصص: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾[٥] أي لتسكنوا في الليل، ولتبتغوا من فضله بالنهار في السعي للمعاش.

وإذا علمت هذا فاعلم أن ما دلت عليه هذه الآية الكريمة جاء موضحًا في مواضع أخر كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾﴾[٦] وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[٧]، وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ﴾[٨] الآية»[٩].

قال الزمخشري: «وهذه الآية مع دلالتها على قدرة الخالق فيها إظهار لنعمته

---

(١) الفرقان: الآية (٤٧).
(٢) الأنعام: الآية (٦٠).
(٣) الزمر: الآية (٤٢).
(٤) النبأ: الآية (١١).
(٥) القصص: الآية (٧٣).
(٦) النبأ: الآيات (٩-١١).
(٧) القصص: الآيات (٧١-٧٣).
(٨) الإسراء: الآية (١٢).
(٩) أضواء البيان (٦/ ٣٣٣-٣٣٤).

على خلقه؛ لأن الاحتجاب بستر الليل كم فيه لكثير من الناس من فوائد دينية ودنيوية والنوم واليقظة؟ وشبههما بالموت والحياة أيّ عبرة فيها لمن اعتبر»[١].

قال السعدي: «أي: من رحمته بكم ولطفه أن جعل الليل لكم بمنزلة اللباس الذي يغشاكم، حتى تستقروا فيه وتهدؤوا بالنوم وتسبت حركاتكم أي: تنقطع عند النوم، فلولا الليل لما سكن العباد ولا استمروا في تصرفهم فضرهم ذلك غاية الضرر، ولو استمر أيضًا الظلام لتعطلت عليهم معايشهم ومصالحهم، ولكنه جعل النهار نشورا ينتشرون فيه لتجاراتهم وأسفارهم وأعمالهم فيقوم بذلك ما يقوم من المصالح»[٢].

* * *

(١) الكشاف (٣/ ٩٤-٩٥).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٣/ ٤١٤-٤١٥).

قوله تعالى : ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَىۡ رَحۡمَتِهِۦۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ طَهُورٗا ﴿٤٨﴾ لِّنُحۡـِۧيَ بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗا وَنُسۡقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقۡنَآ أَنۡعَٰمٗا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرٗا ﴿٤٩﴾﴾

★ **غريب الآية:**

أناسي : جمع إنسان. أصله : أناسين فأبدلت النون ياء ثم أدغمت.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير : «من قدرته التامة وسلطانه العظيم، وهو أنه تعالى يرسل الرياح مبشرات؛ أي: بمجيء السحاب بعدها، والرياح أنواع، في صفات كثيرة من التسخير، فمنها ما يثير السحاب، ومنها ما يحمله، ومنها ما يسوقه، ومنها ما يكون بين يدي السحاب مبشِّرا، ومنها ما يكون قبل ذلك تقُمّ الأرض، ومنها ما يلقح السحاب ليمطر؛ ولهذا قال: ﴿وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ طَهُورٗا﴾ أي: آلة يتطهر بها، كالسَّحُور والوقود وما جرى مجراه. فهذا أصح ما يقال في ذلك..

وقوله: ﴿لِّنُحۡـِۧيَ بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗا﴾ أي: أرضا قد طال انتظارها للغيث، فهي هامدة لا نبات فيها ولا شيء. فلما جاءها الحياء عاشت واكتست رباها أنواع الأزاهير والألوان، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ﴾[1].

﴿وَنُسۡقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقۡنَآ أَنۡعَٰمٗا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرٗا﴾ أي: وليشرب منه الحيوان من أنعام وأناسي محتاجين إليه غاية الحاجة، لشربهم وزروعهم وثمارهم، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ مِنۢ بَعۡدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحۡمَتَهُۥۚ وَهُوَ ٱلۡوَلِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ﴿٢٨﴾﴾[2] وقال تعالى: ﴿فَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحۡمَتِ ٱللَّهِ كَيۡفَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ

---

(١) الحج: الآية (٥).

(٢) الشورى: الآية (٢٨).

﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٥٠﴾[(١)]»[(٢)].

قال الزمخشري: «فإن قلت: إنزال الماء موصوفا بالطهارة وتعليله بالإحياء والسقي يؤذن بأن الطهارة شرط في صحة ذلك كما تقول: حملني الأمير على فرس جواد لأصيد عليه الوحش. قلت: لما كان سقي الأناسي من جملة ما أنزل له الماء وصفه بالطهور إكراما لهم وتتميما للمنة عليهم، وبيانا أن من حقهم حين أراد اللّٰه لهم الطهارة وأرادهم عليها أن يؤثروها في بواطنهم ثم في ظواهرهم، وأن يربئوا بأنفسهم عن مخالطة القاذورات كلها كما ربأ بهم ربهم. فإن قلت: لم خص الأنعام من بين ما خلق من الحيوان الشارب؟ قلت: لأن الطير والوحش تبعد في طلب الماء فلا يعوزها الشرب بخلاف الأنعام، ولأنها قِنْيَة الأناسي وعامة منافعهم متعلقة بها فكان الإنعام عليهم بسقي أنعامهم كالأنعام بسقيهم. فإن قلت: فما معنى تنكير الأنعام والأناسي ووصفها بالكثرة؟ قلت: معنى ذلك أن علية الناس وجلهم منيخون بالقرب من الأودية والأنهار ومنابع الماء ففيهم غنية عن سقي السماء وأعقابهم -وهم كثير منهم- لا يعيشهم إلا ما ينزل اللّٰه من رحمته وسقيا سمائه، وكذلك قوله: ﴿لِّنُحْيِيَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ يريد بعض بلاد هؤلاء المتبعدين من مظان الماء. فإن قلت: لم قدم إحياء الأرض وسقي الأنعام على سقي الأناسي؟ قلت: لأن حياة الأناسي بحياة أرضهم وحياة أنعامهم، فقدم ما هو سبب حياتهم وتعيشهم على سقيهم؛ ولأنهم إذا ظفروا بما يكون سقيا أرضهم ومواشيهم لم يعدموا سقياهم»[(٣)].

قال السعدي: «أي: هو وحده الذي رحم عباده، وأدر عليهم رزقه بأن أرسل الرياح مبشرات بين يدي رحمته وهو المطر فثار بها السحاب وتألف وصار كسفا وألقحته وأدرته بإذن آمرها والمتصرف فيها ليقع استبشار العباد بالمطر قبل نزوله، وليستعدوا له قبل أن يفاجئهم دفعة واحدة.

﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾ يطهر من الحدث، والخبث، ويطهر من الغش، والأدناس، وفيه بركة من بركته أنه أنزله ليحيي به بلدة ميتا فتختلف أصناف النوابت

---

(١) الروم: الآية (٥٠).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٥/ ١٥٦).

(٣) الكشاف (٣/ ٩٥-٩٦).

والأشجار فيها مما يأكل الناس والأنعام. ﴿وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا﴾ أي: نسقيكموه أنتم وأنعامكم، أليس الذي أرسل الرياح المبشرات وجعلها في عملها متنوعات، وأنزل من السماء ماء طهورا مباركا فيه رزق العباد ورزق بهائمهم، هو الذي يستحق أن يعبد وحده ولا يشرك معه غيره؟»[(١)].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة أن الماء طهور لا ينجسه شيء

* عن أبي هريرة ﷺ قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول اللّٰه إنا نركب البحر ونحمل معنا القليل من الماء فإن توضأنا به عطشنا أفنتوضأ من ماء البحر؟ فقال رسول اللّٰه ﷺ: «**هو الطهور ماؤه الحل ميتته**»[(٢)].

* عن أبي سعيد الخدري قال: قيل يا رسول اللّٰه أنتوضأ من بئر بضاعة؟ وهي بئر يلقى فيها الحيض، ولحوم الكلاب، والنتن، فقال رسول اللّٰه ﷺ: «**إن الماء طهور لا ينجسه شيء**»[(٣)].

* عن عبد اللّٰه الصنابحي: أن رسول اللّٰه ﷺ قال: «**من مضمض واستنشق، خرجت خطاياه من فيه وأنفه ومن غسل وجهه خرجت خطاياه من أشفار عينيه، ومن غسل يديه خرجت من أظفاره أو من تحت أظفاره، ومن مسح رأسه وأذنيه خرجت خطاياه من رأسه أو شعر أذنيه، ومن غسل رجليه خرجت خطاياه من أظفاره أو تحت أظفاره، ثم كانت خطاه إلى المسجد نافلة**»[(٤)].

* عن عبد اللّٰه بن عمر أنه قال: «**كان الرجال والنساء يتوضؤون في زمان**

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٣/ ٤١٥).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٦١)، وأبو داود (١/ ٦٤/ ٨٣)، والترمذي (١/ ١٠٠-١٠١/ ٦٩) وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، والنسائي (١/ ٥٣/ ٥٩)، وابن ماجه (١/ ١٣٦/ ٣٨٦)، وابن خزيمة (١/ ٥٩/ ١١١)، وابن حبان (٤/ ٤٩/ ١٢٤٣)، اولحاكم (١/ ١٤٠-١٤١).

(٣) أخرجه: أحمد (٣/ ٣١)، وأبو داود (١/ ٥٣-٥٥/ ٦٦-٦٧)، والترمذي (١/ ٩٥-٩٦/ ٦٦) وقال: «هذا حديث حسن»، والنسائي (١/ ١٩٠-١٩١/ ٣٢٥-٣٢٦)، وفي الباب عن ابن عباس.

(٤) الحديث مرسل لأن الصنابحي لم يسمع من النبي ﷺ. أخرجه: أحمد (٤/ ٣٤٩)، والنسائي (١/ ٧٩/ ١٠٣)، وابن ماجه (١/ ١٠٣/ ٢٨٢)، والبيهقي (١/ ٨١)، والحاكم (١/ ١٢٩-١٣٠) وقال: «صحيح على شرطهما ولا علة له والصنابحي صحابي مشهور» وتعقبه الذهبي بقوله: «قلت: لا».

رسول اللَّه ﷺ جميعًا»[(١)].

* عن أبي هريرة قال: إن رسول اللَّه ﷺ قال: «**إذا شرب الكلب في إناء أحدكم فليغسله سبعًا**»[(٢)].

* عن كبشة بنت كعب بن مالك قال إسحاق في حديثه: وكانت تحت ابن أبي قتادة أن أبا قتادة دخل عليها، فسكبت له وضوءه، فجاءت هرة تشرب منه، فأصغى لها الإناء حتى شربت، قالت كبشة: فرآني أنظر إليه، فقال: أتعجبين يا بنت أخي؟ قالت: نعم. فقال: إن رسول اللَّه ﷺ قال: «**إنها ليست بنجس، إنها من الطوافين عليكم والطوافات وقال إسحاق: أو الطوافات -**»[(٣)].

* عن عبد اللَّه بن عبد اللَّه بن عمر عن أبيه قال: سئل رسول اللَّه ﷺ عن الماء وما ينوبه من الدواب والسباع فقال ﷺ: «**إذا كان الماء قلتين لم يحمل الخبث**»[(٤)].

* عن أبي هريرة أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**إذا توضأ أحدكم فليجعل في أنفه ماء ثم لينثر. ومن استجمر فليوتر. وإذا استيقظ أحدكم من نومه فليغسل يده قبل أن يدخلها في وضوئه، فإن أحدكم لا يدري أين باتت يده**»[(٥)].

* عن الحكم قال: سمعت أبا جحيفة يقول: «**خرج علينا رسول اللَّه ﷺ** بالهاجرة، فأتي بوضوء فتوضأ، فجعل الناس يأخذون من فضل وضوئه فيتمسحون به، فصلى النبي ﷺ الظهر ركعتين، والعصر ركعتين، وبين يديه عنزة»[(٦)].

* عن ابن شهاب قال: أخبرني محمود بن الربيع قال: «**وهو الذي مج**

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٤-١٠٣-١٤٢)، والبخاري (١/ ٣٩٥/ ١٩٣)، وأبو داود (١/ ٦٢/ ٧٩)، والنسائي (١/ ٦٠/ ٧١)، وابن ماجه (١/ ١٣٤/ ٣٨١).

(٢) أخرجه: البخاري (١/ ٣٦٤/ ١٧٢)، ومسلم (١/ ٢٣٤/ ٢٧٩)، والنسائي (١/ ٥٥/ ٦٣)، وابن ماجه (١/ ١٣٠/ ٣٦٤).

(٣) أخرجه: أحمد (٥/ ٢٩٦-٣٠٣-٣٠٩)، وأبو داود (١/ ٦٠/ ٧٥)، والترمذي (١/ ١٥٣/ ٩٢) وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، والنسائي (١/ ٥٨/ ٦٨)، وابن ماجه (١/ ١٣١/ ٣٦٧).

(٤) أخرجه: أبو داود (١/ ٥١/ ٦٣)، والترمذي (١/ ٩٧/ ٦٧)، والنسائي (١/ ٤٩-٥٠/ ٥٢)، وابن ماجه (١/ ٥١٧/ ١٧٢).

(٥) أخرجه: أحمد (٢/ ٤٦٥-٢٧١-٤٠٣)، والبخاري (١/ ٢٦٣/ ١٦٢)، ومسلم (١/ ١٣٣/ ٨٨).

(٦) أخرجه: البخاري (١/ ٣٩٠/ ١٨٧)، ومسلم (١/ ٣٦١/ ٥٠٣ [٢٥٣])، والنسائي (١/ ٢٥٤/ ٤٦٩).

رسول اللَّه ﷺ في وجهه وهو غلام من بئرهم. وقال عروة عن المسور وغيره يصدق كل واحد منهما صاحبه، وإذا توضأ النبي ﷺ كادوا يقتتلون على وضوئه»[١].

* عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «**لا يبولن أحدكم في الماء الدائم ثم يتوضأ منه**»[٢].

★ غريب الأحاديث:

بئر بضاعة: هي بئر معروفة بالمدينة والمحفوظ ضم الباء، وأجاز بعضهم كسرها. وحكى بعضهم بالصاد المهملة.

الحيض: بالكسر خرقة الحيض.

أصغى لها الإناء: أمال لها الإناء ليسهل عليها الشرب منه.

مج: صب ومج لعابه: إذا قذفه.

★ فوائد الأحاديث:

قال القرطبي: «المياه المنزلة من السماء والمودعة في الأرض طاهرة مطهرة على اختلاف ألوانها وطعومها وأرياحها حتى يخالطها غيرها. والمخالط للماء على ثلاثة أضرب:

ضرب يوافقه في صفتيه جميعًا، فإذا خالطه فغيره لم يسلبه وصفا منهما لموافقته لهما وهو التراب.

والضرب الثاني: يوافقه في إحدى صفتيه وهي الطهارة، فإذا خالطه فغيره سلبه ما خالفه فيه وهو التطهير؛ كماء الورد وسائر الطاهرات.

والضرب الثالث: يخالفه في الصفتين جميعًا، فإذا خالطه فغيره سلبه الصفتين جميعًا لمخالفته له فيهما وهو النجس»[٣].

قال القرطبي: «الماء الطاهر المطهر الذي يجوز به الوضوء وغسل النجاسات

---

(١) أخرجه: البخاري (١/ ٣٩١/ ١٨٩)، ومسلم (١/ ٤٥٦/ ٣٣[٢٦٥])، والنسائي في الكبرى (٣/ ٤٣٨/ ٥٨٦٥) دون ذكر الشاهد.

(٢) أخرجه: الترمذي (١/ ١٠٠/ ٦٨) وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، والنسائي (١/ ٢١٥/ ٣٩٥).

(٣) الجامع لأحكام القرآن (١٣/ ٢٩).

هو الماء القراح الصافي من ماء السماء والأنهار والبحار والعيون والآبار، وما عرفه الناس ماء مطلقا غير مضاف إلى شيء خالطه كما خلقه الله ﷻ صافيا ولا يضره لون أرضه على ما بيناه. وخالف في هذه الجملة أبو حنيفة وعبد الله بن عمرو وعبد الله بن عمر فأما أبو حنيفة فأجاز الوضوء بالنبيذ في السفر، وجوز إزالة النجاسة بكل مائع طاهر. فأما بالدهن والمرق فعنه رواية أنه لا يجوز إزالتها به. إلا أن أصحابه يقولون: إذا زالت النجاسة به جاز. وكذلك عنده النار والشمس؛ حتى إن جلد الميتة إذا جف في الشمس طهر من غير دباغ. وكذلك النجاسة على الأرض إذا جفت بالشمس فإنه يطهر ذلك الموضع، بحيث تجوز الصلاة عليه، ولكن لا يجوز التيمم بذلك التراب. قال ابن العربي: لما وصف الله سبحانه الماء بأنه طهور وامتن بإنزاله من السماء ليطهرنا به دل على اختصاصه بذلك؛ وكذلك قال عليه الصلاة والسلام لأسماء بنت الصديق حين سألته عن دم الحيض يصيب الثوب: «**حتيه ثم اقرصيه ثم اغسليه بالماء**»[1]. فلذلك لم يلحق غير الماء بالماء لما في ذلك من إبطال الامتنان، وليست النجاسة معنى محسوسا حتى يقال كل ما أزالها فقد قام به الغرض، وإنما النجاسة حكم شرعي عين له صاحب الشرع الماء فلا يلحق به غيره؛ إذ ليس في معناه، ولأنه لو لحق به لأسقطه، والفرع إذا عاد إلحاقه بالأصل في إسقاطه سقط في نفسه.

قلت: وأما ما استدل به على استعمال النبيذ فأحاديث واهية، ضعاف لا يقوم شيء منها على ساق؛ ذكرها الدارقطني وضعفها ونص عليها. وكذلك ضعف ما روي عن ابن عباس موقوفا: «**النبيذ وضوء لمن لم يجد الماء**». في طريقه ابن محرز متروك الحديث. وكذلك ما روي عن علي أنه قال: لا بأس بالوضوء بالنبيذ. الحجاج وأبو ليلى ضعيفان. وضعف حديث ابن مسعود وقال: تفرد به ابن لهيعة وهو ضعيف الحديث. وذكر عن علقمة بن قيس قال: قلت لعبد الله بن مسعود: أشهد رسول الله ﷺ أحد منكم ليلة أتاه داعي الجن؟ فقال لا.

قلت: هذا إسناد صحيح لا يختلف في عدالة رواته. وأخرج الترمذي حديث ابن مسعود قال: سألني النبي ﷺ: «**ما في إدواتك؟**» فقلت: نبيذ. فقال: «**تمرة**

---

(١) أخرجه: أبو داود (١/ ٢٥٥-٢٥٦/ ٣٦٢)، والترمذي (١/ ٢٥٤-٢٥٥/ ١٣٨) وقال: حسن صحيح، والنسائي (١/ ١٧٠/ ٢٩٢)، وفي الكبرى (١/ ١٢٧-١٢٨/ ٢٨٥).

طيبة وماء طهور» قال: فتوضأ منه. قال أبو عيسى: وإنما روي هذا الحديث عن أبي زيد عن عبد اللَّه عن النبي ﷺ، وأبو زيد رجل مجهول عند أهل الحديث لا نعرف له رواية غير هذا الحديث، وقد رأى بعض أهل العلم الوضوء بالنبيذ، منهم سفيان وغيره، وقال بعض أهل العلم: لا يتوضأ بالنبيذ، وهو قول الشافعي وأحمد وإسحاق وقال إسحق: إن ابتلي رجل بهذا فتوضأ بالنبيذ وتيمم أحب إلي. قال أبو عيسى: وقول من يقول لا يتوضأ بالنبيذ أقرب إلى الكتاب والسنة وأشبه؛ لأن اللَّه تعالى قال: ﴿فَلَمْ تَجِدُوا مَآءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾[1]. وهذه المسألة مطولة في كتب الخلاف؛ وعمدتهم التمسك بلفظ الماء حسبما تقدم»[2].

- **الثالثة**: حكم الماء المتغير بطاهر:

قال القرطبي: «الماء المتغير بقراره كزرنيخ أو جير يجري عليه، أو تغير بطحلب أو ورق شجر ينبت عليه لا يمكن الاحتراز عنه فاتفق العلماء أن ذلك لا يمنع من الوضوء به، لعدم الاحتراز منه والانفكاك عنه؛ وقد روى ابن وهب عن مالك أن غيره أولى منه»[3].

وقال شيخ الإسلام: «أما مسألة تغير الماء اليسير أو الكثير بالطاهرات كالأشنان[4] والصابون والسدر والخطمي[5] والتراب والعجين وغير ذلك مما قد يغير الماء، مثل الإناء إذا كان فيه أثر سدر أو خطمي ووضع فيه ماء، فتغير به، مع بقاء اسم الماء: فهذا فيه قولان معروفان للعلماء.

أحدهما: أنه لا يجوز التطهير به، كما هو مذهب مالك والشافعي وأحمد في إحدى الروايتين عنه التي اختارها الخرقي والقاضي، وأكثر متأخري أصحابه؛ لأن هذا ليس بماء مطلق، فلا يدخل في قوله تعالى: ﴿فَلَمْ تَجِدُوا مَآءً﴾. ثم إن أصحاب هذا القول استثنوا من هذا أنواعا، بعضها متفق عليه بينهم، وبعضها مختلف فيه، فما كان من التغير حاصلًا بأصل الخلقة أو بما يشق صون الماء عنه: فهو طهور

---

(١) المائدة: الآية (٦).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (١٣/ ٣٥-٣٦).

(٣) الجامع لأحكام القرآن (١٣/ ٣١).

(٤) الأشنان: شجر من الفصيلة الرمرامية ينبت في الأرض الرملية يستعمل هو أو رماده في غسل الثياب والأيدي.

(٥) الخطمي: نبات من الفصيلة الخبارية كثير النفع يدق ورقه يابسا ويجعل غسيلا للرأس فينقيه.

باتفاقهم. وما تغير بالأدهان والكافور ونحو ذلك، ففيه قولان معروفان في مذهب الشافعي وأحمد وغيرهما. وما كان تغيره يسيرا: فهل يعفى عنه أو لا يعفى عنه، أو يفرق بين الرائحة وغيرها؟ على ثلاثة أوجه، إلى غير ذلك من المسائل.

والقول الثاني: أنه لا فرق بين المتغير بأصل الخلقة وغيره، ولا بما يشق الاحتراز عنه؛ ولا بمالا يشق الاحتراز عنه، فما دام يسمى ماء ولم يغلب عليه أجزاء غيره كان طهورا، كما هو مذهب أبي حنيفة وأحمد في الرواية الأخرى عنه، وهي التي نص عليها في أكثر أجوبته. وهذا القول هو الصواب؛ لأن اللَّه ﷻ قال: ﴿وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ﴾[1]، وقوله: ﴿فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً﴾ نكرة في سياق النفي، فيعم كل ما هو ماء، لا فرق في ذلك بين نوع ونوع.

فإن قيل: إن المتغير لا يدخل في اسم الماء؟ قيل: تناول الاسم لمسماه لا فرق فيه بين التغير الأصلي والطارئ ولا بين التغير الذي يمكن الاحتراز منه والذي لا يمكن الاحتراز منه، فإن الفرق بين هذا وهذا إنما هو من جهة القياس لحاجة الناس إلى استعمال هذا المتغير، دون هذا، فأما من جهة اللغة وعموم الاسم وخصوصه فلا فرق بين هذا وهذا؟ ولهذا لو وكله في شراء ماء، أو حلف لا يشرب ماء أو غير ذلك: لم يفرق بين هذا وهذا، بل إن دخل هذا دخل هذا، وإن خرج هذا خرج هذا، فلما حصل الاتفاق على دخول المتغير تغيرا أصليا، أو حادثا بما يشق صونه عنه: علم أن هذا النوع داخل في عموم الآية. وقد ثبت بسنة رسول اللَّه ﷺ أنه قال في البحر: «**هو الطهور ماؤه، الحل ميتته**» والبحر متغير الطعم تغيرًا شديدًا، لشدة ملوحته. فإذا كان النبي ﷺ قد أخبر أن ماءه طهور مع هذا التغير- كان ما هو أخف ملوحة منه أولى أن يكون طهورا، وإن كان الملح وضع فيه قصدا؛ إذ لا فرق بينهما في الاسم من جهة اللغة. وبهذا يظهر ضعف حجة المانعين؛ فإنه لو استقى ماء، أو وكله في شراء ماء لم يتناول ذلك ماء البحر، ومع هذا فهو داخل في عموم الآية، فكذلك ما كان مثله في الصفة.

---

(١) المائدة: الآية (٦).

وأيضًا فقد ثبت أن النبي ﷺ «**أمر بغسل المحرم بماء وسدر**»(١)، «**وأمر بغسل ابنته بماء وسدر**»(٢)، «**وأمر الذي أسلم أن يغتسل بماء وسدر**»(٣)، ومن المعلوم: أن السدر لابد أن يغير الماء فلو كان التغير يفسد الماء لم يأمر به.

وقول القائل: إن هذا تغير في محل الاستعمال، فلا يؤثر: تفريق بوصف غير مؤثر، لا في اللغة ولا في الشرع، فإن المتغير إن كان يسمى ماء مطلقا، وهو على البدن، فيسمى ماء مطلقا، وهو في الإناء، وإن لم يسم ماء مطلقا في أحدهما لم يسم مطلقا في الموضع الآخر؛ فإنه من المعلوم أن أهل اللغة لا يفرقون في التسمية بين محل ومحل.

وأما الشرع: فإن هذا فرق لم يدل عليه دليل شرعي، فلا يلتفت إليه. والقياس عليه إذا جمع أو فرق: أن يبين أن ما جعله مناط الحكم جمعًا أو فرقًا مما دل عليه الشرع، وإلا فمن علق الأحكام بأوصاف جمعًا وفرقًا بغير دليل شرعي: كان واضعا لشرع من تلقاء نفسه، شارعا في الدين ما لم يأذن به اللَّه.

ولهذا كان على القائس أن يبين تأثير الوصف المشترك الذي جعله مناط الحكم، بطريق من الطرق الدالة على كون الوصف المشترك هو علة الحكم. وكذلك في الوصف الذي فرق فيه بين الصورتين، عليه أن يبين تأثيره بطريق من الطرق الشرعية.

وأيضًا: فإن النبي ﷺ «**توضأ من قصعة فيها أثر العجين**»(٤)، ومن المعلوم أنه: لابد في العادة من تغير الماء بذلك، لاسيما في آخر الأمر إذا قل الماء وانحل العجين.

فإن قيل: ذلك التغير كان يسيرا؟

---

(١) أخرجه: أحمد (١/ ٢١٥)، والبخاري (٣/ ١٧٥/ ١٢٦٥)، ومسلم (٢/ ٨٦٥/ ١٢٠٦)، وأبو داود (٣/ ٥٦٠/ ٣٢٣٨)، والترمذي (٣/ ٢٨٦/ ٩٥١)، والنسائي (٤/ ٣٣٩-٣٤٠/ ١٩٠٣)، وابن ماجه (٢/ ١٠٣٠/ ٣٠٨٤).

(٢) أخرجه: البخاري (٣/ ١٦٢/ ١٢٥٣)، ومسلم (٢/ ٦٤٦/ ٩٣٩)، وأبو داود (٣/ ٥٠٣/ ٣١٤٢)، والنسائي (٤/ ٣٢٩/ ١٨٨)، وابن ماجه (١/ ٤٦٨/ ١٤٥٨).

(٣) أخرجه: أحمد (٥/ ٦١)، وأبو داود (١/ ٢٥٢/ ٣٥٥)، والترمذي (٢/ ٥٠٢-٥٠٣/ ٦٠٥)، والنسائي (١/ ١١٨/ ١٨٨).

(٤) أخرجه: أحمد (٦/ ٣٤٢)، وابن ماجه (١/ ١٣٣-١٣٤/ ٣٧٨)، والنسائي (١/ ١٤٣/ ٢٤٠)، وفي الكبرى (١/ ١١٧/ ٢٤٢).

قيل: وهذا أيضًا دليل في المسألة؛ فإنه إن سوى بين التغير اليسير والكثير مطلقا كان مخالفا للنص؛ وإن فرق بينهما لم يكن للفرق بينهما حد منضبط، لا بلغة ولا شرع، ولا عقل ولا عرف، ومن فرق بين الحلال والحرام بفرق غير معلوم لم يكن قوله صحيحا.

وأيضًا: فإن المانعين مضطربون اضطرابا يدل على فساد أصل قولهم، منهم من يفرق بين الكافور والدهن وغيره، ويقول: إن هذا التغير عن مجاورة لا عن مخالطة، ومنهم من يقول: بل نحن نجد في الماء أثر ذلك، ومنهم من يفرق بين الورق الربيعي والخريفي، ومنهم من يسوي بينهما، ومنهم من يسوي بين الملحين: الجبلي والمائي، ومنهم من يفرق بينهما.

وليس على شيء من هذه الأقوال دليل يعتمد عليه، لا من نص ولا قياس ولا إجماع؛ إذ لم يكن الأصل الذي تفرعت عليه مأخوذا من جهة الشرع، وقد قال الله ﷻ: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾[1]، وهذا بخلاف ما جاء من عند الله، فإنه محفوظ، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝٩﴾[2]، فدل ذلك على ضعف هذا القول.

وأيضًا: فإن القول بالجواز موافق للعموم اللفظي والمعنوي؛ مدلول عليه بالظواهر والمعاني؛ فإن تناول اسم الماء لمواقع الإجماع، كتناوله لموارد النزاع في اللغة، وصفات هذا كصفات هذا في الجنس، فتجب التسوية بين المتماثلين.

وأيضًا، فإنه على قول المانعين: يلزم مخالفة الأصل، وترك العمل بالدليل الشرعي لمعارض راجح؛ إذ كان يقتضي القياس عندهم: أنه لا يجوز استعمال شيء من المتغيرات في طهارتي الحدث والخبث، لكن استثني المتغير بأصل الخلقة، وبما يشق صون الماء عنه للحرج والمشقة فكان هذا موضع استحسان ترك له القياس، وتعارض الأدلة على خلاف الأصل، وعلى القول الأول: يكون رخصة ثابتة على وفق القياس من غير تعارض بين أدلة الشرع؛ فيكون هذا أقوى»[3].

---

(١) النساء: الآية (٨٢).

(٢) الحجر: الآية (٩).

(٣) مجموع الفتاوى (٢١/ ٢٤-٢٩).

الرابعة: حكم الماء المتغير بالنجاسة:

قال شيخ الإسلام: «وأما الماء إذا تغير بالنجاسات فإنه ينجس بالاتفاق. وأما ما لم يتغير ففيه أقوال معروفة: أحدها: لا ينجس، وهو قول أهل المدينة، ورواية المدنيين عن مالك وكثير من أهل الحديث، وإحدى الروايات عن أحمد، اختارها طائفة من أصحابه، ونصرها ابن عقيل في المفردات، وابن البناء وغيرهما. والثاني: ينجس قليل الماء بقليل النجاسة، وهي رواية البصريين عن مالك. والثالث: وهو مذهب الشافعي وأحمد في الرواية الأخرى اختارها طائفة من أصحابه- الفرق بين القلتين وغيرهما. فمالك لا يحد الكثير بالقلتين، والشافعي وأحمد يحدان الكثير بالقلتين. والرابع: الفرق بين البول والعذرة المائعة وغيرهما فالأول ينجس منه ما أمكن نزحه، دون ما لم يمكن نزحه، بخلاف الثاني؛ فإنه لا ينجس القلتين فصاعدا، وهذا أشهر الروايات عن أحمد، واختيار أكثر أصحابه. والخامس: أن الماء ينجس بملاقاة النجاسة، سواء كان قليلا أو كثيرا؛ وهذا قول أبي حنيفة وأصحابه، لكن ما لم يصل إليه لا ينجسه.

ثم حدوا ما لا يصل إليه: بما لا يتحرك أحد طرفيه بتحريك الطرف الآخر.

ثم تنازعوا: هل يحد بحركة المتوضيء أو المغتسل؟ وقدر ذلك محمد بن الحسن بمسجده، فوجدوه عشرة أذرع في عشرة أذرع.

وتنازعوا في الآبار إذا وقعت فيها نجاسة: هل يمكن تطهيرها؟ فزعم المزني: أنه لا يمكن. وقال أبو حنيفة وأصحابه. يمكن تطهيرها بالنزح، ولهم في تقدير الدلاء أقوال معروفة.

والسادس: قول أهل الظاهر، الذين ينجسون ما بال فيه البائل، دون ما ألقي فيه البول، ولا ينجسون ما سوى ذلك إلا بالتغير.

وأصل هذه المسألة من جهة المعنى: أن اختلاط الخبيث، وهو النجاسة بالماء: هل يوجب تحريم الجميع، أم يقال: بل قد استحال في الماء، فلم يبق له حكم؟

فالمنجسون ذهبوا إلى القول الأول؛ ثم من استثنى الكثير قال: هذا يشق الاحتراز من وقوع النجاسة فيه، فجعلوا ذلك موضع استحسان، كما ذهب إلى ذلك

طائفة من أصحاب الشافعي وأحمد.

وأما أصحاب أبي حنيفة فبنوا الأمر على وصول النجاسة وعدم وصولها، وقدروه بالحركة أو بالمساحة في الطول والعرض دون العمق.

والصواب: هو القول الأول، وأنه متى علم أن النجاسة قد استحالت فالماء طاهر، سواء كان قليلا أو كثيرا، وكذلك في المائعات كلها، وذلك لأن اللّٰه تعالى أباح الطيبات وحرم الخبائث، والخبيث متميز عن الطيب بصفاته، فإذا كانت صفات الماء وغيره صفات الطيب دون الخبيث: وجب دخوله في الحلال دون الحرام.

وأيضًا فقد ثبت من حديث أبي سعيد «**أن النبي ﷺ** قيل له: أنتوضأ من بئر بضاعة؟ وهي بئر يلقى فيها الحيض ولحوم الكلاب والنتن فقال: الماء طهور، لا ينجسه شيء»، قال أحمد: حديث بئر بضاعة صحيح. وهو في المسند أيضًا عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال: «**الماء طهور لا ينجسه شيء**»، وهذا اللفظ عام في القليل والكثير، وهو عام في جميع النجاسات.

وأما إذا تغير بالنجاسة، فإنما حرم استعماله؛ لأن جرم النجاسة باق ففي استعماله استعمالها، بخلاف ما إذا استحالت النجاسة فإن الماء طهور، وليس هناك نجاسة قائمة.

ومما يبين ذلك: أنه لو وقع خمر في ماء واستحالت، ثم شربها شارب لم يكن شاربا للخمر؛ ولم يجب عليه حد الخمر؛ إذ لم يبق شيء من طعمها ولونها وريحها، ولو صب لبن امرأة في ماء واستحال حتى لم يبق له أثر وشرب طفل ذلك الماء: لم يصر ابنها من الرضاعة بذلك.

وأيضًا: فإن هذا باق على أوصاف خلقته؛ فيدخل في عموم قوله تعالى: ﴿فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ﴾؛ فإن الكلام إنما هو فيما لم يتغير بالنجاسة لا طعمه ولا لونه ولا ريحه.

فإن قيل: فإن النبي ﷺ قد «**نهى عن البول في الماء الدائم وعن الاغتسال فيه**»؟

قيل: نهيه عن البول في الماء الدائم لا يدل على أنه ينجس بمجرد البول؛ إذ ليس في اللفظ ما يدل على ذلك، بل قد يكون نهيه سدا للذريعة؛ لأن البول ذريعة إلى تنجيسه، فإنه إذا بال هذا ثم بال هذا تغير الماء بالبول، فكان نهيه سدا للذريعة.

أو يقال: إنه مكروه بمجرد الطبع لا لأجل أنه ينجسه.

وأيضًا فيدل نهيه عن البول في الماء الدائم أنه يعم القليل والكثير فيقال لصاحب القلتين: أتجوز بوله فيما فوق القلتين؟ إن جوزته فقد خالفت ظاهر النص، وإن حرمته فقد نقضت دليلك، وكذلك يقال لمن فرق بين ما يمكن نزحه وما لا يمكن: أتسوغ للحجاج أن يبولوا في المصانع المبنية بطريق مكة؟ إن جوزته خالفت ظاهر النص، فإن هذا ماء دائم، والحديث لم يفرق بين القليل والكثير وإلا نقضت قولك.

وكذلك يقال للمقدر بعشرة أذرع: إذا كان لأهل القرية غدير مستطيل أكثر من عشرة أذرع رقيق أتسوغ لأهل القرية البول فيه؟ فإن سوغته خالفت ظاهر النص؛ وإلا نقضت قولك، فإذا كان النص بل والإجماع دل على أنه نهى عن البول فيما ينجسه البول، بل تقدير الماء وغير ذلك فيما يشترك فيه القليل والكثير: كان هذا الوصف المشترك بين القليل والكثير مستقلا بالنهي، فلم يجز تعليل النهي بالنجاسة ولا يجوز أن يقال: إنه ﷺ إنما نهى عن البول فيه؛ لأن البول ينجسه؛ فإن هذا خلاف النص والإجماع.

وأما من فرق بين البول فيه وبين صب البول فقوله ظاهر الفساد؛ فإن صب البول أبلغ من أن ينهى عنه من مجرد البول؛ إذ الانسان قد يحتاج إلى أن يبول، وأما صب الأبوال في المياه فلا حاجة إليه»[1].

وقال الصنعاني: «اختلفت آراء العلماء رحمهم اللَّه في الماء إذا خالطته نجاسة ولم تغير أحد أوصافه: فذهب القاسم ويحيى بن حمزة وجماعة من الآل، ومالك والظاهرية إلى أنه طهور قليلا كان أو كثيرا، عملا بحديث: «**الماء طهور**»، وإنما حكموا بعدم طهورية ما غيرت النجاسة أحد أوصافه؛ للإجماع على ذلك كما يأتي الكلام عليه قريبا، وذهب الهادوية والحنفية والشافعية إلى قسمة الماء إلى قليل تضره النجاسة مطلقا، وكثير لا تضره إلا إذا غيرت بعض أوصافه، ثم اختلف هؤلاء بعد ذلك في تحديد القليل والكثير، فذهبت الهادوية إلى تحديد القليل: بأنه ما ظن المستعمل للماء الواقعة فيه النجاسة استعمالها باستعماله، وما عدا ذلك فهو الكثير، وذهب غيرهم في تحديد القليل إلى غير ذلك ثم اختلفوا فقالت الحنفية:

---

(١) مجموع الفتاوى (٢١/ ٣٠-٣٥).

الكثير في الماء هو ماء إذا كان بحيث إذا حرك أحد طرفيه آدمي لم تسر الحركة إلى الطرف الآخر، وما عداه فهو القليل، وقالت الشافعية: بل الكثير ما بلغ قلتين من قلال هجر وذلك نحو خمسمائة رطل عملا بحديث القلتين، وما عداه فهو القليل، ووجه هذا الاختلاف تعارض الأحاديث التي أسلفناها، فإن حديث الاستيقاظ وحديث الماء الدائم يقتضيان أن قليل النجاسة ينجس قليل الماء وكذلك الولوغ والأمر بإراقة ما ولغ فيه، وعارضها حديث بول الأعرابي والأمر بصب ذنوب من ماء عليه؛ فإنه يقتضي أن قليل النجاسة لا ينجس قليل الماء. ومن المعلوم أنه قد طهر ذلك الموضع الذي وقع فيه بول الأعرابي بذلك الذنوب، وكذلك قوله: «**الماء طهور لا ينجسه شيء**» فقال الأولون وهم القائلون لا ينجسه شيء إلا ما غير أحد أوصافه: يجمع بين الأحاديث بالقول بأنه لاينجسه شيء كما دل له هذا اللفظ ودل عليه حديث بول الأعرابي، وأحاديث الاستيقاظ والماء الدائم والولوغ ليست واردة لبيان حكم نجاسة الماء بل الأمر باجتنابها تعبدي لا لأجل النجاسة، وإنما هو لمعنى لا نعرفه كعدم معرفتنا لحكمة أعداد الصلوات ونحوها، وقيل: بل النهي في هذه الأحاديث للكراهة فقط. وهي طاهرة مطهرة، وجمعت الشافعية بين الأحاديث بأن حديث: «**لا ينجسه شيء**» محمول على ما بلغ القلتين فما فوقهما وهو كثير، وحديث الاستيقاظ، وحديث الماء الدائم محمول على القليل. وعند الهادوية أن حديث الاستيقاظ محمول على الندب فلا يجب غسلهما له.

وقالت الحنفية: المراد بلا ينجسه شيء الكثير الذي سبق تحديده، وقدحوا في حديث القلتين بالاضطراب. كذلك أعله الإمام المهدي في البحر وبعضهم تأوله وبقية الأحاديث في القليل، ولكنه وارد عليهم حديث بول الأعرابي فإنه كما عرفت دل على أنه لا يضر قليل النجاسة قليل الماء فدفعته الشافعية بالفرق بين ورود الماء على النجاسة وورودها عليه فقالوا: إذا وردت على الماء نجسته كما في حديث الاستيقاظ، وإذا ورد عليها الماء لم تضره كما في خبر بول الأعرابي. وفيه بحث وحاصله: أنهم حكموا أنه إذا وردت النجاسة على الماء القليل نجسته وإذا ورد عليها الماء القليل لم ينجس فجعلوا علة عدم تنجيس الماء الورود على النجاسة وليس كذلك بل التحقيق أنه حين يرد الماء على النجاسة يرد عليها شيئًا فشيئًا حتى يفني عينها وتذهب قبل فنائه فلا يأتي آخر جزء من الماء الوارد على النجاسة إلا وقد

طهر المحل الذي اتصلت به أو بقي فيه جزء منها يفنى ويتلاشى عند ملاقاة آخر جزء منها يرد عليها من الماء كما تفنى النجاسة وتتلاشى إذا وردت على الماء الكثير بالإجماع فلا فرق بين هذا وبين الماء الكثير في إفناء الكل للنجاسة فإن الجزء الأخير من الوارد على النجاسة يحيل عينها لكثرته بالنسبة إلى ما بقي من النجاسة فالعلة في عدم تنجيسه بوروده عليها هي كثرته بالنسبة إليها لا الورود فإنه لا يعقل التفرقة بين الورودين بأن أحدهما ينجسه دون الآخر وإذا عرفت ما أسلفناه وأن تحديد الكثير والقليل لم ينهض على أحدهما دليل فأقرب الأقاويل بالنظر إلى الدليل هو قول القاسم بن إبراهيم ومن معه وهو قول جماعة من الصحابة كما في البحر وعليه عدة من أئمة الآل المتأخرين، واختاره منهم الإمام شرف الدين.

وقال ابن دقيق العيد: إنه قول لأحمد بن حنبل ونصره بعض المتأخرين من أتباعه ورجحه أيضًا من أتباع الشافعي القاضي أبو الحسن الروياني صاحب بحر المذهب قاله في (الإلمام)»[1].

الخامسة: حكم الماء إذا ولغ فيه الكلب:

قال شيخ الإسلام: «وأما التوضؤ بماء الولوغ فلا يجوز عند جماهير العلماء بل يعدل عنه إلى التيمم»[2].

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وحديث الأمر بإراقة الإناء من ولوغ الكلب لأن الآنية التي يلغ فيها الكلب في العادة صغيرة، ولعابه لزج يبقى في الماء ويتصل بالإناء فيراق الماء ويغسل الإناء من ريقه الذي لم يستحل بعد بخلاف ما إذا ولغ في إناء كبير، وقد نقل حرب عن أحمد في كلب ولغ في جب كبير فيه زيت فأمره بأكله»[3].

وقال النووي: «وفيه أيضًا نجاسة ما ولغ فيه الكلب- وأنه إن كان طعاما مائعا حرم أكله لأن إراقته إضاعة له فلو كان طاهرا لم يأمرنا بإراقته بل قد نهينا عن إضاعة المال وهذا مذهبنا ومذهب الجماهير أنه ينجس ما ولغ فيه ولا فرق بين الكلب المأذون في اقتنائه وغيره ولا بين كلب البدوي والحضري لعموم اللفظ»[4].

---

(١) سبل السلام (١/ ١٢٩-١٣٤).

(٢) مجموع الفتاوى (٢١/ ٨٠).

(٣) مجموع الفتاوى (٢٠/ ٥٢١).

(٤) شرح مسلم (١/ ١٥٨).

وقال ابن الملقن: «الأمر بغسل ما ولغ فيه الكلب أو شرب ظاهر في تنجيس الماء، وأقوى من هذا في الدلالة على ذلك الرواية الثانية: «**طهور إناء أحدكم إذا ولغ فيه الكلب أن يغسله سبع مرات أولاهن بالتراب**» والمصنف ذكر منها القطعة الأخيرة فإن لفظة: «**طهور**» تستعمل إما عن حدث أو خبث، ولا حدث على الإناء بالضرورة فتعين الخبث، وفي هذا شيء سيعرف في التيمم إن شاء اللَّه، ويبعد الحمل على الطهارة اللغوية؛ لأن الشرعية مقدمة عليها. وحمل مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ: هذا الأمر على التعبد؛ لاعتقاده طهارة الماء والإناء، وربما رجحه أصحابه بذكر هذا العدد المخصوص وهو السبع؛ لأنه لو كان للنجاسة لاكتفى بما دون السبع فإنه لا يكون أغلظ من نجاسة العذرة وقد اكتفي فيها بما دون السبع، والحمل على التنجيس أولى؛ لأنه متى دار الحكم بين كونه تعبدا أو معقول المعنى كان حمله على كونه معقول المعنى أولى؛ لندرة التعبد بالنسبة إلى الأحكام المعقولة المعنى، وأما كونه لا يكون أغلظ من نجاسة العذرة فممنوع عند القائل بنجاسته، نعم ليس بأقذر من العذرة ولكن لا يتوقف التغليظ على زيادة الاستقذار، وأيضًا إذا كان أصل المعنى معقولا قلنا به وإذا وقع في التفاصيل ما لا يعقل سقناه في التفصيل ولم ينقض لأجله التأصيل، نبه على ذلك الشيخ تقي الدين، قال وله نظائر في الشريعة، ولو لم يظهر زيادة التغليظ في النجاسة لكنا نقتصر في التعبد على العدد ونمشي في الأصل على معقولية المعنى»[١].

وقال العيني: «فيه دلالة على نجاسة الكلب؛ لأن الطهارة لا تكون إلا عن حدث أو نجس، والأول منتف فتعين الثاني، فإن قلت: استدل البخاري في هذا الباب المشتمل على الحكمين على الحكم الثاني وهو سؤر الكلب بالأثر الذي رواه عن الزهري والثوري، ثم استدل بهذا الحديث المرفوع، فما وجه دلالة هذا على ما ادعاه، والحال أن الحديث يدل على خلاف ما يقوله؟.

قلت: أجاب عنه من ينصره ويتغالى فيه بأن سؤر الكلب طاهر، وأن الأمر بغسل الإناء سبعا من ولوغه أمر تعبدي، فلا يدل على نجاسته.

قلت: هذا بعيد جدا؛ لأن دلالة ظاهر الحديث على خلاف ما ذكروه، على أنا

(١) الإعلام بفوائد عمدة الأحكام (١/ ٢٩٥-٢٩٦).

ولئن سلمنا أنه يحتمل أن يكون الأمر لنجاسته، ويحتمل أن يكون للتعبد، ولكن رجح الأول ما رواه مسلم: «**طهور إناء أحدكم إذا ولغ الكلب أن يغسله سبع مرات أولاهن بالتراب**»[١] وروايته أيضًا: «**إذا ولغ الكلب في إناء أحدكم فليرقه ثم ليغسله سبع مرات**»[٢]، ولو كان سؤره طاهرا لما أمر بإراقته، والذي قالوه نصرة للبخاري بغير ما يذكر عن المالكية.

فإن قلت: من قال إن البخاري ذهب إلى ما نسبوه له؟

قلت: قال ابن بطال في شرحه: ذكر البخاري أربعة أحاديث في الكلب، وغرضه من ذلك إثبات طهارة الكلب وطهارة سؤره.

أقول: كلام ابن بطال ليس بحجة، فلم لا يجوز أن يكون غرضه بيان مذاهب الناس فبين في هذا الباب مسألتين:

أولاهما: الماء الذي يغسل به الشعر.

والثاني: سؤر الكلاب؟ بل الظاهر هذا، والدليل عليه أنه قال في المسألة الثانية: وسؤر الكلاب، واقتصر على هذه اللفظة ولم يقل: وطهارة سؤر الكلاب»[٣].

ويلحق بسؤر الكلب: سؤر الحمار والبغل:

قال ابن المنذر: «اختلف أهل العلم في سؤر الحمار والبغل فكرهت طائفة الوضوء بسؤر الحمار، وممن يرى ذلك ابن عمر والنخعي والشعبي والحسن وابن سيرين، وبه قال الأوزاعي والثوري وأصحاب الرأي وأحمد.

ثم ذكر بسنده إلى عبد اللّٰه بن عمر، أنه كان يكره سؤر الحمار والكلب والهر أن يتوضأ»[٤].

ومما يدل على ذلك أمره ﷺ المنادي فنادى في الناس: «**إن اللّٰه ورسوله**

---

(١) أخرجه: مسلم (١/ ٢٣٤/ ٢٧٩)، وأحمد (٢/ ٤٢٧).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٤٥)، ومسلم (١/ ٢٣٤/ ٢٧٩)، وأبو داود (١/ ٥٩/ ٧٣)، والترمذي (١/ ١٥١/ ٩١)، والنسائي (١/ ٥٦/ ٦٤)، وابن ماجه (١/ ١٣٠/ ٣٦٣).

(٣) عمدة القاري (٢/ ٤٨٦-٤٨٧).

(٤) الأوسط (١/ ٣٠٨-٣٠٩).

ينهيانكم عن لحم الحمر الأهلية فإنها رجس»[١].

قال ابن قدامة: «فعن أحمد أن سؤرهما نجس إذا لم يجد غيره تيمم وتركه»[٢].

سؤر الخنزير:

واستدل من استدل من العلماء على نجاسة لحم الحمار بقوله ﷺ: «**فإنها رجس**» فالخنزير بهذا الوصف أولى. وكل شيء ثبت نجاسة لحمه يحكم بنجاسة سؤره، وكل شيء لا يؤكل لحمه سوى الهر- يحكم بنجاسة سؤره»[٣].

سؤر السباع:

* عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: سئل رسول اللَّه ﷺ عن الماء وما ينوبه من الدواب والسباع؟ فقال ﷺ: «**إذا كان الماء قلتين لم يحمل الخبث**»[٤] وفي لفظ: «**لم ينجسه شيء**».

قال ابن التركماني: «وظاهر هذا يدل على نجاسة سؤر السباع إذ لولا ذلك لم يكن لهذا الشرط فائدة ولكان التقييد به ضائعا»[٥].

السادسة: في حكم الماء الذي ولغ فيه الهر:

قال القرطبي: «ذهب الجمهور من الصحابة وفقهاء الأمصار وسائر التابعين بالحجاز والعراق أن ما ولغ فيه الهر من الماء طاهر، وأنه لا بأس بالوضوء بسؤره؛ لحديث أبي قتادة، أخرجه مالك وغيره. وقد روي عن أبي هريرة فيه خلاف. وروي عن عطاء بن أبي رباح وسعيد بن المسيب ومحمد بن سيرين أنهم أمروا بإراقة ماء ولغ فيه الهر وغسل الإناء منه. واختلف في ذلك عن الحسن. ويحتمل أن يكون الحسن رأى في فمه نجاسة ليصح مخرج الروايتين عنه. قال الترمذي لما ذكر حديث مالك: «وفي الباب عن عائشة وأبي هريرة، هذا حديث حسن صحيح، وهو قول أكثر أهل العلم من أصحاب النبي ﷺ والتابعين ومن بعدهم؛ مثل الشافعي

---

(١) رواه: البخاري (٩/ ٨١٥/ ٥٥٢٨)، ومسلم (٣/ ١٩٤٠).

(٢) المغني (١/ ٦٦).

(٣) المغني (١/ ٦٤).

(٤) أخرجه: أبو داود (١/ ٥١/ ٦٣)، والترمذي (١/ ٩٧/ ٦٧)، والنسائي (١/ ٤٩-٥٠/ ٥٢)، وابن ماجه (١/ ١٧٢/ ٥١٧).

(٥) الجوهر النقي (١/ ٢٥٠) حاشية سنن البيهقي.

وأحمد وإسحاق، لم يروا بسؤر الهرة بأسا». وهذا أحسن شيء في الباب، وقد جود مالك هذا الحديث عن إسحق بن عبد اللَّه بن أبي طلحة، ولم يأت به أحد أتم من مالك..

ومن حجتهم أيضًا ما رواه قرة بن خالد عن محمد بن سيرين عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «**طهور الإناء إذا ولغ فيه الهر أن يغسل مرة أو مرتين**»[١] شك قرة. وهذا الحديث لم يرفعه إلا قرة بن خالد، وقرة ثقة ثبت.

قلت: هذا الحديث أخرجه الدارقطني، ومتنه: «**طهور الإناء إذا ولغ فيه الكلب أن يغسل سبع مرات الأولى بالتراب والهر مرة أو مرتين**»[٢]. قرة شك. قال أبو بكر: كذا رواه أبو عاصم مرفوعا، ورواه غيره عن قرة (ولوغ الكلب) مرفوعا و(ولوغ الهر) موقوفا. وروى أبو صالح عن أبي هريرة قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**يغسل الإناء من الهر كما يغسل من الكلب**» قال الدارقطني[٣]: لا يثبت هذا مرفوعا والمحفوظ من قول أبي هريرة واختلف عنه. وذكر معمر وابن جريج عن ابن طاوس عن أبيه أنه كان يجعل الهر مثل الكلب. وعن مجاهد أنه قال في الإناء يلغ فيه السنور قال: اغسله سبع مرات. قاله الدارقطني»[٤].

قال أبو عمر: «الحجة عند التنازع والاختلاف سنة رسول اللَّه ﷺ، وقد صح عنه من حديث أبي قتادة في هذا الباب ما ذكرنا. وعليه اعتماد الفقهاء في كل مصر إلا أبا حنيفة ومن قال بقوله، قال أبو عبد اللَّه محمد بن نصر المروزي: الذي صار إليه جل أهل الفتوى من علماء الأمصار من أهل الأثر والرأي جميعًا أنه لا بأس بسؤر السنور اتباعا للحديث الذي رويناه يعني عن أبي قتادة عن النبي ﷺ»[٥].

وقال الصنعاني: «والحديث دليل على طهارة الهرة وسؤرها وإن باشرت نجسا وأنه لا تقييد لطهارة فمها بزمان. وقيل: لا يطهر فمها إلا بمضي زمان من ليلة أو

---

(١) أخرجه: أبو داود (١/ ٥٨-٥٩/ ٧٢) بلفظ "وإذا ولغ الهر غسل مرة"، والدارقطني (١/ ١١٢/ ٢٠٥)، والبيهقي (١/ ٢٤٨)، والحاكم (١/ ٢٦٤).
(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٤٢٧)، ومسلم (١/ ٢٣٤/ ٢٧٩).
(٣) أخرجه: الدارقطني (١/ ١١٣/ ٢٠٧).
(٤) تفسير القرطبي (١٣/ ٣٣)، وانظر فتح البر (٣/ ٢٤-٢٥).
(٥) فتح البر (٣/ ٢٤).

يوم أو ساعة أو شربها الماء أو غيبتها حتى يحصل ظن بذلك أو بزوال عين النجاسة من فمها، وهذا الأخير أوضح الأقوال لأنه مع بقاء عين النجاسة في فمها فالحكم بالنجاسة لتلك العين لا لفمها فإن زالت العين فقد حكم الشارع بأنها ليست بنجس»[(١)].

وقال شيخ الإسلام: «أما الهرة فقد ثبت عنه ﷺ أنه قال: «**إنها ليست بنجسة، إنها من الطوافين عليكم والطوافات**».

وتنازع العلماء فيما إذا أكلت فأرة ونحوها ثم ولغت في ماء قليل على أربعة أقوال في مذهب أحمد وغيره. قيل: إن الماء طاهر مطلقا. وقيل نجس مطلقا حتى تعلم طهارة فمها. وقيل: إن غابت غيبة يمكن فيها ورودها على ما يطهر فمها كان طاهرا، وإلا فلا. وهذه الأوجه في مذهب الشافعي وأحمد وغيرهما. وقيل إن طال الفصل كان طاهرا، جعلا لريقها مطهرا لفمها لأجل الحاجة، وهذا قول طائفة من أصحاب أبي حنيفة وأحمد، وهو أقوى الأقوال والله أعلم»[(٢)].

وقال خطاب السبكي: «والحديث يدل على طهارة فم الهرة وطهارة سؤرها وإليه ذهب مالك والشافعي وأحمد وإسحاق وهو قول أكثر أصحاب النبي صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم والتابعين وبه قال أبو حنيفة وأصحابه في سؤر الهرة الأهلية لسقوط حكم النجاسة اتفاقا بعلة الطواف المنصوص عليها في الحديث»[(٣)].

ويلحق بسؤر الهر في الحكم سؤر ما يؤكل لحمه:

* عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: إني لتحت ناقة رسول الله ﷺ يسيل علي لعابها فسمعته يقول: «**إن الله أعطى كل ذي حق حقه ألا لا وصية لوارث**»[(٤)].

قال الصنعاني: «والحديث دليل على أن لعاب ما يؤكل لحمه طاهر»[(٥)].

---

(١) سبل السلام (١/ ١٥٧).

(٢) مجموع الفتاوى (٢١/ ٤٢-٤٣).

(٣) المنهل (١/ ٢٦٥).

(٤) أخرجه: أحمد (٥/ ٢٦٧)، وأبو داود (٣/ ٨٢٤/ ٣٥٦٥)، والترمذي (٤/ ٣٧٦ و٣٧٧/ ٢١٢٠) قال: حسن صحيح، وابن ماجه (٢/ ٩٠٥/ ٢٧١٣).

(٥) سبل السلام (١/ ٢٠٣).

قال ابن المنذر: «وأجمع أهل العلم لا اختلاف بينهم أن سؤر ما يؤكل لحمه طاهر يجوز شربه والتطهر به»[١].

وأما سؤر الآدمي:

قال ابن قدامة: «طاهر سواء كان مسلما أو كافرا عند عامة أهل العلم»[٢].

واستدل رَحِمَهُ اللَّهُ على ذلك بقوله ﷺ: «**إن المؤمن لا ينجس**»[٣]، وبحديث أبي هريرة رضي الله عنه حيث قال: «**بينما رسول اللَّه ﷺ** في المسجد فقال يا عائشةناوليني الثوب، فقالت: إني حائض، فقال: إن حيضتك ليست في يدك. فناولته»[٤].

قلت: وهذا يدل دلالة واضحة على طهارة سؤر الحائض.

وأما القول بطهارة سؤر الكافر فللأسباب التالية:

- التمسك بالقاعدة المعروفة وهي: الأصل في الأعيان الطهارة.

- أن اللَّه تعالى أباح نساء أهل الكتاب، ومعلوم أن عرقهن لا يسلم منه من يضاجعهن ومع ذلك فلا يجب من غسل الكتابية إلا ما يجب عليهم من غسل المسلمة»[٥].

- وأما استدلال القائلين بنجاسة سؤر الكافر بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾[٦]، فقد تقدم الرد على ذلك في سورة التوبة الآية (٢٨) بما أغنى عن الإعادة هنا وباللَّه التوفيق.

- **السابعة**: حكم الماء المستعمل:

قال ابن بطال: «واختلف العلماء في ذلك: فأجاز النخعي، والحسن البصري، والزهري الوضوء بالماء الذي قد توضئ به، وهو قول مالك والثوري وأبي ثور. وقال محمد بن الحسن والشافعي: هو طاهر غير مطهر. وقال أبو حنيفة وأبو يوسف: هو

---

(١) الأوسط (١/ ٢٩٩). (٢) المغني (١/ ٦٩).

(٣) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٣٥)، والبخاري (١/ ٥١٣/ ٢٨٣)، ومسلم (١/ ٢٨٢/ ٣٧١)، وأبو داود (١/ ١٥٦/ ٢٣١)، والترمذي (١/ ٢٠٧-٢٠٨/ ١٢١)، والنسائي (١/ ١٥٨/ ٢٦٧)، وابن ماجه (١/ ١٧٨/ ٥٣٤).

(٤) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٠٣)، ومسلم (١/ ٢٤٤/ / ٢٩٨)، وأبو داود (١/ ١٧٩/ ٢٦١)، والترمذي (١/ ٢٤١/ ١٣٤)، والنسائي (١/ ١٦٠/ ٢٧١). (٥) أفاده في النيل (١/ ٢١).

(٦) التوبة: الآية (٢٨).

نجس. واحتجوا بأنه ماء الذنوب.

قال القصار: فيقال لهم: هذا مثل ضربه النبي ﷺ أي كما يغسل الدرن من الثوب؛ كذلك تتحات الذنوب بالغسل، لا أن الذنوب شيء ينماع في الماء ولا يؤثر في حكمه، ثم إننا نعلم أن الذنوب تتحات مع كل جزء عند أول جزء من الوجه أو اليد ثم كلما انحدر على جزء آخر هو كذلك فينبغي أن لا يجزئه ما مر على الجزء الثاني لأنه ماء الذنوب.

ونقول: إن الإجماع حاصل على جواز استعمال الماء المستعمل، وذلك أن الماء إذا لاقى أول جزء من أجزاء العضو فقد صار مستعملا، ثم يمره على كل جزء بعده فيجزئه، ولو لم يجز الوضوء بالماء المستعمل لم يجز إمراره على باقي العضو، ولوجب عليه أن يأخذ لكل جزء من العضو ماء جديدا.

فإن قالوا: الماء المستعمل عندنا هو إذا سقط عن جميع العضو، فأما ما دام على العضو فليس بمستعمل.

قيل: يلزمكم أن لا يكون مستعملا حتى يسقط عن الأعضاء كلها؛ لأنه لا يصح أن تكون متوضئا بغسل بعض الأعضاء وترك البعض مع القدرة؛ لأن الأعضاء كلها كالعضو الواحد في حكم الوضوء.

وقد أجمعوا أن الإنسان غير مأخوذ عليه أن يوقي ثوبه أو بدنه مما يترشش عليه من الماء المستعمل، وقد أخذ عليه أن يتحرز من ترشش البول، فلو كان نجسا لوجب التحرز منه.

فصح أنه طاهر؛ لأنه ماء لم يتغير طعمه ولا لونه ولا ريحه، ولم يؤثر الاستعمال في عينه، فلم يؤثر في حكمه، وهو طاهر لاقى جسما طاهرا فجاز أن يسقط به الفرض مرة أخرى كالماء الذي غسل به ثوب طاهر، فمن أين تحدث فيه نجاسة؟

وقد روي عن علي، وابن عمر، وأبي أمامة، وعطاء، ومكحول، والنخعي، والحسن أنهم قالوا فيمن نسي مسح رأسه فوجد في لحيته بللا: يجزئه أن يمسحه بذلك البلل؛ فدل أنهم كانوا يرون استعمال الماء المستعمل.

وقال غيره: يقال لمن قال: إن ماء الذنوب نجس. بل هو ماء طاهر مبارك؛ لأنه الماء الذي رفع اللَّه بالغسل به الخطايا، وقد رفع اللَّه ما كانت فيه هذه البركة عن

النجاسة وبالله التوفيق»[1].

وقال الشوكاني: «وقد ذهب إلى أن الماء المستعمل غير مطهر أكثر العترة، وأحمد بن حنبل، والليث، والأوزاعي، والشافعي، ومالك في إحدى الروايتين عنهما، وأبو حنيفة في رواية عنه، واحتجوا بهذا الحديث، وبحديث النهي عن التوضئ بفضل وضوء المرأة، واحتج لهم في البحر بما روى عن السلف من تكميل الطهارة بالتيمم عند قلة الماء لا بما تساقط منه، وأجيب عن الاستدلال بحديث الباب بأن علة النهي ليست كونه يصير مستعملًا بل مصيره مستخبثًا بتوارد الاستعمال فيبطل نفعه، ويوضح ذلك قول أبي هريرة يتناوله تناولا، وباضطراب متنه، وبأن الدليل أخص من الدعوى؛ لأن غاية ما فيه خروج المستعمل للجنابة، والمدعى خروج كل مستعمل عن الطهورية وعن حديث النهي عن التوضئ بفضل وضوء المرأة بمنع كون الفضل مستعملا، ولو سلم فالدليل أخص من الدعوى؛ لأن المدعي خروج كل مستعمل عن الطهورية لا خصوص هذا المستعمل، وبالمعارضة بما أخرجه مسلم وأحمد من حديث ابن عباس أن رسول الله ﷺ «كان يغتسل بفضل ميمونة» وأخرجه أحمد أيضًا وابن ماجه بنحوه من حديثه وأخرجه أيضًا أحمد وأبو داود والنسائي والترمذي وصححه من حديثه بلفظ: «اغتسل بعض أزواج النبي ﷺ في جفنة فجاء النبي ﷺ ليتوضأ منها أو يغتسل فقالت له: يا رسول الله إني كنت جنبًا. فقال: **إن الماء لا يجنب**»[2] وأيضًا حديث النهي عن التوضؤ بفضل وضوء المرأة فيه مقال سيأتي بيانه في بابه، وعن الاحتجاج بتكميل السلف للطهارة بالتيمم لا بما تساقط بأنه لا يكون حجة إلا بعد تصحيح النقل عن جميعهم، ولا سبيل إلى ذلك لأن القائلين بطهورية المستعمل منهم كالحسن البصري، والزهري، والنخعي، ومالك، والشافعي، وأبي حنيفة في إحدى الروايات عن الثلاثة المتأخرين ونسبه ابن حزم إلى عطاء، وسفيان الثوري، وأبي ثور، وجميع أهل الظاهر، وبأن المتساقط قد فني لأنهم لم يكونوا يتوضئون إلى إناء والملتصق بالأعضاء حقير لا يكفي بعض عضو من أعضاء الوضوء وبأن سبب الترك بعد تسليم

---

(١) شرح ابن بطال (١/ ٢٨٩-٢٩١).

(٢) أخرجه: أحمد (١/ ٣٣٧)، وأبو داود (١/ ٥٥-٥٦/ ٦٨)، والترمذي (١/ ٩٤/ ٦٥) وقال: حسن صحيح، وابن ماجه (١/ ١٣٢/ ٣٧٠).

صحته عن السلف وإمكان الانتفاع بالبقية هو الاستقذار، وبهذا يتضح عدم خروج المستعمل عن الطهورية وتحتم البقاء على البراءة الأصلية لا سيما بعد اعتضادها بكليات وجزئيات من الأدلة»[١].

وقال صديق حسن خان: «والحق أن الماء لا يخرج عن كونه طهورا بمجرد استعماله للطهارة، إلا أن يتغير بذلك ريحه أو لونه أو طعمه، وقد كان الصحابة يكادون يقتتلون على ما تساقط من وضوئه ﷺ فيأخذونه ويتبركون به، والتبرك به يكون بغسل بعض أعضاء الوضوء كما يكون بغير ذلك.

والحاصل: أن إخراج ما جعله اللَّه طهورا عن الطهورية لا يكون إلا بدليل»[٢].

- **الثامنة:** حكم ماء البحر:

قال ابن عبد البر: «وقد أجمع جمهور العلماء وجماعة أئمة الفتيا بالأمصار من الفقهاء أن البحر طهور ماؤه، وأن الوضوء جائز به، إلا ما روي عن عبد اللَّه بن عمر بن الخطاب، وعبد اللَّه بن عمرو بن العاص؛ فإنه روي عنهما أنهما كرها الوضوء من ماء البحر، ولم يتابعهما أحد من فقهاء الأمصار على ذلك، ولا عرج عليه ولا التفت إليه لحديث هذا الباب[٣] عن النبي ﷺ، وهذا يدلك على استشهار الحديث عندهم، وعملهم به وقبولهم له؛ وهذا أولى عندهم من الإسناد الظاهر الصحة بمعنى ترده الأصول- وباللَّه التوفيق.

وقد خالفهما ابن عباس، وساق رَحِمَهُ ٱللَّهُ بسنده إلى موسى بن سلمة الهذلي قال: عن موسى، قال سألت ابن عباس عن الوضوء بماء البحر وقال: هما البحران، فلا تبالي بأيهما توضأت»[٤].

قال ابن الملقن: «في الحديث- جواز الطهارة بماء البحر. وبه قال جميع العلماء، إلا ابن عمر، وابن عمرو، وسعيد بن المسيب، وتقدم مثل ذلك عن أبي هريرة، وروايته الحديث (أنه طهور) ترده، وكذا رواية عبد اللَّه بن عمر أيضًا»[٥].

---

(١) نيل الأوطار (١/ ٢٢-٢٣).
(٢) الروضة الندية (١/ ٦٨).
(٣) يعني بذلك حديث أبي هريرة ولفظه: «جاء رجل إلى رسول اللَّه ﷺ فقال: يا رسول اللَّه إنا نركب البحر ونحمل معنا القليل من الماء..».
(٤) فتح البر (٣/ ١١-١٢).
(٥) البدر المنير (٢/ ٤٤).

- **التاسعة**: حكم الماء الراكد الذي يبل فيه:

قال الصنعاني: «فأما حكم الماء الراكد وتنجيسه بالبول أو منعه من التطهير بالاغتسال فيه للجنابة فعند القائلين بأنه لا ينجس إلا ما تغير أحد أوصافه: النهي عنه للتعبد وهو طاهر في نفسه، وهذا عند المالكية فإنه يجوز التطهر به؛ لأن النهي عندهم للكراهة وعند الظاهرية أنه للتحريم، وإن كان النهي تعبدا لا لأجل التنجيس لكن الأصل في النهي التحريم، وأما عند من فرق بين القليل والكثير فقالوا إن كان الماء كثيرا وكل على أصله في حده ولم يتغير أحد أوصافه فهو الطاهر والدليل على طهوريته تخصيص هذا العموم إلا أنه قد يقال: إذا قلتم: النهي للكراهة في الكثير فلا تخصيص لعموم حديث الباب، وإن كان الماء قليلا وكل في حده على أصله: فالنهي عنه للتحريم إذ هو غير طاهر ولا مطهر وهذا على أصلهم في كون النهي للنجاسة. وذكر في الشرح الأقوال في البول في الماء وهو أنه لا يحرم في الكثير الجاري كما يقتضيه مفهوم هذا الحديث، والأولى اجتنابه. أما القليل الجاري فقيل: يكره وقيل: يحرم وهو الأولى. (قلت): بل الأولى خلافه إذ الحديث في النهي عن البول فيما لا يجري فلا يشمل الجاري قليلا كان أم كثيرا (نعم) لو قيل بالكراهة لكان قريبا. وإن كان كثيرًا راكدا فقيل: يكره مطلقا وقيل: إن كان قاصدا إلا إذا عرض وهو فيه فلا كراهة. قال في الشرح: ولو قيل بالتحريم لكان أظهر وأوفق لظاهر النهي؛ لأن فيه إفسادا له على غيره ومضارة للمسلمين وإن كان راكدا قليلا فالصحيح التحريم للحديث، ثم هل يلحق غير البول كالغائط به في تحريم ذلك في هذا الماء القليل؟ فالجمهور يلحق به بالأولى، وعن أحمد ابن حنبل لا يلحق به غيره بل يختص الحكم بالبول وقوله: (في الماء) صريح في النهي عن البول فيه، وأنه يجتنب إذا كان كذلك، فإذا بال في إناء وصبه في الماء الدائم فالحكم واحد. وعن داود لا ينجسه ولا يكون منهيا عنه إلا في الصورة الأولى لا غير. وحكم الوضوء في الماء الدائم الذي بال فيه من يريد الوضوء حكم الغسل إذ الحكم واحد. وقد ورد في رواية: «**لا يبولن أحدكم في الماء الدائم ثم يتوضأ منه**» ذكرها في الشرح ولم ينسبها إلى أحد وقد أخرجها عبد الرزاق وأحمد وابن أبي شيبة والترمذي وقال حديث حسن صحيح وابن حبان من حديث

أبي هريرة مرفوعًا»[١].

- **العاشرة:** في حكم الوضوء في آنية الذهب والفضة.

قال القرطبي: «كل إناء طاهر فجائز الوضوء منه إلا إناء الذهب والفضة؛ لنهي رسول اللَّه ﷺ عن اتخاذهما. وذلك واللَّه أعلم- للتشبه بالأعاجم والجبابرة لا لنجاسة فيهما. ومن توضأ فيهما أجزأه وضوؤه وكان عاصيًا باستعمالهما. وقد قيل: لا يجزئ الوضوء في أحدهما. والأول أكثر؛ قاله أبو عمر. وكل جلد ذكي فجائز استعماله للوضوء وغير ذلك. وكان مالك يكره الوضوء في إناء جلد الميتة بعد الدباغ؛ على اختلاف من قوله»[٢].

وقال ابن حزم: «ولا يجوز الوضوء ولا الغسل من إناء ذهب ولا من إناء فضة لا لرجل ولا لامرأة.

ثم ساق بسنده إلى حذيفة قال: «نهانا رسول اللَّه ﷺ عن الحرير والديباج وآنية الذهب والفضة، وقال: **هو لهم في الدنيا وهو لكم في الآخرة**»[٣]؛ وقد روينا أيضًا عن البراء بن عازب عن رسول اللَّه ﷺ النهي عن آنية الفضة.

فإن قيل: إنما نهى عن الأكل فيها والشرب. قلنا: هذان الخبران نهي عام عنهما جملة، فهما زائدان حكمًا وشرعًا على الأخبار التي فيها النهي عن الشرب، فقط أو الأكل والشرب فقط، والزيادة في الحكم لا يحل خلافها»[٤].

وقال ابن قدامة: «والعلة في تحريم الشرب فيها ما يتضمنه ذلك من الفخر والخيلاء، وكسر قلوب الفقراء، وهو موجود في الطهارة منها، واستعماله كيفما كان، بل إذا حرم في غير العبادة ففيها أولى. فإن توضأ منها، أو اغتسل، فعلى وجهين: أحدهما: تصح طهارته. وهو قول الشافعي، وإسحاق، وابن المنذر، وأصحاب الرأي؛ لأن فعل الطهارة وماءها لا يتعلق بشيء من ذلك، أشبه الطهارة في الدار المغصوبة. والثاني: لا يصح. اختاره أبو بكر؛ لأنه استعمل المحرم في

(١) سبل السلام (١/ ١٤٣-١٤٤).
(٢) الجامع لأحكام القرآن (١٣/ ٣٨).
(٣) أخرجه: البخاري (١٠/ ١١٦/ ٥٦٣٢)، وأبو داود (٤/ ١١٢/ ٣٧٢٤)، وابن ماجه (٢/ ٩٤٢/ ٢٨٢٠).
(٤) المحلى (١/ ٢١٨-٢١٩).

العبادة، فلم يصح، كالصلاة في الدار المغصوبة. والأول أصح»[١].

- **حكم الماء المسخن:**

قال ابن قدامة: «ولا يكره الوضوء بالماء المسخن بطاهر، إلا أن يكون حارا يمنع إسباغ الوضوء لحرارته. وممن روي عنه أنه رأى الوضوء بالماء المسخن عمر، وابنه، وابن عباس، وأنس، رضي الله عنهم، وهو قول أهل الحجاز وأهل العراق جميعهم غير مجاهد، ولا معنى لقوله»[٢].

وقال أبو عبيد: «لا أعلمهم يختلفون في المسخن أنه لا فرق بينه وبين البارد وكذلك القول عندنا أنهما لا يفترقان في الطهور فإن كان بينهما افتراق ففي موضع الفضيلة لقول النبي ﷺ: «**إسباغ الوضوء على المكاره**»[٣] وإسباغ الوضوء في السبرات فأما تمام الطهور فإنهما عندنا سواء وما نعلم أحدا كرهه غير شيء بلغنا عن مجاهد»[٤].

- **حكم الماء المسخن بالنجاسة:**

قال ابن تيمية: «والنزاع في الماء المسخن بالنجاسة فإنه طاهر؛ لكن هل يكره على قولين: هما روايتان عن أحمد. إحداهما: لا يكره وهو قول أبي حنيفة والشافعي. والثاني: يكره وهو مذهب مالك. وللكراهة مأخذان: أحدهما: خشية أن يكون قد وصل إلى الماء شيء من النجاسة فيكره لاحتمال تنجسه فعلى هذا إذا كان بين الموقد وبين النار حاجز حصين لم يكره وهذه طريقة الشريف أبي جعفر وابن عقيل وغيرهما. والثاني: أن سبب الكراهة كون استعمال النجاسة مكروها وأن السخونة حصلت بفعل مكروه وهذه طريقة القاضي أبي يعلى»[٥].

- **حكم مياه أهل الكتاب:**

قال البخاري رحمه الله: «وتوضأ عمر بالحميم من بيت نصرانية».

قال الحافظ: «فيه دليل على جواز استعمال مياه أهل الكتاب من غير

---

(١) المغني (١/ ١٠٢-١٠٣). (٢) المغني (١/ ٢٧).

(٣) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٠٣)، ومسلم (١/ ٢١٩/ ٢٥١)، والترمذي (١/ ٧٢-٧٣/ ٥١)، والنسائي (١/ ٩٧/ ١٤٣).

(٤) الطهور (٣٠٨). (٥) الفتاوى (٢١/ ٦١٢).

استفصال.

وقال الشافعي في الأم: لا بأس بالوضوء من ماء المشرك وبفضل وضوئه ما لم تعلم فيه نجاسة»[١].

حكم الوضوء بماء زمزم:

قال ابن قدامة: «ولا يكره الوضوء والغسل بماء زمزم لأنه ماء طهور فأشبه سائر المياه»[٢].

وقد ورد في الوضوء من ماء زمزم حديث صحيح: عن علي رضي الله عنه أن رسول اللّه ﷺ دعا بسجل من ماء زمزم فشرب منه وتوضأ ثم قال: «**انزعوا يا بني عبد المطلب، فلولا أن تغلبوا عليها لنزعت**»[٣].

* * *

(١) الفتح (١/ ٣٩٦).

(٢) المغني (١/ ٢٩).

(٣) أخرجه: عبد اللّه بن أحمد في زوائد المسند (١/ ٧٦)، وحسنه الشيخ الألباني (إرواء الغليل رقم: ١٣) وقال: والحديث إنما هو من حديث علي.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ۝٥٠﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ولقد قسمنا هذا الماء الذي أنزلناه من السماء طهورا لنحيي به الميت من الأرض بين عبادي، ليتذكروا نعمي عليهم، ويشكروا أيادي عندهم وإحساني إليهم ﴿فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ يقول: إلا جحودا لنعمي عليهم، وأياديّ عليهم»[(١)].

قال أبو السعود: «﴿أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ﴾ ممن سلف وخلف ﴿إِلَّا كُفُورًا﴾ أي: لم يفعل إلا كفران النعمة، وقلة الاكتراث لها، أو إلا جحودها بأن يقولوا: مطرنا بنوء كذا ولا يذكر صنع اللّه تعالى ورحمته، ومن لا يرى الأمطار إلا من الأنواء فهو كافر بخلاف من يرى أن الكل بخلق اللّه تعالى والأنواء أمارات لجعله تعالى»[(٢)].

قال الشنقيطي: «التحقيق أن الضمير في قوله: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ﴾، راجع إلى ماء المطر المذكور في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾[(٣)] كما روي عن ابن عباس وابن مسعود، وعكرمة، ومجاهد، وقتادة، وغير واحد، خلافا لمن قال: إن الضمير المذكور راجع إلى القرآن كما روي عن عطاء الخراساني وصدر به القرطبي، وصدر الزمخشري بما يقرب منه.

وإذا علمت أن التحقيق أن الضمير في: صرفناه، عائد إلى ماء المطر.

فاعلم أن المعنى: ولقد صرفنا ماء المطر بين الناس فأنزلنا مطرا كثيرا في بعض السنين على بعض البلاد، ومنعنا المطر في بعض السنين عن بعض البلاد، فيكثر الخصب في بعضها، والجدب في بعضها الآخر. وقوله: ﴿لِيَذَّكَّرُوا۟﴾ أي: صرفناه بينهم، لأجل أن يتذكروا: أي يتذكر الذين أخصبت أرضهم لكثرة المطر، نعمة اللّه

---

(١) جامع البيان (١٩/ ٢٢).

(٢) تفسير أبي السعود (٦/ ٢٢٤-٢٢٥).

(٣) الفرقان: الآية (٤٨).

عليهم، فيشكروا له، ويتذكر الذين أجدبت أرضهم ما نزل بهم من البلاء، فيبادروا بالتوبة إلى اللَّه -جل وعلا-، ليرحمهم ويسقيهم. وقوله: ﴿فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ أي كفرا لنعمة من أنزل عليهم المطر، وذلك بقولهم: مطرنا بنوء كذا.

وهذا المعنى الذي دلت عليه هذه الآية الكريمة أشار له -جل وعلا- في سورة الواقعة في قوله تعالى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾﴾[(١)] فقوله: ﴿رِزْقَكُمْ﴾: أي المطر، كما قال تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا﴾[(٢)]، وقوله: ﴿أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ أي بقولكم: مطرنا بنوء كذا، . . يدخل فيه من قال: مطرنا بنوء كذا، ومن قال: مطرنا بالبخار، يعني: أن البحر يتصاعد منه بخار الماء ثم يتجمع ثم ينزل على الأرض بمقتضى الطبيعة لا بفعل فاعل، وأن المطر منه كما تقدم إيضاحه، فسبحانه وتعالى عمّا يقول الظالمون علوًّا كبيرًا»[(٣)].

وقال القرطبي: «وقيل: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ﴾ هو المطر. روي عن ابن عباس وابن مسعود: وأنه ليس عام بأكثر مطرا من عام ولكن اللَّه يصرفه حيث يشاء، فما زيد لبعض نقص من غيرهم. فهذا معنى التصريف. وقيل: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ﴾ وابلا وطشا وطلا ورهاما الجوهري: الرهام الأمطار اللينة ورذاذا. وقيل: تصريفه تنويع الانتفاع به في الشرب والسقي والزراعات به والطهارات وسقي البساتين والغسل وشبهه. ﴿لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ قال عكرمة: هو قولهم في الأنواء: مطرنا بنوء كذا. قال النحاس: ولا نعلم بين أهل التفسير اختلافا أن الكفر ها هنا قولهم: مطرنا بنوء كذا وكذا؛ وأن نظيره فعل النجم كذا، وأن كل من نسب إليه فعلا فهو كافر»[(٤)].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان حكمة اللَّه في تصريفه الماء حيث يشاء

* عن ابن عباس قال: «ما من عام أمطر من عام، ولكن اللَّه يصرفه حيث يشاء،

(١) الواقعة: الآية (٨٢). (٢) غافر: الآية (١٣).
(٣) أضواء البيان (٦/ ٣٣٥-٣٣٦).
(٤) الجامع لأحكام القرآن (١٣/ ٣٩).

ثم قرأ: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟﴾ الآية»[(١)].

* عن زيد بن خالد الجهني أنه قال: صلى لنا رسول اللّه ﷺ صلاة الصبح بالحديبية على إثر سماء كانت من الليل فلما انصرف أقبل على الناس فقال: «**هل تدرون ماذا قال ربكم؟**» قالوا: اللّه ورسوله أعلم، قال: «**أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال مطرنا بفضل اللّه ورحمته فذلك مؤمن بي وكافر بالكوكب، وأما من قال: بنوء كذا وكذا فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب**»[(٢)].

★ غريب الحديثين:

الحديبية: قرية قريبة من مكة سميب ببئر فيها، وهي مخففة وكثير من المحدثين يشددها.

نوء: النجم إذا مال للمغيب، والجمع: أنواء، ونوآن.

★ فوائد الحديثين:

قال الشيخ العثيمين: «الاستسقاء بالأنواء ينقسم إلى قسمين: القسم الأول: شرك أكبر، وله صورتان:

الأولى: أن يدعو الأنواء بالسقيا، كأن يقول: يانوء كذا اسقنا أو أغثنا، وما أشبه ذلك؛ فهذا شرك أكبر؛ لأنه دعا غير اللّه، ودعاء غير اللّه من الشرك الأكبر، قال تعالى: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[(٣)] وقال تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾[(٤)] وقال تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[(٥)]. إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة الدالة على النهي عن دعاء غير اللّه، وأنه من الشرك الأكبر.

---

(١) أخرجه: ابن جرير في التفسير (١٩/ ٢٢)، والبيهقي (٣/ ٣٦٣)، والحاكم (٢/ ٤٠٣) وصححه على شرطهما ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

(٢) أخرجه: أحمد (٤/ ١١٧)، والبخاري (٢/ ٤٢٤/ ٨٤٦)، ومسلم (١/ ٨٣-٨٤/ ٧١)، وأبو داود (٤/ ٢٢٧-٢٢٨/ ٣٩٠٦)، والنسائي (٣/ ١٨٣-١٨٤/ ١٥٢٤).

(٣) المؤمنون: الآية (١١٧).

(٤) الجن: الآية (١٨).

(٥) يونس: الآية (١٠٦).

الثانية: أن ينسب حصول الأمطار إلى هذه الأنواء على أنها هي الفاعلة بنفسها دون اللَّه ولو لم يدعها، فهذا شرك أكبر في الربوبية، والأول في العبادة؛ لأن الدعاء من العبادة، وهو متضمن للشرك في الربوبية؛ لأنه لم يدعها إلا وهو يعتقد أنها تفعل وتقضي الحاجة.

القسم الثاني: شرك أصغر، وهو أن يجعل هذه الأنواء سببا مع اعتقاده أن اللَّه هو الخالق الفاعل؛ لأن كل من جعل سببا لم يجعله اللَّه سببا لا بوحيه ولا بقدره؛ فهو مشرك شركا أصغر»[1].

قال الشافعي: «وأما من قال مطرنا: بنوء كذا وكذا، على ما كان بعض أهل الشرك يعنون من إضافة المطر إلى أنه أمطره نوء كذا فذلك كفر كما قال رسول اللَّه ﷺ؛ لأن النوء وقت والوقت مخلوق لا يملك لنفسه ولا لغيره شيئًا ولا يمطر ولا يصنع شيئًا، ، فأما من قال: مطرنا بنوء كذا، على معنى مطرنا بوقت كذا فإنما ذلك كقوله: مطرنا في شهر كذا ولا يكون هذا كفرا، وغيره من الكلام أحب إلي منه»[2].

قال الحافظ: «يعني حسما للمادة، وعلى ذلك يحمل إطلاق الحديث»[3].

* * *

---

(١) القول المفيد (٢/ ٥٩٧-٥٩٨).
(٢) الأم (١/ ٤١٩).
(٣) فتح الباري (٢/ ٦٦٥).

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ۝٥١﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ولو شئنا يا محمد لأرسلنا في كلّ مصر ومدينة نذيرا ينذرهم بأسنا على كفرهم بنا، فيخفّ عنك كثير من أعباء ما حملناك منه، ويسقط عنك بذلك مؤنة عظيمة، ولكنا حملناك ثقل نذارة جميع القرى، لتستوجب بصبرك عليه إن صبرت ما أعدّ اللّه لك من الكرامة عنده، والمنازل الرفيعة قِبَله»(١).

قال الشنقيطي: «المعنى: لو شئنا لخففنا عنك أعباء الرسالة، وبعثنا في كل قرية نذيرًا يتولى مشقة إنذارها عنك أي: ولكننا اصطفيناك، وخصصناك بعموم الرسالة لجميع الناس، تعظيمًا لشأنك، ورفعًا من منزلتك، فقابل ذلك بالاجتهاد والتشدد التام في إبلاغ الرسالة ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾(٢) الآية»(٣).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في عموم رسالته ﷺ

* عن أبي هريرة ﷺ أن رسول اللّه ﷺ قال: «**فضلت على الأنبياء بست: أعطيت جوامع الكلم، ونصرت بالرعب، وأحلت لي الغنائم، وجعلت لي الأرض طهورا ومسجدا، وأرسلت إلى الخلق كافة، وختم بي النبيون**»(٤).

* عن جابر بن عبد اللّه ﷺ أن النبي ﷺ قال: «**أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلي، نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجدا وطهورا فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل، وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي، وأعطيت**

---

(١) جامع البيان (١٩/ ٢٣).

(٢) الأحزاب: الآية (١). (٣) أضواء البيان (٤/ ١٦٩).

(٤) أخرجه: أحمد (٢/ ٤١١-٤١٢)، ومسلم (١/ ٣٧١/ ٥٢٣) واللفظ له، والترمذي (٤/ ١٠٤-١٠٥/ ١٥٥٣) وقال: حسن صحيح.

الشفاعة وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة»[1].

★ **فوائد الحديث:**

قال ابن باديس: «فتعميم رسالته وختم النبوة به في الحديث الصحيح من طريقيه من مقتضى معنى الآية: فإنه لما عممت رسالته، ولم يكن معه رسول في حياته، وختمت به النبوة، فلا يكون كذلك بعد وفاته. ثبتت له كرامة الخصوصية، وعظمة المنزلة، وجزالة المثوبة»[2].

* * *

(١) أخرجه: أحمد (٣/ ٣٠٤)، والبخاري (١/ ٥٧٤/ ٣٣٥) واللفظ له، ومسلم (١/ ٣٧٠-٣٧١/ ٥٢١)، والنسائي (١/ ٢٢٩-٢٣١/ ٤٣٠).

(٢) تفسير ابن باديس (١٨٧).

قوله تعالى: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «فلا تطع الكافرين فيما يدعونك إليه من أن تعبد آلهتهم، فنذيقك ضعف الحياة وضعف الممات، ولكن جاهدهم بهذا القرآن جهادا كبيرا، حتى ينقادوا للإقرار بما فيه من فرائض اللَّه، ويدينوا به ويذعنوا للعمل بجميعه طوعا وكرها»[١].

قال أبو السعود: «كأنه نهي لرسول اللَّه ﷺ عن المداراة معهم والتلطف في الدعوة لما أنه عليه الصلاة والسلام كان يود أن يدخلوا في الإسلام ويجتهد في ذلك بتأليف قلوبهم أشد الاجتهاد. ﴿وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ﴾ أي بالقرآن بتلاوة ما في تضاعيفه من القوارع، والزواجر، والمواعظ، وتذكير أحوال الأمم المكذبة. ﴿جِهَادًا كَبِيرًا﴾ فإن دعوة كل العالمين على الوجه المذكور جهاد كبير لا يقادر قدره كمًّا وكيفًا»[٢].

قال ابن باديس: «والخطاب وإن كان له فالحكم شامل لأمته، فلا يجوز للمسلم أن يطيع كافرا أو عاصيا في أي شيء من نواحي الكفر، ونواحي المعصية. وكما أن الجهاد بالقرآن العظيم هو فرض عليه، فكذلك هو فرض على أمته هكذا على الإجمال. وعند التفصيل تجده فرضا على الدعاة والمرشدين الذين يقومون بهذا الفرض الكفائي على المسلمين. فالنبي ﷺ قدوة لأمته فيما اشتملت عليه الآية من نهي وأمر.

استدلال:

هذه الآية نص صريح في أن الجهاد في الدعوة إلى اللَّه وإحقاق الحق من الدين، وإبطال الباطل من شبه المشبهين وضلالات الضالين، وإنكار الجاحدين، هو بالقرآن العظيم. ففيه بيان العقائد وأدلتها، ورد الشبه عنها. وفيه بيان الأخلاق

---

(١) جامع البيان (١٩/ ٢٣). (٢) تفسير أبي السعود (٦/ ٢٢٥).

محاسنها ومساويها، وطرق الوصول إلى التحلي بالأولى، والتخلي عن الثانية ومعالجتها. وفيه أصول الأحكام وعللها. وهكذا فيه كل ما يحتاج إليه المجاهد به في دين اللَّه. فيستفاد منها كما يستفاد من آيات أخرى غيرها، أن على الدعاة والمرشدين أن تكون دعوتهم وإرشادهم بالقرآن العظيم.

ميزان:

عندما يختلف عليك الدعاة الذين يدعي كل منهم أنه يدعوك إلى اللَّه تعالى، فانظر: من يدعوك بالقرآن إلى القرآن، ومثله ما صح من السنة لأنها تفسيره وبيانه، فاتبعه لأنه هو المتبع للنبي ﷺ في دعوته وجهاده بالقرآن، والمتمثل لما دلت عليه أمثال هذه الآية الكريمة من آيات القرآن.

نعمة ومنقبة:

قد سمى اللَّه تعالى الجهاد بالقرآن جهادا كبيرا. وفي هذا منقبة كبرى للقائمين بالدعوة إلى اللَّه بالقرآن العظيم. وفي ذلك نعمة عظيمة من اللَّه عليهم حيث يسرهم لهذا الجهاد، حتى ليصح أن يسموا بهذا الاسم الشريف "مجاهدون». فحق عليهم أن يقدروا هذه النعمة، ويؤدوا شكرها بالقول والعمل، والإخلاص والصبر والثبات واليقين»[1].

قال الشنقيطي: «وقوله: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ ذكره أيضًا في غير هذا الموضع. كقوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾[2] الآية. وقوله: ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾[3] وقوله: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾[4] الآية، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾﴾[5]. وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ﴾: أي بالقرآن كما روي عن ابن عباس. والجهاد الكبير المذكور في هذه الآية هو المصحوب بالغلظة عليهم، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً﴾[6] الآية. وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾[7]»[8].

---

(١) تفسير ابن باديس (١٨٨-١٨٩).
(٢) الأحزاب: الآية (٤٨).
(٣) الإنسان: الآية (٢٤).
(٤) الكهف: الآية (٢٨).
(٥) القلم: الآية (١٠).
(٦) التوبة: الآية (١٢٣).
(٧) التحريم: الآية (٩).
(٨) أضواء البيان (٦/ ٣٣٧).

قوله تعالى: ﴿۞ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾﴾

★ **غريب الآية:**

مرج: أرمل وخلى وخلط. وأصل المرج: الخلط. ومنه قوله تعالى: ﴿أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾[1] أي: مختلط. عذب: يقال: ماء عذب لأنه يعذب العطش: أي يمنعه.

فرات: أي: شديد العذوبة.

أجاج: أي: شديد الملوحة.

برزخا: مانعا وحاجزا.

حجرا: أي: حراما. وأصل الحجر المنع، من حجره إذا منعه، ومنه سمي العقل حجرا لمنعه.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «أي خلق الماءين: الحلو والملح، فالحلو كالأنهار والعيون والآبار، وهذا هو البحر الحلو العذب الفرات الزلال. قاله ابن جريج، واختاره ابن جرير، وهذا المعنى لا شك فيه، فإنه ليس في الوجود بحر ساكن وهو عذب فرات. والله سبحانه إنما أخبر بالواقع لينبه العباد على نعمه عليهم ليشكروه، فالبحر العذب هو هذا السارح بين الناس، فرقه تعالى بين خلقه لاحتياجهم إليه أنهارًا وعيونًا في كل أرض بحسب حاجتهم وكفايتهم لأنفسهم وأراضيهم.

وقوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ أي: مالح مُرّ زعاق لا يستساغ، وذلك كالبحار المعروفة في المشارق والمغارب: البحر المحيط، وما يتصل به من الزقاق وبحر القلزم، وبحر اليمن، وبحر البصرة، وبحر فارس، وبحر الصين، والهند وبحر

---

(١) ق: الآية (٥).

الروم وبحر الخزر، وما شاكلها وشابهها من البحار الساكنة التي لا تجري، ولكن تتموج وتضطرب وتغتلم في زمن الشتاء وشدة الرياح، ومنها ما فيه مد وجَزْر، ففي أول كل شهر يحصل منها مد وفيض، فإذا شرع الشهر في النقصان جَزَرت، حتى ترجع إلى غايتها الأولى، فإذا استهل الهلال من الشهر الآخر شرعت في المد إلى الليلة الرابعة عشرة ثم تشرع في النقص، فأجرى اللَّه ﷻ -وله القدرة التامة- العادة بذلك. فكل هذه البحار الساكنة خلقها اللَّه ﷻ مالحة الماء، لئلا يحصل بسببها نتن الهواء، فيفسد الوجود بذلك، ولئلا تجوى الأرض بما يموت فيها من الحيوان. ولما كان ماؤها ملحا كان هواؤها صحيحا وميتتها طيبة؛ . .

وقوله: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا﴾ أي: بين العذب والمالح ﴿بَرْزَخًا﴾ أي: حاجزًا، وهو اليَبَس من الأرض، ﴿وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ أي: مانعًا أن يصل أحدهما إلى الآخر، كما قال: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾﴾[١]، وقال تعالى: ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾﴾[٢]»[٣].

قال الشنقيطي: «اعلم أن لفظة: ﴿مَرَجَ﴾ تطلق في اللغة إطلاقين:

الأول: مرج بمعنى أرسل وخلى. من قولهم: مرج دابته إذا أرسلها إلى المرج، وهو الموضع الذي ترعى فيه الدواب، . . وعلى هذا فالمعنى: أرسل البحرين وخلاهما لا يختلط أحدهما بالآخر. والإطلاق الثاني مرج بمعنى: خلط، ومنه قوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴿٥﴾﴾[٤] أي مختلط، فعلى القول الأول: فالمراد بالبحرين الماء العذب في جميع الدنيا، والماء الملح في جميعها . .

وهذا الذي ذكره -جل وعلا- في هذه الآية جاء موضحًا في غير هذا الموضع كقوله تعالى في سورة فاطر: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾[٥] وقوله تعالى: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾﴾[٦] أي: لا يبغي أحدهما على الآخر فيمتزج به، وهذا البرزخ الفاصل بين البحرين المذكور

---

(١) الرحمن: الآيات (١٩-٢١).
(٢) النمل: الآية (٦١).
(٣) تفسير القرآن العظيم (٥/ ١٥٩).
(٤) ق: الآية (٥).
(٥) فاطر: الآية (١٢).
(٦) الرحمن: الآيتان (١٩و٢٠).

في سورة الفرقان، وسورة الرحمن قد بين اللَّه تعالى في سورة النمل أنه حاجز حجز به بينهما، وذلك في قوله -جل وعلا-: ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾﴾[1] وهذا الحاجز هو اليبس من الأرض، الفاصل بين الماء العذب، والماء الملح على التفسير الأول. وأما على التفسير الثاني فهو حاجز من قدرة اللَّه غير مرئي للبشر، وأكد شدة حجزه بينهما بقوله هنا: ﴿وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾، والظاهر أن قوله هنا: حجرًا أي منعًا، حرامًا قدريًا وأن محجورًا توكيد له أي منعًا شديدًا للاختلاط بينهما»[2].

قال ابن عطية: «في الآية: إن المقصد التنبيه على قدرة اللَّه تعالى، وإتقان خلقه للأشياء في أن بث في الأرض مياهًا عذبة كثيرة من أنهار وعيون وآبار، وجعلها خلال الأجاج، وجعل الأجاج خلالها، فتلقى البحر قد اكتنفته المياه العذبة في ضفتيه، وتلقى الماء العذب في الجزائر ونحوها قد اكتنفه الماء الأجاج فبثها هكذا في الأرض هو خلطها»[3].

* * *

(١) النمل: الآية (٦١).

(٢) أضواء البيان (٦/ ٣٣٨-٣٣٩).

(٣) تفسير ابن عطية (٤/ ٢١٤).

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «أي: خلق الإنسان من نطفة ضعيفة، فسواه وعَدّله، وجعله كامل الخلقة، ذكرًا أو أنثى، كما يشاء، ﴿فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ﴾، فهو في ابتداء أمره ولد نسيب، ثم يتزوج فيصير صهرًا، ثم يصير له أصهار وأختان وقرابات. وكل ذلك من ماء مهين؛ ولهذا قال: ﴿وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾»[(١)].

قال ابن عطية: «هو تعديد النعمة على الناس في إيجادهم بعد العدم، والتنبيه على العبرة في ذلك وتعديد النعمة في التواشج الذي جعل بينهم من النسب والصهر، وقوله: ﴿مِنَ ٱلْمَآءِ﴾ إما أن يريد أصل الخلقة في أن كل حي مخلوق من الماء، وإما أن يريد نطف الرجال وكل ذلك قالته فرقة، والأول أفصح وأبين، و«**النسب والصهر**» معنيان يعمان كل قربى تكون بين كل آدميين، فـ«**النسب**» هو أن يجتمع إنسان مع آخر في أب أو في أم قرب ذلك أو بعد، و«**الصهر**» تواشج المناكحة، فقرابة الزوجة هم الأختان، وقرابة الزوج ثم الأحماء والأصهار يقع عامًا لذلك كله، وقال علي بن أبي طالب ﷺ «**النسب**» ما لا يحل نكاحه «**والصهر**» ما يحل نكاحه وقال الضحاك «**الصهر**» قرابة الرضاع.

قال القاضي أبو محمد: وذلك عندي وهم أوجبه أن ابن عباس قال حرم من النسب سبع ومن الصهر خمس، وفي رواية أخرى من الصهر سبع يريد قول الله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ﴾[(٢)]، فهذا هو من النسب. ثم يريد بـ«**الصهر**» قوله تعالى: ﴿وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٥/ ١٥٩).

(٢) النساء: الآية (٢٣).

مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ﴾[(١)]، ثم ذكر المحصنات، ومجمل هذا أن ابن عباس أراد حرم من الصهر مع ما ذكر معه فقصد مما ذكر إلى عظمه وهو الصهر لأن الرضاع صهر وإنما الرضاع عديل النسب يحرم منه ما يحرم من النسب بحكم الحديث المأثور فيه، ومن روى وحرم من الصهر خمس أسقط من الآية الجمع بين الأختين والمحصنات وهن ذواتي الأزواج، وحكى الزهراوي قولًا أن «النسب» من جهة البنين «والصهر» من جهة البنات»[(٢)].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة بأن العبرة بالدين لا بالنسب والمظاهر الجوفاء

* عن عائشة ﵂ أن أبا حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس -وكان ممن شهد بدرًا مع النبي ﷺ- تبنى سالمًا وأنكحه بنت أخيه هندا بنت الوليد بن عتبة بن ربيعة، وهو مولى لامرأة من الأنصار، كما تبنى النبي ﷺ زيدا، وكان من تبنى رجلا في الجاهلية دعاه الناس إليه وورث من ميراثه، حتى أنزل الله ﴿ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ﴾[(٣)] فردوا إلى آبائهم، فمن لم يعلم له أب كان مولى وأخا في الدين، فجاءت سهلة بنت سهيل بن عمرو القرشي ثم العامري -وهي امرأة أبي حذيفة بن عتبة- النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله إنا كنا نرى سالما ولدا، وقد أنزل الله فيه ما قد علمت فذكر الحديث[(٤)].

* عن عائشة قالت: «دخل رسول الله ﷺ على ضباعة بنت الزبير فقال لها: «**لعلك أردت الحج؟**». قالت: والله لا أجدني إلا وجعة، فقال لها: «**حجي، واشترطي قولي: اللهم محلي حيث حبستني**». وكانت تحت المقداد بن الأسود»[(٥)].

---

(١) النساء: الآية (٢٣).
(٢) المحرر الوجيز (٤/ ٢١٤/ ٢١٥).
(٣) الأحزاب: الآية (٥).
(٤) أخرجه: البخاري (٩/ ١٣١/ ٥٠٨٨)، والنسائي في الكبرى (٣/ ٢٦٦/ ٥٣٣١)، وأخرجه مختصرا أيضا البخاري (٧/ ٣٩٨-٣٩٩/ ٤٠٠٠)، وأبو داود (٢/ ٥٤٩-٥٥٠/ ٢٠٦١)، والنسائي (٦/ ٤١٥/ ٣٣٢٤)، وأحمد (٦/ ٢٥٥-٢٦٩-٢٧٠-٢٧١).
(٥) أخرجه: البخاري (٩/ ١٦٣/ ٥٠٨٩)، ومسلم (٢/ ٨٦٨/ ١٢٠٧).

* عن سهل قال: مر رجل على رسول اللَّه ﷺ فقال: «**ما تقولون في هذا؟**» قالوا: حري إن خطب أن ينكح وإن شفع أن يشفع وإن قال أن يستمع، قال: ثم سكت فمر رجل من فقراء المسلمين فقال: «**ما تقولون في هذا؟**» قالوا: حري إن خطب أن لا ينكح وإن شفع أن لا يشفع، وإن قال أن لا يستمع، فقال رسول اللَّه ﷺ: «**هذا خير من ملء الأرض مثل هذا**»(١).

* عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**تنكح المرأة لأربع: لمالها، ولحسبها، وجمالها، ولدينها، فاظفر بذات الدين تربت يداك**»(٢).

★ غريب الحديث:

حسبها: الحسب في الأصل: الشرف بالآباء وما يعده الناس من مفاخرهم.

★ فوائد الأحاديث:

ترجم البخاري على هذه الأحاديث بالآية.

قال العيني: «وغرضه من إيراد هذه الآية الإشارة إلى أن النسب والصهر مما يتعلق بهما حكم الكفاءة»(٣).

قال ابن بطال: «اختلف العلماء في الأكفاء من هم؟ فقال مالك: الأكفاء في الدين دون غيره، والمسلمون بعضهم لبعض أكفاء، ويجوز أن يتزوج العربي والمولى القرشية. روي ذلك عن عمر بن الخطاب قال: لست أبالي إلى أي المسلمين نكحت وأيهم أنكحت. روي مثله عن ابن مسعود، ومن التابعين عمر بن عبد العزيز وابن سيرين، وقال أبو حنيفة: قريش كلهم أكفاء بعضهم لبعض، والعرب أكفاء بعضهم لبعض، ولا يكون أحد من العرب كفئا لقريش، ولا أحد من الموالي كفئا للعرب، ولا يكون كفئا من لا يجد المهر والنفقة.

وقال الشافعي: ليس نكاح غير الكفء بمحرم فأرده بكل حال، وإنما هو تقصير

---

(١) أخرجه: البخاري (٩/ ١٦٣/ ٥٠٨٨)، وابن ماجه (٢/ ١٣٧٩/ ٤١٢٠).

(٢) أخرجه: البخاري (٩/ ١٣٢/ ٥٠٩٠)، ومسلم (٢/ ١٠٨٦/ ١٤٦٦)، وأبو داود (٢/ ٥٣٩-٥٤٠/ ٢٠٤٧)، والنسائي (٦/ ٣٧٣/ ٣٢٢٦)، وابن ماجه (١/ ٥٩٧/ ١٨٥٨).

(٣) العمدة (١٤/ ٢٨).

بالمتزوجة والأولياء، فإن تزوجت غير كفء فإن رضيت به وجميع الأولياء جاز، ويكون حقا لهم تركوه، وإن رضيت به وجميع الأولياء إلا واحدا منهم فله فسخه.

وقال بعضهم: إن رضيت به وجميع الأولياء لم يجز. وكان الثوري يرى التفريق إذا نكح مولى عربية، ويشدد فيه، وقال أحمد بن حنبل: يفرق بينهما.

واحتج الذين جعلوا الكفاءة في النسب والمال، فقالوا: العار يدخل على الأولياء والمناسبين؛ لأن حق الكفاءة دفع العار عنها وعنهم، قالوا: وقد روي عن ابن عباس أنه قال: قريش بعضهم لبعض كفء، والموالي بعضهم لبعض كفء، إلا الحاكة والحجامين.

واحتج أهل المقالة الأولى بحديث عائشة: أن أبا حذيفة بن عتبة بن ربيعة تبنى سالما وأنكحه بنت أخيه الوليد بن عتبة، وهي سيدة أيامى قريش، وسالم مولى لامرأة من الأنصار، وتزوج ضباعة بنت الزبير بن عبد المطلب بنت عم النبي المقداد بن الأسود وهو عربي حليف للأسود بن عبد يغوث تبناه ونسب إليه. واحتجوا بقوله ﷺ: «**عليك بذات الدين تربت يداك**»[١]، فجعل العمدة ذات الدين، فينبغي أن تكون العمدة في الرجل مثل ذلك، ألا ترى قوله ﷺ في حديث سهل حين فضل الفقير الصالح على الغني، وجعله خيرا من ملء الأرض منه.

وقال المهلب: الأكفاء في الدين هم المتشاكلون وإن كان في النسب تفاضل، فقد نسخ اللَّه ما كانت تحكم به العرب في الجاهلية من شرف الأنساب، وجعل الاعتبار بشرف الصلاح والدين، فقال تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾[٢] الآية، وقد نزع بهذه الآية مالك بن أنس.

وأما قولهم: إن العار يدخل عليها وعلى الأولياء، فيقال لهم: مع الدين والصلاح لا يدخل عار على أحد، وإنما رغبوا فيه لدينه الذي يحمل كل شيء، وفي النسب وعدم الدين كل عار، وقد تزوج بلال امرأة قرشية. وتزوج أسامة بن زيد فاطمة بنت قيس وهي قرشية.

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٤٢٨)، والبخاري (٩/ ١٦٣-١٦٤/ ٥٠٩٠)، ومسلم (٢/ ١٠٨٦/ ١٤٦٦)، وأبو داود (٢/ ٥٣٩-٥٤٠/ ٢٠٤٧)، والنسائي (٦/ ٣٧٦/ ٣٢٣٠)، وابن ماجه (١/ ٥٩٧/ ١٨٥٨).

(٢) الحجرات: الآية (١٣).

وقد كان عزم عمر بن الخطاب على تزويج ابنته من سلمان الفارسي فقال عمرو بن العاص لسلمان: لقد تواضع لك أمير المؤمنين. فقال سلمان: لمثلي يتواضع، واللّٰه لا أتزوجها أبدا. ولولا أن ذلك جائز لما أراده عمر ولا هم به؛ لأنه لا يدخل العار على نفسه وعشيرته. وأما حديث ضباعة في الاشتراط في الحج فإنما ذكره في هذا الباب لقوله في آخر الحديث: «**وكانت تحت المقداد بن الأسود**»»[1].

قال الحافظ: «وقوله: «**وكانت تحت المقداد بن الأسود**» ظاهر سياقه أنه من كلام عائشة، ويحتمل أنه من كلام عروة، وهذا القدر هو المقصود من هذا الحديث في هذا الباب، فإن المقداد وهو ابن عمرو الكندي نسب إلى الأسود بن عبد يغوث الزهري لكونه تبناه، فكان من حلفاء قريش، وتزوج ضباعة وهي هاشمية، فلولا أن الكفاءة لا تعتبر بالنسب، لما جاز له أن يتزوجها لأنها فوقه في النسب. وللذي يعتبر الكفاءة في النسب أن يجيب بأنها رضيت هي وأولياؤها فسقط حقهم من الكفاءة، وهو جواب صحيح إن ثبت أصل اعتبار الكفاءة في النسب»[2].

وقال أيضًا: «قوله: «**لمالها ولحسبها**» يؤخذ منه أن الشريف النسيب يستحب له أن يتزوج نسيبة إلا إن تعارض نسيبة غير دينية وغير نسيبة دينية فتقدم ذات الدين وهكذا في كل الصفات»[3].

* * *

(١) شرح ابن بطال (٧/ ١٨٣-١٨٥).

(٢) الفتح (٩/ ١٦٧).

(٣) الفتح (٩/ ١٦٧).

قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا (٥٥)﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ويعبد هؤلاء المشركون بالله من دونه آلهة لا تنفعهم، فتجلب إليهم نفعا إذا هم عبدوها، ولا تضرّهم إن تركوا عبادتها، ويتركون عبادة من أنعم عليهم هذه النعم التي لا كفاء لأدناها، وهي ما عدّد علينا جلّ جلاله في هذه الآيات من قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ﴾ إلى قوله: ﴿قَدِيرًا﴾ ومن قدرته القدرة التي لا يمتنع عليه معها شيء أراده، ولا يتعذّر عليه فعل شيء أراد فعله، ومن إذا أراد عقاب بعض من عصاه من عباده أحلّ به ما أحلّ بالذين وصف صفتهم من قوم فرعون وعاد وثمود وأصحاب الرّسّ، وقرونا بين ذلك كثيرا، فلم يكن لمن غضب عليه منه ناصر، ولا له عنه دافع ﴿وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا﴾ يقول -تعالى ذكره-: وكان الكافر معينا للشيطان على ربه، مظاهرا له على معصيته. . وقد كان بعضهم يوجه معنى قوله: ﴿وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا﴾ أي وكان الكافر على ربه هينا، من قول العرب: ظهرت به، فلم ألتفت إليه، إذا جعله خلف ظهره فلم يلتفت إليه، وكأنّ الظهير كان عنده فعيل صرف من مفعول إليه من مظهور به، كأنه قيل: وكان الكافر مظهورا به. والقول الذي قلناه هو وجه الكلام، والمعنى الصحيح؛ لأن الله -تعالى ذكره- أخبر عن عبادة هؤلاء الكفار من دونه، فأولى الكلام أن يتبع ذلك ذمه إياهم، وذمّ فعلهم دون الخبر عن هوانهم على ربهم، ولم يجر لاستكبارهم عليه ذكر، فيتبع بالخبر عن هوانهم عليه»(١).

قال ابن القيم: «فنفى سبحانه عن هؤلاء المعبودين من دونه النفع والضر القاصر والمتعدي فلا يملكونه لأنفسهم ولا لعابديهم، وهذا في القرآن كثير بين أن المعبود لا بد أن يكون مالكا للنفع والضر، فهو يدعى للنفع والضر دعاء المسألة ويدعى

---

(١) جامع البيان (١٩/ ٢٦-٢٧).

خوفًا ورجاء دعاء العبادة، فعلم أن النوعين متلازمان فكل دعاء عبادة مستلزم لدعاء المسألة وكل دعاء مسألة متضمن لدعاء العبادة»[١].

قال ابن عاشور: «ونفي الضرّ بعد نفي النفع للتنبيه على انتفاء شبهة عَبَدة الأصنام في شركهم؛ لأن موجب العبادة إما رجاء النفع، وإما اتقاء ضر المعبود، وكلاهما منتف عن الأصنام بالمشاهَدة. والتعبير بالفعل المضارع للدلالة على تجدد عبادتهم الأصنام، وعدم إجداء الدلائل المقلعة عنها في جانبهم»[٢].

قال ابن القيم: «قوله تعالى ﴿وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا﴾ هذا من ألطف خطاب القرآن وأشرف معانيه، وأن المؤمن دائما مع اللّٰه على نفسه وهواه وشيطانه وعدو ربه. وهذا معنى كونه من حزب اللّٰه وجنده وأوليائه، فهو مع اللّٰه على عدوه الداخل فيه والخارج عنه، يحاربهم ويعاديهم ويبغضهم له سبحانه. كما يكون خواص الملك معه على حزب أعدائه، والبعيدون منه فارغون من ذلك، غير مهتمين به، والكافر مع شيطانه ونفسه وهواه على ربه. وعبارات السلف على هذا تدور. ذكر ابن أبي حاتم عن عطاء بن دينار عن سعيد بن جبير قال: عونا للشيطان على ربه بالعداوة والشرك. وقال ليث عن مجاهد قال: يظاهر الشيطان على معصية اللّٰه يعينه عليها. وقال زيد بن أسلم: مع عدوه معينا له على مساخط ربه.

فالمعية الخاصة التي للمؤمن مع ربه وإلهه قد صارت لهذا الكافر والفاجر مع الشيطان ومع نفسه وهواه وقربانه، ولهذا صدر الآية بقوله: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ﴾ وهذه العبارة هي الموالاة والمحبة والرضا بمعبوديتهم المتضمنة لمعيتهم الخاصة، فظاهروا أعداء اللّٰه على معاداته ومخالفته ومساخطه بخلاف وليه سبحانه، فإنه معه على نفسه وشيطانه وهواه. وهذا المعنى من كنوز القرآن لمن فهمه وعقله وباللّٰه التوفيق»[٣].

* * *

(١) بدائع الفوائد (٣/ ٢-٣).

(٢) التحرير والتنوير (١٩/ ٥٦).

(٣) الفوائد (١٠٤-١٠٥).

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- لنبيه محمد ﷺ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ﴾ يا محمد إلى من أرسلناك إليه ﴿إِلَّا مُبَشِّرًا﴾ بالثواب الجزيل، من آمن بك وصدّقك، وآمن بالذي جئتهم به من عندي، وعملوا به ﴿وَنَذِيرًا﴾ من كذّبك وكذّب ما جئتهم به من عندي، فلم يصدّقوا به، ولم يعملوا ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ يقول له: قل لهؤلاء الذين أرسلتك إليهم، ما أسألكم يا قوم على ما جئتكم به من عند ربي أجرا، فتقولون: إنما يطلب محمد أموالنا بما يدعونا إليه، فلا نتبعه فيه، ولا نعطيه من أموالنا شيئًا، ﴿إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ يقول: لكن من شاء منكم اتخذ إلى ربه سبيلا طريقا بإنفاقه من ماله في سبيله، وفيما يقربه إليه من الصدقة والنفقة في جهاد عدوّه، وغير ذلك من سبل الخير»(١).

قال الرازي: «اللَّه تعالى بعث رسوله لنفعهم؛ لأنه بعثه ليبشرهم على الطاعة، وينذرهم على المعصية، فيستحقوا الثواب ويحترزوا عن العقاب، فلا جهل أعظم من جهل من استفرغ جهده في إيذاء شخص استفرغ جهده في إصلاح مهماته دينًا ودنيا، ولا يسألهم على ذلك ألبتة أجرًا»(٢).

قال ابن عاشور: «وذكر وصف الرب دون الاسم العلم للإشارة إلى استحقاقه لأن العبد محقوق بأن يرجع إلى ربه وإلا كان آبقا»(٣).

قال أبو السعود: «واستثنى منه قلعا كليا لشائبة الطمع وإظهارا لغاية الشفقة عليهم، حيث جعل ذلك مع كون نفعه عائدا إليه عليه الصلاة والسلام، وقيل:

---

(١) جامع البيان (١٩/ ٢٧).
(٢) التفسير الكبير (٢٤/ ١٠٣).
(٣) التحرير والتنوير (١٩/ ٥٨).

الاستثناء منقطع، أي لكن من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلا فليفعل»[(١)].

قال عبد الرحمن السعدي: «يخبر تعالى أنه ما أرسل رسوله محمدا ﷺ مسيطرا على الخلق، ولا جعله ملكا، ولا عنده خزائن الأشياء، وإنما أرسله ﴿وَمُبَشِّرًا﴾ يبشر من أطاع اللَّه بالثواب العاجل والآجل، ﴿وَنَذِيرًا﴾ ينذر من عصى اللَّه بالعقاب العاجل والآجل، وذلك مستلزم لتبيين ما به البشارة وما تحصل به النذارة من الأوامر والنواهي، وإنك -يا محمد- لا تسألهم على إبلاغهم القرآن والهدى أجرا حتى يمنعهم ذلك من اتباعك ويتكلفون من الغرامة، ﴿إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ أي: إلا من شاء أن ينفق نفقة في مرضاة ربه وسبيله، فهذا وإن رغبتكم فيه فلست أجبركم عليه، وليس أيضًا أجرا لي عليكم وإنما هو راجع لمصلحتكم وسلوككم للسبيل الموصلة إلى ربكم»[(٢)].

* * *

(١) تفسير أبي السعود (٦/٢٢٦).
(٢) تيسير الكريم الرحمن (٣/ ٤١٧).

قوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «أي في أمورك كلها كُن متوكلا على اللَّه الحي الذي لا يموت أبدا، الذي هو ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾﴾[1] الدائم الباقي السرمدي الأبدي، الحي القيوم ربّ كل شيء ومليكه، اجعله ذُخْرك وملجأك، وهو الذي يُتَوكل عليه ويفزع إليه، فإنه كافيك وناصرك ومؤيدك ومظفرك، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ﴾[2]..

وقوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ﴾: أي: اقرن بين حمده وتسبيحه»[3].

قال عبد الرحمن السعدي: «﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ﴾ الذي له الحياة الكاملة المطلقة ﴿ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ﴾ أي: اعبده، وتوكل عليه في الأمور المتعلقة بك والمتعلقة بالخلق.

﴿وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا﴾ يعلمها ويجازي عليها. فأنت ليس عليك من هداهم شيء، وليس عليك حفظ أعمالهم»[4].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في تسبيح النبي ﷺ في ركوعه وسجوده

* عن عائشة قالت: كان النبي ﷺ يقول في ركوعه وسجوده: «**سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي**»[5]. يتأول القرآن.

---

(١) الحديد: الآية (٣).
(٢) المائدة: الآية (٦٧).
(٣) تفسير القرآن العظيم (٥/ ١٦٠).
(٤) تيسير الكريم الرحمن (٣/ ٤١٧).
(٥) أخرجه: أحمد (٦/ ٤٣) واللفظ له، البخاري (٢/ ٣٥٨/ ٧٩٤)، مسلم (١/ ٣٥٠/ ٤٨٤)، أبو داود (١/ ٥٤٦/ ٨٧٧)، النسائي (٢/ ٥٦٨-٥٦٩/ ١١٢١-١١٢٢)، ابن ماجه (١/ ٢٨٧/ ٨٨٩).

★ **فوائد الحديث:**

الغرض من إيراد هذا الحديث تحت هذه الآية، بيان مبادرة الرسول ﷺ إلى امتثال ما أمره الله تعالى به، وملازمته لذلك.

قوله: «**اللهم اغفر لي**» قال ابن دقيق العيد: «فإنه يقتضي الدعاء في الركوع وإباحته، ولا يعارضه قوله ﷺ: «**أما الركوع فعظموا فيه الرب، وأما السجود فاجتهدوا فيه بالدعاء**»[1] فإنه يؤخذ من هذا الحديث الجواز، ومن ذلك الأولوية بتخصيص الركوع بالتعظيم، ويحتمل أن يكون السجود قد أمر فيه بتكثير الدعاء؛ لإشارة بقوله: «**فاجتهدوا**» واحتمالها للكثرة والذي وقع في الركوع من قوله: «**اغفر لي**» ليس كثيرا، فليس فيه معارضة ما أمر به في السجود»[2].

قال النووي: «معنى: يتأول القرآن: يعمل ما أمر به في قول الله ﷻ: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا ۝٣﴾[3] وكان ﷺ يقول هذا الكلام البديع في الجزالة المستوفي ما أمر به في الآية، وكان يأتي به في الركوع والسجود؛ لأن حالة الصلاة أفضل من غيرها، فكان يختارها لأداء هذا الواجب الذي أمر به ليكون أكمل»[4].

* * *

---

(١) أخرجه: أحمد (١/ ٢١٩)، ومسلم (١/ ٣٤٨/ ٤٧٩)، وأبو داود (١/ ٥٤٥-٥٤٦/ ٨٧٦)، والترمذي (٢/ ٥٣٤/ ١٠٤٤)، وابن ماجه (٢/ ١٢٨٣/ ٣٨٩٩).

(٢) العدة (٢/ ٤٣٦-٤٣٧).

(٣) النصر: الآية (٣).

(٤) شرح مسلم (٤/ ١٦٩).

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «أي: هو الحي الذي لا يموت، وهو خالق كل شيء وربه ومليكه، الذي خلق بقدرته وسلطانه السموات السبع في ارتفاعها واتساعها، والأرضين السبع في سفولها وكثافتها، ﴿فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ أي: يدبر الأمر، ويقضي الحق، وهو خير الفاصلين. وقوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ أي: استعلم عنه من هو خبير به عالم به فاتبعه واقتد به، وقد عُلِم أنه لا أحد أعلم بالله ولا أخبر به من عبده ورسوله محمد، صلوات الله وسلامه، على سيد ولد آدم على الإطلاق، في الدنيا والآخرة، الذي لا ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى -فما قاله فهو حق، وما أخبر به فهو صدق، وهو الإمام المحكم الذي إذا تنازع الناس في شيء، وجب ردّ نزاعهم إليه، فما يوافق أقواله، وأفعاله فهو الحق، وما يخالفها فهو مردود على قائله وفاعله، كائنا من كان، قال الله تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾[١]. وقال: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾[٢] وقال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾[٣] أي: صدقا في الإخبار وعدلا في الأوامر والنواهي؛ ولهذا قال: ﴿فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾»[٤].

قال أبو السعود: «فإن من أنشأ هذه الأجرام العظام على هذا النمط الفائق، والنسق الرائق، بتدبير متين، وترتيب رصين في أوقات معينة مع كمال قدرته على إبداعها دفعة لحكم جليلة، وغايات جميلة، لا تقف على تفاصيلها العقول أحق من

---

(١) النساء: الآية (٥٩). (٢) الشورى: الآية (١٠).

(٣) الأنعام: الآية (١١٥)

(٤) تفسير القرآن العظيم (٥/ ١٦٠-١٦١).

يتوكل عليه، وأولى من يفوض الأمر إليه»[١].

قال الشوكاني: «فإن قيل: يلزم أن يكون خلق العرش بعد خلق السموات والأرض كما تفيده ثم؛ فيقال: إن كلمة (ثم) لم تدخل على خلق العرش بل على رفعه على السموات والأرض»[٢].

قال الرازي: «السؤال الثاني: لم قدر الخلق والإيجاد بهذا التقدير؟ الجواب: أما على قولنا: فالمشيئة والقدرة كافية في التخصيص، قالت المعتزلة: بل لا بد من داعي حكمة، وهو أن تخصيص خلق العالم بهذا المقدار أصلح للمكلفين وهذا بعيد لوجهين:

أحدهما: أن حصول تلك الحكمة، إما أن يكون واجبًا لذاته أو جائزًا فإن كان واجبًا وجب أن لا يتغير فيكون حاصلًا في كل الأزمنة، فلا يصلح أن يكون سببًا لتخصيص زمان معين وإن كان جائزًا افتقر حصول تلك الحكمة في ذلك الوقت إلى مخصص آخر ويلزم التسلسل.

والثاني: أن التفاوت بين كل واحد مما لا يصل إليه خاطر المكلف وعقله، فحصول ذلك التفاوت لما لم يكن مشعورًا به كيف يقدح في حصول المصالح.

واعلم أنه يجب على المكلف سواء كان على قولنا أو على قول المعتزلة أن يقطع الطمع عن أمثال هذه الأسئلة، فإنه بحر لا ساحل له. من ذلك تقدير الملائكة الذين هم أصحاب النار بتسعة عشر وحملة العرش بالثمانية وشهور السنة باثني عشر والسموات السبع وكذا الأرض وكذا القول في عدد الصلوات ومقادير النصب في الزكوات وكذا مقادير الحدود والكفارات فالإقرار بأن كل ما قاله اللّٰه تعالى حق هو الدين، وترك البحث عن هذه الأشياء هو الواجب وقد نص عليه تعالى في قوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾، ثم قال: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ﴾[٣] وهذا هو الجواب أيضًا في أنه لم يخلقها في لحظة وهو قادر على ذلك، وعن سعيد ابن جبير أنه خلقها في ستة أيام وهو يقدر على أن يخلقها في لحظة تعليما لخلقه

(١) تفسير أبي السعود (٦/ ٢٢٧).
(٢) فتح القدير (٤/ ١٢٠).
(٣) المدثر: الآية (٣١).

الرفق والتثبت»(١).

قال عبد الرحمن السعدي: «وإنما ذلك كله بيد اللَّه ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ﴾ بعد ذلك ﴿عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ الذي هو سقف المخلوقات، وأعلاها، وأوسعها، وأجملها، ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ استوى على عرشه الذي وسع السماوات والأرض، باسمه الرحمن الذي وسعت رحمته كل شيء، فاستوى على أوسع المخلوقات، بأوسع الصفات. فأثبت بهذه الآية خلقه للمخلوقات، واطلاعه على ظاهرهم وباطنهم، وعلوه فوق العرش، ومباينته إياهم.

﴿فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ يعني: بذلك نفسه الكريمة، فهو الذي يعلم أوصافه وعظمته وجلاله، وقد أخبركم بذلك وأبان لكم من عظمته ما تستعدون به من معرفته، فعرفه العارفون وخضعوا لجلاله، واستكبر عن عبادته الكافرون واستنكفوا عن ذلك»(٢).

* * *

---

(١) التفسير الكبير (٢٤/ ١٠٥).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٣/ ٤١٧-٤١٨).

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا۩ ﴿٦٠﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «قال تعالى منكرا على المشركين الذين يسجدون لغير اللّه من الأصنام والأنداد: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾؛ أي: لا نعرف الرحمن. وكانوا ينكرون أن يُسَمّى اللّه باسمه الرحمن، كما أنكروا ذلك يوم الحديبية حين قال النبي ﷺ للكاتب: «اكتب بسم اللّه الرحمن الرحيم»[1] فقالوا: لا نعرف الرحمن ولا الرحيم، ولكن اكتب كما كنت تكتب: باسمك اللهم؛ ولهذا أنزل الله: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾[2] أي: هو اللّه وهو الرحمن. وقال في هذه الآية: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾؛ أي: لا نعرفه ولا نُقر به، ﴿أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا﴾ أي: لمجرد قولك، ﴿وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾، أما المؤمنون فإنهم يعبدون اللّه الذي هو الرحمن الرحيم، ويُفْرِدُونه بالإلهية ويسجدون له. وقد اتفق العلماء -رحمهم الله- على أن هذه السجدة التي في الفرقان مشروع السجودُ عندها لقارئها ومستمعها»[3].

قال ابن عاشور: «والاستفهام في ﴿أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا﴾ إنكار وامتناع، أي لا نسجد لشيء تأمرنا بالسجود له على أن (ما) نكرة موصوفة، أو لا نسجد للذي تأمرنا بالسجود له..

ومقصدهم من ذلك إباء السجود لله لأن السجود الذي أمروا به سجود لله بنيّة انفراد اللّه به دون غيره، وهم لا يجيبون إلى ذلك كما قال اللّه تعالى: ﴿وَقَدْ كَانُوا۟

---

(١) أخرجه: أحمد (٤/ ٣٢٣-٣٢٦٣٢٩-٣٣١)، والبخاري (٥/ ٤١٢-٤١٦/ ٢٧٣١-٢٧٣٢) بطوله، وأبو داود (٢/ ٣٦٤/ ١٧٥٤)، والنسائي (٥/ ١٨٤/ ٢٧٧٠)، وفي الكبرى (٥/ ١٧٠-١٧١/ ٨٥٨١-٨٥٨٢) مختصرا.

(٢) الإسراء: الآية (١١٠).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٥/ ١٦١).

يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ﴾[١]، أي فيأبون، وقال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ﴾[٢]. ويدل على ذلك قوله: ﴿وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾ فالنفور من السجود سابق قبل سماع اسم الرحمن.. وهذا موضع سجدة من سجود القرآن بالاتفاق. ووجه السجود هنا إظهار مخالفة المشركين إذ أبوا السجود للرحمان، فلما حكي إباؤهم من السجود للرحمان في معرض التعجيب من شأنهم عُزز ذلك بالعمل بخلافهم فسجد النبي هنا مخالفًا لهم مخالفة بالفعل مبالغة في مخالفته لهم بعد أن أبطل كفرهم بقوله: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾[٣] الآيات الثلاث. وسنّ الرسول ﷺ السجود في هذا المَوضع»[٤].

قال الشنقيطي: «ذكر -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة: أن الكفار إذا قيل لهم: اسجدوا للرحمن؛ أي: قال لهم ذلك رسول اللَّه ﷺ والمسلمون، تجاهلوا الرحمن، وقالوا: وما الرحمن؟ وأنكروا السجود له تعالى، وزادهم ذلك نفورا عن الإيمان والسجود للرحمن.

وما ذكره هنا من أنهم أمروا بالسجود له وحده -جل وعلا- جاء مذكورًا في غير هذا الموضع»[٥].

قال السعدي: «﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ أي: وحده الذي أنعم عليكم بسائر النعم، ودفع عنكم جميع النقم. ﴿قَالُوا۟﴾ جحدا وكفرا ﴿وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ بزعمهم الفاسد أنهم لا يعرفون الرحمن، وجعلوا من جملة قوادحهم في الرسول أن قالوا: ينهانا عن اتخاذ آلهة مع اللَّه وهو يدعو معه إلها آخر يقول: «يا رحمن» ونحو ذلك كما قال تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾[٦] فأسماؤه تعالى كثيرة لكثرة أوصافه وتعدد كماله، فكل واحد منها دل على صفة كمال.

﴿أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا﴾ أي: لمجرد أمرك إيانا. وهذا مبني منهم على التكذيب بالرسول واستكبارهم عن طاعته، ﴿وَزَادَهُمْ﴾ دعوتهم إلى السجود للرحمن ﴿نُفُورًا﴾ هربا من الحق إلى الباطل، وزيادة كفر وشقاء»[٧].

---

(١) القلم: الآية (٤٣).
(٢) المرسلات: الآية (٤٨).
(٣) الفرقان: الآية (٥٨).
(٤) التحرير والتنوير (١٩/ ٦٢-٦٣).
(٥) أضواء البيان (٤/ ١٧٣).
(٦) الإسراء: الآية (١١٠).
(٧) تيسير الكريم الرحمن (٣/ ٤١٨).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة فيمن جحد شيئًا من الأسماء والصفات

* عن المسور بن مخرمة ومروان في قصة الحديبية: . . فذكر الحديث وفيه: «فجاء سهيل بن عمرو، فقال: هات اكتب بيننا وبينكم كتابا، فدعا النبي ﷺ الكاتب، فقال النبي ﷺ: «**اكتب: بسم اللّه الرحمن الرحيم**» فقال سهيل: أما الرحمن فواللّه ما أدري ما هي؟ ولكن اكتب: باسمك اللهم، كما كنت تكتب، فقال المسلمون: واللّه لا نكتبها إلا بسم اللّه الرحمن الرحيم، فقال النبي ﷺ: «**اكتب: باسمك اللهم**»، ثم قال: «**هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله**»، فقال سهيل: واللّه لو كنا نعلم أنك رسول اللّه ما صددناك عن البيت، ولا قاتلناك، ولكن اكتب: محمد بن عبد اللّه، فقال النبي ﷺ: «**واللّه إني لرسول اللّه وإن كذبتموني، اكتب: محمد بن عبد الله**»[1].

★ **فوائد الحديث:**

تقدم الحديث وكذا الكلام عن جحد اسم الرحمن في سورة الرعد الآية (٣٠) فلينظر هناك.

قال ابن جرير الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ: «وقد زعم بعض أهل الغبا أن العرب كانت لا تعرف الرحمن، ولم يكن ذلك في لغتها، ولذلك قال المشركون للنبي ﷺ: وما الرحمن؟ أنسجد لما تأمرنا؟ إنكارا منهم لهذا الاسم، كأنه كان محالا عنده، أن ينكر أهل الشرك. ما كانوا عالمين بصحته، أو كأنه لم يتل من كتاب اللّه، قول اللّه ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ﴾ يعني محمدًا ﴿كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ﴾[2] وهم مع ذلك به مكذبون، ولنبوته جاحدون، فيعلم بذلك أنهم قد كانوا يدافعون حقيقة ما قد ثبت عندهم صحته، واستحكمت لديهم معرفته، وقد أنشد لبعض الجاهلية الجهلاء:

ألا ضربت تلك الفتاة هجينها ... ألا قضب الرحمن ربي يمينها

---

(١) أخرجه: أحمد (٤/ ٣٢٣-٣٢٦ و٣٢٩-٣٣١)، والبخاري (٥/ ٤١٢-٤١٦/ ٢٧٣١-٢٧٣٢) بطوله، وأبو داود (٢/ ٣٦٤/ ١٧٥٤)، والنسائي (٥/ ١٨٤/ ٢٧٧٠)، وفي الكبرى (٥/ ١٧٠-١٧١/ ٨٥٨١-٨٥٨٢) مختصرا.

(٢) البقرة: الآية (١٤٦).

وقال سلامة بن جندل الطهوي:

عَجِلْتم علينا عَجْلَتَيْنَا عليكم وما يشإ الرحمن يعقد ويطلق»[١].

قال ابن كثير: «وقد زعم بعضهم أن العرب لا تعرف الرحمن، حتى رد اللَّه عليهم ذلك بقوله: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾[٢]، ولهذا قال كفار قريش يوم الحديبية لما قال رسول اللَّه ﷺ لعلي: «اكتب ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ①﴾، قالوا: لا نعرف الرحمن ولا الرحيم». رواه البخاري، وفي بعض الروايات: لا نعرف الرحمن إلا رحمن اليمامة. وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۩ ⑥⓪﴾. والظاهر أن إنكارهم هذا إنما هو جحود وعناد وتعنت في كفرهم؛ فإنه قد وجد في أشعارهم في الجاهلية تسمية اللَّه تعالى بالرحمن»[٣].

وبوب محمد بن عبد الوهاب في كتاب التوحيد: (باب: من جحد شيئًا من الأسماء والصفات).

قال الشيخ ابن باز: «هذا الباب عقده المؤلف لبيان وجوب إثبات أسماء اللَّه وصفاته على الوجه اللائق به ﷻ، من غير تحريف، لا تعطيل، ولا تكييف، ولا تمثيل، وأن لا يغتر بأقوال أهل الاعتزال وأهل الباطل؛ بل يجب الأخذ بما قاله أهل السنة والجماعة من الصحابة ومن سلك سبيلهم وهو الذي جاءت به الرسل، جاءوا بإثبات أسماء اللَّه وصفاته وأحاديثها كما جاءت، وأثبتوا ما دلت عليه من الأسماء والصفات عملا بقوله: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ① ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ② لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ③ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ④﴾[٤] ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ⑦④﴾[٥] ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[٦] أي لا سمي له، ولا كفؤ له ﷻ، وأنكرت الجهمية الأسماء والصفات، وتأولوا الأسماء والصفات حتى صاروا معطلة، ومقتضى قولهم نفي وجود اللَّه بالكلية، ولهذا حكم عليهم أهل السنة بالكفر، والواجب قتلهم إن لم يتوبوا فيستتابوا لذلك

---

(١) جامع البيان (١/ ٥٧-٥٨).
(٢) الإسراء: الآية (١١٠).
(٣) ابن كثير (١/ ١٢٦-١٢٧).
(٤) الإخلاص: الآيات (١-٤).
(٥) النحل: الآية (٧٤).
(٦) الشورى: الآية (١١).

لإنكارهم ما جاء في الكتاب العزيز والسنة المطهرة والإجماع، وأطلق المؤلف الترجمة ولم يحكم على جاحد الأسماء والصفات وحكمه الكفر»[1].

* * *

(١) المغني المريد الجامع لشروح كتاب التوحيد (٧/ ٢٥٨٨-٢٥٨٩).

قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا ۝٦١﴾

★ **غريب الآية:**

بروجا: البروج: منازل الكواكب السيارة. شبهت بالقصور لعلوها وظهورها.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يقول تعالى ممجدا نفسه، ومعظما على جميل ما خلق في السماء من البروج -وهي الكواكب العظام -في قول مجاهد، وسعيد بن جُبير، وأبي صالح، والحسن، وقتادة.

وقيل: هي قصور في السماء للحرس، يروى هذا عن علي، وابن عباس، ومحمد بن كعب، وإبراهيم النخعي، وسليمان بن مِهْران الأعمش. وهو رواية عن أبي صالح أيضًا، والقول الأول أظهر. اللهم إلا أن يكون الكواكب العظام هي قصور للحرس، فيجتمع القولان، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ﴾[١]؛ ولهذا قال: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا﴾ وهي الشمس المنيرة، التي هي كالسراج في الوجود، كما قال: ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ۝١٣﴾[٢]. ﴿وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾ أي: مضيئا مشرقا بنور آخر ونوع وفن آخر، غير نور الشمس، كما قال: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا﴾[٣]، وقال مخبرا عن نوح، عليه السلام، أنه قال لقومه: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ۝١٥ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ۝١٦﴾[٤]»[٥].

قال ابن عاشور: «والامتنان بمحاسن المخلوقات وارد في القرآن قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝٦﴾[٦]. والكلام جار على التشبيه

---

(١) الملك: الآية (٥).
(٢) النبأ: الآية (١٣).
(٣) يونس: الآية (٥).
(٤) نوح: الآيتان (١٥و١٦).
(٥) تفسير القرآن العظيم (٥/ ١٦١-١٦٢).
(٦) النحل: الآية (٦).

البليغ؛ لأن حقيقة السراج: المصباح الزاهر الضياء. والمقصود: أنه جعل الشمس مزيلة للظلمة كالسراج، أو خلق النجوم كالسرج في التلألؤ وحسن المنظر. ودلالة خلق البروج وخلق الشمس والقمر على عظيم القدرة دلالة بينة للعاقل، وكذلك دلالته على دقيق الصنع ونظامه بحيث لا يختل ولا يختلف حتى تسنى للناس رصد أحوالها وإناطة حسابهم بها»[(١)].

قال السعدي: «كرر تعالى في هذه السورة الكريمة قوله: ﴿تَبَارَكَ﴾ ثلاث مرات؛ لأن معناها كما تقدم أنها تدل على عظمة الباري وكثرة أوصافه، وكثرة خيراته وإحسانه. وهذه السورة فيها من الاستدلال على عظمته، وسعة سلطانه، ونفوذ مشيئته، وعموم علمه وقدرته، وإحاطة ملكه في الأحكام الأمرية والأحكام الجزائية، وكمال حكمته. وفيها ما يدل على سعة رحمته وواسع جوده، وكثرة خيراته الدينية والدنيوية ما هو مقتض لتكرار هذا الوصف الحسن فقال: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا﴾ وهي النجوم عمومها أو منازل الشمس والقمر التي تنزلها منزلة منزلة وهي بمنزلة البروج والقلاع للمدن في حفظها، كذلك النجوم بمنزلة البروج المجعولة للحراسة فإنها رجوم للشياطين.

﴿وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا﴾ فيه النور والحرارة وهو الشمس. ﴿وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾ فيه النور لا الحرارة وهذا من أدلة عظمته، وكثرة إحسانه، فإن ما فيها من الخلق الباهر والتدبير المنتظم والجمال العظيم دال على عظمة خالقها في أوصافه كلها، وما فيها من المصالح للخلق والمنافع دليل على كثرة خيراته»[(٢)].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في إثبات الكمال لله ﷻ، وتنزيهه عن النقائص

* عن ثوبان قال: كان رسول الله ﷺ إذا انصرف من صلاته استغفر ثلاثا. وقال: «**أنت السلام ومنك السلام. تباركت ذا الجلال والإكرام**»[(٣)].

---

(١) التحرير والتنوير (١٩/ ٦٤). (٢) تيسير الكريم الرحمن (٣/ ٤١٩).

(٣) أخرجه: أحمد (٥/ ٢٧٥)، ومسلم (١/ ٤١٤/ ٥٩١)، والترمذي (٢/ ٩٧-٩٨/ ٣٠٠)، والنسائي (٣/ ٦٨/ ١٣٣٦)، وابن ماجه (١/ ٣٠٠/ ٩٢٨).

★ **فوائد الحديث:**

قال ابن باديس: «مادة (ب ر ك) كلها ترجع إلى معنى الثبوت. منها بروك الإبل: استناختها، والبركة كالقِرْبة مثل الحوض يثبت فيها الماء. والبراكاء: الثبات في الحرب، ومنها البركة بمعنى النماء والزيادة، ولا ينمو ويزيد إلا ما كان ثابتا الأصل، وشأن ثابت الأصل أن ينمو ويزيد، فلم تخرج عن معنى الثبوت؛ وتبارك من البركة فمعناه تزايد خيره. والله تعالى له الكمال، ومنة الإنعام، فتبارك: أي تزايد كماله وإنعامه، فلا تحصى إنعاماته، ولا تحد كمالاته. وثبوت الكمال ينافي وينفي ضده؛ فيقتضي التنزه عن النقص»(١).

قال ابن القيم: «فتأمل هذه الألفاظ الكريمة كيف جمعت نوعي الثناء، أعني ثناء التنزيه والتسبيح، وثناء الحمد والتمجيد، بأبلغ لفظ، وأوجزه، وأتمه معنى. فأخبر أنه السلام، ومنه السلام، فالسلام له وصفا وملكا، وقد تقدم بيان هذا في وصفه تعالى بالسلام وأن صفات كماله ونعوت جلاله وأفعاله وأسمائه كلها سلام؛ وكذا الحمد كله له وصفا وملكا، فهو المحمود في ذاته، وهو الذي يجعل من يشاء من عباده محمودا، فيهبه حمدا من عنده، وكذلك العزة كلها له وصفا وملكا، وهو العزيز الذي لا شيء أعز منه، ومن عز من عباده فبإعزازه له، وكذلك الرحمة كلها له وصفا وملكا، وكذلك البركة فهو المتبارك في ذاته الذي يبارك فيمن شاء من خلقه وعليه، فيصير بذلك مباركا: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾(٢) ﴿وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾﴾(٣) وهذا بساط وإنما غاية معارف العلماء الدنو من أول حواشيه وأطرافه، وأما ما وراء ذلك فكما قال أعلم الخلق بالله وأقربهم إلى الله وأعظمهم عنده جاها: «**لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك**»(٤)»(٥).

* * *

(١) تفسير ابن باديس ص: (١٥٣).
(٢) غافر: الآية (٦٤).
(٣) الزخرف: الآية (٨٥).
(٤) أخرجه: أحمد (٦/ ٥٨-٢٠١)، ومسلم (١/ ٣٥٢/ ٤٨٦)، وأبو داود (١/ ٥٤٧/ ٨٧٩)، والترمذي (٥/ ٤٨٩/ ٣٤٩٣)، والنسائي (٢/ ٥٧١-٥٧٢/ ١١٢٩).
(٥) بدائع الفوائد (٢/ ١٨٧).

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾﴾

★ غريب الآية:

خلفة: أي يخلف الواحد في موضع الآخر. يقال: خلف فلان فلانا: إذا قام بالأمر بعده.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «أي: يخلف كل واحد منهما الآخر، يتعاقبان لا يفتران. إذا ذهب هذا جاء هذا، وإذا جاء هذا ذهب ذاك، كما قال: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾﴾[1]، وقال: ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ﴾[2] وقال: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾[3]. وقوله: ﴿لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ أي: جعلهما يتعاقبان، توقيتا لعبادة عباده له، فمن فاته عمل في الليل استدركه في النهار، ومن فاته عمل في النهار استدركه في الليل»[4].

قال السعدي: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً﴾ أي: يذهب أحدهما فيخلفه الآخر، هكذا أبدا لا يجتمعان ولا يرتفعان، ﴿لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ أي: لمن أراد أن يتذكر بهما ويعتبر ويستدل بهما على كثير من المطالب الإلهية ويشكر اللّه على ذلك، ولمن أراد أن يذكر اللّه ويشكره وله ورد من الليل أو النهار، فمن فاته ورده من أحدهما أدركه في الآخر، وأيضًا فإن القلوب تتقلب وتنتقل في ساعات الليل والنهار فيحدث لها النشاط والكسل والذكر والغفلة والقبض والبسط والإقبال والإعراض، فجعل اللّه الليل والنهار يتوالى على العباد ويتكرران ليحدث

---

(١) إبراهيم: الآية (٣٣).
(٢) الأعراف: الآية (٥٤).
(٣) يس: الآية (٤٠).
(٤) تفسير القرآن (٥/ ١٦٢).

لهم الذكر والنشاط والشكر لله في وقت آخر، ولأن أوراد العبادات تتكرر بتكرر الليل والنهار، فكما تكررت الأوقات أحدث للعبد همة غير همته التي كسلت في الوقت المتقدم فزاد في تذكرها وشكرها، فوظائف الطاعات بمنزلة سقي الإيمان الذي يمده، فلولا ذلك لذوى غرس الإيمان ويبس. فلله أتم حمد وأكمله على ذلك»[١].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان سعة رحمة اللَّه ﷻ

* عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**إن اللَّه ﷻ يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها**»[٢].

★ **فوائد الحديث:**

قال ابن عثيمين: «من كرمه ﷻ أنه يقبل التوبة حتى وإن تأخرت. فإذا أذنب الإنسان ذنبا في النهار فإن اللَّه تعالى يقبل توبته ولو تاب في الليل، وكذلك إذا أذنب في الليل وتاب في النهار فإن اللَّه يقبل توبته؛ بل إن اللَّه يبسط يده حتى يتلقى هذه التوبة التي تصدر من عبده المؤمن، وفي هذا الحديث دليل على محبة اللَّه سبحانه للتوبة، وقد سبق في الحديث السابق في قصة الرجل الذي أضل راحلته حتى وجدها: أن يفرح بتوبة عبده المؤمن إذا تاب إليه أشد فرحا من هذا براحلته..

لكن المبادرة بالتوبة هي الواجب؛ لأن الإنسان لا يدري قد يفجأه الموت فيموت قبل أن يتوب»[٣].

قال المناوي: «وفيه تنبيه على سعة رحمة اللَّه وكثرة تجاوزه عن المذنبين، ولا يزال كذلك حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت منه غلق باب التوبة. قال في المطامح: ومن أنكر طلوعها من مغربها كفر. وسمعت عن بعض أهل عصرنا أنه ينكره نعوذ باللَّه من الخذلان. انتهى

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٣/ ٤١٩-٤٢٠).
(٢) أخرجه: أحمد (٤/ ٣٩٥)، ومسلم (٤/ ٢١١٣/ ٢٧٥٩)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٤٤/ ١١١٨٠).
(٣) شرح رياض الصالحين (١/ ٩٢-٩٣).

وأنت خبير بأن جزمه بالتكفير لا يكاد يكون صحيحا سيما في حق العامة؛ لأنه لم يبلغ مبلغ المعلوم من الدين بالضرورة، ومجرد وروده في أخبار صحاح لا يوجب التكفير فتدبر»[١].

وفي الحديث إثبات اليد لله ﷻ.

قال ابن القيم: «إن اطراد لفظها في موارد الاستعمال وتنوع ذلك وتصريف استعماله يمنع المجاز، ألا ترى إلى قوله: ﴿خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾[٢] وقوله: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾[٣] وقوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾[٤] فلو كان مجازا في القدرة والنعمة لم يستعمل منه لفظ يمين، وقوله في الحديث الصحيح: «**المقسطون عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن وكلتا يديه يمين**»[٥] فلا يقال هذا يد النعمة والقدرة. وقوله: «**يقبض الله سمواته بيده والأرض باليد الأخرى ثم يهزهن ثم يقول أنا الملك**»[٦].

فهنا هز وقبض وذكر يدين، ولما أخبرهم رسول الله ﷺ جعل يقبض يديه ويبسطها تحقيقا للصفة لا تشبيها لها كما قرأ ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾[٧] ووضع يديه على عينيه وأذنيه تحقيقا لصفة السمع والبصر، وأنهما حقيقة لا مجازا.. وأضعاف أضعاف ذلك من النصوص الصحيحة الصريحة في ثبوت هذه الصفة، كقوله في الحديث الصحيح: «**إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها**»»[٨].

* عن جابر قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «**إن في الليل لساعة، لا يوافقها رجل مسلم يسأل الله خيرا من أمر الدنيا والآخرة، إلا أعطاه إياه، وذلك كل ليلة**»[٩].

---

(١) فيض القدير (٢/ ٢٨١).
(٢) ص: الآية (٧٥).
(٣) المائدة: الآية (٦٤).
(٤) الزمر: الآية (٦٧).
(٥) أخرجه: أحمد (٢/ ١٥٩-١٦٠)، ومسلم (٣/ ١٤٥٨/ ١٨٢٧)، والنسائي (٨/ ٦١٢-٦١٣/ ٥٣٩٤).
(٦) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٧٤)، والبخاري (١١/ ٤٥٢/ ٦٥١٩)، ومسلم (٤/ ٢١٤٨)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٤٧-٤٤٨/ ١١٤٥٥)، وابن ماجه (١/ ٦٨-٦٩/ ١٩٢).
(٧) النساء: الآية (١٣٤).
(٨) مختصر الصواعق (ص: ٣٧١).
(٩) أخرجه: أحمد (٣/ ٣١٣)، ومسلم (١/ ٥٢١/ ٧٥٧).

★ **فوائد الحديث:**

قال المناوي: «**«إن في الليل لساعة»** يحتمل أن يراد بها الساعة النجومية، وأن يراد جزؤ منها، ونكرها حثا على طلبها بإحياء الليالي، **«لا يوافقها»** أي: يصادفها، «**عبد**» في رواية رجل «**مسلم يسأل اللَّه خيرا من أمر الدنيا والآخرة، إلا أعطاه إياه، وذلك كل ليلة**» أي ذلك المذكور يحصل كل ليلة فلا يختص ببعض الليالي؛ بل كائن في جميعها قبيل تلك الساعة في الثلث الأخير الذي يقول فيه الله: من يدعوني فأستجيب له(١)، وقيل: وقت السحر، وقيل: مطلقة، وجزم الغزالي بأنها مبهمة في جميع الليالي كليلة القدر في رمضان، وحكمة إبهامها توفر الدواعي على مراقبتها والاجتهاد في الدعاء في جميع ساعات الليل كما قالوه في إبهام حكمة ليلة القدر»(٢).

قال النووي: «فيه إثبات ساعة الإجابة في كل ليلة، ويتضمن الحث على الدعاء في جميع ساعات الليل رجاء مصادفتها»(٣).

* * *

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٤٨٧)، والبخاري (٣/ ٣٦/ ١١٤٥)، ومسلم (١/ ٥٢١/ ٧٥٨).

(٢) فيض القدير (٢/ ٤٧١-٤٧٢).

(٣) شرح مسلم (٦/ ٣٢).

قوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾

★ **غريب الآية:**

هونا: أي بسكينة ووقار. والهون والهوان: الرفق واللين.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «هذه صفات عباد اللَّه المؤمنين ﴿ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ أي: بسكينة ووقار من غير جَبَرية ولا استكبار، كما قال: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾﴾[1] فأما هؤلاء فإنهم يمشون من غير استكبار ولا مرح، ولا أشر ولا بطر، وليس المراد أنهم يمشون كالمرضى من التصانع تصنعًا ورياء، فقد كان سيد ولد آدم ﷺ إذا مشى كأنما ينحط من صَبَب، وكأنما الأرض تطوى له. وقد كره بعض السلف المشي بتضعف وتصنع، حتى روي عن عمر أنه رأى شابًا يمشي رُويدًا، فقال: ما بالك؟ أأنت مريض؟ قال: لا يا أمير المؤمنين. فعلاه بالدرة، وأمره أن يمشي بقوة. وإنما المراد بالهَوْن هاهنا: السكينة والوقار، . .

وقال عبد اللَّه بن المبارك، عن مَعْمَر، عن يحيى بن المختار، عن الحسن البصري في قوله: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ قال: إن المؤمنين قوم ذُلُل، ذلت منهم -واللَّه- الأسماعُ والأبصار والجوارح، حتى تحسبهم مرضى وما بالقوم من مرض، وإنهم واللَّه لأصحاء، ولكنهم دخلهم من الخوف ما لم يدخل غيرهم، ومنعهم من الدنيا علمهم بالآخرة، فقالوا: الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن. أما واللَّه ما أحزنهم حزن الناس، ولا تعاظم في نفوسهم شيء طلبوا به الجنة، ولكن أبكاهم الخوف من النار، إنه من لم يتعز بعزاء اللَّه تَقَطَّعُ نفسُه على الدنيا حسرات، ومن لم ير لله نعمة إلا في مطعم أو في مشرب، فقد قلَّ علمه

---

(١) الإسراء: الآية (٣٧).

وحضَر عذابهُ»(١).

قال ابن عاشور: «والمراد ب ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ بادئ ذي بدء أصحاب رسول اللَّه ﷺ فالصفات الثمان التي وصفوا بها في هذه الآية حكاية لأوصافهم التي اختصوا بها.

وإذ قد أُجريت عليهم تلك الصفات في مقام الثناء والوعد بجزاء الجنة عُلم أن من اتصف بتلك الصفات موعود بمثل ذلك الجزاءِ وقد شرفهم اللَّه بأن جعل عنوانهم عبادَه، واختار لهم من الإضافة إلى اسمه اسمَ الرحمن لوقوع ذكرهم بعد ذكر الفريق الذين قيل لهم: ﴿ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾. فإذا جعل المراد من ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ أصحاب النبي ﷺ كان الخبرُ في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ إلى آخر المعطوفات وكان قوله الآتي ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا۟﴾ استئنافًا لبيان كونهم أحرياء بما بعد اسم الإشارة. وإذا كان المراد من ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ جميع المؤمنين المتصفين بمضمون تلك الصلات كانت تلك الموصولات وصلاتها نعوتًا ل ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ وكان الخبر اسمَ الإشارة في قوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ﴾»(٢).

قال السعدي: «العبودية لله نوعان: عبودية لربوبيته فهذه يشترك فيها سائر الخلق مسلمهم وكافرهم، برهم وفاجرهم، فكلهم عبيد لله مربوبون مدبرون ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ۝٩٣﴾(٣). وعبودية لألوهيته وعبادته ورحمته وهي عبودية أنبيائه وأوليائه وهي المراد هنا، ولهذا أضافها إلى اسمه «الرحمن» إشارة إلى أنهم إنما وصلوا إلى هذه الحال بسبب رحمته، فذكر أن صفاتهم أكمل الصفات ونعوتهم أفضل النعوت»(٤).

قال ابن العربي: «الهون: هو الرفق والسكون، وذلك يكون بالعلم والحلم والتواضع، لا بالمرح والكبر، والرياء والمكر، وفي معناه قلت:

تواضعت في العلياء والأصل كابر وحزت نصاب السبق بالهون في الأمر

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٥/ ١٦٣).
(٢) التحرير والتنوير (١٩/ ٦٧).
(٣) مريم: الآية (٩٣).
(٤) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٤٩٣).

سكون فلا خبث السريرة أصله وجل سكون الناس من عظم المكر»[1]

قال مكي الناصري: «وحرصا من كتاب اللّه على هداية الخلق وإن ضلوا، وتمكينهم بكل الوسائل من معرفة الحق وإن زلوا، تصدى كتاب اللّه في ختام هذا الربع للكشف عن صفات المؤمنين الذين استجابوا لله والرسول فلم يكفروا بالرحمن، بل آمنوا به وأقبلوا على طاعته وعبادته عن اقتناع وإذعان، وتشرفوا بالانتساب إليه حتى وصفهم القرآن بأنهم ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ وذلك ليقتدي بهم من لا يزال سابحا في بحر التردد والعناد، من بقية العباد، فقال تعالى واصفا لهم ومعرفا بهم: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ وهذا الوصف الأول يتضمن أمرين، الأمر الأول أنهم لا يعتزلون الناس، بل يعاشرونهم ويخالطون، إذ ﴿يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ﴾ للقيام بواجباتهم وتحمل مسؤولياتهم، والتعاون مع غيرهم على البر والتقوى، والأمر الثاني: أنهم إذا مشوا مشوا برفق وتثبت، دون عجلة بالغة، ولم يظهر عليهم أثر التبختر والاستكبار، بل علتهم السكينة والوقار، ولم تبدر منهم بادرة ازدراء للغير أو احتقار، وذلك هو معنى المشي ﴿هَوْنًا﴾ مصداقا لقوله تعالى في آية ثانية ﴿وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ﴾[2] وقوله تعالى في آية ثالثة: ﴿وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا﴾[3]»[4].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في الحث على السكينة والوقار، وأن ذلك من صفة النبي ﷺ وشمائله

* عن علي بن أبي طالب قال: «لم يكن رسول اللّه ﷺ بالطويل، ولا بالقصير، شثن الكفين والقدمين، ضخم الرأس، ضخم الكراديس، طويل المسربة، إذا مشى تكفأ تكفؤا كأنما انحط من صبب، لم أر قبله ولا بعده مثله»[5].

---

(١) أحكام القرآن (٣/ ١٤٢٩).
(٢) لقمان: الآيتان (١٨-١٩).
(٣) الإسراء: الآية (٣٧).
(٤) التيسير في أحكام التفسير (٤/ ٣٤٦).
(٥) أخرجه: أحمد (١/ ٨٩-٩٦-١٠١-١١٦، ١١٧، ١٢٧-١٣٤-١٥١) من طرق، والترمذي (٥/ ٥٥٨-٥٥٩/ ٣٦٣٧) وقال: حديث حسن صحيح، والحاكم (٢/ ٦٠٦) وصححه ووافقه الذهبي. وصححه الشيخ الألباني في مختصر الشمائل ص (١٥/ ٤) وقال: وجملة شثن الكفين والقدمين مع الجملة الأخيرة منه في صحيح البخاري (كتاب اللباس من حديث أنس).

★ غريب الحديث:

شثن الكفين والقدمين: بفتح الشين المعجمة وسكون المثلثة بعدها نون، غليظهما وغليظ الأصابع والراحة مع لين من غير خشونة كما قال أنس: «ما مسست حريرا ألين من كف رسول اللَّه ﷺ».

الكراديس: هي رؤوس العظام واحدها كردوس وقيل: هي ملتقى كل عظمين ضخمين كالركبتين والمرفقين والمنكبين أراد أنه ضخم الأعضاء.

طويل المسربة: بفتح الميم وسكون السين وضم الراء الشعر المستدق الذي يأخذ من الصدر إلى السرة.

تكفأ تكفؤا: أي تمايل إلى قدام. كما تتكفأ السفينة في جريها.

كأنما انحط من صبب: الصبب الحدور، وهو ما انحدر من الأرض.. ويقارب خطاه تنعما.

لم أر قبله: أي موته لأن عليًا لم يدرك زمانا قبل وجوده.

ولا بعده: أي بعد موته.

★ فوائد الحديث:

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ وهو يتكلم على هديه ﷺ في مشيه: «كان إذا مشى تكفأ تكفؤا، وكان أسرع الناس مشية، وأحسنها وأسكنها قال أبو هريرة: ما رأيت شيئًا أحسن من رسول اللَّه ﷺ، كأن الشمس تجري في وجهه، وما رأيت أحدا أسرع في مشيته من رسول اللَّه ﷺ، كأنما الأرض تطوى له، وإنا لنجهد أنفسنا وإنه لغير مكترث. وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: كان رسول اللَّه ﷺ إذا مشى تكفأ تكفؤا كأنما ينحط من صبب، وقال مرة: إذا مشى، تقلع. قلت: والتقلع: الارتفاع من الأرض بجملته، كحال المنحط من الصبب، وهي مشية أولي العزم والهمة والشجاعة، وهي أعدل المشيات وأروحها للأعضاء، وأبعدها من مشية الهوج والمهانة والتماوت، فإن الماشي، إما أن يتماوت في مشيه ويمشي قطعة واحدة، كأنه خشبة محمولة، وهي مشية مذمومة قبيحة، وإما أن يمشي بانزعاج واضطراب مشي الجمل الأهوج، وهي مشية مذمومة أيضًا، وهي دالة على خفة عقل صاحبها، ولا سيما إن كان يكثر الالتفات حال مشيه يمينا وشمالا، وإما أن يمشي هونا، وهي

مشية عباد الرحمن، كما وصفهم بها في كتابه، فقال: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ قال غير واحد من السلف: بسكينة ووقار من غير تكبر ولا تماوت، وهي مشية رسول اللَّه ﷺ، فإنه مع هذه المشية كان كأنما ينحط من صبب، وكأنما الأرض تطوى له، حتى كان الماشي معه يجهد نفسه ورسول اللَّه ﷺ غير مكترث، وهذا يدل على أمرين: أن مشيته لم تكن مشية بتماوت ولا بمهانة، بل مشية أعدل المشيات»[1].

والغرض من إيراد الحديث بيان صفة المشي الممدوح، إذ ليس المراد بالمشي هونا التثاقل والتماوت تصنعا ورياء، فقد كان النبي ﷺ إذا مشى كأنما ينحط من صبب، وكأنما الأرض تطوى له، ومناط المدح في الوصف بالمشي هونا ليس المشي في حد ذاته، وإنما مناط المدح ما يدل عليه (المشي هونا) من أخلاق الماشي وسلوكه الحميد، إذ يكون مشيه هونًا دليلًا على أنه هين لين.

* عن ابن عباس ؓ أنه دفع مع النبي ﷺ يوم عرفة فسمع النبي ﷺ وراءه زجرا شديدا وصوتا للإبل فأشار بسوطه إليهم وقال: «**أيها الناس عليكم بالسكينة فإن البر ليس بالإيضاع**»[2].

أوضعوا: أسرعوا. خلالكم: من التخلل بينكم. وفجرنا خلالهما: بينهما.

⋆ غريب الحديث:

دفع: أي ابتدأ السير ودفع نفسه منها ونحاها أو دفع ناقته وحملها على السير.

زجرًا: أي: صياحا لحث الإبل.

عليكم بالسكينة: أي: في السير والمراد السير بالرفق وعدم المزاحمة.

الإيضاع: السير السريع.

⋆ فوائد الحديث:

قال الأبي: «فيه سنة الدفع وأنه يكون بتؤدة. وكذلك سنة العبادة لا سيما في

---

(١) زاد المعاد (١/ ١٦٧-١٦٨).

(٢) أخرجه: أحمد (١/ ٢١١) و(٥/ ٢٠١)، ومسلم (٢/ ٨٨٦-٨٩٢/ ١٢١٨) من حديث جابر الطويل. وأبو داود (٢/ ٤٧١/ ١٩٢٠)، والنسائي (٥/ ٢٥٧)، وفي الكبرى (٢/ ٤٢٥).

الجموع الكثيرة، لما فيه من الرفق بالناس والدواب والأمن من الإذاية بخلاف العجلة»[١].

قال ابن بطال: «قال ابن المنذر: فكان في معنى قوله: «**عليكم بالسكينة**» إلا في بطن وادي محسر، فقد كان ابن مسعود، وابن عباس، وابن عمر، وابن الزبير يوضعون فى وادي محسر، وتبعهم على ذلك كثير من العلماء، وقال النخعي: لما رأى عمر سرعة الناس فى الإفاضة من عرفة وجمع قال: «**واللَّه إني لأعلم أن البر ليس برفعها أذرعها، ولكن البر شيء تصبر عليه القلوب**». وقال عكرمة: سأل رجل ابن عباس عن الإيجاف، فقال: **إنَّ حَلْ حَلْ يشغل عن ذكر اللَّه، ويوطئ ويؤذي**.

قال ابن المنذر: وحديث أسامة يدل أن أمره بالسكينة إنما كان فى الوقت الذي لم يجد فجوة، وأنه حين وجد فجوة سار يسيرًا فوق ذلك، وإنما أراد بالسكينة في وقت الزحام. وقال عمر بن عبد العزيز في خطبته يوم عرفة: إنكم شخصتم من القريب والبعيد، وتكلفتم من المؤنة ما شاء اللَّه، وليس السابق من سبق بعيره وفرسه، ولكن السابق من غفر له»[٢].

* عن أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**إذا سمعتم الإقامة فامشوا إلى الصلاة وعليكم بالسكينة، والوقار، ولا تسرعوا. فما أدركتم فصلوا و ما فاتكم فأتموا**»[٣].

⋆ فوائد الحديث:

سيأتي الكلام عليه إن شاء اللَّه عند قوله تعالى من سورة الجمعة: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾[٤].

* * *

---

(١) شرح الأبي (٤/ ٢٦١).

(٢) شرح صحيح البخاري (٤/ ٣٥٠).

(٣) أخرجه: أحمد (٢/ ٥٣٢-٥٣٣)، والبخاري (٢/ ١٤٩/ ٦٣٦) واللفظ له، ومسلم (١/ ٤٢٠-٤٢١/ ٦٠٢)، وأبو داود (١/ ٣٨٤-٣٨٥/ ٥٧٢-٥٧٣)، والترمذي (٢/ ١٤٨-١٤٩/ ٣٢٧)، والنسائي (٢/ ٤٤٩-٤٥٠/ ٨٦٠)، وابن ماجه (١/ ٢٥٥/ ٧٧٥).

(٤) الجمعة: الآية (٩).

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «أي: إذا سَفه عليهم الجهال القول السّيئ، لم يقابلوهم عليه بمثله، بل يعفون ويصفحون، ولا يقولون إلا خيرًا، كما كان رسول اللّه ﷺ لا تزيده شدة الجهل عليه إلا حلما، وكما قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ﴾[١]»[٢].

قال ابن العربي: «وقد اتفق الناس على أن السفيه من المؤمنين إذا جفاك يجوز أن تقول له: سلام عليك»[٣].

قال القرطبي: «هذا القول أشبه بدلائل السنة»[٤].

قلت: ويدل عليه حديث النعمان بن مقرن المزني الآتي.

قال الرازي: «لأن الإغضاء عن السفهاء وترك المقابلة مستحسن في العقل والشرع، وسبب لسلامة العرض والورع»[٥].

قال ابن باديس: «فهو أدب مشروع مؤكد وحكم دائم محكم، وهو في معاملات الأفراد كما ترى. فلا ينافي ما شرع من الجرب عند وجود أسبابها، وتوفر شروطها بين الأمم والجماعات. وهي من الأمور العامة كما ترى. فبطل قول من زعم أن هذه الآية بالنسبة لغير المسلم منسوخة بآية السيف؛ لأن هذه الآية ثابت حكمها في حال، وآية السيف ثابت حكمها في حال أخرى، فلا تنسخ إحداهما الأخرى»[٦].

قال السعدي: «أي: خطاب جهل بدليل إضافة الفعل وإسناده لهذا الوصف، ﴿قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ أي: خاطبوهم خطابا يسلمون فيه من الإثم ويسلمون من مقابلة الجاهل بجهله. وهذا مدح لهم، بالحلم الكثير ومقابلة المسيء بالإحسان، والعفو

---

(١) القصص: الآية (٥٥).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٥/ ١٦٣).
(٣) أحكام القرآن (٣/ ١٤٣٠).
(٤) الجامع لأحكام القرآن (١٣/ ٤٨).
(٥) التفسير الكبير (٢٤/ ١٠٩).
(٦) تفسير ابن باديس (١٩٦).

عن الجاهل، ورزانة العقل الذي أوصلهم إلى هذه الحال»[١].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة أن الصبر على أهل الجهل والضلال من تمام العبودية له -تبارك وتعالى-

* عن النعمان بن مقرن المزني قال: قال رسول اللَّه ﷺ، وسب رجل رجلا عنده، قال: فجعل الرجل المسبوب يقول: عليك السلام. قال: قال رسول اللَّه ﷺ: **«أما إن ملكًا بينكما يذب عنك كلما يشتمك هذا، قال له: بل أنت وأنت أحق به، وإذا قال له: عليك السلام، قال: لا بل لك أنت، أنت أحق به»**[٢].

★ غريب الحديث:

يشتمك: أي: يسبُّك، يقال: شَتَمَهُ شَتْمًا: سَبَّهُ.

يذب: من ذب عنه: أي دفع عنه ومنع.

★ فوائد الحديث:

قال السندي: «قوله: **«قال له: بل أنت»** أي: قال الملَكُ للسّابِّ: بل أنتَ كما قلتَ»[٣].

قوله: **«لا، بل أنت أحقّ به»** معناه: إذا قال المسبوب للسّابّ: عليك السلام، قال له المَلَك: **«لا، بل أنتَ»** يعني: أنتَ الذي عليك السلام، وأنتَ أحقُّ به»[٤].

* * *

(١) تيسير الكريم الرحمن (٣/ ٤٢٠-٤٢١).

(٢) أخرجه: أحمد (٥/ ٤٤٥)، وقال الهيثمي في المجمع (٨/ ٧٥): رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح غير أبي خالد الوالبي وهو ثقة.

(٣) (حاشية المسند (٣٩/ ١٥٥) الأرنؤوط).

(٤) الفتح الرباني (١٩/ ٣٣١).

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴿٦٤﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: والذين يبيتون لربهم يصلون لله، يراوحون بين سجود في صلاتهم وقيام. وقوله: ﴿وَقِيَامًا﴾ جمع قائم، كما الصيام جمع صائم ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ﴾ يقول -تعالى ذكره-: والذين يدعون الله أن يصرف عنهم عقابه وعذابه حذرا منه ووجلا. وقوله: ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ يقول: إن عذاب جهنم كان غراما ملحا دائما لازما، غير مفارق من عذب به من الكفار، ومهلكا له.. ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾﴾ يقول: إن جهنم ساءت مستقرًّا ومقاما، يعني بالمستقرّ: القرار، وبالمقام: الإقامة؛ كأن معنى الكلام: ساءت جهنم منزلا ومقاما. وإذا ضمت الميم من المقام فهو من الإقامة، وإذا فتحت فهو من قمت، ويقال: المقام إذا فتحت الميم أيضًا هو المجلس، ومن المُقام بضمّ الميم بمعنى الإقامة، قول سلامة بن جندل:

يَوْمانِ: يَوْمُ مُقاماتٍ وأَنْدِيَةٍ ... وَيَوْمُ سَيْرٍ إلى الأَعْداءِ تَأْوِيبَ

ومن المُقام الذي بمعنى المجلس، قول عباس بن مرداس:

فَأَيِّي ما وأَيُّكَ كانَ شَرًّا ... فَقِيدَ إلى المَقَامَةِ لا يَرَاها

يعني: المجلس»[1].

قال ابن عاشور: «والسجود والقيام ركنا الصلاة، فالمعنى: يبيتون يصلّون، فوقع إطناب في التعبير عن الصلاة بركنيها تنويهًا بكليهما. وتقديم ﴿سُجَّدًا﴾ على ﴿وَقِيَامًا﴾ للرعي على الفاصلة مع الإشارة إلى الاهتمام بالسجود»[2].

(١) جامع البيان (١٩/ ٣٥-٣٧).

(٢) التحرير والتنوير (١٩/ ٧٠).

قال الشنقيطي: «ما ذكره -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة، من أن عباده الصالحين، يبيتون لربهم سجدًا وقيامًا، يعبدون اللَّه، ويصلون له بينه في غير هذا الموضع كقوله تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾[1] وقوله تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾﴾[2] وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾[3]. وقوله تعالى: ﴿يَبِيتُونَ﴾ قال الزجاج: بات الرجل يبيت: إذا أدركه الليل، نام أو لم ينم، قال زهير:

فبتنا قيامًا عند رأس جوادنا يزاولنا عن نفسه ونزاوله

.. قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾﴾.. هذا المعنى دلت عليه آيات من كتاب اللَّه كقوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾[4]. وقوله: ﴿لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾﴾[5]. وقوله: ﴿فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًۢا﴾[6] وقوله تعالى: ﴿فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾[7]. وقوله: ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾[8] وقوله: ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾[9] ﴿وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ﴾[10]. وقوله تعالى: ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا﴾[11]. وقوله: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ ۗ﴾[12] إلى غير ذلك من الآيات»[13].

قال ابن باديس: «إن جهنم هي أقبح مستقر وأقبح مقام. وإن الدنيا هي مطية الآخرة؛ فمن ساء مستقره ومقامه في الدنيا، ساء كذلك مستقره ومقامه في الآخرة.

وإن ملازمة العذاب في الآخرة على قدر ملازمة المعاصي في الدنيا؛ فمن لازمها بالكفر، ومات عليه، دامت له تلك الملازمة، ومن لازمها بالإصرار على

(١) الزمر: الآية (٩).
(٢) السجدة: الآية (١٦).
(٣) الذاريات: الآيات (١٦-١٨).
(٤) المائدة: الآية (٣٧).
(٥) الزخرف: الآية (٧٥).
(٦) الفرقان: الآية (٧٧).
(٧) النبأ: الآية (٣٠).
(٨) البقرة: الآية (٨٦).
(٩) آل عمران: الآية (٨٨).
(١٠) فاطر: الآية (٣٦).
(١١) الإسراء: الآية (٩٧).
(١٢) النساء: الآية (٥٦).
(١٣) أضواء البيان (٦/ ٣٤٩-٣٥٠).

الكبائر كانت له، على حسب تلك الملازمة.

فعلى العاقل أن يحسن مقره ومقامه، وأن يجتنب كل موطن تلحقه فيه الملامة، وأن يجتنب مجالس السوء والبدعة، ويلازم مجالس الطاعة والسنة. وأن يسرع بالتوبة مفارقا الذنوب، وألا يصر على شيء من القبائح والعيوب. وأن يكون سريع الرجوع إلى اللَّه ولو عظم ذنبه وبلواه، فاللَّه يحب التوابين ويغفر للأوابين جعلنا منهم أجمعين آمين»[1].

وقال: -ردا على من زعم أن أكمل أحوال العابد أن يعبد اللَّه تعالى لا طمعًا في جنته ولا خوفا من ناره- «إن العبادة هي غاية الذل والخضوع، مع الشعور بغاية الضعف والافتقار. ومن مقتضى الضعف أن يخاف ويوجل، ومن مقتضى الافتقار أن يرجو ويطمع:

١- فخوف العبد من عقاب ربه، هو من مقتضى اعترافه بضعفه وقوة ربه، وشهوده لعزته وقهره، وعموم تصرفه في خلقه، وأنه لا معقب لحكمه، وأنه لا يؤمن من مكروهه.

٢- وطمعه في ثوابه، هو من مقتضى اعترافه بحاجته وفقره وغنى ربه، وفضله، وتصديقه بوعده، فهو يعبده ويخاف ألا يقبل عبادته، ويخشى نقمته. ويعبده ويرجو رحمته، وينتظر مثوبته.

وفي عبادته هذه إظهار لغاية العبودية بنقصها وحاجتها، وقيام بحق التعظيم والإجلال للربوبية، والاعتراف لذلك المقام بالقدرة والعزة، والغنى والرحمة والكمال.

فوضعت العبادة في الدين على خوف العقاب، ورجاء الثواب، لما في ذلك من إظهار غاية عبودية العبد بضعفه وافتقاره، أمام ربه الغني الرحيم القوي المتين.

الأدلة:

والدليل على هذا ما ستسمعه، من الكتاب، والسنة، وأقوال السلف:

أولا: أما الكتاب: فقوله تعالى: ﴿فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ جَزَآءَۢ بِمَا

---

(١) تفسير ابن باديس (٢٠١-٢٠٢).

كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾[(١)].

ووجه الدليل من الآية: أن هؤلاء المذكورين فيها، هم الكمل من عباد اللَّه الصالحين، بدليل حديث أبي هريرة ﷺ المروي في الصحيح قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**يقول اللَّه تعالى: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ذخرا بله ما أطلعتم عليه**»[(٢)]؛ ثم قرأ قوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾، ومع كمالهم لم تتجرد عبادتهم من الخوف والطمع.

ووجه آخر:

وهو أن اللَّه تعالى ذكر لنا عبادتهم؛ لنعرف العبادة الشرعية كيف تكون؟ فذكرها مع الخوف والطمع، فعرفنا أن العبادة وضعت في الشرع على ذلك.

ووجه ثالث:

وهو أنه تعالى ذكر لنا صفاتهم وعبادتهم؛ لنقتدي بهم فيها، فعلم أن العبادة التي يدعونا ربنا إليها هي العبادة خوفا وطمعا. ومثل هذه الآية: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا سُبْحَـٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَـٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾﴾[(٣)]. ووجه الدليل منها كالتي قبلها. وتزيد عليها ببيان صريح دعائهم وطلبهم الوقاية من النار، وغفران وتكفير السيئات. ومثلها قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾﴾ ووجه الدليل منها كالتي قبلها. ومثلها قوله تعالى: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا

---

(١) السجدة: الآية (١٧).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٣١٣)، والبخاري (٦/ ٣٩١/ ٣٢٤٤)، ومسلم (٤/ ٢١٧٤/ ٢٨٢٤)، والترمذي (٥/ ٣٢٣/ ٣١٩٧)، وابن ماجه (٢/ ١٤٤٧/ ٤٣٢٨).

(٣) آل عمران: الآيات (١٩١-١٩٤).

شَكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾﴾[1]. ووجه الدليل منها مثل ما تقدم وتزيد ببيان أن خوف اليوم العبوس لا ينافي الإطعام لوجه الله. ومثلها قوله تعالى: ﴿۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾﴾[2]. ووجه الدليل كما تقدم، وفيها أيضًا بيان أن خوف سوء الحساب لا ينافي الصبر ابتغاء وجه الله تعالى. ومثلها قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾﴾[3]، ووجه الدليل كما تقدم.

ومعنى الآية: أنهم يعطون ما أعطوا من أعمال البر والطاعات، وقلوبهم خائفة من أنهم راجعون إلى ربهم، فيخافون ألا تقبل منهم. ففيها بيان أنهم كانوا يعملون راجين قبول الأعمال، خائفين من عدم قبولها. فهؤلاء هم الكمل من عباد الله، وهذه هي عبادتهم في صريح هذه الآيات الكريمة التي ذكرت فيها صفاتهم. وكلها بكثرتها وصراحتها دالة دلالة قطعية لما قلناه: من أن العبادة الشرعية موضوعة على رجاء الثواب والخوف من العقاب؛ إذ ذلك هو أظهر مظاهر العبودية بذلها وخضوعها، وضعفها وحاجتها وفقرها، وحالتها المباينة لمقام الربوبية، مقام ذي الجلال والإكرام. ولا تجد في القرآن العظيم، آية واحدة دالة دلالة صريحة على ذكر عبادة هكذا- دون خوف أو طمع. ونزيد على الآيات المتقدمة آية دالة على حال عباده المعصومين عليهم الصلاة والسلام، وهي قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾﴾[4]. ووجه الدليل في الآية: أن إبراهيم ﷺ أخبر عن نفسه بصيغة المضارع، المفيد للتجدد، أنه يطمع من الله أن يغفر له خطيئته؛ فدل ذلك على أنه كان في عبادته طامعا. ومعلوم أنه معصوم، وأنه مؤمّن من العذاب، وأن ما سماه خطيئة هو بالنسبة إلى مقامه الرفيع. .

---

(١) الإنسان: الآيات (٧-١٠).

(٢) الرعد: الآيات (١٩-٢٢).

(٣) المؤمنون: الآيات (٥٧-٦١).

(٤) الشعراء: الآية (٨٢).

ثانيا: وأما من السنة فمنها:

- دعاء القنوت المشهور: «**نرجو رحمتك ونخشى عذابك إن عذابك الجد**»[(١)]. ووجه الدليل منه: أن الصلاة أشرف أحوال العبد وأجل مقاماته، وأعظم عباداته، وقد علم أن يدعو فيها هذا الدعاء الصريح، في رجاء الرحمة وخوف العذاب، وما كان ذلك إلا لأن العبادة الشرعية موضوعة عليهما.

- ومنها حديث: «**وأما السجود فادعوا فيه فقمن أن يستجاب لكم**»[(٢)] وهو حديث صحيح. وفي الصحيح أيضًا: «**أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد**»[(٣)]. ووجه الدليل: أن أقرب أحوال العبد من ربه السجود، وهو محل للدعاء، والداعي يرجو القبول، ويخاف المنع، فالعبادة في أقرب أحوال العبد موضوعة على الرجاء والخوف.

- ومنها الحديث الصحيح: «**إذا أتيت مضجعك فتوضأ وضوءك للصلاة، ثم اضطجع على شقك الأيمن، ثم قل: اللهم أسلمت وجهي إليك، وفوضت أمري إليك، وألجأت ظهري إليك، رغبة ورهبة إليك، لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك، اللهم آمنت بكتابك الذي أنزلت، وبنبيك الذي أرسلت. فإن مت من ليلتك، فأنت على الفطرة، واجعلهن آخر ما تتكلم به**»[(٤)]. ووجه الدليل منه: أنه تعليم لما يقوله المسلم فيما قد يكون آخر حال يلقى عليه ربه، ولا ينبغي أن يلقاه إلا على أكمل حال؛ فعلمنا هذا الدعاء الصريح في الرغبة والرهبة ليقوله المؤمن، ولو كان من أكمل الكمل. فدل على أن الرغبة والرهبة عليهما وضعت العبادة في جميع الأحوال.

---

(١) أخرجه: ابن خزيمة في صحيحه (٢/ ١٥٥-١٥٦/ ١١٠٠).

(٢) أخرجه: أحمد (١/ ٢١٩)، ومسلم (١/ ٣٤٨/ ٤٧٩)، وأبو داود (١/ ٥٤٥-٥٤٦/ ٨٧٦)، والنسائي (٢/ ٥٣٤/ ١٠٤٤)، وابن ماجه (٢/ ١٢٨٣/ ٣٨٩٩).

(٣) أخرجه: أحمد (٢/ ٤٢١)، ومسلم (١/ ٣٥٠/ ٤٨٢)، أبو داود (١/ ٥٤٥/ ٨٧٥)، والنسائي (٢/ ٥٧٦/ ١١٣٦).

(٤) أخرجه: أحمد (٤/ ٢٨٥)، والبخاري (١٣/ ٥٦٦/ ٧٤٨٨)، ومسلم (٤/ ٢٠٨١-٢٠٨٢/ ٢٧١٠)، والترمذي (٥/ ٤٣٧/ ٣٣٩٤)، والنسائي في الكبرى (٦/ ١٩٢-١٩٣/ ١٠٦٠٩)، وابن ماجه (٢/ ١٢٧٥-١٢٧٦/ ٣٨٧٦).

- ومنها الحديث الصحيح: قالت عائشة رضي الله عنها: «كنت نائمة إلى جنب رسول الله ﷺ ففقدته فلمسته بيدي فوضعت يدي على قدميه وهو ساجد يقول: **أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، وبك منك، لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك**»[1]. ووجه الدليل: أنه في الحال التي هو فيها أقرب ما يكون من ربه، وهي حالة سجوده، استعاذ برضى الله من سخطه، وبعافيته من عقوبته. ثم لما لم يستطع الإحاطة بأفعاله، رد الأمر لذاته، فاستعاذ به منه. وهو في الجميع مستعيذ، والمستعيذ طالب، والطالب راج وطامع في نيل المطلوب. فلم يفارق عبادته الرجاء والطمع حتى في هذه الحالة التي بينه وبين ربه؛ لأنه كان ساجدا في جنح الليل، دون حضور أحد من الناس، إلا عائشة التي كانت نائمة واستيقظت، فاطلعت عليه في تلك الحال.

- ومنها الحديث الصحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما الذي كان يعلمهم رسول الله ﷺ إياه كما يعلمهم السورة من القرآن. رواه مالك وفيه: «**اللهم أعوذ بك من عذاب جهنم، وأعوذ بك من عذاب القبر، وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال، وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات**»[2]. ووجه الدليل منه: أنه علمهم هذه الاستعاذة الصريحة في الخوف والرجاء كسائر ما علمهم من الدعوات المبنية عليهما. وهكذا تجد جميع دعواته المأثورة على الرغبة، والرهبة، والرجاء والخوف. ولا تجد دعاء واحدا علمهم فيه أن يتوجهوا إلى الله تعالى، دون رغبة ولا رهبة، ولا رجاء ولا خوف. ولو كانت العبادة الخالية من الطمع والخوف هي أكمل العبادة.. لكان بينها لهم بيانا شافيا صريحا، كعادته في بيان الكمالات، وهو الحريص على دلالتهم على كل خير. فكيف لا يدلهم على هذا المقام بصريح المقال، لو كان من الكمال، بحيث يدعي لها بعض الناس؟؟!..

الخلاصة:

- إن العبادة المشروعة هي القصد إلى الطاعة، مع الشعور بضعف العبد وذله،

---

(١) أخرجه: أحمد (٦/ ٥٨)، ومسلم (١/ ٣٥٢/ ٤٨٦)، وأبو داود (١/ ٥٤٧/ ٨٧٩)، والترمذي (٥/ ٤٨٩/ ٣٤٩٣)، والنسائي (٢/ ٥٧١-٥٧٢/ ١١٢٩).

(٢) أخرجه: أحمد (١/ ٢٤٢)، ومسلم (١/ ٤١٣/ ٥٩٠)، وأبو داود (٢/ ١٩٠/ ١٥٤٢)، والترمذي (٥/ ٤٩٠/ ٣٤٩٤)، والنسائي (٤/ ٤١٠/ ٢٠٦٢)، وابن ماجه (٢/ ١٢٦٢/ ٣٨٤٠).

وحاجته وفقره، ومشاهدته لجلال ربه وقدرته وعزته، وجماله وفضله ورحمته؛ فيكون بتلك المشاهدة خائفا من عقابه أو مؤاخذته راجيا لثوابه وإنعامه.

- وإن هذه العبادة هي عبادة الكمّل من عباد اللَّه الذين وصفهم بأفضل صفاتهم في كتابه، وهي عبادة أنبيائه ورسله، الذين ذكر عبادتهم القرآن، وهي عبادة محمد ﷺ التي دلت عليها صحاح الآثار، وعبادة أصحابه الثابتة النقول.

- وخلصنا من هذا إلى أن العبادة المجردة من الخوف والرجاء منافية لصدق مشاهدة الجلال والجمال، مخالفة الأنبياء والمرسلين، وعباداللَّه الصالحين. وأنه لم يرد فيها نص صريح من كتاب أو سنة، مثل واحد من الأدلة المتقدمة المتكاثرة. وأنها ما دامت كذلك ليس لنا أن نعدها مشروعة، فضلا عن أن نعدها كاملة، فضلا عن أن ندعي أنها أكمل؛ لأن مشروعية الشيء لا تثبت إلا بدليل صحيح صريح. وأنى لنا ذلك في العبادة المجردة عن الرجاء والخوف؟»[1].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة
أن من اتّقى المحارم كان أعبد الناس

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: **«من يأخذ عني هؤلاء الكلمات فيعمل بهن أو يعلم من يعمل بهن؟ فقال أبو هريرة: فقلت: أنا يا رسول اللَّه فأخذ بيدي فعد خمسا وقال: اتق المحارم تكن أعبد الناس وارض بما قسم اللَّه لك تكن أغنى الناس، وأحسن إلى جارك تكن مؤمنًا، وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن مسلمًا، ولا تكثر الضحك فإن كثرة الضحك تميت القلب»**[2].

★ **غريب الحديث:**

وارض بما قسم اللَّه لك: أي: اقنع بما قسم اللَّه لك؛ أي: أعطاك وجعله حظك من الرزق.

---

(١) تفسير ابن باديس (ص: ٢٠٣-٢١٦).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٣١٠)، والترمذي واللفظ له (٤/ ٤٧٨/ ٢٣٠٥) وقال: «هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث جعفر بن سليمان والحسن لم يسمع عن أبي هريرة شيئًا هكذا روي عن أيوب...» والحديث أورده الشيخ الألباني في الصحيحة (٩٣٠).

★ **فوائد الحديث:**

قال المناوي: «قوله: «**اتق المحارم**» أي: احذر الوقوع في جميع ما حرم اللَّه عليك «**تكن أعبد الناس**» أي: من أعبدهم لما أنه يلزم من ترك المحارم فعل الفرائض فباتقاء المحارم تبقى الصحيفة نقية من التبعات فالقليل من التطوع مع ذلك ينمو وتعظم بركته فيصير ذلك المتقي من أكابر العباد وقال الذهبي: هنا واللَّه تسكب العبرات فيريد أن يكون يسيرًا بكل واجب فيقوم به وعارفًا بكل محرم فيجتنبه»[1].

قال ابن العربي: «قوله: «**اتق المحارم تكن أعبد الناس**» المحارم: جمع محرمة، والعبادة: القيام بحق المولى: يعني من ترك ما حرم عليه فقد قام بخدمته. والحرمات على قسمين: محرم الفعل ومحرم الترك فإذا اتقاهما العبد فقد قام بحق الأمر والنهي وهو رأس العبادة ووراء ذلك ترك المشتبه وبعده ترك المباح ولكن هذا أصله فمن ترك المحرم هان عليه العمل مما بعده»[2].

قال في المرقاة: «**تكن أعبد الناس**» إذ لا عبادة أفضل من الخروج عن عهدة الفرائض، وعوام الناس يتركونها ويعتنون بكثرة النوافل، فيضيّعون الأصول ويقومون بالفضائل، فربما يكون على شخص قضاء صلوات ويغفل عن أدائها، ويطلب علما أو يجتهد عملا في طواف وعبادات نفل، أو يكون على أحد من الزكاة أو حقوق الناس، فيطعم الفقراء أو يبني المساجد والمدارس ونحوها، ولعل التعبير بالاتقاء اعتناء لجانب الاحتماء على قاعدة الحكماء في معالجة الداء بالدواء»[3].

❊ ❊ ❊

---

(١) فيض القدير (١/ ١٢٤).

(٢) عارض الأحوذي (٩/ ١٨٢-١٨٣).

(٣) المرقاة (٩/ ٢٥).

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾﴾

⋆ **غريب الآية:**

يقتروا: القتر: تقليل النفقة، وهو بإزاء الإسراف وكلاهما مذمومان.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: والذين إذا أنفقوا أموالهم لم يسرفوا في إنفاقها.

ثم اختلف أهل التأويل في النفقة التي عناها اللَّه في هذا الموضع، وما الإسراف فيها والإقتار. فقال بعضهم: الإسراف ما كان من نفقة في معصية اللَّه وإن قلت: قال: وإياها عنى اللَّه، وسماها إسرافا. قالوا: والإقتار: المنع من حقّ اللَّه..

وقال آخرون: السرف: المجاوزة في النفقة الحدّ، والإقتار: التقصير عن الذي لا بدّ منه..

وقال آخرون: الإسراف هو أن تأكل من مال غيرك بغير حق..

قال أبو جعفر: والصواب من القول في ذلك، قول من قال: الإسراف في النفقة الذي عناه اللَّه في هذا الموضع: ما جاوز الحدّ الذي أباحه اللَّه لعباده إلى ما فوقه، والإقتار: ما قصر عما أمر اللَّه به، والقوام: بين ذلك.

وإنما قلنا إن ذلك كذلك؛ لأن المسرف والمقتر كذلك، ولو كان الإسراف والإقتار في النفقة مرخصا فيهما ما كانا مذمومين، ولا كان المسرف ولا المقتر مذموما؛ لأن ما أذن اللَّه في فعله فغير مستحقّ فاعله الذمّ.

فإن قال قائل: فهل لذلك من حدّ معروف تبينه لنا؟ قيل: نعم ذلك مفهوم في كلّ شيء من المطاعم والمشارب والملابس والصدقة وأعمال البرّ وغير ذلك، نكره تطويل الكتاب بذكر كلّ نوع من ذلك مفصلا غير أن جملة ذلك هو ما بيّنا وذلك نحو

أكل آكل من الطعام فوق الشبع ما يضعف بدنه، وينهك قواه ويشغله عن طاعة ربه، وأداء فرائضه؛ فذلك من السرف، وأن يترك الأكل وله إليه سبيل حتى يضعف ذلك جسمه وينهك قواه ويضعفه عن أداء فرائض ربه؛ فذلك من الإقتار وبين ذلك القوام على هذا النحو، كل ما جانس ما ذكرنا، فأما اتخاذ الثوب للجمال يلبسه عند اجتماعه مع الناس، وحضوره المحافل والجمع والأعياد دون ثوب مهنته، أو أكله من الطعام ما قوّاه على عبادة ربه، مما ارتفع عما قد يسدّ الجوع، مما هو دونه من الأغذية، غير أنه لا يعين البدن على القيام لله بالواجب معونته، فذلك خارج عن معنى الإسراف، بل ذلك من القوام؛ لأن النبي ﷺ قد أمر ببعض ذلك، وحضّ على بعضه»[1].

قال الشنقيطي: «هذه الآية الكريمة التي هي قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا﴾ . . ، قد بينت أحد ركني ما يسمى الآن بالاقتصاد. وإيضاح ذلك أنه لا خلاف بين العقلاء أن جميع مسائل الاقتصاد على كثرتها واختلاف أنواعها راجعة بالتقسيم الأول إلى أصلين لا ثالث لهما. الأول منهما: اكتساب المال. والثاني منهما: صرفه من مصارفه، وبه تعلم أن الاقتصاد عمل مزدوج، ولا فائدة في واحد من الأصلين المذكورين إلا بوجود الآخر، فلو كان الإنسان أحسن الناس نظرًا في أوجه اكتساب المال إلا أنه أخرق جاهل بأوجه صرفه، فإن جميع ما حصل من المال يضيع عليه بدون فائدة، وكذلك إذا كان الإنسان أحسن الناس نظرًا في صرف المال في مصارفه المنتجة إلا أنه أخرق جاهل بأوجه اكتسابه. فإنه لا ينفعه حسن نظره في الصرف مع أنه لم يقدر على تحصيل شيء يصرفه. والآيات المذكورة أرشدت الناس ونبهتهم على الاقتصاد في الصرف.

وإذا علمت أن مسائل الاقتصاد كلها راجعة إلى الأصلين المذكورين، وأن الآيات المذكورة دلت على أحدهما فاعلم أن الآخر منهما هو اكتساب المال أرشدت إليه آيات أخر دلت على فتح اللَّه الأبواب إلى اكتساب المال بالأوجه اللائقة، كالتجارات، وغيرها كقوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ

---

(١) جامع البيان (١٩/ ٣٧-٣٩).

(٢) البقرة: الآية (١٩٨).

وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ﴾[(١)]، وقوله تعالى: ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرۡضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضۡرِبُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَبۡتَغُونَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ﴾[(٢)]، والمراد بفضل اللَّه في الآيات المذكورة: ربح التجارة، وكقوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٖ مِّنكُمۡۚ﴾[(٣)]، . . وإذا علمت مما ذكرنا أن جميع مسائل الاقتصاد راجعة إلى أصلين هما اكتساب المال وصرفه في مصارفه. فاعلم أن كل واحد من هذين الأصلين، لا بد له من أمرين ضروريين له:

الأول منهما: معرفة حكم اللَّه فيه؛ لأن اللَّه -جل وعلا- لم يبح اكتساب المال بجميع الطرق التي يكتسب بها المال، بل أباح بعض الطرق، وحرم بعضها كما قال تعالى: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلۡبَيۡعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْۚ﴾[(٤)]، ولم يبح اللَّه -جل وعلا- صرف المال في كل شيء؛ بل أباح بعض الصرف وحرم بعضه، كما قال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ﴾[(٥)] الآية. وقال تعالى في الصرف الحرام: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيۡهِمۡ حَسۡرَةٗ﴾[(٦)] الآية فمعرفة حكم اللَّه في اكتساب المال وفي صرفه في مصارفه أمر ضروري لا بد منه؛ لأن من لم يعلم ذلك قد يكتسب المال من وجه حرام، والمال المكتسب من وجه حرام، لا خير فيه البتة، وقد يصرف المال في وجه حرام، وصرفه في ذلك حسرة على صاحبه.

الأمر الثاني: هو معرفة الطريق الكفيلة باكتساب المال، فقد يعلم الإنسان مثلًا أن التجارة في النوع الفلاني مباحة شرعًا، ولكنه لا يعلم أوجه التصرف بالمصلحة الكفيلة بتحصيل المال من ذلك الوجه الشرعي، وكم من متصرف يريد الربح، فيعود عليه تصرفه بالخسران، لعدم معرفته بالأوجه التي يحصل بها الربح. وكذلك قد يعلم الإنسان أن الصرف في الشيء الفلاني مباح، وفيه مصلحة، ولكنه لا يهتدي إلى معرفة الصرف المذكور، كما هو مشاهد في المشاريع الكثيرة النفع إن صرف فيها المال بالحكمة والمصلحة، فإن جواز الصرف فيها معلوم، وإيقاع الصرف على وجه المصلحة، لا يعلمه كل الناس. وبهذا تعلم أن أصول الاقتصاد الكبار أربعة:

(١) الجمعة: الآية (١٠).
(٢) المزمل: الآية (٢٠).
(٣) النساء: الآية (٢٩).
(٤) البقرة: الآية (٢٧٥).
(٥) البقرة: الآية (٢٦١).
(٦) الأنفال: الآية (٣٦).

الأول: معرفة حكم اللّٰه في الوجه الذي يكتسب به المال، واجتناب الاكتساب به، إن كان محرمًا شرعًا.

الثاني: حسن النظر في اكتساب المال بعد معرفة ما يبيحه خالق السماوات والأرض، وما لا يبيحه.

الثالث: معرفة حكم اللّٰه في الأوجه التي يصرف فيها المال، واجتناب المحرم منها.

الرابع: حسن النظر في أوجه الصرف، واجتناب ما لا يفيد منها، فكل من بنى اقتصاده على هذه الأسس الأربعة كان اقتصاده كفيلًا بمصلحته، وكان مرضيًا لله -جل وعلا-، ومن أخل بواحد من هذه الأسس الأربعة كان بخلاف ذلك؛ لأن من جمع المال بالطرق التي لا يبيحها اللّٰه -جل وعلا- فلا خير في ماله، ولا بركة كما قال تعالى: ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَـٰتِ﴾[1] وقال تعالى: ﴿قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ﴾[2] الآية..

ولا شك أنه يلزم المسلمين في أقطار الدنيا التعاون على اقتصاد يجيزه خالق السماوات والأرض، على لسان رسوله ﷺ، ويكون كفيلًا بمعرفة طرق تحصيل المال بالأوجه الشرعية، وصرفه في مصارفه المنتجة الجائزة شرعًا لأن الاقتصاد الموجود الآن في أقطار الدنيا لا يبيحه الشرع الكريم؛ لأن الذين نظموا طرقه ليسوا بمسلمين، فمعاملات البنوك والشركات لا تجد شيئًا منها يجوز شرعًا؛ لأنها إما مشتملة على زيادات ربوية، أو على غرر، لا تجوز معه المعاملات كأنواع التأمين المتعارفة عند الشركات اليوم في أقطار الدنيا، فإنك لا تكاد تجد شيئًا منها سالمًا من الغرر، وتحريم بيع الغرر ثابت عن النبي ﷺ، ومن المعلوم أن من يدعي إباحة أنواع التأمين المعروفة عند الشركات، من المعاصرين أنه مخطئ في ذلك، ولأنه لا دليل معه بل الأدلة الصحيحة على خلاف ما يقول، والعلم عند اللّٰه تعالى»[3].

---

(١) البقرة: الآية (٢٧٦).

(٢) المائدة: الآية (١٠٠).

(٣) أضواء البيان (٦/ ٣٥٣-٣٥٦).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في الحث على الاقتصاد في المأكل والمشرب والملبس

* عن عائشة أن النبي ﷺ خطب الناس يوم الجمعة فرأى عليهم ثياب النمار فقال رسول اللّه ﷺ: «**ما على أحدكم إن وجد سعة أن يتخذ ثوبين لجمعته سوى ثوبي مهنته**»(١).

⋆ غريب الحديث:

ثوبي مهنته: أي ثوبي بذلته، يقال منه: امتهنني القوم أي: ابتذلوني.

النمار: كل شملة مخططة من مآزر الأعراب فهي نمرة، وجمعها: نمار، كأنها أخذت من لون النمر لما فيها من السواد والبياض، وهي من الصفات الغالية، أراد أنه جاء قوم لابسي أزر مخططة من صوف.

⋆ فوائد الحديث:

قال ابن عبد البر: «في هذا الحديث اتخاذ الثياب واكتسابها والتجمل بها في الجمعة وكذلك الأعياد واللّه الموفق للصواب»(٢).

قال الطيبي: «المعنى: ليس على أحد حرج في أن يتخذ ثوبي، وفيه: أن ذلك ليس من شيمة المتقين لولا تعظيم الجمعة ومراعاة شعار الإسلام»(٣).

قال أبو عمر: «وفيه أن من وسع اللّه عليه لم يجز له إدمان لبس الخلق من الثياب»(٤).

* عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول اللّه ﷺ قال: «**كلوا واشربوا وتصدقوا والبسوا في غير مخيلة، ولا سرف. إن اللّه يحب أن ترى نعمته على عبده**»(٥).

---

(١) رواه أبو داود مرسلا (١/ ٦٥٠/ ١٠٧٨) من طريق يحي، وابن ماجه (١/ ٣٤٨-٣٤٩/ ١٠٩٥-١٠٩٦) من حديثي عبد اللّه بن سلام وعائشة، وابن خزيمة في صحيحه (٣/ ١٣٢/ ١٧٦٥).

(٢) التمهيد (٢٤/ ٣٨).

(٣) شرح الطيبي (٤/ ١٢٧٧).

(٤) فتح البر (٣/ ٥٨٧).

(٥) أخرجه: أحمد (٢/ ١٨٢) واللفظ له، والترمذي (٥/ ١١٤/ ٢٨١٩) وقال: هذا حديث حسن، الحاكم (٤/ ١٣٥) وصححه ووافقه الذهبي.

★ **فوائد الحديث:**

قال الحافظ: «هذا الحديث من الأحاديث التي لا توجد في البخاري إلا معلقة ولم يصله في مكان آخر»[(١)].

قال أيضًا: «الإسراف مجاوزة الحد في كل فعل أو قول، وهو في الإنفاق أشهر، وقد قال اللَّه تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾[(٢)] وقال تعالى: ﴿فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ﴾[(٣)] والمخيلة بوزن عظيمة وهي بمعنى الخيلاء وهو التكبر، وقال ابن التين: هي بوزن مفعلة من اختال إذا تكبر، قال: والخيلاء بضم أوله وقد يكسر ممدودا التكبر. وقال الراغب: الخيلاء التكبر ينشأ عن فضيلة يتراءاها الإنسان من نفسه، والتخيل تصوير خيال الشيء في النفس، ووجه الحصر في الإسراف والمخيلة أن الممنوع من تناوله أكلا ولبسا وغيرهما إما لمعنى فيه وهو مجاوزة الحد وهو الإسراف. وإما للتعبد كالحرير إن لم تثبت علة النهي عنه وهو الراجح، ومجاوزة الحد تتناول مخالفة ما ورد به الشرع فيدخل الحرام، وقد يستلزم الإسراف الكبر وهو المخيلة قال الموفق عبد اللطيف البغدادي: هذا الحديث جامع لفضائل تدبير الإنسان نفسه، وفيه تدبير مصالح النفس والجسد في الدنيا والآخرة، فإن السرف في كل شيء يضر بالجسد ويضر بالمعيشة فيؤدي إلى الإتلاف ويضر بالنفس إذ كانت تابعة للجسد في أكثر الأحوال، والمخيلة تضر بالنفس حيث تكسبها العجب وتضر بالآخرة حيث تكسب الإثم، وبالدنيا حيث تكسب المقت من الناس»[(٤)].

* * *

---

(١) فتح الباري (١٠/ ٣١١).

(٢) الزمر: الآية (٥٣).

(٣) الإسراء: الآية (٣٣).

(٤) فتح الباري (١٠/ ٣١١).

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامٗا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: والذين لا يعبدون مع اللَّه إلها آخر، فيشركون في عبادتهم إياه، ولكنهم يخلصون له العبادة، ويفردونه بالطاعة ﴿وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ قتلها ﴿إِلَّا بِٱلۡحَقِّ﴾ إما بكفر باللَّه بعد إسلامها، أو زنا بعد إحصانها، أو قتل نفس، فتقتل بها ﴿وَلَا يَزۡنُونَ﴾ فيأتون ما حرم اللَّه عليهم إتيانه من الفروج ﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ﴾ يقول: ومن يأت هذه الأفعال، فدعا مع اللَّه إلها آخر، وقتل النفس التي حرّم اللَّه بغير الحق، وزنى ﴿يَلۡقَ أَثَامٗا﴾ يقول: يلق من عقاب اللَّه عقوبة ونكالا كما وصفه ربنا جلّ ثناؤه، وهو أنه ﴿يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾﴾، ومن الأثام قول بَلْعَاءَ بن قيس الكناني:

جَزَى اللهُ ابْنَ عُرْوَةَ حيثُ أمْسَى ... عُقُوقا والعُقُوقُ لَهُ أثامُ

يعني بالأثام: العقاب»[1].

قال ابن تيمية: «فتوعد على مجموع أفعال وكل فعل منها محرم. وذلك لأن ترتيب الذم على المجموع يقتضي أن كل واحد له تأثير في الذم ولو كان بعضها مباحًا لم يكن له تأثير في الذم. والحرام لا يتوكد بانضمام المباح المخصص إليه»[2].

وقال أيضًا: «أكبر الكبائر ثلاث: الكفر، ثم قتل النفس بغير الحق، ثم الزنا، كما رتبها اللَّه في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي

---

(١) جامع البيان (١٩/ ٤٠).

(٢) مجموع الفتاوى (٢٤/ ٣٠١).

حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾ . .

ولهذا الترتيب وجه معقول وهو أن قوى الإنسان ثلاث: قوة العقل وقوة الغضب وقوة الشهوة. .

فالكفر متعلق بالقوة العقلية الناطقة الإيمانية؛ ولهذا لا يوصف به من لا تمييز له والقتل ناشئ عن القوة الغضبية وعدوان فيها . والزنا عن القوة الشهوانية . فالكفر اعتداء وفساد في القوة العقلية الإنسانية وقتل النفس اعتداء وفساد في القوة الغضبية والزنا اعتداء وفساد في القوة الشهوانية . ومن وجه آخر ظاهر: أن الخلق خلقهم الله لعبادته وقوام الشخص بجسده وقوام النوع بالنكاح والنسل فالكفر فساد المقصود الذي له خلقوا وقتل النفس فساد النفوس الموجودة والزنا فساد في المنتظر من النوع . فذاك إفساد الموجود وذاك إفساد لما لم يوجد بمنزلة من أفسد مالا موجودا أو منع المنعقد أن يوجد وإعدام الموجود أعظم فسادا؛ فلهذا كان الترتيب كذلك . ومن وجه ثالث أن الكفر فساد القلب والروح الذي هو ملك الجسد والقتل إفساد للجسد الحامل له وإتلاف الموجود . وأما الزنا فهو فساد في صفة الوجود لا في أصله لكن هذا يختص بالزنا ومن هنا يتبين أن اللواط أعظم فسادا من الزنا . فصل وباعتبار القوى الثلاث انقسمت الأمم التي أفضل الجنس الإنساني؛ وهم العرب والروم والفرس . فإن هذه الأمم هي التي ظهرت فيها الفضائل الإنسانية وهم سكان وسط الأرض طولا وعرضا فأما من سواهم كالسودان والترك ونحوهم فتبع . فغلب على العرب القوة العقلية النطقية واشتق اسمها من وصفها فقيل لهم: «عرب" : من الإعراب وهو البيان والإظهار وذلك خاصة القوة المنطقية . وغلب على الروم القوة الشهوية من الطعام والنكاح ونحوهما واشتق اسمها من ذلك فقيل لهم الروم فإنه يقال: رمت هذا أرومه إذا طلبته واشتهيته . وغلب على الفرس القوة الغضبية من الدفع والمنع والاستعلاء والرياسة واشتق اسمها من ذلك فقيل فرس كما يقال فرسه يفرسه إذا قهره وغلبه . ولهذا توجد هذه الصفات الثلاث غالبة على الأمم الثلاث حاضرتها وباديتها؛ ولهذا كانت العرب أفضل الأمم وتليها الفرس لأن القوة الدفعية أرفع وتليها الروم»[1] .

---

(١) مجموع الفتاوى (١٥/ ٤٢٧-٤٣٢).

قال ابن باديس: «قامت الشريعة على المحافظة على حقوق اللَّه، وحقوق عباده، وحق اللَّه على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا؛ فمن دعا مع اللَّه غيره، وأشرك به سواه، فقد أبطل حق اللَّه وأعدم عبادته. ومن قتل النفس فقد تعدى على أول حق جعله اللَّه لعباده بفضله، وهو حق الوجود، وعمل على إبطال وجودهم وفناء نوعهم وزوال عبادتهم، فلهذا قرن قتل النفس بدعاء غير اللَّه معه.

ولما كان الزنا فيه بطلان النسب وفساد الخلق والجسد، وذلك مؤد إلى الاضمحلال والزوال، والشرور والأهوال، قرن بقتل النفس فذلك قتل حقيقي وهذا قتل معنوي»[(١)].

وقال أيضًا: «ما يزال الذكر الحكيم يسمي العبادة دعاء ويعبر به عنها؛ ذلك لأنه عبادة، فعبر عن النوع ببعض أفراده، وإنما اختير هذا الفرد ليعبر به عن النوع؛ لأن الدعاء مخ العبادة وخلاصتها؛ فإن العابد يظهر ذله أمام عز المعبود، وفقره أمام غناه، وعجزه أمام قدرته، وتمام تعظيمه له وخضوعه بين يديه. ويعرب عن ذلك بلسانه بدعائه وندائه وطلبه منه حوائجه. فالدعاء هو المظهر الدال على ذلك كله. ولهذا كان مخ عبادته.

وقد جاء التنبيه على هذا في السنة المطهرة: فعن النعمان بن بشير ﵁ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**الدعاء هو العبادة**»[(٢)] ثم قرأ ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[(٣)] رواه أحمد، والترمذي، وأبو داود رحمهم اللَّه، والنسائي، وابن ماجه..

فتطابق الأثر والنظر على أن الدعاء عبادة، فمن دعا غير اللَّه فقد عبده وإن كان هو لا يسمي دعاءه لغير اللَّه عبادة؛ فالحقيقة لا ترتفع بعدم تسميته لها باسمها وتسميته لها بغير اسمها، والعبرة بتسمية الشرع التي عرفناها من الحديثين المتقدمين لا بتسميته.

---

(١) تفسير ابن باديس (٢٢٠).

(٢) أخرجه: من حديث النعمان بن بشير أحمد (٤/ ٢٦٧)، والترمذي (٤/ ٤٢٦/ ٣٣٧٢) وقال: هذا حديث حسن صحيح، وأبو داود (٢/ ١٦١/ ١٤٧٩)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٥٠/ ١١٤٦٤)، وابن ماجه (٢/ ١٢٥٨/ ٣٨٢٨).

(٣) غافر: الآية (٦٠).

لما ثبت أن الدعاء عبادة فالداعي عابد، والمدعو معبود، والمعبود إله؛ فمن دعا شيئًا فقد اتخذه إلهه؛ لأنه فعل له ما لا يفعل إلا للإله؛ فهو وإن لم يسمه إلها بقوله فقد سماه بفعله؛ ألا ترى إلى أهل الكتاب لما اتبعوا أحبارهم ورهبانهم في التحليل والتحريم وهما لا يكونان إلا من الرب الحق العالم بالمصالح قال تعالى فيهم: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾[1] وإن كانوا لا يسمونهم فحكم عليهم بفعلهم، ولم يعتبر منهم عدم التسمية لهم أربابا بألسنتهم.

فكذلك يقال فيمن دعا شيئًا أنه اتخذه إلها نظرا لفعله وهو دعاؤه ولا عبرة بعدم تسميته له إلها بلسانه»[2].

قال ابن عاشور: «ووَصْفُ النفس ب ﴿ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ بيانٌ لحُرمة النفس التي تقررت من عهد آدم فيما حكى اللَّه من محاورة ولدَيْ آدم بقوله: ﴿قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ﴾[3] الآيات، فتقرر تحريم قتل النفس من أقدم أزمان البشر ولم يجهله أحد من ذرية آدم، فذلك معنى وصف النفس بالموصول في قوله: ﴿حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾. وكان قتل النفس متفشيًا في العرب بالعداوات، والغارات، وبالوأد في كثير من القبائل بناتهم، وبالقتل لفرط الغَيرة»[4].

وجه المطابقة بين الآية والحديث قال الحافظ: «والقتل والزنا في الآية مطلقان، وفي الحديث مقيدان: أما القتل فبالولد خشية الأكل معه، وأما الزنا فبزوجة الجار. والاستدلال لذلك بالآية سائغ لأنها وإن وردت في مطلق الزنا والقتل لكن قتل هذا والزنا بهذه أكبر وأفحش»[5].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة أن الشرك باللَّه مناقض للتوحيد، والقتل مناف للأمن والسلامة وحفظ النفوس، والزنا مناقض للعفة والطهارة

* عن سلمة بن قيس الأشجعي قال: قال رسول اللَّه ﷺ في حجة الوداع: «**ألا إنما هن أربع لا تشركوا باللَّه شيئًا، ولا تقتلوا النفس التي حرم اللَّه إلا بالحق،**

(١) التوبة: الآية (٣١).
(٢) المصدر السابق (٢٢٠-٢٢١).
(٣) المائدة: الآية (٢٧).
(٤) التحرير والتنوير (١٩/ ٧٣).
(٥) فتح الباري (٨/ ٦٣٣).

ولا تزنوا، ولا تسرقوا» قال: فما أنا بأشح عليهن مني إذ سمعتهن من رسول اللَّه ﷺ[(١)].

* عن ابن مسعود قال: «سئل النبي ﷺ أي الذنب عند اللَّه أكبر؟ قال: أن تجعل لله ندا وهو خلقك قلت: ثم أي؟ قال: أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك«قلت: ثم أي؟ قال: أن تزاني حليلة جارك فأنزل اللَّه تصديق ذلك ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾»[(٢)].

★ فوائد الحديثين:

قال البنا: «جاء في بعض الروايات أن الكبائر سبع، وفي بعضها ثلاث، وفي هذه الروايات أربع، قال العلماء: ولا انحصار للكبائر في عدد مذكور. . قلت: فاقتصاره في هذه الرواية على الأربع لكونها من أفحش الكبائر مع كثرة وقوعها، لاسيما فيما كانت عليه الجاهلية»[(٣)].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فالشرك والتعطيل مبنيات على سوء الظن باللَّه، ولهذا قال إمام الحنفاء لخصمائه من المشركين: ﴿أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾﴾[(٤)] وإن كان المعنى: ما ظنكم به أن يعاملكم ويجازيكم به، وقد عبدتم معه غيره، وجعلتم له ندا؟ فأنت تجد تحت هذا التهديد: ما ظننتم بربكم من السوء حتى عبدتم معه غيره؟ فإن المشرك إما أن يظن أن اللَّه سبحانه يحتاج إلى من يدبر أمر العالم معه: من وزير أو ظهير، أو عون. وهذا أعظم النقص لمن هو غني عن كل ما سواه بذاته، وكل ما سواه فقير إليه بذاته، وإما أن يظن أن اللَّه سبحانه إنما تتم قدرته بقدرة الشريك، وإما أن يظن بأنه لا يعلم حتى يعلمه الواسطة، أو لا يرحم حتى يجعله الواسطة يرحم، أو لا يكفي عبده وحده، أن لا يفعل ما يريد

---

(١) أخرجه: أحمد (٤/ ٣٣٩-٣٤٠) واللفظ له، والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٢١-٤٢٢/ ١١٣٧٣)، والحاكم (٤/ ٣٥١) وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي. والطبراني (٧/ ٤٣-٤٤/ ٦٣١٦-٦٣١٧)، وقال الهيثمي في المجمع (١/ ١٠٤): رواه الطبراني في الكبير ورجاله ثقات.

(٢) أخرجه: أحمد (١/ ٣٨١)، والبخاري (٨/ ٦٣١/ ٤٧٦١)، ومسلم (١/ ٩٠-٩١/ ٨٦)، وأبو داود (٢/ ٧٣٢-٧٣٣/ ٢٣١٠)، والترمذي (٥/ ٣١٤-٣١٥/ ٣١٨٣)، والنسائي (٧/ ١٠٣-١٠٤/ ٤٠٢٤).

(٣) بلوغ الأماني (١٩/ ٢١٥).

(٤) الصافات: الآيتان (٨٦ و٨٧).

العبد حتى يشفع عنده الواسطة، كما يشفع المخلوق عند المخلوق، فيحتاج أن يقبل شفاعته لحاجته إلى الشافع وانتفاعه به، وتكثره به من القلة، وتعززه به من الذلة، أو لا يجيب دعاء عباده حتى يسألوا الواسطة أن يرفع تلك الحاجات إليه، كما هو حال ملوك الدنيا، وهذا أصل شرك الخلق، أو يظن أنه لا يسمع دعاءهم لبعده عنهم، حتى يرفع الوسائط إليه ذلك، أو يظن أن للمخلوق عليه حقا. فهو يقسم عليه بحق ذلك المخلوق عليه، ويتوسل إليه بذلك المخلوق، كما يتوسل الناس إلى الأكابر والملوك بمن يعز عليهم ولا يمكنهم مخالفته، وكل هذا تنقص للربوبية، وهضم لحقها، ولو لم يكن فيه إلا نقص محبة اللّٰه وخوفه ورجائه، والتوكل عليه، والإنابة إليه، من قلب المشرك، بسبب قسمته ذلك بينه سبحانه وبين من أشرك به، فينقص ويضعف أو يضمحل ذلك التعظيم والمحبة والخوف والرجاء، بسبب صرف أكثره أو بعضه إلى من عبده من دونه.

فالشرك ملزوم لتنقص الرب سبحانه والتنقص لازم له ضرورة، شاء المشرك أم أبى، ولهذا اقتضى حمده سبحانه وكمال ربوبيته أن لا يغفره، وأن يخلد صاحبه في العذاب الأليم، ويجعله أشقى البرية. فلا تجد مشركا قط إلا وهو متنقص لله سبحانه، وإن زعم أنه يعظمه بذلك. كما أنك لا تجد مبتدعا إلا وهو متنقص للرسول، وإن زعم أنه معظم له بتلك البدعة، فإنه يزعم أنها خير من السنة وأولى بالصواب، أو يزعم أنها هي السنة، إن كان جاهلا مقلدا، وإن كان مستبصرا في بدعته فهو مشاق لله ورسوله.

فالمتنقصون المنقوصون عند اللّٰه ورسوله وأوليائه: هم أهل الشرك والبدعة، ولا سيما من بنى دينه على أن كلام اللّٰه ورسوله أدلة لفظية لا تقبل اليقين، ولا تغني من اليقين والعلم شيئًا. فيا لله للمسلمين، أي شيء فات هذا من التنقص؟

وكذلك من نفى صفات الكمال عن الرب تعالى، خشية ما يتوهمه من التشبيه والتجسيم. فقد جاء من التنقص بضد ما وصف اللّٰه سبحانه به نفسه من الكمال.

والمقصود: أن هاتين الطائفتين هم أهل التنقص في الحقيقة، بل هم أعظم الناس تنقصا، لبس عليهم الشيطان حتى ظنوا أن تنقصهم هو الكمال. ولهذا كانت البدعة قرينة الشرك في كتاب اللّٰه تعالى. قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ

مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾[١] فالإثم والبغي قرينان، والشرك والبدعة قرينان»[٢].

ومن الشرك أن يتوجه الإنسان بالدعاء إلى غير اللَّه، قال في تيسير العزيز الحميد: «واعلم أن الدعاء نوعان: دعاء عبادة، ودعاء مسألة، كما حققه غير واحد، منهم: شيخ الإسلام وابن القيم وغيرهما، ويراد به في القرآن هذا تارة، وهذا تارة، ويراد به مجموعهما وهما متلازمان. فدعاء المسألة هو طلب ما ينفع الداعي من جلب نفع أو كشف ضر، فالمعبود لابد أن يكون مالكا للنفع والضر، ولهذا أنكر اللَّه تعالى على من عبد من دونه ما لا يملك ضرا ولا نفعا، كقوله: ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾﴾[٣] وقوله: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ﴾[٤]، وذلك كثير في القرآن، يبين أن المعبود لابد وأن يكون مالكا للنفع والضر، فهو يدعى للنفع والضر دعاء المسألة، ويدعى خوفا ورجاء دعاء العبادة، فعلم أن النوعين متلازمان، فكل دعاء عبادة مستلزم لدعاء المسألة، وكل دعاء مسألة متضمن لدعاء العبادة.

وبهذا التحقيق يندفع عنك ما يقوله عباد القبور، إذا احتج عليهم بما ذكر اللَّه في القرآن من الأمر بإخلاص الدعاء له. قالوا: المراد به العبادة، فيقولون في مثل قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾[٥]، أي لا تعبدوا مع اللَّه أحدا، فيقال لهم: وإن أريد به دعاء العبادة، فلا ينفي أن يدخل دعاء المسألة في العبادة؛ لأن دعاء العبادة مستلزم لدعاء المسألة، كما أن دعاء المسألة متضمن لدعاء العبادة، هذا لو لم يرد في دعاء المسألة بخصوصه من القرآن إلا الآيات التي ذكر فيها دعاء العبادة، فكيف وقد ذكر اللَّه في القرآن في غير موضع، قال اللَّه تعالى: ﴿ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ﴾[٦]، وقال تعالى: ﴿وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[٧]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ

---

(١) الأعراف: الآية (٣٣).
(٢) إغاثة اللهفان (١/ ١٠٠-١٠٢).
(٣) المائدة: الآية (٧٦).
(٤) يونس: الآية (١٨).
(٥) الجن: الآية (١٨).
(٦) الأعراف: الآية (٥٥).
(٧) الأعراف: الآية (٥٦).

ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾(١)، وقال تعالى: ﴿وَسْـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾(٢)، وقال تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾﴾(٣). وقال تعالى: ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿١٤﴾﴾(٤)، وقال تعالى عن إبراهيم -عليه السلام-: ﴿إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾(٥)، وقال عنه أيضًا: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُواْ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾(٦)، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ * ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾﴾(٧)، وقال تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾﴾(٨)، وقال تعالى: ﴿ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾(٩)، وقال تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ﴾(١٠) وقال تعالى عن زكرياء -عليه السلام-: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾﴾(١١)، وقال تعالى: ﴿وَقِيلَ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ﴾(١٢)، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُواْ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾﴾(١٣)، فكفى بهذه الآيات نجاة وحجة وبرهانا في الفرق بين التوحيد والشرك عموما وفي هذه المسألة خصوصا.

وقال تعالى: ﴿فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ﴾(١٤)، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓاْ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴿٨﴾﴾(١٥)، وقال تعالى:

---

(١) آل عمران: الآية (١٣٥).
(٢) النساء: الآية (٣٢).
(٣) الأنعام: الآيتان (٤٠ و ٤١).
(٤) الرعد: الآية (١٤).
(٥) إبراهيم: الآية (٣٩).
(٦) مريم: الآيتان (٤٨و٤٩).
(٧) النحل: الآيتان (٥٣ و ٥٤).
(٨) الإسراء: الآية (٥٦).
(٩) الإسراء: الآية (٦٧).
(١٠) الإسراء: الآية (١١٠).
(١١) مريم: الآية (٤).
(١٢) القصص: الآية (٦٤).
(١٣) العنكبوت (٦٥).
(١٤) العنكبوت (١٧).
(١٥) الزمر: الآية (٨).

﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾(١)، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾(٢)، وغير ذلك من الآيات..

فثبت بهذا أن الدعاء عبادة من أجل العبادات، بل هو أكرمها على اللَّه كما تقدم، فإن لم يكن الإشراك فيه شركا، فليس في الأرض شرك، وإن كان في الأرض شرك فالشرك في الدعاء أولى أن يكون شركا من الإشراك في غيره من أنواع العبادة، بل الإشراك في الدعاء -هو أكبر شرك المشركين الذين بعث إليهم رسول اللَّه ﷺ، فإنهم يدعون الأنبياء والصالحين والملائكة، ويتقربون إليهم ليشفعوا لهم عند اللَّه، ولهذا يخلصون في الشدائد لله وينسون ما يشركون، حتى جاء أنهم إذا جاءتهم الشدائد في البحر، يلقون أصنامهم في البحر ويقولون: يا اللَّه، يا اللَّه، لعلمهم أن آلهتهم لا تكشف الضر ولا تجيب المضطر، وقال تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾(٣)، فهم كانوا يعلمون أن ذلك لله وحده، وأن آلهتهم ليس عندها شيء من ذلك، ولهذا احتج ﷻ عليهم بذلك أنه هو الإله الحق، وعلى بطلان إلهية ما سواه، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾﴾(٤)، فهذه حال المشركين الأولين. وأما عباد القبور اليوم فلا إله إلا اللَّه، كم ذا بينهم وبين المشركين الأولين من التفاوت العظيم في الشرك، فإنهم إذا أصابتهم الشدائد برا وبحرا أخلصوا لآلهتهم وأوثانهم التي يدعونها من دون اللَّه، وأكثرهم قد اتخذ ذكر إلهه وشيخه ديدنه، وهجيراه إن قام وإن قعد وإن عثر، هذا يقول: يا علي، وهذا يقول: يا عبد القادر، وهذا يقول: يا ابن علوان، وهذا يدعو البدوي، وهذا يدعو العيدروس. وبالجملة ففي كل بلد في الغالب أناس يدعونهم ويسألونهم قضاء الحاجات، وتفريج الكربات. بل بلغ الأمر إلى أن سألوهم مغفرة الذنوب، وترجيح الميزان، ودخول الجنة والنجاة من النار،

---

(١) فاطر: الآيتان (١٣ و ١٤).

(٢) غافر: الآية (٦٠).

(٣) النمل: الآية (٦٢).

(٤) العنكبوت: الآية (٦٥).

والتثبيت عند الموت والسؤال، وغير ذلك من أنواع المطالب التي لا تطلب إلا من اللَّه. وقد يسألون ذلك من أناس يدعون الولاية، وينصبون أنفسهم لهذه الأمور وغيرها من أنواع النفع والضر التي هي خواص الإلهية، ويلفقون لهم من الأكاذيب في ذلك عجائب. منها أنهم يدعون أنهم يخلصون من التجأ إليهم ولاذ بحماهم من النار والعذاب، فيقول أحدهم: إنه يقف عند النار فلا يدع أحدا ممن يرتجيه ويدعوه يدخلها أو نحو هذا، وقد قال تعالى لسيد المرسلين ﷺ وعليهم أجمعين: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ ۝١٩﴾[1]، فإذا كان النبي ﷺ لا يقدر على تخليص أحد من النار، فكيف بغيره، بل كيف بمن يدعي نفسه أنه هو يفعل ذلك؟، ومنها أن أكثرهم يلفق حكايات في أن بعض الناس استغاث بفلان فأغاثه، أو دعا الولي الفلاني فأجابه، أو في كربة ففرج عنه، وعند عباد القبور من ذلك شيء كثير من جنس ما عند عباد الأصنام الذين استولت عليهم الشياطين، ولعبوا بهم لعب الصبيان بالكرة.

ويوجد شيء من ذلك في أشعار المادحين لسيد المرسلين ﷺ، الذين جاوزوا الحد في مدحه ﷺ وعصوه في نهيه من الغلو فيه، وإطرائه كما أطرت النصارى ابن مريم، وصار حظهم منه ﷺ هو مدحه بالأشعار والقصائد، والغلو الزائد، مع عصيانهم له في أمره ونهيه، فتجد هذا النوع من أعصى الخلق له صلوات اللَّه عليه وسلامه. ويقع من ذلك كثير في مدح غيره، فإن عباد القبور لا يقتصرون على بعض من يعتقدون فيه الضر والنفع، بل كل من ظنوا فيه ذلك بالغوا في مدحه، وأنزلوه منزلة الربوبية، وصرفوا له خالص العبودية، حتى إنهم إذا جاءهم رجل وادعى أنه رأى رؤيا مضمونها أنه دفن في المحل الفلاني رجل صالح، بادروا إلى المحل وبنوا عليه قبة وزخرفوها بأنواع الزخارف، وعبدوها بأنواع من العبادات. وأما القبور المعروفة أو المتوهمة، فأفعالهم معها وعندها لا يمكن حصره، فكثير منهم إذا رأوا القباب التي يقصدونها كشفوا الرءوس فنزلوا عن الأكوار، فإذا أتوها طافوا بها واستلموا أركانها، وتمسحوا بها، وصلوا عندها ركعتين، وحلقوا عندها الرءوس ووقفوا باكين متذللين متضرعين سائلين مطالبهم، وهذا هو الحج، وكثير

---

(١) الزمر: الآية (١٩).

منهم يسجدون لها إذا رأوها، ويعفرون وجوههم في التراب تعظيما لها، وخضوعا لمن فيها، فإن كان للإنسان منهم حاجة من شفاء مريض أو غير ذلك، نادى صاحب القبر، يا سيدي فلان جئتك قاصدا من مكان بعيد، لا تخيبني، وكذلك إذا قحط المطر، أو عقرت المرأة عن الولد، أو دهمهم عدو أو جراد، فزعوا إلى صاحب القبر، وبكوا عنده، فإن جرى المقدور بحصول شيء مما يريدون، استبشروا وفرحوا ونسبوا ذلك إلى صاحب القبر، فإن لم يتيسر شيء من ذلك اعتذروا عن صاحب القبر بأنه إما غائب في مكان آخر، أو ساخط لبعض أعمالهم، أو أن اعتقادهم في الولي ضعيف، أو أنهم لم يعطوه نذره، ونحو هذه الخرافات»[1]. وقال أيضًا: «وكثير من عباد القبور ينادون الميت من مسافة شهر وأكثر يسألونه حوائجهم، ويعتقدون أنه يسمع دعاءهم ويستجيب لهم، وتسمع عندهم حال ركوبهم البحر واضطرابه من دعاء الأموات والاستغاثة بهم ما لا يخطر على بال، وكذلك إذا أصابتهم الشدائد، من مرض، أو كسوف، أو ريح شديدة، أو غير ذلك، فالولي في ذلك نصب أعينهم، والاستغاثة به هي ملاذهم، ولو ذهبنا نذكر ما يشبه هذا لطال الكلام. إذا عرفت هذا، فقد تقدم ذكر دعاء المسألة.

وأما دعاء العبادة، فهو عبادة اللَّه تعالى بأنواع العبادات، من الصلاة، والذبح، والنذر، والصيام، والحج وغيرها، خوفا وطمعا، يرجو رحمته، ويخاف عذابه، وإن لم يكن في ذلك صيغة سؤال وطلب، فالعابد الذي يريد الجنة ويهرب من النار، وهو سائل راغب راهب، يرغب في حصول مراده، ويرهب من فواته، وهو سائل لما يطلبه بامتثال الأمر في فعل العبادة، وقد فسر قوله تعالى: ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡ﴾[2]، بهذا وهذا. قيل: اعبدوني وامتثلوا أمري أستجب لكم، وقيل: سلوني أعطكم وعلى هذا القول تدل الأحاديث والآثار.

إذا تبين ذلك، فاعلم أن العلماء أجمعوا على أن من صرف شيئًا من نوعي الدعاء لغير اللَّه فهو مشرك، ولو قال: لا إله إلا اللَّه محمد رسول اللَّه، وصلى وصام، إذ شرط الإسلام مع التلفظ بالشهادتين أن لا يعبد إلا اللَّه، فمن أتى بالشهادتين وعبد غير اللَّه، فما أتى بهما حقيقة وإن تلفظ بهما، كاليهود الذين يقولون: لا إله إلا اللَّه

(١) تيسير العزيز الحميد (ص: ٢١٢-٢١٩).
(٢) غافر: الآية (٦٠).

وهم مشركون، ومجرد التلفظ بهما لا يكفي في الإسلام بدون العمل بمعناهما واعتقاده إجماعا»[١].

وقال ابن القيم: «ومن أنواعه أي الشرك- طلب الحوائج من الموتى، والاستغاثة بهم، والتوجه إليه. وهذا أصل شرك العالم، فإن الميت قد انقطع عمله، وهو لا يملك لنفسه ضرا ولا نفعا، فضلا عمن استغاث به، وسأله قضاء حاجته، أو سأله أن يشفع له إلى اللَّه فيها، وهذا من جهله بالشافع والمشفوع له عنده، كما تقدم. فإنه لا يقدر أن يشفع له عند اللَّه إلا بإذنه. واللَّه لم يجعل استغاثته وسؤاله سببا لإذنه. وإنما السبب لإذنه: كمال التوحيد، فجاء هذا المشرك بسبب يمنع الإذن، وهو بمنزلة من استعان في حاجة بما يمنع حصولها. وهذه حالة كل مشرك، والميت محتاج إلى من يدعو له، ويترحم عليه، ويستغفر له، كما أوصانا النبي ﷺ، إذا زرنا قبور المسلمين (أن نترحم عليهم، ونسأل لهم العافية والمغفرة) فعكس المشركون هذا. وزاروهم زيارة العبادة، واستقضاء الحوائج، والاستغاثة بهم، وجعلوا قبورهم أوثانا تعبد، وسموا قصدها حجا. واتخذوا عندها الوقفة وحلق الرأس. فجمعوا بين الشرك بالمعبود الحق، وتغيير دينه، ومعاداة أهل التوحيد، ونسبة أهله إلى التنقص للأموات. وهم قد تنقصوا الخالق بالشرك، وأولياءه الموحدين له، الذين لم يشركوا به شيئا- بذمهم وعيبهم ومعاداتهم. وتنقصوا من أشركوا به غاية التنقص. إذ ظنوا أنهم راضون منهم بهذا. وأنهم أمروهم به، وأنهم يوالونهم عليه. وهؤلاء هم أعداء الرسل والتوحيد في كل زمان ومكان. وما أكثر المستجيبين لهم، ولله خليله إبراهيم عليه السلام حيث يقول: ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ * رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾[٢].

وما نجا من شرك هذا الشرك الأكبر إلا من جرد توحيده لله، وعادى المشركين في اللَّه، وتقرب بمقتهم إلى اللَّه. واتخذ اللَّه وحده وليه وإلهه ومعبوده، فجرد حبه لله، وخوفه لله، ورجاءه لله، وذله لله، وتوكله على اللَّه، واستعانته باللَّه، والتجاءه إلى اللَّه، واستغاثته باللَّه، وأخلص قصده لله، متبعا لأمره، متطلبا لمرضاته، إذا سأل سأل اللَّه، وإذا استعان استعان باللَّه، وإذا عمل عمل لله، فهو

---

(١) تيسير العزيز الحميد (ص: ٢٢٣-٢٢٤).

(٢) إبراهيم: الآيتان (٣٥و٣٦).

لله وبالله ومع الله.

والشرك أنواع كثيرة، لا يحصيها إلا الله. ولو ذهبنا نذكر أنواعه لاتسع الكلام أعظم اتساع، ولعل الله أن يساعد بوضع كتاب فيه، وفي أقسامه، وأسبابه ومباديه، ومضرته وما يندفع به. فإن العبد إذا نجا منه ومن التعطيل -وهما الداءان اللذان هلكت بهما الأمم- فما بعدهما أيسر منهما، وإن هلك بهما فبسبيل من هلك. ولا آسى على الهالكين»[١].

* عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا يزال المؤمن في فسحة من دينه ما لم يصب دما حراما**»[٢].

⋆ فوائد الحديث:

قال الطيبي: «قوله: «**في فسحة**» أي سعة من دينه ترجى رحمة الله ولطفه، ولو باشر الكبائر سوى القتل فإن قتل ضاقت عليه»[٣].

قال القرطبي: «وقد حرم الله القتل في جميع الشرائع إلا بثلاث خصال: كفر بعد إيمان، أو زنى بعد إحصان، أو قتل نفس ظلما وتعديا»[٤].

وقال شيخ الإسلام: «كما أن قتل النفس لما كان الأصل فيه الحظر إلا ما أباحه الشرع، أو أوجبه، لم يجز أن يؤمر بقتل النفوس»[٥].

قال ابن دقيق العيد: «والحديث أصل كبير في تعظيم قتل النفس سواء كان نفس الإنسان أو غيره؛ لأن نفسه ليست ملكه أيضًا فيتصرف فيها على حسب ما يراه»[٦].

قال الحافظ تعليقا على حديث الذي قتل نفسه: «وفي الحديث تحريم قتل النفس سواء كانت نفس القاتل أم غيره، وقتل الغير يؤخذ تحريمه من هذا الحديث بطريق الأولى، وفيه الوقوف عند حقوق الله ورحمته بخلقه حيث حرم عليهم قتل نفوسهم، وأن الأنفس ملك الله.. وفيه تحريم تعاطي الأسباب المفضية إلى قتل النفس»[٧].

---

(١) مدارج السالكين (١/ ٣٤٦-٣٤٧).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٩٤)، والبخاري (١٢/ ٢٢٩/ ٦٨٦٢) واللفظ له.

(٣) شرح الطيبي (٨/ ٢٤٥٤).

(٤) الجامع لأحكام القرآن (٦/ ٩٦).

(٥) الفتاوى (٢٩/ ١٤٦).

(٦) أحكام الأحكام (٤/ ١٠٦).

(٧) الفتح (٦/ ٦٢٠).

وقال شيخ الإسلام: «وقتل الإنسان نفسه حرام بالكتاب والسنة والإجماع كما ثبت عنه في الصحاح.. وقد كان ﷺ لا يصلي على من قتل نفسه.. فينبغي للمؤمن أن يفرق بين ما نهى اللّه عنه من قصد الإنسان قتل نفسه أو تسببه في ذلك وبين ما شرعه اللّه من بيع المؤمنين أنفسهم وأموالهم له كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾[1] أي يبيع نفسه، والاعتبار في ذلك بما جاء به الكتاب والسنة لا بما يستحسنه المرء ويجده أو يراه من الأمور المخالفة للكتاب والسنة. والحفاظ على النفس من الضروريات الخمس التي جاء الإسلام بحفظها»[2].

قال الإمام الشاطبي: «فقد اتفقت الأمة -بل سائر الملل- على أن الشريعة وضعت للمحافظة على الضروريات الخمس، وهي: الدين، والنفس، والنسل، والمال، والعقل، وعلمها عند الأمة كالضروري..

إلى أن قال: وكذلك النفس نهي عن قتلها وجعل قتلها موجبا للقصاص متوعدا عليه، ومن كبائر الذنوب المقرونة بالشرك كما كانت الصلاة مقرونة بالإيمان ووجب سد رمق المضطر ووجبت الزكاة والمواساة والقيام على من لا يقدر على إصلاح نفسه وأقيمت الحكام والقضاة والملوك لذلك ورتبت الأجناد لقتال من رام قتل النفس ووجب على الخائف سد رمقه بكل حلال وحرام من الميتة والدم ولحم الخنزير إلى سائر ما ينضاف لهذا المعنى علمنا يقينا تحريم قتل النفس»[3].

وقال النفراوي المالكي: «والحكمة من مشروعيتها أي الحدود- الزجر عن إتلاف ما حكى الأصوليون إجماع الملل على وجوب حفظه من العقول والنفوس والأديان والأعراض والأموال والأنساب فإن في القصاص حفظا للدماء، وفي القطع للسرقة الحفظ للأموال، وفي الحد للزنا حفظ الأنساب، وفي الحد للشرب حفظ العقول، وفي الحد للقذف حفظ الأعراض، وفي القتل للردة حفظ الدين»[4].

ومما يدل على تعظيم النفس وتحريم قتلها ما قاله العلماء بأنه لا يجوز قتل النفس ولو كان مكرها.

---

(١) التوبة: الآية (١١١).
(٢) الفتاوى (٢٥/ ٢٨٠-٢٨١).
(٣) الموافقات (١/ ٣١-٣٢) باختصار وتصرف.
(٤) الفواكه الدواني (٢/ ١٧٨).

قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: «أجمع العلماء على أن من أكره على قتل غيره أنه لا يجوز له الإقدام على قتله، ولا انتهاك حرمته، بجلد أو غيره، ويصبر على البلاء الذي نزل به، ولا يحل له أن يفدي نفسه بغيره، ويسأل اللَّه العافية في الدنيا والآخرة»[١].

وقال الحافظ: «واستثني أي من الإكراه بالأعمال- المعظم قتل النفس فلا يسقط القصاص عن القاتل ولو أكره؛ لأنه آثر نفسه على نفس المقتول، ولا يجوز لأحد أن ينجي نفسه من القتل بأن يقتل غيره»[٢].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ في معرض تعدد أوجه الإكراه قال: «والثانية: أن يكره بضرب، أو حبس أو غير ذلك، حتى يفعل فهذا الفعل يتعلق به التكليف فإنه يمكنه أن لا يفعل، وإن قتل ولهذا قال الفقهاء: إذا أكره على قتل المعصوم لم يحل له قتله، وإن قتل فقد اختلفوا في القود. فقال أكثرهم كمالك وأحمد والشافعي في أحد قوليه: يجب القود على المكره والمكره؛ لأنهما جميعًا يشتركان في القتل. وقال أبو حنيفة: يجب على المكره الظالم لأن المكره قد صار كالآلة، وقال زفر: بل على المكره المباشر لأنه مباشر وذاك متسبب، وقال: لو كان كالآلة لما كان آثما، وقد اتفقوا على أنه آثم»[٣].

وقال النووي: «الإكراه على القتل المحرم لا يبيحه؛ بل يأثم بالاتفاق إذا قتل»[٤].

وقال ابن حزم رَحِمَهُ اللَّهُ: «الإكراه على الفعل ينقسم إلى قسمين: أحدهما كل ما تبيحه الضرورة.. والثاني: ما لا تبيحه الضرورة كالقتل، والجراح، والضرب، وإفساد المال، فهذا لا يبيحه الإكراه فمن أكره على شيء من ذلك لزمه القود. والضمان لأنه أتى محرما عليه إتيانه.. فإن قيل فهلا أبحتم قتل النفس للمكره.. بهذا الاستدلال قلنا لأن النص لم يبح له قط أن يدفع عن نفسه ظلما بظلم غيره ممن لم يعتد عليه، وإنما الواجب عليه دفع الظالم أو قتاله لقوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾[٥]»[٦].

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٠/ ١٢٠).
(٢) الفتح (١٢/ ٣١٥).
(٣) مجموع الفتاوى (٨/ ٥٠٣).
(٤) روضة الطالبين (٩/ ١٤٢).
(٥) المائدة: الآية (٢).
(٦) المحلى (٨/ ٣٢٩-٣٣٠).

* عن عبد اللَّه بن مسعود قال: قال النبي ﷺ: **«أول ما يقضى بين الناس في الدماء»**(١).

⋆ فوائد الحديث:

قال الحافظ: «وفي الحديث عظم أمر الدم فإن البداءة إنما تكون بالأهم والذنب يعظم بحسب عظم المفسدة وتفويت المصلحة وإعدام البنية الإنسانية غاية في ذلك. والمعنى أول القضايا القضاء في الدماء ويحتمل أن يكون التقدير أول ما يقضى فيه الأمر الكائن في الدماء ولا يعارض هذا حديث أبي هريرة أن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة صلاته(٢). لأن الأول محمول على ما يتعلق بمعاملات الخلق والثاني فيما يتعلق بعبادة الخالق»(٣).

فإن قيل: فأيهما يقدم محاسبة العباد على حق اللَّه تعالى، أو محاسبتهم على حقوقهم؟ فالجواب: أن هذا أمر توقيفي، وظواهر الأحاديث دالة على أن الذي يقع أولا المحاسبة على حقوق اللَّه تعالى قبل حقوق العباد»(٤).

* عن المقداد بن عمرو الكندي -حليف بني زهرة- حدثه وكان شهد بدرا مع النبي ﷺ أنه قال: يا رسول اللَّه إن لقيت كافرا، فاقتتلنا، فضرب يدي بالسيف، فقطعها ثم لاذ بشجرة وقال: أسلمت لله، آقتله بعد أن قالها؟ قال رسول اللَّه ﷺ: **«لا تقتله»** قال: يا رسول اللَّه، فإنه طرح إحدى يدي ثم قال ذلك بعد ما قطعها، آقتله؟ قال: **«لا، فإن قتلته فإنه بمنزلتك قبل أن تقتله وأنت بمنزلته قبل أن يقول كلمته التي قال»**(٥).

---

(١) أخرجه: أحمد (١/ ٣٨٨)، والبخاري (١٢/ ٢٣٠/ ٦٨٦٤) واللفظ له، ومسلم (٣/ ١٣٠٤/ ١٦٧٨)، والترمذي (٤/ ١٠/ ١٣٩٦) وقال: «حديث حسن صحيح»، والنسائي (٧/ ٩٦/ ٤٠٠٤)، وابن ماجه (٢/ ٨٧٣/ ٢٦١٥).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٩٠)، وأبو داود (١/ ٥٤٠-٥٤١/ ٨٦٤)، والترمذي (٢/ ٢٦٩-٢٧٠/ ٤١٣)، والنسائي (١/ ٢٥١/ ٤٦٤)، وابن ماجه (١/ ٤٥٨/ ١٤٢٥)، والحاكم (١/ ٢٦٢) وصحح إسناده ووافقه الذهبي.

(٣) الفتح (١١/ ٤٨٣) بتصرف.

(٤) عون المعبود (٣/ ١١٦).

(٥) أخرجه: البخاري (١٢/ ٢٣٠/ ٦٨٦٥)، ومسلم (١/ ٩٥/ ٩٥)، وأبو داود (٣/ ١٠٣-١٠٤/ ٢٦٤٤)، والنسائي في الكبرى (٥/ ١٧٤-١٧٥/ ٨٥٩١).

★ **غريب الحديث:**

لاذ بشجرة: أي: التجأ إليها.

أسلمت لله: أي: دخلت في الإسلام.

★ **فوائد الحديث:**

قال الخطابي: «معنى هذا أن هذا الكافر مباح الدم بحكم الدين قبل أن يقول كلمة التوحيد، فإذا قالها حقن دمه فصار محظور الدم بمنزلة المسلم»[(١)].

قال الحافظ: «فإن قتله المسلم بعد ذلك صار دمه مباحا بحق القصاص كالكافر بحق الدين، وليس المراد إلحاقه في الكفر كما تقوله الخوارج من تكفير المسلم بالكبيرة، وحاصله اتحاد المنزلتين مع اختلاف المأخذ، فالأول إنه مثلك في صون الدم، والثاني إنك مثله في الهدر. ونقل ابن التين عن الداودي قال: معناه أنك صرت قاتلا كما كان هو قاتلا، قال: وهذا من المعاريض؛ لأنه أراد الإغلاظ بظاهر اللفظ دون باطنه، وإنما أراد أن كلا منهما قاتل، ولم يرد أنه صار كافرا بقتله إياه. ونقل ابن بطال عن المهلب معناه فقال: أي إنك بقصدك لقتله عمدا آثم كما كان هو بقصده لقتلك آثما، فأنتما في حالة واحدة من العصيان. وقيل: المعنى أنت عنده حلال الدم قبل أن تسلم وكنت مثله في الكفر كما كان عندك حلال الدم قبل ذلك، وقيل: معناه أنه مغفور له بشهادة التوحيد كما أنك مغفور لك بشهود بدر. ونقل ابن بطال عن ابن القصار أن معنى قوله: (وأنت بمنزلته) أي في إباحة الدم، وإنما قصد بذلك ردعه وزجره عن قتله لا أن الكافر إذا قال أسلمت حرم قتله، وتعقب بأن الكافر مباح الدم والمسلم الذي قتله إن لم يتعمد قتله ولم يكن عرف أنه مسلم وإنما قتله متأولا فلا يكون بمنزلته في إباحته. وقال القاضي عياض: معناه أنه مثله في مخالفة الحق وارتكاب الإثم وإن اختلف النوع في كون أحدهما كفرا والآخر معصية. وقيل: المراد إن قتلته مستحلا لقتله فأنت مثله في الكفر، وقيل: المراد بالمثلية أنه مغفور له بشهادة التوحيد وأنت مغفور لك بشهود بدر، ونقل ابن التين أيضًا عن الداودي أنه أوله على وجه آخر فقال: يفسره حديث ابن عباس الذي في آخر الباب ومعناه أنه يجوز أن يكون اللائذ بالشجرة القاطع لليد مؤمنا يكتم

(١) أعلام الحديث (٣/ ١٧١٣).

إيمانه مع قوم كفار غلبوه على نفسه، فإن قتلته فأنت شاك في قتلك إياه أنى ينزله اللّٰه من العمد والخطأ كما كان هو مشكوكا في إيمانه لجواز أن يكون يكتم إيمانه، ثم قال: فإن قيل كيف قطع يد المؤمن وهو ممن يكتم إيمانه؟ فالجواب أنه دفع عن نفسه من يريد قتله فجاز له ذلك كما جاز للمؤمن أن يدفع عن نفسه من يريد قتله ولو أفضى إلى قتل من يريد قتله فإن دمه يكون هدرا، فلذلك لم يقد النبي ﷺ من يد المقداد لأنه قطعها متأولا. قلت وعليه مؤاخذات: منها الجمع بين القصتين بهذا التكلف مع ظهور اختلافهما، وإنما الذي ينطبق على حديث ابن عباس قصة أسامة.. حيث حمل على رجل أراد قتله فقال: إني مسلم فقتله ظنا أنه قال ذلك متعوذا من القتل، وكان الرجل في الأصل مسلما، فالذي وقع للمقداد نحو ذلك كما سأبينه وأما قصة قطع اليد فإنما قالها مستفتيا على تقدير أن لو وقعت كما تقدم تقريره، وإنما تضمن الجواب النهي عن قتله لكونه أظهر الإسلام فحقن دمه وصار ما وقع منه قبل الإسلام عفوا. ومنها أن في جوابه عن الاستشكال نظرا لأنه كان يمكنه أن يدفع بالقول بأن يقول له عند إرادة المسلم قتله إني مسلم فيكف عنه، وليس له أن يبادر لقطع يده مع القدرة على القول المذكور ونحوه، واستدل به على صحة إسلام من قال أسلمت لله ولم يزد على ذلك، وفيه نظر لأن ذلك كاف في الكف، على أنه ورد في بعض طرقه أنه قال لا إله إلا اللّٰه، وهو رواية معمر عن الزهري عند مسلم في هذا الحديث»[1].

* عن القاسم بن أبي بزة أنه سأل سعيد بن جبير: «هل لمن قتل مؤمنا متعمدا من توبة؟ فقرأت عليه ﴿وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ فقال سعيد: قرأتها على ابن عباس كما قرأتها علي فقال: هذه مكية نسختها آية مدنية التي في سورة النساء»[2].

★ **فوائد الحديث:**

تقدم شرحه عند قوله تعالى من سورة النساء: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا

(١) الفتح (١٢/ ٢٣٣-٢٣٤).

(٢) أخرجه: البخاري (٨/ ٦٣١/ ٤٧٦٢)، ومسلم (٤/ ٢٣١٧-٢٣١٨/ ٣٠٢٣)، وأبو داود (٤/ ٤٦٥-٤٦٦/ ٤٢٧٣)، والترمذي (٥/ ٢٢٤/ ٣٠٢٩).

مُتَعَمِّدًا﴾[١].

* عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**كان في بني إسرائيل رجل قتل تسعة وتسعين إنسانا ثم خرج يسأل فأتى راهبا فسأله فقال له: هل من توبة؟ قال: لا، فقتله فجعل يسأل، فقال له رجل ائت قرية كذا وكذا، فأدركه الموت فناء بصدره نحوها، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة و ملائكة العذاب، فأوحى اللّه إلى هذه أن تقربي، وأوحى اللّه إلى هذه أن تباعدي، وقال: قيسوا ما بينهما، فوجد إلى هذه أقرب بشبر، فغفر له**»[٢].

★ **فوائد الحديث:**

قال الحافظ: «في الحديث مشروعية التوبة من جميع الكبائر حتى من قتل الأنفس، ويحمل على أن اللّه تعالى إذا قبل توبة القاتل تكفل برضا خصمه»[٣].

قال شيخ الإسلام: «ولهذا كان الوعيد المطلق في الكتاب والسنة مشروطا بثبوت شروط وانتفاء موانع، فلا يلحق التائب من الذنب باتفاق المسلمين، ولا يلحق من له حسنات تمحو سيئاته، ولا يلحق المشفوع له، والمغفور له، فإن الذنوب تزول عقوبتها التي هي جهنم بأسباب التوبة والحسنات الماحية والمصائب المكفرة لكنها من عقوبات الدنيا- وكذلك ما يحصل في البرزخ من الشدة، وكذلك ما يحصل في عرصات القيامة، وتزول أيضًا بدعاء المؤمنين: كالصلاة عليه وشفاعة الشفيع المطاع، كمن يشفع فيه سيد الشفعاء محمد ﷺ تسليما.

وحينئذ فأي ذنب تاب منه ارتفع موجبه، وما لم يتب منه فله حكم الذنوب التي لم يتب منها، فالشدة إذا حصلت بذنوب وتاب من بعضها خفف منه بقدر ما تاب منه، بخلاف ما لم يتب منه؛ بخلاف صاحب التوبة العامة.

والناس في غالب أحوالهم لا يتوبون توبة عامة مع حاجتهم إلى ذلك، فإن التوبة واجبة على كل عبد في كل حال؛ لأنه دائما يظهر له ما فرط فيه من ترك مأمور أو ما

---

(١) النساء: الآية (٩٣).

(٢) أخرجه: أحمد (٣/ ٢٠-٧٢)، والبخاري (٦/ ٦٣٥/ ٣٤٧٠)، ومسلم (٤/ ٢١١٨/ ٢٧٦٦)، وابن ماجه (٢/ ٨٧٥/ ٢٦٢٢).

(٣) فتح الباري (٦/ ٦٤١).

اعتدى فيه من فعل محظور، فعليه أن يتوب دائما»[١].

قال النووي: «هذا مذهب أهل العلم وإجماعهم على صحة توبة القاتل عمدا ولم يخالف أحد منهم إلا ابن عباس، وأما ما نقل عن بعض السلف من خلاف هذا فمراد قائله الزجر عن سبب التوبة لا أنه يعتقد بطلان توبته، وهذا الحديث ظاهر فيه وهو إن كان شرعا لمن قبلنا، وفي الاحتجاج به خلاف فليس موضع الخلاف وإنما موضعه إذا لم يرد شرعنا بموافقته وتقريره فإن ورد كان شرعا لنا بلا شك، وهذا قد ورد شرعنا به وهو قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ﴾[٢] إلى قوله: ﴿إِلَّا مَن تَابَ﴾[٣] الآية»[٤].

قال ابن كثير: «وفي ذلك دلالة على صحة توبة القاتل ولا تعارض بين هذه وبين آية النساء ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾﴾[٥] فإن هذه وإن كانت مدنية إلا أنها مطلقة فتحمل على من لم يتب لأن هذه مقيدة بالتوبة ثم قد قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾[٦] وقد ثبتت السنة الصحيحة عن رسول اللَّه ﷺ بصحة توبة القاتل كما ذكر مقررا من قصة الذي قتل مائة رجل ثم تاب وقبل منه، وغير ذلك من الأحاديث»[٧].

قال شيخ الإسلام: «قاتل النفس بغير حق عليه حقان: حق لله بكونه تعدى حدود اللَّه وانتهك حرماته، فهذا الذنب يغفره اللَّه بالتوبة الصحيحة، كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾[٨] أي لمن تاب. وقال: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِى حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾﴾[٩]..

(١) الفتاوى (١٠/ ٣٣٠).
(٢) الفرقان: الآية (٦٨).
(٣) الفرقان: الآية (٧٠).
(٤) شرح مسلم (١٧/ ٦٨-٦٩).
(٥) النساء: الآية (٩٣).
(٦) النساء: الآية (٤٨).
(٧) تفسير القرآن العظيم (٦/ ١٣٦).
(٨) الزمر: الآية (٥٣).
(٩) الفرقان: الآيات (٦٨-٧٠).

والحق الثاني: حق الآدميين، فعلى القاتل أن يعطي أولياء المقتول حقهم، فيمكنهم من القصاص؛ أو يصالحهم بمال، أو يطلب منهم العفو، فإذا فعل فقد أدى ما عليه من حقهم، وذلك من تمام التوبة.

وهل يبقى للمقتول عليه حق يطالبه به يوم القيامة؟ على قولين للعلماء في مذهب أحمد وغيره؛ ومن قال يبقى له؛ فإنه يستكثر القاتل من الحسنات حتى يعطي المقتول من حسناته بقدر حقه، ويبقى له ما يبقى، فإذا استكثر القاتل التائب من الحسنات رجيت له رحمة الله؛ وأنجاه من النار، ولا يقنط من رحمة الله إلا القوم الفاسقون.

وسئل رحمه الله: عن رجلين اختلفا في قتل النفس عمدا، فقال أحدهما: إن هذا ذنب لا يغفر، وقال آخر: إذا تاب تاب الله عليه؟

فأجاب: أما حق المظلوم فإنه لا يسقط باستغفار الظالم القاتل؛ لا في قتل النفس؛ ولا في سائر مظالم العباد؛ فإن حق المظلوم لا يسقط بمجرد الاستغفار؛ لكن تقبل توبة القاتل وغيره من الظلمة؛ فيغفر الله له بالتوبة الحق الذي له. وأما حقوق المظلومين فإن الله يوفيهم إياها: إمّا من حسنات الظالم، وإمّا من عنده، والله أعلم»[1].

وقال ابن القيم: «وقد جعل الله سبحانه جزاء قتل النفس المؤمنة عمدا الخلود في النار، وغضب الجبار، ولعنته وإعداد العذاب العظيم له. هذا موجب قتل المؤمن عمدا ما لم يمنع منه مانع.

ولا خلاف أن الإسلام الواقع بعد القتل طوعا واختيارا مانع من نفوذ ذلك الجزاء.

وهل تمنع توبة المسلم منه بعد وقوعه؟ فيه قولان للسلف والخلف، وهما روايتان عن الإمام أحمد.

والذين قالوا: لا تمنع التوبة من نفوذه؛ رأوا أنه حق لآدمي لم يستوفه في دار الدنيا، وخرج منها بظلامته، فلابد أن يستوفى له في دار العدل.

قالوا: وما استوفاه الوارث فإنما استوفى محض حقه الذي خيره الله بين

---

(١) الفتاوى (٣٤/ ١٧١-١٧٣).

استيفائه والعفو عنه، وما ينفع المقتول من استيفاء وارثه؟ وأي استدراك لظلامته حصل له باستيفاء وارثه؟

وهذا هو أصح القولين في المسألة: أن حق المقتول لا يسقط باستيفاء الوارث، وهما وجهان لأصحاب أحمد والشافعي وغيرهم.

ورأت طائفة أنه يسقط بالتوبة واستيفاء الوارث، فإن التوبة تهدم ما قبلها، والذنب الذي قد جناه قد أقيم عليه حده. قالوا: وإذا كانت التوبة تمحو أثر الكفر والسحر، وهما أعظم إثما من القتل؛ فكيف تقصر عن محو أثر القتل؟ وقد قبل اللَّه توبة الكفار الذين قتلوا أولياءه، وجعلهم من خيار عباده، ودعا الذين أحرقوا أولياءه وفتنوهم عن دينهم إلى التوبة وقال تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾[1]. فهذه في حق التائب، وهي تتناول الكفر فما دونه.

قالوا: وكيف يتوب العبد من الذنب ويعاقب عليه بعد التوبة؟ هذا معلوم انتفاؤه في شرع اللَّه وجزائه.

قالوا: وتوبة هذا المذنب تسليم نفسه، ولا يمكن تسليمها إلى المقتول، فأقام الشارع وليه مقامه، وجعل تسليم النفس إليه وتسليمها إلى المقتول بمنزلة تسليم المال الذي عليه لوارثه؛ فإنه يقوم مقام تسليمه للموروث.

والتحقيق في المسألة: أن القتل يتعلق به ثلاثة حقوق: حق لله، وحق للمقتول، وحق للولي، فإذا سلم القاتل نفسه طوعا واختيارا إلى الولي ندما على ما فعل، وخوفا من اللَّه، وتوبة نصوحا؛ سقط حق اللَّه بالتوبة وحق الولي بالاستيفاء أو الصلح أو العفو، وبقي حق المقتول يعوضه اللَّه عنه يوم القيامة من عبده التائب المحسن، ويصلح بينه وبينه، فلا يبطل حق هذا، ولا تبطل توبة هذا»[2].

قال النووي: «إن من قتل نفسه أو ارتكب معصية غيرها ومات من غير توبة فليس بكافر ولا يقطع له بالنار بل هو في حكم المشيئة»[3].

---

(١) الزمر: الآية (٥٣).

(٢) الداء والدواء (٢٢٢-٢٢٣).

(٣) شرح مسلم (٢/ ١١٣).

* عن ابن عباس قال: قال النبي ﷺ للمقداد: «**إذا كان رجل ممن يخفي إيمانه مع قوم كفار فأظهر إيمانه فقتلته فكذلك كنت أنت تخفي إيمانك بمكة من قبل**»(١).

⋆ فوائد الحديث:

وفي الحديث قال الحافظ: «أن من أظهر شيئًا من علامات الإسلام لم يحل دمه حتى يختبر أمره.. ولا يلزم من الذي ذكرته الحكم بإسلام من اقتصر على ذلك وإجراء أحكام المسلمين عليه بل لابد من التلفظ بالشهادتين على تفاصيل في ذلك بين أهل الكتاب وغيرهم»(٢).

قال العيني: «ومعلوم أن قتله كان خطأ لا عمدا لأن قاتله لم يصدقه في قوله أنا مؤمن وقال أبو بكر الرازي الحنفي رَحِمَهُ اللَّهُ في هذه الآية(٣) حكم اللَّه تعالى بصحة إسلام من أظهر الإسلام وأمرنا بإجرائه على أحكام المسلمين وإن كان في الغيب بخلافه.. واقتضى ذلك أن من قال: لا إله إلا اللَّه محمد رسول اللَّه أو قال: أنا مسلم يحكم له بالإسلام(٤).

* عن المقداد بن الأسود قال: قال رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وآله وسلم لأصحابه: «**ما تقولون في الزنا؟**» قالوا: حرمه اللَّه ورسوله فهو حرام إلى يوم القيامة قال: فقال رسول اللَّه لأصحابه: «**لأن يزني الرجل بعشر نسوة أيسر عليه من أن يزني بامرأة جاره**» قال: فقال: «**ما تقولون في السرقة؟**» قالوا: حرمها اللَّه ورسوله فهي حرام، قال: «**لأن يسرق الرجل من عشرة أبيات أيسر عليه من أن يسرق من جاره**»(٥).

⋆ فوائد الحديث:

قوله في حديث ابن مسعود: «**أن تزاني بحليلة جارك**» قال النووي: «ومعنى

---

(١) البخاري (١٢/ ٢٣٠/ ٦٨٦٦). (٢) الفتح (٨/ ٣٢٨).

(٣) والمقصود بقوله في هذه: الآية قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾.

(٤) عمدة القاري (١٢/ ٥٤٨).

(٥) أخرجه: أحمد (٦/ ٨) واللفظ له، والبخاري في الأدب المفرد (رقم: ١٠٣)، والطبراني في الكبير (٢٠/ ٢٥٦-٢٥٧/ ٦٠٥)، والأوسط (٧/ ١٧٧-١٧٨/ ٦٣٢٩)، وذكره الهيثمي في المجمع (٨/ ١٦٨) وقال: «رواه أحمد والطبراني في الكبير والأوسط ورجاله ثقات»، قال المنذري في الترغيب: «رواه أحمد ورواته ثقات».

تزاني: أي تزني بها برضاها وذلك يتضمن الزنا وإفسادها على زوجها واستمالة قلبها إلى الزاني وذلك أفحش وهو مع امرأة الجار أشد قبحا وأعظم جرما لأن الجار يتوقع من جاره الذب عنه وعن حريمه ويأمن بوائقه ويطمئن إليه وقد أمر بإكرامه وبالإحسان إليه فإذا قابل هذا كله بالزنا بامرأته وإفسادها عليه مع تمكنه منها على وجه لا يتمكن غيره منه؛ كان في غاية القبح»[١].

قال القرطبي: «والزنا من الكبائر ولا خلاف فيه وفي قبحه لا سيما بحليلة الجار»[٢].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «فالفاحشة حرام لحقّ اللَّه ولو رضي الزوج وظلم الزوج في امرأته حرام لحقه بحيث لو سقط حق اللَّه بالتوبة منه فحق هذا في امرأته لا يسقط كما لو ظلمه وأخذ ماله وتاب من حق اللَّه لم يسقط حق المظلوم بذلك ولهذا جاز للرجل إذا زنت امرأته أن يقذفها ويلاعنها ويسعى في عقوبتها بالرجم بخلاف الأجنبي فإنه لا يجوز له قذفها ولا يلاعن بل يحد إذا لم يأت بأربعة شهداء فإفساد المرأة على زوجها من أعظم الظلم لزوجها وهو عنده أعظم من أخذ ماله»[٣].

قال ابن القيم: «وهذا كله ذكرناه مقدمة بين يدي تحريم الفواحش ووجوب حفظ الفرج، وقد قال رسول اللَّه ﷺ: **«أكثر ما يدخل الناس النار الفم والفرج»**[٤]. وفي الصحيحين عنه ﷺ: **«لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة»**[٥].

وهذا الحديث في اقتران الزنى بالكفر وقتل النفس نظير الآية التي في الفرقان ونظير حديث ابن مسعود.

وبدأ بالأكثر وقوعا والذي يليه فالزنى أكثر وقوعا من قتل النفس، وقتل النفس أكثر وقوعا من الردة، وأيضًا فإنه انتقال من الأكبر إلى ما هو أكبر منه، ومفسدة

---

(١) شرح مسلم (٢/ ٧٠). (٢) الجامع لأحكام القرآن (١٠/ ١٦٥).

(٣) الفتاوى (١٥/ ١٢١-١٢٢).

(٤) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٩١-٢٩٢)، والترمذي (٤/ ٣١٩/ ٢٠٠٤) وقال: صحيح غريب، وابن ماجه (٢/ ١٤١٨/ ٤٢٤٦)، والحاكم (٤/ ٣٢٤)، وابن حبان (٢/ ٢٢٤/ ٤٧٦).

(٥) أخرجه: أحمد (١/ ٣٨٢)، والبخاري (١٢/ ٢٤٧/ ٦٨٧٨)، ومسلم (٣/ ١٣٠٢-١٣٠٣/ ١٦٧٦)، والنسائي (٧/ ١٠٤-١٠٥/ ٤٠٢٧)، وابن ماجه (٢/ ٨٤٧/ ٢٥٣٤).

الزنى مناقضة لمصالح العالم؛ فإن المرأة إذا زنت أدخلت العار على أهلها وزوجها وأقاربها، ونكست رؤوسهم بين الناس إن حملت من الزنى؛ فإن قتلت ولدها جمعت بين الزنى والقتل، وإن حملته على الزوج أدخلت على أهله وأهلها أجنبيا ليس منهم، فورثهم وليس منهم، ورآهم وخلا بهم وانتسب إليهم وليس منهم، إلى غير ذلك من مفاسد زناها، وأما زنى الرجل فإنه يوجب اختلاط الأنساب أيضًا، وإفساد المرأة المصونة، وتعريضها للتلف والفساد، ففي هذه الكبيرة خراب الدنيا والدين، وإن عمرت القبور في البرزخ والنار في الآخرة؛ فكم في الزنى من استحلال حرمات، وفوات حقوق، ووقوع مظالم؟

ومن خاصيته: أنه يوجب الفقر، ويقصر العمر، ويكسو صاحبه سواد الوجه، ويورث المقت بين الناس.

ومن خاصيته أيضًا: أنه يشتت القلب ويمرضه إن لم يمته، ويجلب الهم والحزن والخوف؛ ويباعد صاحبه من الملك ويقربه من الشيطان، فليس بعد مفسدة القتل أعظم من مفسدته، ولهذا شرع فيه القتل على أشنع الوجوه وأفحشها وأصعبها، ولو بلغ العبد أن امرأته أو حرمته قتلت؛ كان أسهل عليه من أن يبلغه أنها زنت.. وخص سبحانه حد الزنى من بين الحدود بثلاث خصائص:

أحدها: القتل فيه بأشنع القتلات، وحيث خففه جمع فيه بين العقوبة على البدن بالجلد وعلى القلب بتغريبه عن وطنه سنة.

الثاني: أنه نهى عباده أن تأخذهم بالزناة رأفة في دينه، بحيث تمنعهم من إقامة الحد عليهم؛ فإنه سبحانه من رأفته ورحمته بهم شرع لهم هذه العقوبة فهو أرحم منكم بهم، ولم تمنعه رحمته من أمره بهذه العقوبة، فلا يمنعكم أنتم ما يقوم بقلوبكم من الرأفة من إقامة أمره.

وهذا وإن كان عاما في سائر الحدود- ولكن ذكر في حد الزنى خاصة لشدة الحاجة إلى ذكره، فإن الناس لا يجدون في قلوبهم من الغلظة والقسوة على الزاني ما يجدونه على السارق والقاذف وشارب الخمر؛ فقلوبهم ترحم الزاني أكثر مما ترحم غيره من أرباب الجرائم، والواقع شاهد بذلك، فنهوا أن تأخذهم هذه الرأفة وتحملهم على تعطيل حد اللَّه.

وسبب هذه الرحمة: أن هذا ذنب يقع من الأشراف والأوساط والأرذال، وفي النفوس أقوى الدواعي إليه، والمشارك فيه كثير، وأكثر أسبابه العشق، والقلوب مجبولة على رحمة العاشق، وكثير من الناس يعد مساعدته طاعة وقربة، وإن كانت الصورة المعشوقة محرمة عليه، ولا تستنكر هذا الأمر؛ فإنه مستقر عند من شاء الله من أشباه الأنعام، ولقد حكي لنا من ذلك شيء كثير، أكثره عن ناقصي العقول والأديان؛ كالخدام والنساء.

وأيضًا فإن هذا ذنب غالبا ما يقع مع التراضي من الجانبين، فلا يقع فيه من العدوان والظلم والاغتصاب ما تنفر النفوس منه، وفيه شهوة غالبة له فيصور ذلك لنفسه فتقوم بها رحمة تمنع إقامة الحد.

وهذا كله من ضعف الإيمان، وكمال الإيمان أن تقوم به قوة يقيم بها أمر الله؛ ورحمة يرحم بها المحدود، فيكون موافقا لربه تعالى في أمره ورحمته.

الثالث: أنه سبحانه أمر أن يكون حدهما بمشهد من المؤمنين، فلا يكون في خلوة بحيث لا يراهما أحد، وذلك أبلغ في مصلحة الحد وحكمة الزجر»[(١)].

قال القرطبي مبينا مفاسد الزنا: «وينشأ عنه استخدام ولد الغير واتخاذه ابنا وغير ذلك من الميراث وفساد الأنساب باختلاط المياه»[(٢)].

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «إن التوحيد الخالص الذي لا يشوبه شرك لا يبقى معه ذنب. فإنه يتضمن من محبة الله وإجلاله، وتعظيمه، وخوفه، ورجائه وحده، ما يوجب غسل الذنوب، ولو كانت قراب الأرض، فالنجاسة عارضة، والدافع لها قوي، فلا تثبت معه، ولكن نجاسة الزنا واللواطة أغلظ من غيرها من النجاسات، من جهة أنها تفسد القلب، وتضعف توحيده جدًّا، ولهذا أحظى الناس بهذه النجاسة أكثرهم شركا؛ فكلما كان الشرك في العبد أغلب كانت هذه النجاسة والخبائث فيه أكثر، وكلما كان أعظم إخلاصا كان منها أبعد، كما قال تعالى عن يوسف الصديق: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾[(٣)]

---

(١) الداء والدواء (ص: ٢٥٠-٢٥٤).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (١٠/ ١٦٥).

(٣) يوسف: الآية (٢٤).

فإن عشق الصور المحرمة نوع تعبد لها، بل هو من أعلى أنواع التعبد، ولا سيما إذا استولى على القلب وتمكن منه صار تتيما، والتتيم: التعبد، فيصير العاشق عابدا لمعشوقه، وكثيرا ما يغلب حبه وذكره والشوق إليه، والسعي في مرضاته، وإيثار محابه على حب اللَّه وذكره والسعي في مرضاته، بل كثيرًا ما يذهب ذلك من قلب العاشق بالكلية، ويصير متعلقا بمعشوقه من الصور، كما هو مشاهد، فيصير المعشوق هو إلهه من دون اللَّه، يقدم رضاه وحبه على رضى اللَّه وحبه، ويتقرب إليه ما لا يتقرب إلى اللَّه، وينفق في مرضاته ما لا ينفقه في مرضاة اللَّه، ويتجنب من سخطه ما لا يتجنبه من سخط اللَّه تعالى، فيصير آثر عنده من ربه: حبا، وخضوعا، وذلا، وسمعا، وطاعة.

ولهذا كان العشق والشرك متلازمين، وإنما حكى اللَّه سبحانه العشق عن المشركين من قوم لوط، وعن امرأة العزيز، وكانت إذ ذاك مشركة، فكلما قوي شرك العبد بلي بعشق الصور، وكلما قوي توحيده صرف ذلك عنه. والزنا واللواطة كمال لذتها إنما يكون مع العشق ولا يخلو أصحابهما منه، وإنما لتنقله من محل إلى محل لا يبقى عشقه مقصورا على محل واحد؛ بل يقسم على سهام كثيرة، لكل محبوب نصيب من تألهه وتعبده.

فليس في الذنوب أفسد للقلب والدين من هاتين الفاحشتين، ولهما خاصية في تبعيد القلب من اللَّه، فإنهما من أعظم الخبائث، فإذا انصبغ القلب بهما بعد ممن هو طيب، لا يصعد إليه إلا طيب، وكلما ازداد خبثا ازداد من اللَّه بعدا، . .

ولما كانت هذه حال الزنا كان قريبا للشرك في كتاب اللَّه تعالى. قال اللَّه تعالى: ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٣﴾[1]»[2].

وقال: «ولما كانت مفسدة الزنى من أعظم المفاسد -وهي منافية لمصلحة نظام العالم في حفظ الأنساب، وحماية الفروج، وصيانة الحرمات، وتوقي ما يوقع أعظم العداوة والبغضاء بين الناس، من إفساد كل منهم امرأة صاحبه وابنته وأخته وأمه،

---

(١) النور: الآية (٣).

(٢) إغاثة اللهفان (١/ ١٠٥-١٠٧).

وفي ذلك خراب العالم- كانت تلي مفسدة القتل في الكبر، ولهذا قرنها اللَّه سبحانه بها في كتابه، ورسوله ﷺ في سنته كما تقدم.

قال الإمام أحمد: لا أعلم بعد قتل النفس شيئًا أعظم من الزنى.

وقد أكد اللَّه سبحانه حرمته بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ﴾[1].

فقرن الزنى بالشرك وقتل النفس، وجعل جزاء ذلك الخلود في العذاب المضاعف، ما لم يرفع العبد موجب ذلك بالتوبة والإيمان والعمل الصالح، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾﴾[2].

فأخبر عن فحشه في نفسه، وهو القبيح الذي قد تناهى قبحه حتى استقر فحشه في العقول حتى عند كثير من الحيوان، كما ذكر البخاري في (صحيحه) عن عمرو ابن ميمون الأودي قال: «**رأيت في الجاهلية قردا زنى بقردة، فاجتمع القرود عليهما فرجموهما حتى ماتا**»[3].

ثم أخبر جل جلاله عن غايته أنه ساء سبيلا، فإنه سبيل هلكة وبوار وافتقار في الدنيا، وسبيل عذاب وخزي ونكال في الآخرة.

ولما كان نكاح أزواج الآباء من أقبحه خصه بمزيد ذم، فقال: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا﴾[4]»[5].

وقال: «والمقصود: أن اللَّه سبحانه سمى الزواني والزناة خبيثين وخبيثات، وجنس هذا الفعل قد شرعت فيه الطهارة، وإن كان حلالا، وسمي فاعله جنبا، لبعده عن قراءة القرآن، وعن الصلاة، وعن المساجد، فمنع من ذلك كله حتى يتطهر بالماء. فكذلك إذا كان حرامًا يبعد القلب عن اللَّه تعالى، وعن الدار الآخرة، بل يحول بينه وبين الإيمان، حتى يحدث طهرا كاملا بالتوبة، وطهرا لبدنه بالماء. وقول اللوطية ﴿أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾[6] من جنس

---

(١) الفرقان: الآيات (٦٨-٧٠).
(٢) الإسراء: الآية (٣٢).
(٣) أخرجه: البخاري (٧/ ١٩٧/ ٣٨٤٩).
(٤) النساء: الآية (٢٢).
(٥) الداء والدواء (ص: ٢٣٠-٢٣١).
(٦) الأعراف: الآية (٨٢).

قوله سبحانه في أصحاب الأخدود: ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ۝﴾[1] وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ﴾[2].

وهكذا المشرك إنما ينقم على الموحد تجريده للتوحيد، وأنه لا يشوبه بالإشراك. وهذا المبتدع: إنما ينقم على السني تجريده متابعة الرسول، وأنه لم يشبها بآراء الرجال، ولا بشيء مما خالفها. فصبر الموحد المتبع للرسول على ما ينقمه عليه أهل الشرك والبدعة خير له وأنفع، وأسهل عليه من صبره على ما ينقمه الله ورسوله عليه من موافقة أهل الشرك والبدعة.

إذا لم يكن بد من الصبر، فاصطبر على الحق، ذاك الصبر تحمد عقباه»[3]

* عن سهل بن سعد الساعدي قال النبي ﷺ: **«من توكل لي ما بين رجليه وما بين لحييه توكلت له بالجنة»**[4].

⋆ غريب الحديث:

توكل: أي تكفل وأصل التوكل الاعتماد على الشيء والوثوق به.

لحييه: بفتح اللام وهو منبت اللحية والأسنان، ويجوز كسر اللام، وثني لأن له أعلى وأسفل، والمراد به اللسان، وقيل: النطق.

⋆ فوائد الحديث:

قال ابن بطال: «ودل بهذا الحديث أن أعظم البلاء على العبد في الدنيا اللسان والفرج، فمن وقي شرهما فقد وقي أعظم الشر»[5].

قال الحافظ: «المعنى من أدى الحق الذي على لسانه من النطق بما يجب عليه أو الصمت عما لا يعنيه وأدى الحق الذي على فرجه من وضعه في الحلال وكفه عن الحرام. . وقال الداودي: المراد بما بين اللحيين: الفم. قال: فيتناول الأقوال،

---

(١) البروج: الآية (٨). (٢) المائدة: الآية (٥٩).

(٣) إغاثة اللهفان (ص: ١١٠-١١١).

(٤) البخاري (١٢/ ١٣٥/ ٦٨٠٧)، والترمذي (٤/ ٥٢٤/ ٢٤٠٨).

(٥) شرح البخاري (١٠/ ١٨٦).

والأكل والشرب، وسائر ما يتأتى بالفم من الفعل. قال: ومن تحفظ من ذلك أمن من الشر كله؛ لأنه لم يبق إلا السمع والبصر كذا قال، وخفي عليه أنه بقي البطش باليدين؛ وإنما محمل الحديث على أن النطق باللسان أصل في حصول كل مطلوب، فإذا لم ينطق به إلا في خير سلم»[١].

قال ابن القيم: «وعلق سبحانه فلاح العبد على حفظ فرجه منه؛ فلا سبيل له إلى الفلاح بدونه، فقال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝٤ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۝٧﴾[٢]. وهذا يتضمن ثلاثة أمور: أن من لم يحفظ فرجه لم يكن من المفلحين، وأنه من الملومين، ومن العادين، ففاته الفلاح، واستحق اسم العدوان، ووقع في اللوم، فمقاساة ألم الشهوة ومعاناتها أيسر من بعض ذلك.

ونظير هذا: أنه سبحانه ذم الإنسان وأنه خلق هلوعا لا يصبر على سراء ولا على ضراء، بل إذا مسه الخير منع وبخل، وإذا مسه الشر جزع، إلا من استثناه بعد ذلك من الناجين من خلقه، فذكر منهم: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٢٩ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٣٠ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾[٣]. فأمر اللَّه تعالى نبيه ﷺ أن يأمر المؤمنين بغض أبصارهم وحفظ فروجهم، وأن يعلمهم أنه مشاهد لأعمالهم، مطلع عليها: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ۝١٩﴾[٤].

ولما كان مبدأ ذلك من قبل البصر جعل الأمر بغضه مقدما على حفظ الفرج، فإن الحوادث مبدؤها من النظر، كما أن معظم النار من مستصغر الشرر، فتكون نظرة، ثم خطرة، ثم خطوة، ثم خطيئة.

ولهذا قيل: من حفظ هذه الأربعة أحرز دينه: اللحظات، والخطرات، واللفظات والخطوات.

فينبغي للعبد أن يكون بواب نفسه على هذه الأبواب الأربعة، يلازم الرباط على

(١) الفتح (١١/ ٣٧٤-٣٧٥).
(٢) المؤمنون: الآيات (١-٧).
(٣) المعارج: الآيات (٢٩-٣١).
(٤) غافر: الآية (١٩).

ثغورها، فمنها يدخل عليه العدو فيجوس خلال الديار ويتبر ما علا تتبيرًا»[(١)].

قال الإمام أبو عمر بن عبد البر: «وفي هذا الحديث من الفقه، أن الكبائر أكثر ما تكون والله أعلم- من الفم والفرج، ووجدنا الكفر، وشرب الخمر، وأكل الربا، وقذف المحصنات، وأكل مال اليتيم ظلما، من الفم واللسان، ووجدنا الزنا من الفرج.

وأحسب أن المراد من الحديث، أنه من اتقى لسانه وما يأتي من القذف والغيبة والسب، كان أحرى أن يتقي القتل؛ ومن اتقى شرب الخمر، كان حريًّا باتقاء بيعها؛ ومن اتقى أكل الربا، لم يعمل به؛ لأن البغية من العمل به، التصرف في أكله؛ فهذا وجه في تخصيص الجارحتين المذكورتين في هذا الحديث، وضمان الجنة لمن وقي شرهما، وهذا التأويل على نحو قول عمر ﷺ في الصلاة: ومن ضيعها، كان لما سواها أضيع؛ ومن حفظها، حفظ دينه. فكان قوله ﷺ: من اتقى الغيبة وقول الزور، واتقى الزنا، مع غلبة شهوة النساء على القلوب، كان للقتل أهيب وأشد توقيًا والله أعلم.

ويحتمل أن يكون ذلك منه ﷺ خطابا لقوم بأعيانهم، اتقى عليهم من اللسان والفرج، ما لم يتق عليهم من سائر الجوارح.

ويحتمل أيضًا أن يكون قوله ذلك، معه كلام لم يسمعه الناقل؛ كأنه قال: من عافاه الله ووقاه كذا وكذا، وشر ما بين لحييه ورجليه، ولج الجنة. فسمع الناقل بعض الحديث، ولم يسمع بعضا، فنقل ما سمع.

وإنما حملنا على تخريج هذه الوجوه، لإجماع الأمة أن من أحصن فرجه عن الزنا، ومنع لسانه من كل سوء، ولم يتق ما سوى ذلك من القتل والظلم؛ أنه لا يضمن له الجنة، وهو إن مات عندنا في مشيئة الله تعالى، إن شاء غفر له، وإن شاء عذبه إذا مات مسلمًا»[(٢)].

* عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «**سبعة يظلهم الله يوم القيامة في ظله يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل، وشاب نشأ في عبادة الله، ورجل ذكر الله في خلاء**

---

(١) الداء والدواء (٣/ ٢٣١-٢٣٢).

(٢) فتح البر (١٠/ ٤١٠-٤١١).

ففاضت عيناه، ورجل قلبه معلق في المسجد، ورجلان تحابا في اللَّه، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال إلى نفسها قال: إني أخاف اللَّه، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما صنعت يمينه»[1].

★ غريب الحديث:

ظله: الظل: الفيء الحاصل من الحاجز بينك وبين الشمس، أي شيء كان، وقيل: هو مخصوص بما كان منه إلى زوال الشمس؛ أي: الغداة، وما كان بعدها أي العشي فهو الفيء، وهو نقيض الضحى، ويجمع على ظلال وظلول وأظلال.

فاضت عيناه: أي كثر بكاؤها وفيضانها بالدمع، والأصل في الإفاضة: الصب، ثم استعيرت للدفع والسير، وأصله أفاض نفسه أو راحلته قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ﴾[2] والفيض: الامتلاء.

منصب: المنصب بكسر الصاد: الحسب والنسب الشريف.

★ فوائد الحديث:

قال الحافظ: «قوله: «**في ظله**» قال عياض: إضافة الظل إلى اللَّه إضافة ملك، وكل ظل فهو ملكه. كذا قال، وكان حقه أن يقول إضافة تشريف، ليحصل امتياز هذا على غيره، كما قيل للكعبة بيت اللَّه مع أن المساجد كلها ملكه. وقيل المراد بظله: كرامته وحمايته، كما يقال: فلان في ظل الملك، وهو قول عيسى بن دينار وقواه عياض، وقيل: المراد ظل عرشه ويدل عليه حديث سلمان عند سعيد بن منصور بإسناد حسن «**سبعة يظلهم اللَّه في ظل عرشه**» فذكر الحديث، وإذا كان المراد ظل العرش استلزم ما ذكر من كونهم في كنف اللَّه وكرامته من غير عكس فهو أرجح، وبه جزم القرطبي»[3].

قلت: رواية إضافة الظل إلى العرش رواها أيضًا الحافظ ابن عبد البر في التمهيد

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٤٣٩)، والبخاري (١٢/ ١٨٢/ ٦٦٠)، ومسلم (٢/ ٧١٥/ ١٠٣١)، والترمذي (٤/ ٥١٦/ ٢٣٩١).

(٢) البقرة: الآية (١٩٩).

(٣) فتح الباري (٢/ ١٨٣/ ٦٦٠).

بسنده إلى أبي سعيد الخدري»[١].

قال ابن عبد البر في التمهيد-: «من كان في ظل اللَّه يوم لا ظل إلا ظله، نجا من هول ذلك الموقف إن شاء اللَّه، واللَّه أعلم. جعلنا اللَّه منهم برحمته آمين»[٢].

قال القرطبي: «ومعنى دعته: عرضت نفسها عليه أي للفاحشة»[٣].

قال عبد اللَّه بن أبي جمرة: «قوله ﷺ: «**ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله**» فهذا لعظم قهر النفس عن هواها، والحامل على ذلك شدة الخوف من اللَّه، وهنا بحث وهو لم قال عن المرأة مع هذين الوصفين اللذين فيها؟ لأن ذات المرأة وحدها من أكبر الفتن وقد قال ﷺ: «**ما تركت بعدي فتنة هي أضر على الرجال من النساء**»[٤] فذكر الوصفين كل واحد منهما من أقوى البواعث في شهوات الجماع والرغبة فيها، وقد قال ﷺ: «**تتزوج المرأة لجمالها وحسبها**»؛ لأن ما ترغب النفوس في واحد طبعا إذا اجتمع أكثر من واحد كان أشد في الرغبة فيه، وقوة الشهوة فمن أجل ذلك عظم الأجر لتاركه»[٥].

قال الحافظ: «وقد وصفها بأكمل الأوصاف التي جرت العادة بمزيد الرغبة لمن تحصل فيه وهو المنصب الذي يستلزمه الجاه والمال مع الجمال وقل من يجتمع ذلك فيها من النساء، زاد ابن المبارك «**إلى نفسها**». والظاهر أنها دعته إلى الفاحشة وبه جزم القرطبي ولم يحك غيره، وقال بعضهم يحتمل أن تكون دعته إلى التزوج بها فخاف أن يشتغل عن العبادة بالافتتان بها، أو خاف أن لا يقوم بحقها لشغله بالعبادة عن التكسب بما يليق بها، والأول أظهر، ويؤيده وجود الكناية في قوله: «**إلى نفسها**» ولو كان المراد التزويج لصرح به، والصبر عن الموصوفة بما ذكر من أكمل المراتب لكثرة الرغبة في مثلها وعسر تحصيلها لا سيما وقد أغنت من مشاق التوصل إليها بمراودة ونحوها»[٦].

قوله: «**إني أخاف الله**» قال القرطبي: «وقول المدعو في مثل هذا: «**إني أخاف الله**» وامتناعه لذلك دليل على عظيم معرفته باللَّه تعالى، وشدة خوفه من عقابه،

---

(١) انظر فتح البر (١٠/ ٣٥٦). (٢) فتح البر (١٠/ ٣٥٩).
(٣) المفهم (٣/ ٧٦).
(٤) أخرجه: أحمد (٥/ ٢٠٠)، والبخاري (٩/ ١٧١/ ٥٠٩٦)، ومسلم (٤/ ٢٠٩٨/ ٢٧٤١).
(٥) بهجة النفوس (١/ ٢٢٩). (٦) الفتح (٢/ ١٨٥).

ومتين تقواه، وحيائه من اللَّه تعالى، وهذا هو المقام اليوسفي»[١].

تنبيه:

قال الحافظ: «ذكر الرجال في هذا الحديث لا مفهوم له بل يشترك النساء معهم فيما ذكر إلا إن كان المراد بالإمام العادل الإمامة العظمى، وإلا فيمكن دخول المرأة حيث تكون ذات عيال فتعدل فيهم. وتخرج خصلة ملازمة المسجد لأن صلاة المرأة في بيتها أفضل من المسجد وما عدا ذلك فالمشاركة حاصلة لهن، حتى الرجل الذي دعته المرأة فإنه يتصور في امرأة دعاها ملك جميل مثلا فامتنعت خوفا من اللَّه تعالى مع حاجتها، أو شاب جميل دعاه ملك إلى أن يزوجه ابنته مثلا فخشي أن يرتكب منه الفاحشة فامتنع مع حاجته إليه»[٢].

* عن ابن عباس : أن ناسا من أهل الشرك كانوا قد قتلوا فأكثروا وزنوا وأكثروا ثم أتوا محمدا ﷺ فقالوا: إن الذي تقول وتدعو إليه لحسن لو تخبرنا أن لما عملنا كفارة فنزل. . ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ﴾[٣] ونزلت ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾[٤][٥].

★ فوائد الحديث:

قال الحافظ: «واستدل بعموم هذه الآية على غفران جميع الذنوب كبيرها وصغيرها سواء تعلقت بحق الآدميين أم لا؛ والمشهور عند أهل السنة أن الذنوب كلها تغفر بالتوبة، وأنها تغفر لمن شاء اللَّه ولو مات على غير توبة، لكن حقوق الآدميين إذا تاب صاحبها من العود إلى شيء من ذلك تنفعه التوبة من العود، وأما خصوص ما وقع منه فلابد له من رده لصاحبه أو محاللته منه. نعم في سعة فضل اللَّه ما يمكن أن يعرض صاحب الحق عن حقه ولا يعذب العاصي بذلك، ويرشد إليه عموم قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾[٦] واللَّه أعلم»[٧].

---

(١) المفهم (٣/ ٧٦).
(٢) الفتح (٢/ ١٨٧-١٨٨).
(٣) الفرقان: الآية (٦٨).
(٤) الزمر: الآية (٥٣).
(٥) أخرجه: البخاري (٨/ ٧٠٦/ ٤٨١٠)، ومسلم (١/ ١١٣/ ١٢٢)، وأبو داود (٤/ ٤٦٦-٤٦٧/ ٤٢٧٤)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٤٦/ ١١٤٤٩).
(٦) النساء: الآية (٤٨).
(٧) الفتح (٨/ ٧٠٧).

قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٧٠﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «قد ذُكر أن هذه الآية نزلت على رسول اللَّه ﷺ من أجل قوم من المشركين أرادوا الدخول في الإسلام، ممن كان منه في شركه هذه الذنوب، فخافوا أن لا ينفعهم مع ما سلف منهم من ذلك إسلام، فاستفتَوْا رسول اللَّه ﷺ في ذلك، فأنزل اللَّه -تبارك وتعالى- هذه الآية، يعلمهم أن اللَّه قابل توبة من تاب منهم.

ثم ساق رَحِمَهُ اللَّهُ بسنده إلى ابن عباس أن ناسا من أهل الشرك قَتَلُوا فأكثروا، فأتوا محمدًا ﷺ، فقالوا: إن الذي تدعونا إليه لحسن، لو تخبرنا أن لما عملنا كفارة، فنزلت ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَۚ﴾ ونزلت: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ﴾[1] إلى قوله: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾[2] قال ابن جُريج: وقال مجاهد مثل قول ابن عباس سواء»[3].

قال السعدي: «إلا من تاب عن هذه المعاصي وغيرها بأن أقلع عنها في الحال وندم على ما مضى له من فعلها، وعزم عزما جازما أن لا يعود، ﴿وَءَامَنَ﴾ باللَّه إيمانا صحيحا يقتضي ترك المعاصي وفعل الطاعات، ﴿وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ مما أمر به الشارع إذا قصد به وجه اللَّه.

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍۗ﴾ أي: تتبدل أفعالهم وأقوالهم التي كانت مستعدة لعمل السيئات تتبدل حسنات، فيتبدل شركهم إيمانا، ومعصيتهم طاعة، وتتبدل نفس السيئات التي عملوها ثم أحدثوا عن كل ذنب منها توبة، وإنابة،

---

(١) الزمر: الآية (٥٣).

(٢) الزمر: الآية (٥٥).

(٣) الجامع لأحكام القرآن (١٩/ ٤١).

وطاعة، تبدل حسنات كما هو ظاهر الآية»[١].

قال ابن عاشور: «ولا يخطر بالبال أنه يعذب عذابًا غير مضاعف وغيرَ مخلَّد فيه؛ لأن ذلك ليس من مجاري الاستعمال العربي بل الأصل في ارتفاع الشيء المقيَّد أن يقصد منه رفعه بأسره لا رفع قيوده، إلاّ بقرينة»[٢].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في تبديل السيئات حسنات لمن تاب إلى اللَّه فضلا منه ﷻ

* عن أبي ذر قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**إني لأعلم آخر أهل الجنة دخولا الجنة وآخر أهل النار خروجا منها رجل يؤتى به يوم القيامة فيقال: اعرضوا عليه صغار ذنوبه وارفعوا عنه كبارها، فتعرض عليه صغار ذنوبه فيقال: عملت يوم كذا وكذا، كذا وكذا، وعملت يوم كذا وكذا كذا وكذا فيقول: نعم، لا يستطيع أن ينكر وهو مشفق من كبار ذنوبه أن تعرض عليه فيقال له: فإن لك مكان كل سيئة حسنة فيقول: رب! قد عملت أشياء لا أراها ها هنا فلقد رأيت رسول اللَّه ﷺ ضحك حتى بدت نواجذه**»[٣].

* عن أبي طويل شطب الممدود أنه أتى النبي ﷺ فقال: أرأيت رجلًا عمل الذنوب كلها فلم يترك منها شيئًا وهو في ذلك لم يترك حاجة ولا داجة إلا أتاها فهل له من توبة؟ قال: «**فهل أسلمت؟**» قال: أما أنا فأشهد أن لا إله إلا اللَّه وحده لا شريك له وأنك رسول اللَّه. قال: «**نعم، تفعل الخيرات، وتترك السيئات، فيجعلهن اللَّه لك خيرات كلهن**» قال: وغدراتي وفجراتي؟ قال: «**نعم**» قال: اللَّه أكبر، فما زال يكبر حتى توارى[٤].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٤٩٦-٤٩٧).

(٢) التحرير والتنوير (١٩/ ٧٥-٧٦).

(٣) أخرجه: أحمد (٥/ ١٥٧)، ومسلم (١/ ١٧٧/ ١٩٠)، والترمذي (٤/ ٦١٤/ ٢٥٩٦).

(٤) أخرجه: الطبراني (٧/ ٣٧٥-٣٧٦/ ٧٢٣٥)، والبزار (٤/ ٧٩-٨٠/ ٣٢٤٤) كشف الأستار، وذكره الهيثمي في المجمع (١/ ٣١-٣٢) وقال: «رواه الطبراني والبزار بنحوه ورجال البزار رجال الصحيح غير محمد بن هارون أبي نشيط وهو ثقة»، وابن حجر في الإصابة (٣/ ٣٤٩-٣٥٠/ ٣٩١٥) وقال: هو على شرط الصحيح.

★ **فوائد الحديثين:**

قال القاري: «قوله: «**فيقال له: فإن لك مكان كل سيئة حسنة**» هو إما لكونه تائبا إلى اللَّه تعالى، وقد قال تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍۗ﴾ لكن يشكل بأنه كيف يكون آخر أهل النار خروجًا، ويمكن أن يقال: فعل بعد التوبة ذنوبا استحق بها العقاب، وإما وقع التبديل له من باب الفضل من رب الأرباب، والثاني أظهر، ويؤيده أنه حينئذ يطمع في كرم اللَّه سبحانه «**فيقول: رب قد عملت أشياء**» أي: من الكبائر «**لا أراها ههنا**» أي: في الصحائف، أو في مقام التبديل»[1].

قال ابن القيم: «قلت: وههنا مسألة هذا الموضع أخص المواضع ببيانها، وهي أن التائب إذا تاب إلى اللَّه توبة نصوحا فهل تمحى تلك السيئات ويذهب لا له ولا عليه؟ أو إذا محيت أثبت له مكان كل سيئة حسنة؟ هذا مما اختلف الناس فيه من المفسرين وغيرهم قديما وحديثا، فقال الزجاج: ليس يجعل مكان السيئة الحسنة، لكن يجعل مكان السيئة التوبة، والحسنة مع التوبة. قال ابن عطية: يجعل أعمالهم بدل معاصيهم الأولى طاعة، فيكون ذلك سببا لرحمة اللَّه إياهم. قاله ابن عباس وابن جبير وابن زيد والحسن، ورد على من قال هو في يوم القيامة. قال: وقد ورد حديث في كتاب مسلم من طريق أبي ذر يقتضي أن اللَّه سبحانه يوم القيامة يجعل لمن يريد المغفرة له من الموحدين بدل سيئاته حسنات، وذكره الترمذي والطبري، وهذا تأويل سعيد بن المسيب في هذه الآية. قال ابن عطية وهو معنى كرم العفو. هذا آخر كلامه. قلت: سيأتي إن شاء اللَّه ذكر الحديث بلفظه والكلام عليه. قال المهدوي: وروى معنى هذا القول عن سلمان الفارسي وسعيد بن جبير وغيرهما. وقال الثعلبي: قال ابن عباس وابن جريج والضحاك وابن زيد ﴿يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍۗ﴾[2]. يبدلهم اللَّه بقبيح أعمالهم في الشرك محاسن الأعمال في الإسلام، فيبدلهم بالشرك إيمانا، وبقتل المؤمنين قتل المشركين، وبالزنا عفة وإحصانا. وقال آخرون: يعني يبدل اللَّه سيئاتهم التي عملوها في حال إسلامهم حسنات يوم القيامة.

---

(١) المرقاة (٩/ ٥٥٣).

(٢) الفرقان: الآية (٧٠).

وأصل القولين أن هذا التبديل هل هو في الدنيا أو يوم القيامة؟ فمن قال إنه في الدنيا قال: هو تبديل الأعمال القبيحة والإرادات الفاسدة بأضدادها، وهي حسنات، وهذا تبديل حقيقة. والذين نصروا هذا القول احتجوا بأن السيئة لا تنقلب حسنة، بل غايتها أن تمحى وتكفر ويذهب أثرها، فأما أن تنقلب حسنة فلا، فإنها لم تكن طاعة، وإنما كانت بغيضة مكروهة للرب فكيف تنقلب محبوبة مرضية؟ قالوا: وأيضًا فالذي دل عليه القرآن إنما هو تكفير السيئات ومغفرة الذنوب، كقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا﴾[1] وقوله تعالى: ﴿وَيَعْفُواْ عَنِ السَّيِّـَٔاتِ﴾[2] وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾[3] والقرآن مملوء من ذلك. وفي الصحيح من حديث قتادة عن صفوان بن محرز قال: قال رجل لابن عمر: كيف سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول في النجوى؟ قال: سمعته يقول: «**يدنى المؤمن يوم القيامة من ربه حتى يضع عليه كنفه، فيقرره بذنوبه، فيقول: هل تعرف؟ فيقول: رب أعرف. قال: فإني قد سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم. فيعطى صحيفة حسناته. وأما الكفار والمنافقون فينادى بهم على رءوس الأشهاد: هؤلاء الذي كذبوا على اللَّه ﷻ**»[4] فهذا الحديث المتفق عليه الذي تضمن العناية بهذا العبد إنما فيه ستر ذنوبه عليه في الدنيا، ومغفرتها له يوم القيامة، ولم يقل له: وأعطيتك بكل سيئة منها حسنة. فدل على أن غاية السيئات مغفرتها وتجاوز اللَّه عنها، وقد قال اللَّه في حق الصادقين: ﴿لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِى عَمِلُواْ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ الَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾[5] فهؤلاء خيار الخلق، وقد أخبر عنهم أنه يكفر عنهم سيئات أعمالهم، ويجزيهم بأحسن ما يعملون. وأحسن ما عملوا إنما هو الحسنات لا السيئات، فدل على أن الجزاء بالحسنى إنما يكون على الحسنات وحدها وأما السيئات فأن تلغى ويبطل أثرها. قالوا: وأيضًا فلو انقلبت السيئات أنفسها حسنات في حق التائب لكان أحسن حالا من الذي لم يرتكب منها شيئًا

---

(١) آل عمران: الآية (١٩٣). (٢) الشورى: الآية (٢٥).

(٣) الزمر: الآية (٥٣).

(٤) أخرجه: أحمد (٢/ ١٠٥)، والبخاري (٨/ ٤٥٠/ ٤٦٨٥)، ومسلم (٤/ ٢١٢٠/ ٢٧٦٨)، والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٦٤/ ١١٢٤٢)، وابن ماجه (١/ ٦٥/ ١٨٣).

(٥) الزمر: الآية (٣٥).

وأكثر حسنات منه؛ لأنه إذا أساء شاركه في حسناته التي فعلها وامتاز عنه بتلك السيئات ثم انقلبت له حسنات ترجح عليه، وكيف يكون صاحب السيئات أرجح ممن لا سيئة له؟ قالوا: وأيضًا فكما أن العبد إذا فعل حسنات ثم أتى بما يحبطها فإنها لا تنقلب سيئات يعاقب عليها، بل يبطل أثرها ويكون لا له ولا عليه، وتكون عقوبته عدم ترتب ثوابه عليها، فهكذا من فعل سيئات ثم تاب منها فإنها لا تنقلب حسنات. فإن قلتم: وهكذا التائب يكون ثوابه عدم ترتب العقوبة على سيئاته، لم تنازعكم في هذا، وليس هذا معنى الحسنة فإن الحسنة تقتضي ثوابا وجوديا.

واحتجت الطائفة الأخرى التي قالت: هو تبديل السيئة بالحسنة حقيقة يوم القيامة بأن قالت: حقيقة التبديل إثبات الحسنة مكان السيئة. وهذا إنما يكون في السيئة المحققة وهي التي قد فعلت ووقعت، فإذا بدلت حسنة كان معناه أنها محيت وأثبت مكانها حسنة قالوا: ولهذا قال تعالى: ﴿سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍۗ﴾[(١)] فأضاف السيئات إليهم لكونهم باشروها واكتسبوها، ونكَّر الحسنات ولم يضفها إليهم لأنها من غير صنعهم وكسبهم، بل هي مجرد فضل اللَّه وكرمه. قالوا: وأيضًا فالتبديل في الآية إنما هو فعل اللَّه لأفعلهم. فإنه أخبر أنه هو يبدل سيئاتهم حسنات، ولو كان المراد ما ذكرتم لأضاف التبديل إليهم فإنهم هم الذين يبدلون سيئاتهم حسنات، والأعمال إنما تضاف إلى فاعلها وكاسبها كما قال اللَّه تعالى: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ﴾[(٢)] وأما ما كان من غير الفاعل فإنه يجعله من تبديله هو كما قال اللَّه تعالى: ﴿وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ﴾[(٣)] فلما أخبر سبحانه أنه هو الذي يبدل سيئاتهم حسنات دل على أنه شيء فعله هو سبحانه بسيئاتهم، لا أنهم فعلوه من تلقاء أنفسهم، وإن كان سببه منهم، وهو التوبة والإيمان والعمل الصالح. قالوا: ويدل عليه ما رواه مسلم في صحيحه من حديث الأعمش عن المعرور بن سويد عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**إني لأعلم آخر أهل الجنة دخولا الجنة، وآخر أهل النهار خروجًا منها: رجل يؤتى به يوم القيامة فيقال: اعرضوا عليه صغار ذنوبه، وارفعوا عنه كبارها. فتعرض عليه صغار ذنوبه فيقال: عملت يوم كذا وكذا**

---

(١) الفرقان: الآية (٧٠).

(٢) البقرة: الآية (٥٩).

(٣) سبأ: الآية (١٦).

كذا وكذا، وعملت يوم كذا وكذا كذا وكذا، فيقول نعم. لا يستطيع أن ينكر، وهو مشفق من كبار ذنوبه أن تعرض عليه، فيقال له فإن لك مكان كل سيئة حسنة. فيقول: رب قد عملت أشياء لا أراها ههنا، فلقد رأيت رسول اللَّه ﷺ ضحك حتى بدت نواجذه». وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع حدثنا الأعمش عن المعرور بن سويد عن أبي ذر قال: قال رسول اللَّه ﷺ «**يؤتى بالرجل يوم القيامة فيقال: اعرضوا عليه صغار ذنوبه. قال: فتعرض عليه، ويخبأ عنه كبارها: فيقال: عملت يوم كذا وكذا كذا وكذا، وهو مقر لا ينكر وهو مشفق من الكبار. فيقال: أعطوه مكان كل سيئة عملها حسنة. قال فيقول: إن لي ذنوبًا ما أراها**. فلقد رأيت رسول اللَّه ﷺ ضحك حتى بدت نواجذه». قالوا: وأيضًا فروى أبو حفص المستملي عن محمد بن عبد العزيز بن أبي رزمة حدثنا الفضل بن موسى القطيعي عن أبي العنبس عن أبيه عن أبي هريرة قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «**ليتمنين أقوام أنهم أكثروا من السيئات**». **قيل: من هم؟ قال**: «**الذين بدل سيئاتهم حسنات**»[(١)]. قالوا: وهؤلاء هم الأبدال في الحقيقة، فإنهم إنما سموا أبدالا لأنهم بدلوا أعمالهم السيئة بالأعمال الحسنة، فبدل اللَّه سيئاتهم التي عملوها حسنات. قالوا: وأيضًا فالجزاء من جنس العمل، فكما بدلوا هم أعمالهم السيئة بالحسنة بدلها اللَّه من صحف الحفظة حسنات جزاء وفاقًا.

قالت الطائفة الأولى: كيف يمكنكم الاحتجاج بحديث أبي ذر على صحة قولكم وهو صريح في أن هذا الذي قد بدلت سيئاته حسنات قد عذب عليها في النار حتى كان آخر أهلها خروجا منها؟ فهذا قد عوقب على سيئاته حسنات قد عذب عليها في النار حتى كان آخر أهلها خروجا منها؟ فهذا قد عوقب على سيئاته فزال أثرها بالعقوبة، فبدل مكان كل سيئة منها حسنة. وهذا حكم غير ما نحن فيه، فإن الكلام في التائب من السيئات، لا فيمن مات مصرا عليها غير تائب، فأين أحدهما من الآخر؟ وأما حديث الإمام أحمد فهو الحديث بعينه إسنادا ومتنا، إلا أنه مختصر. وأما حديث أبي هريرة فلا يثبت مثله ومَن أبو العنبس ومَن أبوه حتى يقبل

(١) أخرجه: الحاكم (٤/ ٢٥٢) وقال: إسناده صحيح، ووافقه الذهبي. قال الشيخ الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ: «رجاله ثقات معروفون غير والد أبي العنبس، واسمه: كثير ابن عبيد التيمي، رضيع عائشة رضي الله عنها، لم يوثقه غير ابن حبان، لكنه روى عنه جمع من الثقات.. فهو حسن إن شاء الله». الصحيحة حديث (٢١٧٧).

منهما تفردهما بمثل هذا الأمر الجليل؟ وكيف يصح مثل هذا الحديث عن رسول الله ﷺ مع شدة حرصه على التنفير من السيئات وتقبيح أهلها، وذمهم، وعيبهم، والإخبار بأنها تنقص الحسنات وتضادها؟ فكيف يصح عنه ﷺ أنه يقول: «**ليتمنين أقوام أنهم أكثروا منها**»؟ ثم كيف يتمنى المرء إكثاره منها، مع سوء عاقبتها؟ وسوء مغبتها، وإنما يتمنى الإكثار من الطاعات؟ وفي الترمذي مرفوعا: «**ليتمنين أقوام يوم القيامة أن جلودهم كانت تقرض بالمقاريض، لما يرون من ثواب أهل البلاء**»[1]، فهذا فيه تمني البلاء يوم القيامة لأجل مزيد ثواب أهله، وهو تمني الحسنات، وأما تمني الحسنات فهذا لا ريب فيه، وأما تمني السيئات فكيف يتمنى العبد أنه أكثر من السيئات؟ هذا ما لا يكون أبدا، وإنما يتمنى المسيء أن لو لم يكن أساء، وأما تمنيه أنه ازداد من إساءته فكلا. قالوا: وأما ما ذكرتم من أن التبديل هو إثبات الحسنة مكان السيئة فحق. وكذلك نقول: إن الحسنة المفعولة صارت في مكان السيئة التي لولا الحسنة لحلت محلها. قالوا: وأما احتجاجكم بإضافة السيئات إليهم، وذلك يقتضى أن تكون هي السيئات الواقعة. وتنكير الحسنات، وهو يقتضي أن تكون حسنات من فضل الله، فهو حق بلا ريب، ولكن من أين يبقى أن يكون فضل الله بها مقارنا لكسبهم إياها بفضله؟ قالوا: وأما قولكم: إن التبديل مضاف إلى الله لا إليهم، وذلك يقتضي أنه هو الذي بدلها من الصحف لا أنهم هم الذين بدلوا الأعمال بأضدادها فهذا لا دليل لكم فيه، فإن الله خالق أفعال العباد، فهو المبدل للسيئات حسنات خلقا وتكوينا، وهم المبدلون لها فعلا وكسبا. قالوا: وأما احتجاجكم بأن الجزاء من جنس العمل، فكما بدلوا سيئات أعمالهم بحسناتهم بدلها الله كذلك في صحف الأعمال، فهذا حق وبه نقول، وأنه بدلت السيئات التي كانت مهيأة ومعدة أن تحل في الصحف بحسنات حلت موضعها.

فإذا منتهى إقدام الطائفتين، ومحط نظر الفريقين، وإليك أيها المنصف الحكم بينهما، فقد أدلى كل منهما بحجته، وأقام بينته، والحق لا يعدوهما ولا يتجاوزهما، فأرشد الله من أعان على هدى فنال به درجة الداعين إلى الله القائمين ببيان حججه ودينه، أو عذر طالبا منفردا في طريق مطلبه قد انقطع رجاؤه

---

(١) أخرجه: الترمذي (٤/ ٥٢١-٥٢٢/ ٢٤٠٢)، والبيهقي (٣/ ٢٢٦/ ٦٥٥٣) والحديث حسنه الشيخ الألباني في الصحيحة (٢٢٠٦).

من رفيق في الطريق، فغاية أمنيته أن يخلى بينه وبين سيره، وأن لا يقطع عليه طريقه. فمن رفع له مثل هذا العلم ولم يشمر إليه فقد رضي بالدون، وحصل على صفقة المغبون. ومن شمر إليه ورام أن لا يعارضه معارض، ولا يتصدى له ممانع فقد منى نفسه المحال. وإن صبر على لأوائها وشدتها فهو واللَّه الفوز المبين والحظ الجزيل، وما توفيقي إلا باللَّه عليه توكلت وإليه أنيب.

فالصواب إن شاء اللَّه في هذه المسألة أن يقال: لا ريب أن الذنب نفسه لا ينقلب حسنة، والحسنة إنما هي أمر وجودي يقتضي ثوابا، ولهذا كان تارك المنهيات إنما يثاب على كف نفسه وحبسها عن مواقعة المنهي، وذلك الكف والحبس أمر وجودي وهو متعلق الثواب. وأما من لم يخطر بباله الذنب أصلا ولم يحدث به نفسه فهذا كيف يثاب على تركه، ولو أثيب مثل هذا على ترك هذا الذنب لكان مثابا على ترك ذنوب العالم التي لا تخطر بباله. وذلك أضعاف حسناته بما لا يحصى؛ فإن الترك مستصحب معه، والمتروك لا ينحصر ولا ينضبط، فهل يثاب على ذلك كله؟ هذا مما لا يتوهم. وإذا كانت الحسنة لابد أن تكون أمرا وجوديا فالتائب من الذنوب التي عملها قد قارن كل ذنب منها ندما عليه، وكف نفسه عنه، وعزم على ترك معاودته. وهذه حسنات بلا ريب. وقد محت التوبة أثر الذنب وخلفه هذا الندم والعزم. وهو حسنة قد بدلت تلك السيئة حسنة. وهذا معنى قول بعض المفسرين: يجعل مكان السيئة التوبة، والحسنة مع التوبة. فإذا كانت كل سيئة من سيئاته قد تاب منها فتوبته منها حسنة حلت مكانها، فهذا معنى التبديل، لا أن السيئة نفسها تنقلب حسنة. وقال بعض المفسرين في هذه الآية: يعطيهم بالندم على كل سيئة أساءوها حسنة. وعلى هذا فقد زال بحمد اللَّه الإشكال، واتضح الصواب، وظهر أن كل واحدة من الطائفتين ما خرجت عن موجب العلم والحجة. وأما حديث أبي ذر وإن كان التبديل فيه في حق المصر الذي عذب على سيئاته- فهو يدل بطريق الأولى على حصول التبديل للتائب المقلع النادم على سيئاته. فإن الذنوب التي عذب عليها المصر لما زال أثرها بالعقوبة بقيت كأن لم تكن، فأعطاه اللَّه مكان كل سيئة منها حسنة؛ لأن ما حصل له يوم القيامة من الندم المفرط عليها مع العقوبة لا يقتضي زوال أثرها وتبديلها حسنات؛ فإن الندم لم يكن في وقت ينفعه، فلما عوقب عليها وزال أثرها بدلها اللَّه له حسنات. فزوال أثرها

بالتوبة النصوح أعظم من زوال أثرها بالعقوبة. فإذا بدلت بعد زوالها بالعقوبة حسنات فلأن تبدل بعد زوالها بالتوبة حسنات أولى وأحرى. وتأثير التوبة في هذا المحو والتبديل أقوى من تأثير العقوبة؛ لأن التوبة فعل اختياري أتى به العبد طوعا ومحبة لله وفرقا منه. وأما العقوبة فالتكفير بها من جنس التكفير بالمصائب التي تصيبه بغير اختياره بل بفعل اللَّه. ولا ريب أن تأثير الأفعال الاختيارية التي يحبها اللَّه ويرضاها في محو الذنوب أعظم من تأثير المصائب التي تناله بغير اختياره»[(١)].

وإلى صحة هذا القول رمز ابن كثير في تفسيره معتبرا أنه هو الثابت في السنة وهو الذي صحت به الآثار عن السلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ»[(٢)].

* * *

(١) طريق الهجرتين (٢٤٥-٢٥٠).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٦/ ١٣٧).

قوله تعالى: ﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «قوله: ﴿وَمَن تَابَ﴾ يقول: ومن تاب من المشركين، فآمن بالله ورسوله ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ يقول: وعمل بما أمره الله فأطاعه، فإن الله فاعل به من إبداله سيئ أعماله في الشرك بحسنها في الإسلام، مثل الذي فعل من ذلك بمن تاب وآمن وعمل صالحا قبل نزول هذه الآية من أصحاب رسول الله ﷺ»[(١)].

قال ابن كثير: «كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾﴾[(٢)]، وقال: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾[(٣)]، وقال: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾[(٤)]؛ أي: لمن تاب إليه»[(٥)].

قال المنصوري: «ومعنى المتاب: التوبة التامة، وهي الجمع بين ترك القبيح، وفعل الجميل، وكان المعنى أن توبته صادقة، لا غش فيها ولا زغل»[(٦)].

قال ابن باديس: «دعا الله بهذا عباده المذنبين حتى لا يتسرب القنوط إلى قلوبهم، وهو محرم عليهم، ولا يحول بينهم وبين خالقهم ذنب وإن عظم. ورغبهم في التوبة بأنها رجوع إليه وكفى، وأن الرجوع إليه فيه من الخير والشرف فوق ما تصوره الألفاظ. فما أحلمه من رب كريم، وما أرحمه بعباده المذنبين فهذا داعي الله فأجيبوه، وهذا باب الله فلجوه؛ فإنكم مهما رجعتم إليه لا تطردوا، ومهما قصدتم إليه تقبلوا وتكرموا»[(٧)].

* * *

(١) جامع البيان (١٩/ ٤٨).
(٢) النساء: الآية (١١٠).
(٣) التوبة: الآية (١٠٤).
(٤) الزمر: الآية (٥٣).
(٥) تفسير القرآن العظيم (٥/ ١٧٠).
(٦) المقتطف من عيون التفاسير (٤/ ٣٨).
(٧) تفسير ابن باديس ص (٢٢٩).

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشۡهَدُونَ ٱلزُّورَ﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «اختلف أهل التأويل في معنى الزور الذي وصف اللّٰه هؤلاء القوم بأنهم لا يشهدونه، فقال بعضهم: معناه الشرك باللّٰه..

وقال آخرون: بل عني به الغناء..

وقال آخرون: هو قول الكذب..

قال أبو جعفر: وأصل الزور تحسين الشيء، ووصفه بخلاف صفته، حتى يخيل إلى من يسمعه أو يراه، أنه خلاف ما هو به، والشرك قد يدخل في ذلك؛ لأنه محسَّن لأهله، حتى قد ظنوا أنه حق، وهو باطل، ويدخل فيه الغناء؛ لأنه أيضًا مما يحسنه ترجيع الصوت، حتى يستحلي سامعه سماعه، والكذب أيضًا قد يدخل فيه لتحسين صاحبه إياه، حتى يظنّ صاحبه أنه حق، فكل ذلك مما يدخل في معنى الزور. فإذا كان ذلك كذلك، فأولى الأقوال بالصواب في تأويله أن يقال: والذين لا يشهدون شيئًا من الباطل لا شركا، ولا غناء، ولا كذبا ولا غيره، وكلّ ما لزمه اسم الزور؛ لأن اللّٰه عمّ في وصفه إياهم أنهم لا يشهدون الزور، فلا ينبغي أن يخص من ذلك شيء إلا بحجة يجب التسليم لها، من خبر أو عقل»[1].

قال ابن القيم: «وهذه الآية وإن كان سبب نزولها خاصا فمعناها عام متناول لكل من سمع لغوا فأعرض عنه وقال بلسانه أو بقلبه لأصحابه: لنا أعمالنا ولكم أعمالكم. وتأمل كيف قال سبحانه: ﴿لَا يَشۡهَدُونَ ٱلزُّورَ﴾[2] ولم يقل: بالزور لأن يشهدون بمعنى: يحضرون فمدحهم على ترك حضور مجالس الزور فكيف بالتكلم به وفعله والغناء من أعظم الزور. والزور: يقال على الكلام الباطل وعلى العمل الباطل وعلى العين نفسها كما في حديث معاوية لما أخذ قصة من شعر يوصل به

---

(١) جامع البيان (١٩/ ٤٨-٤٩).

(٢) الآية (٧٢).

فقال: هذا الزور فالزور: القول والفعل والمحل. وأصل اللفظة من الميل ومنه الزور بالفتح ومنه: زرت فلانا إذا ملت إليه وعدلت إليه، فالزور: ميل عن الحق الثابت إلى الباطل الذي لا حقيقة له قولا وفعلا»[(١)].

قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وإذا كانوا لا يشهدون الزور، فمن باب أولى وأحرى أن لا يقولوه ويفعلوه. وشهادة الزور داخلة في قول الزور، تدخل في هذه الآية بالأولوية»[(٢)].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في الترهيب من شهادة الزور

* عن أبي بكرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال النبي ﷺ: **«ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ثلاثا»؟** قالوا: بلى يا رسول اللّه. قال: **«الإشراك باللّه، وعقوق الوالدين وجلس وكان متكئا فقال-: ألا وقول الزور. قال: فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت»**[(٣)].

★ فوائد الحديث:

قال العيني: «قوله: «ثلاثًا» أي: قال لهم: «ألا أنبئكم» ثلاث مرات، وإنما كرره تأكيدًا ليتنبه السامع على إحضار فهمه، وكانت عادته ﷺ إعادة حديثه ثلاثًا ليفهم عنه.

قوله: «الإشراك بالله» مرفوع على أنه خبر مبتدأ محذوف أي: أكبر الكبائر الإشراك باللّه؛ لأنه لا ذنب أعظم من الإشراك باللّه.

قوله: «وعقوق الوالدين» إنما ذكر هذا «وقول الزور» مع الإشراك باللّه، مع أن الإشراك أكبر الكبائر بلا شك لأنهما يشابهانه من حيث إن الأب سبب وجوده ظاهرا وهو يربيه، ومن حيث إن المزور يثبت الحق لغير مستحقه، فلهذا ذكرهما اللّه تعالى حيث قال: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ﴾[(٤)].

---

(١) إغاثة اللهفان (١/ ٣٦٥-٣٦٦).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٤٩٨).

(٣) أخرجه: أحمد (٥/ ٣٧-٣٨)، والبخاري (٥/ ٣٢٨/ ٢٦٥٤)، ومسلم (١/ ٩١/ ٨٧)، والترمذي (٤/ ٢٧٥/ ١٩٠١).

(٤) الحج: الآية (٣٠).

قوله: «**وجلس**» أي: للاهتمام بهذا الأمر، وهو يفيدنا تأكيد تحريمه وعظم قبحه.

قوله: «**وكان متكئا**» جملة حالية. وسبب الاهتمام بذلك كون قول الزور أو شهادة الزور أسهل وقوعا على الناس، والتهاون بها أكثر؛ لأن الحوامل عليه كثيرة: كالعداوة والحقد والحسد.. وغير ذلك، فاحتيج إلى الاهتمام بتعظيمه، والشرك مفسدته قاصرة، ومفسدة الزور متعدية»[1].

قال الحافظ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وفي الحديث تحريم شهادة الزور، وفي معناها كل ما كان زورا من تعاطي المرء ما ليس له أهلا»[2].

قال ابن العربي: «وهي كبيرة عظمى ومصيبة في الإسلام كبرى لم تحدث حتى مات الخلفاء الثلاثة، وضربت الفتنة سرادقها، فاستظل بها أهل الباطل، وتقوّلوا على اللَّه وعلى رسوله ما لم يكن، وقد عدلت شهادة الزور في الحديث الصحيح[3] الإشراك باللَّه، وتوعد عليها رسول اللَّه ﷺ حتى قالت الصحابة: ليته سكت.. ويكون بها الفساد، وهو عديل الشرك اسما ومعنى، لما فيه من قلب الحقائق»[4].

قال الذهبي: «شاهد الزور قد ارتكب عظائم، أحدها: الكذب والافتراء، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِى مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ كَذَّابٞ﴾[5]..

وثانيها: إنه ظلم الذي شهد حتى أخذ بشهادته ماله و عرضه و روحه.

وثالثها: إنه ظلم الذي شهد له بأن ساق إليه المال الحرام فأخذه بشهادته فوجبت له النار و قال ﷺ: «**من قضيت له من مال أخيه بغير حق فلا يأخذه فإنما أقطع له قطعة من نار**»[6].

---

(١) عمدة القاري (٩/ ٥٠٦). (٢) الفتح (٥/ ٣٣٠).

(٣) قلت: يشير ابن العربي رَحِمَهُ اللَّهُ بقوله في الحديث الصحيح الإشراك باللَّه إلى حديث أيمن بن خريم رواه أحمد (٤/ ١٧٨)، وأبو داود (٤/ ٢٣-٢٤/ ٣٥٩٩)، وابن ماجه (٢/ ٧٩٤/ ٢٣٧٢)، والترمذي (٤/ ٤٧٤/ ٢٢٩٩) وإسناده ضعيف لجهالة فاتك بن فضالة وهو ابن شريك مجهول، وأيمن بن خريم وهو ابن فاتك الأسدي مختلف في صحبته، والحديث قال الشيخ الألباني: ضعيف. انظر ضعيف ابن ماجه (١٨٣) وتعليق الأرنئووط على المسند (٤/ ١٧٨).

(٤) عارضة الأحوذي (٩/ ١٧٨). (٥) غافر: الآية (٢٨).

(٦) أخرجه: أحمد (٦/ ٢٠٣) والبخاري (٥/ ٣٦١/ ٢٦٨٠) ومسلم (٣/ ١٣٣٧/ ١٧١٣) وأبو داود (٤/ ١٢-١٤/ ٣٠٨٣) والترمذي (٣/ ٦٢٤/ ١٣٣٩) والنسائي (٨/ ٦٢٥/ ٥٤١٦) وابن ماجه (٢/ ٧٧٧/ ٢٣١٧).

و«رابعها»: أباح ما حرم اللَّه تعالى و عصمه من المال و الدم و العرض قال رسول اللَّه ﷺ: «**ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ الإشراك باللَّه، و عقوق الوالدين، ألا وقول الزور، ألا و شهادة الزور، فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت**» رواه البخاري فنسأل اللَّه تعالى السلامة و العافية من كل بلاء»[1].

* * *

(١) الكبائر (ص: ١٢٩-١٣٠).

قوله تعالى : ﴿وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا﴾

★ **غريب الآية:**

اللغو: ما لا يعتد به، وهو الذي يورد لا عن روية وفكر فيجرى مجرى اللغا وهو: صوت العصافير ونحوها من الطيور.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «وقوله: ﴿وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا﴾ اختلف أهل التأويل في معنى اللغو الذي ذُكر في هذا الموضع، فقال بعضهم: معناه: ما كان المشركون يقولونه للمؤمنين، ويكلمونهم به من الأذى. ومرورهم به كراما إعراضهم عنهم وصفحهم..

وقال آخرون: بل معناه: وإذا مروا بذكر النكاح كفوا عنه..

وقال آخرون: إذا مروا بما كان المشركون فيه من الباطل مروا منكرين له..

وقال آخرون: عني باللغو ههنا المعاصي كلها..

قال أبوجعفر: وأولى الأقوال في ذلك بالصواب عندي، أن يقال: إن اللَّه أخبر عن هؤلاء المؤمنين الذين مدحهم بأنهم إذا مروا باللغو مرّوا كراما، واللغو في كلام العرب هو: كل كلام، أو فعل باطل، لا حقيقة له ولا أصل، أو ما يستقبح فسبّ الإنسان الإنسان بالباطل الذي لا حقيقة له من اللغو. وذكر النكاح بصريح اسمه مما يُستقبح في بعض الأماكن، فهو من اللغو، وكذلك تعظيم المشركين آلهتهم من الباطل الذي لا حقيقة لما عظموه على نحو ما عظموه، وسماع الغناء مما هو مستقبح في أهل الدين، فكل ذلك يدخل في معنى اللغو، فلا وجه إذ كان كل ذلك يلزمه اسم اللغو، أن يقال: عُني به بعض ذلك دون بعض، إذ لم يكن لخصوص ذلك دلالة من خبر أو عقل. فإذ كان ذلك كذلك، فتأويل الكلام: وإذا مرّوا بالباطل فسمعوه أو رأوه، مرّوا كراما، مرورهم كراما في بعض ذلك بأن لا يسمعوه، وذلك كالغناء. وفي بعض ذلك بأن يعرضوا عنه ويصفحوا، وذلك إذا أوذوا بإسماع القبيح

من القول، وفي بعضه بأن يَنْهَوْا عن ذلك، وذلك بأن يروا من المنكر ما يغير بالقول فيغيروه بالقول. وفي بعضه بأن يضاربوا عليه بالسيوف، وذلك بأن يروا قوما يقطعون الطريق على قوم، فيستصرخهم المراد ذلك منهم، فيصرخونهم، وكلّ ذلك مرورهم كراما»[١].

قال الشنقيطي: «وهذا المعنى الذي دلت عليه هذه الآية الكريمة أوضحه -جل وعلا- بقوله: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾﴾[٢]»[٣].

* * *

(١) جامع البيان (١٩/ ٤٩-٥٠).
(٢) القصص: الآية (٥٥).
(٣) أضواء البيان (٦/ ٣٥٦).

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾﴾

★ **غريب الآية:**

صمًّا: من الصمم، وهو فقدان حاسة السمع.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: والذين إذا ذكَّرهم مذكِّر بحجج اللَّه، لم يكونوا صما لا يسمعون، وعميا لا يبصرونها ولكنهم يقَاظُ القلوب، فهماء العقول، يفهمون عن اللَّه ما يذِّكرهم به، ويفهمون عنه ما ينبههم عليه، فيوعون مواعظه آذانا سمعته، وقلوبا وعته»[(١)].

قال ابن كثير: «بخلاف الكافر، فإنه إذا سمع كلام اللَّه لا يؤثر فيه ولا يتغير عما كان عليه، بل يبقى مستمرا على كفره وطغيانه وجهله وضلاله، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾[(٢)].

فقوله: ﴿لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ أي: بخلاف الكافر الذي إذا سمع آيات اللَّه فلا تؤثر فيه فيستمر على حاله، كأن لم يسمعها أصم أعمى»[(٣)].

قال ابن جرير: «فإن قال قائل: وما معنى قوله: ﴿لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ أوَ يَخرّ الكافرون صما وعميانا إذا ذكروا بآيات اللَّه، فَيُنْفَى عن هؤلاء ما هو صفة للكفار؟ قيل: نعم، الكافر إذا تُليت عليه آيات اللَّه خرّ عليها أصم وأعمى، وخرّه عليها كذلك: إقامته على الكفر، وذلك نظير قول العرب: سببت فلانا، فقام يبكي،

---

(١) جامع البيان (١٩/ ٥١).

(٢) التوبة: الآيتان (١٢٤و١٢٥).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٥/ ١٧١و١٧٢).

بمعنى فظلّ يبكي، ولا قيام هنالك، ولعله أن يكون بكى قاعدا، وكما يقال: نهيت فلانا عن كذا، فقعد يشتمني: ومعنى ذلك: فجعل يشتمني، وظلّ يشتمني، ولا قعود هنالك، ولكن ذلك قد جرى على ألسن العرب، حتى قد فهموا معناه. وذكر الفرّاء أنه سمع العرب تقول: قعد يشتمني، كقولك: قام يشتمني، وأقبل يشتمني»[1].

قال ابن باديس: «بعدما ذكر تعالى من صفات عباد الرحمن ما ذكر.. ذكر استماعهم للتذكير، تنبيها على أن التذكير محتاج إليه في كل حال، فإذا كان الموصوفون بتلك الصفات يحتاجون إليه فغيرهم أولى، وذلك لأن الغفلة من طبع الإنسان، ودوام الغفلة صدأ القلوب، وصقالها هو التذكير..

وقد صورت الآية حالة المؤمنين بالقرآن الذي ينكب عليه، ويتلقاه بالقبول، ثم لا يتفهمه ولا يتدبره، بحالة الأصم الأعمى في عدم انتفاعه بما انكب عليه، تقبيحا لعدم التفهم والتدبر من المؤمن للآيات، وتحذيرا منه وتنبيها على أن الانتفاع بالقرآن الذي تتفتح به البصائر، وتتسع به المدارك، وتتهذب به الأخلاق، وتتزكى به النفوس، وتتقوم به الأعمال، وتستقيم به الأحوال، إنما يكون بتفهمه، وتدبره، دون مجرد الانكباب عليه بلا تفهم ولا تدبر»[2].



(١) جامع البيان (١٩/ ٥١و٥٢).
(٢) تفسير ابن باديس (ص: ٢٣٤و٢٣٥).

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾﴾

★ **غريب الآية:**

قرة: اقتر فلان اقترارا نحو: تبرد، وقرت عينه تقر: سرت. أصله من القر أي: البرد فقرت عينه، قيل معناه: بردت فصحت وقيل: لأن للسرور دمعة باردة قارة وللحزن دمعة حارة، ولذلك يقال فيمن يدعى عليه: أسخن اللَّه عينه.

إمامًا: الإمام: من يتبع في أقواله وأفعاله وأحواله، ويقتدي به من بعده.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: والذين يرغبون إلى اللَّه في دعائهم ومسألتهم بأن يقولوا: ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا ما تقرّ به أعيننا من أن تريناهم يعملون بطاعتك..

وقيل: هب لنا قرّة أعين، وقد ذكر الأزواج والذريات وهم جمع، وقوله: ﴿قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ واحدة لأن قوله: قرّة أعين مصدر من قول القائل: قرّت عينك قرة، والمصدر لا تكاد العرب تجمعه.

وقوله: ﴿وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ اختلف أهل التأويل في تأويله، فقال بعضهم: معناه: اجعلنا أئمة يَقْتَدِي بنا من بعدنا..

وقال آخرون: بل معناه: واجعلنا للمتقين إماما: بعدنا..

قال أبو جعفر: وأولى القولين في ذلك بالصواب قول من قال: معناه: واجعلنا للمتقين الذين يتقون معاصيك، ويخافون عقابك إماما يأتمون بنا في الخيرات؛ لأنهم إنما سألوا ربهم أن يجعلهم للمتقين أئمة ولم يسألوه أن يجعل المتقين لهم إماما، وقال: ﴿وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ ولم يقل أئمة. وقد قالوا: واجعلنا وهم جماعة؛ لأن الإمام مصدر من قول القائل: أمّ فلان فلانا إماما، كما يقال: قام

فلان قياما وصام يوم كذا صياما. ومن جمع الإمام أئمة، جعل الإمام اسما، كما يقال: أصحاب محمد إمام، وأئمة للناس. فمن وحَّد قال: يأتمّ بهم الناس. وهذا القول الذي قلناه في ذلك قول بعض نحويِّي أهل الكوفة. وقال بعض أهل البصرة من أهل العربية: الإمام في قوله: ﴿لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ جماعة، كما تقول: كلهم عُدُول. قال: ويكون على الحكاية كما يقول القائل: إذا قيل له: من أميركم، هؤلاء أميرنا، واستشهد لذلك بقول الشاعر:

يا عاذِلاتي لا تُرِدْنَ مَلامَتِي ... إنَّ العوَاذلَ لَسْنَ لي بأمِيرِ»[1].

قال ابن عاشور: «وكما سألوا التوفيق والخير لأزواجهم وذرّياتهم سألوا لأنفسهم بعد أن وفقهم اللّه إلى الإيمان أن يجعلهم قُدوةً يَقتدي بهم المتقّون. وهذا يقتضي أنهم يسألون لأنفسهم بلوغَ الدرجات العظيمة من التقوى فإن القدوة يجب أن يكون بالغًا أقصى غاية العمل الذي يرغب المهتمّون به الكمالَ فيه. وهذا يقتضي أيضًا أنهم يسألون أن يكونوا دعاة للدخول في الإسلام وأن يهتدي الناس إليه بواسطتهم»[2].

قال الرازي: «قال بعضهم في الآية ما يدل على أن الرياسة في الدين يجب أن تطلب ويرغب فيها، قال الخليل عليه الصلاة والسلام: ﴿وَٱجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي ٱلْآخِرِينَ ۝٨٤﴾[3]. واحتج أصحابنا بهذه الآية أن فعل العبد مخلوق لله تعالى، قالوا: لأن الإمامة في الدين لا تكون إلا بالعلم والعمل، فدل على أن العلم والعمل إنما يكون بجعل اللّه تعالى وخلقه»[4].

قال السعدي: «ومن المعلوم أن الدعاء ببلوغ شيء دعاء بما لا يتم إلا به، وهذه الدرجة -درجة الإمامة في الدين- لا تتم إلا بالصبر واليقين كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ۝٢٤﴾[5] فهذا الدعاء يستلزم من الأعمال والصبر على طاعة اللّه وعن معصيته وأقداره المؤلمة ومن العلم التام الذي يوصل صاحبه إلى درجة اليقين، خيرا كثيرا وعطاء جزيلا وأن

---

(١) جامع البيان (١٩/ ٥٢-٥٤).
(٢) التحرير والتنوير (١٩/ ٨٣).
(٣) الشعراء: الآية (٨٤).
(٤) التفسير الكبير (٢٤/ ١١٦).
(٥) السجدة: الآية (٢٤).

يكونوا في أعلى ما يمكن من درجات الخلق بعد الرسل»[١].

وفي الآية من الأحكام:

قال ابن باديس: «الأول: التزوج وطلب النسل هو السنة: سنة النبي ﷺ وسنة أصحابه عليهم الرضوان، وسنة عباد الرحمن، وليس من شريعته الحنيفية السمحة، الرهبانية، والتبتل. وقد رأى قوم من الزهاد رجحان الانقطاع إلى العبادة على التزوج والاشتغال بالسعي على الزوج والذرية، فرد عليهم أئمة الدين والفتوى بأن في التزوج اتباعا للسنة، وفي السعي على الأهل ما هو من أعظم العبادة.

وفي التزوج تكثير سواد الأمة والمدافعين عن الملة والقائمين بمصالح الدين والدنيا، وفي هذا ما فيه من الأجر والمثوبة. وفي التبتل مخالفة السنة، وانقطاع النسل، وضعف الأمة وتعطيل المصالح، وخراب العمران، وكفى بهذا كله شرا وفسادا

الثاني: سؤال العبد من ربه أن يهب له من الزوج والذرية ما تقر به عينه، يقتضي سعيه بقدر استطاعته لتحصيل ذلك فيهما، ليقوم بالسببين المشروعين من السعي والدعاء.

فعليه أن يختار ويجتهد عندما يريد التزوج. وأن يقصد إلى ذات الدين.

وفي اختياره واجتهاده في جانب الزوجة سعي في اختيار الولد؛ فإن الزوجة الصالحة شأنها أن تربي أولادها على الخير والصلاح.

ثم عليه أن يقوم بتعليم زوجه وأولاده وتهذيبهم وإرشادهم، فيكون قد قام بما عليه في الابتداء والاستمرار، مع دوام التضرع إلى الله تعالى والابتهال.

الثالث: ما تقر به الأعين يحصل به الفرح والسرور؛ فالفرح والسرور بما هو خير وطاعة من حيث إنه نعمة من الله وفضل محمود ومشروع.

الرابع: طلب الرتب العليا في الخير والكمال والسبق إليها والتقدم فيها، مما يدعونا إليه الله، ويرغبنا بمثل هذه الآية فيه، كما قال تعالى: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾[٢] لأن طلب الكمال كمال؛ ولأن من كانت غايته الرتب العليا، إن لم يصل إلى

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٤٩٩-٥٠٠).

(٢) البقرة: الآية (١٤٨).

أعلاها لم ينحط عن أدناها، وإن لم يساو أهلها لم يبعد عنها.

ومن لم يطلب الكمال بقي في النقص، ومن لم تكن له غاية سامية قصر في السعي، وتوانى في العمل.

فالمؤمن يطلب أسمى الغايات حتى إذا لم يصل لم يبعد، وحتى يكون في مظنة الوصول بصحة القصد وصدق النية.

الخامس: من الدين الاقتداء بأهل العلم، والعمل، والاستقامة في الهدي، والسمت.

السادس: لا يكون الإمام إلا تقيا فاق غيره في التقوى.

السابع: إن اقتداء المتقين بأئمتهم إنما هو في التقوى؛ لأنهم ما كانوا أئمة إلا بها، فالآية أفادت: أن المتقين يقتدون بأئمتهم، وأن أئمتهم متقون مثلهم، وأكمل منهم التقوى، وأن اقتداءهم بهم في التقوى لا في غيرها؛ فمن حاد عنها فلا إمامة له»[1].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بركة الزوج، والولد الصالح

* عن عبد الرحمن بن جبير بن نفير، عن أبيه قال: جلسنا إلى المقداد ابن الأسود يوما فمر به رجل فقال: طوبى لهاتين العينين اللتين رأتا رسول الله ﷺ، والله لوددنا أنا رأينا ما رأيت، وشهدنا ما شهدت، فاستُغْضب، فجعلتُ أعجب ما قال إلا خيرا، ثم أقبل إليه فقال: ما يحمل الرجل على أن يتمنى محضرا غيبه الله عنه، لا يدري لو شهده كيف كان يكون فيه، والله لقد حضر رسول الله ﷺ أقوام أكبهم الله على مناخرهم في جهنم لم يجيبوه ولم يصدقوه، أولا تحمدون الله إذ أخرجكم لا تعرفون إلا ربكم مصدقين لما جاء به نبيكم قد كفيتم البلاء بغيركم، والله لقد بعث الله النبي ﷺ على أشد حال بعث عليها فيه نبي من الأنبياء في فترة وجاهلية ما يرون أن دينا أفضل من عبادة الأوثان، فجاء بفرقان فرَق به بين الحق والباطل، وفرَّق بين الوالد وولده، حتى إن كان الرجل ليرى والده وولده أو أخاه

(١) تفسير ابن باديس (ص: ٢٣٧-٢٣٩).

كافرا وقد فتح اللَّه قُفْل قلبه للإيمان يعلم أنه إن هلك دخل النار فلا تقر عينه وهو يعلم أن حبيبه في النار وأنها لَلّتي قال ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾»[١].

★ غريب الحديث:

لوددنا: لتمنينا.

فاستغضب: أي أغضبته هذه الكلمة غضبا شديدا.

يتمنى محضرا غيبه اللَّه عنه: أي يتمنى أن يكون حضر ذلك المحضر.

★ فوائد الحديث:

قال القرطبي: «إن الإنسان إذا بورك له في ماله وولده قرت عينه بأهله وعياله، حتى إذا كانت عنده زوجة اجتمعت له فيها أمانيه من جمال وعفة ونظر وحوطة أو كانت عنده ذرية محافظون على الطاعة، معاونون له على وظائف الدين والدنيا، لم يلتفت إلى زوج أحد ولا إلى ولده، فتسكن عينه عن الملاحظة، ولا تمتد عينه إلى ما ترى، فذلك حين قرة العين، وسكون النفس»[٢].

وسئل الحسن البصري عن هذه الآية التي احتج بها المقداد في هذا المقام فقال: «أن يري اللَّه العبد المسلم من زوجته ومن أخيه ومن حميمه طاعة اللَّه، لا واللَّه لا شيء أقر لعين المسلم من أن يرى ولدا أو ولد ولد أو أخا أو حميما مطيعا لله ﷻ»[٣].

قال الجيلاني: «كما يجب على المرء امتثال أمور اللَّه الشرعية كذلك ينبغي له أن يرضى بالأمور الكائنة التي ليس له بد منها، ولعلها تتضمن أمورا فيها له خير، ولا يخلو أن يكون فيها حفظه عن مفاسد كثيرة أو إعداده لمصالح كبيرة واستعداه لمشاق شديدة»[٤].

---

(١) أخرجه: أحمد (٦/ ٢-٣)، والبخاري في الأدب المفرد (٨٧)، والطبراني (٢٠/ ٢٥٣-٢٥٤/ ٦٠٠)، وأبو نعيم في الحلية (١/ ١٧٥-١٧٦).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (١٣/ ٨٢).

(٣) عزاه إليه الحافظ ابن كثير في تفسير (٣/ ٣٢٩).

(٤) فضل اللَّه الصمد (١/ ١٦٤).

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة: إلا من صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له»[(١)].

★ **فوائد الحديث:**

قال النووي: «قال العلماء: معنى الحديث أن عمل الميت ينقطع بموته وينقطع تجدد الثواب له إلا في هذه الأشياء الثلاثة لكونه كان سببها.

قال: وفيه فضيلة الزواج لرجاء ولد صالح»[(٢)].

قال القرطبي: «إنما خصَّ هذه الثلاثة بالذكر في هذا الحديث؛ لأنها أصول الخير، وأغلب ما يقصد أهل الفضل بقاءه بعدهم.

قال: وفيه ما يدل على الاجتهاد في حمل الأولاد على طريق الخير والصلاح ووصيتهم بالدعاء عند موته وبعد الموت»[(٣)].

قال البنا: «وفائدة تقييده بالولد مع أن دعاء غيره ينفعه تحريض الولد على الدعاء لأصله»[(٤)].

قال الشيخ ابن عثيمين: «ولد صالح يدعو له ولد يشمل ذكرا وأنثى- يعني: ابنا أو بنتا، يشمل ابنك لصلبك وابنتك لصلبك وأبناء أبنائك وأبناء بناتك وبناتك وبنات أبنائك وبنات بناتك إلى آخره، ولد صالح يدعو له، ولم يقل: ولد صالح يصلي له، أو يقرأ له القرآن، أو يتصدق عنه، أو يصوم عنه؛ لا ما قال هذا مع أن هذه كلها أعمال صالحة، بل قال: ولد صالح يدعو له، وفي هذا دليل على أن الدعاء لأبيه وأمه وجده وجدته أفضل من الصدقة عنهم، وأفضل من الصلاة لهم، وأفضل من الصيام لهم؛ لأن النبي ﷺ لا يمكن أن يدل أمته إلا على خير ما يعلمه لهم، ما من نبي بعثه الله إلا دل أمته على خير ما يعلمه لهم. فلو علم الرسول ﷺ أن كونك تتصدق عن أبيك وأمك أفضل من الدعاء، لقال في الصدقة ما قال الدعاء،

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٧٢)، ومسلم واللفظ لهما (٣/ ١٢٥٥/ ١٦٣١)، وأبو داود (٣/ ٣٠٠/ ٢٨٨٠)، والترمذي (٣/ ٦٦٠/ ١٣٧٦)، والنسائي (٦/ ٥٦١-٥٦٢/ ٣٦٥٣).

(٢) شرح مسلم (١١/ ٧٢).

(٣) المفهم (٤/ ٥٥٥).

(٤) الفتح الرباني (٩/ ٢٠٤).

فلما عدل عن الصدقات، والصيام، والصلاة، وقراءة القرآن، والمقام مقام تحدث عن الأعمال، لما عدل عن هذه الأعمال إلى الدعاء علمنا يقينا لا إشكال فيه أن الدعاء أفضل من ذلك، فلو سألنا سائل: أيهما أفضل أتصدق لأبي أو أدعو له؟ قلنا: الدعاء أفضل؛ لأن رسول اللَّه هكذا أرشدنا، فقال: أو ولد صالح يدعو له، والعجيب أن العوام وأشباه العوام يظنون أن الإنسان إذا تصدق عن أبيه أو صام يوما لأبيه أو قرأ حزبا من القرآن لأبيه، أو ما أشبه ذلك، يرون أنه أفضل من الدعاء، ومصدر هذا هو الجهل، وإلا فمن تدبر النصوص علم أن الدعاء أفضل، ولهذا لم يرشد النبي ﷺ في أي حديث بحرف واحد إلى العمل الصالح يجعله الإنسان لوالده أبدا، قال الإمام مالك: إنه حصلت قضايا أعيان يسأله الصحابة، هل يتصدقوا عن أبيه وهو ميت؟ وعن أمه وهي ميتة؟ فيقول: نعم، لا بأس، لكنه لم يحث الأمة على ذلك ولم يرشدهم إلى هذا، لكن سئل في قضايا أعيان، سعد بن عبادة رضي الله عنه سأله هل يتصدق بحائطه، يعني: ببستانه عن أمه بعد موتها، قال الرسول: نعم، وجاءه رجل قال: يا رسول اللَّه إن أمي افتلتت نفسها، يعني ماتت بغتة، أفأتصدق عنها، قال: نعم، لكن لما أراد أن يشرع تشريعا عاما للأمة قال: «**أو ولد صالح يدعو له**»[1].



(١) شرح رياض الصالحين (٣/ ٣٣٤).

قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوۡنَ فِيهَا تَحِيَّةٗ وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ حَسُنَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا ﴿٧٦﴾﴾

★ غريب الآية:

الغرفة: الدرجة الرفيعة. وكل بيت عال فهو غرفة.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «لما ذكر تعالى من أوصاف عباده المؤمنين ما ذكر من هذه الصفات الجميلة، والأفعال والأقوال الجليلة قال بعد ذلك كله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي: المتصفون بهذه ﴿يُجۡزَوۡنَ﴾ أي: يوم القيامة ﴿ٱلۡغُرۡفَةَ﴾ وهي الجنة. قال أبو جعفر الباقر، وسعيد بن جبير، والضحاك، والسُّدِّيّ: سميت بذلك لارتفاعها. ﴿بِمَا صَبَرُواْ﴾ أي: على القيام بذلك ﴿وَيُلَقَّوۡنَ فِيهَا﴾ أي: في الجنة ﴿تَحِيَّةٗ وَسَلَٰمًا﴾ أي: يُبْتَدرُون فيها بالتحية والإكرام، ويلقون فيها التوقير والاحترام، فلهم السلام وعليهم السلام، فإن الملائكة يدخلون عليهم من كل باب، سلام عليكم بما صبرتم، فنعم عقبى الدار.

وقوله: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ﴾ أي: مقيمين، لا يظعنون ولا يَحُولون ولا يموتون، ولا يزولون عنها ولا يبغون عنها حولا كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي ٱلۡجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾[(١)]»[(٢)].

الظاهر أن المراد بالغرفة في هذه الآية الكريمة جنسها الصادق بغرف كثيرة كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَهُمۡ فِي ٱلۡغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾[(٣)] وقوله تعالى: ﴿لَهُمۡ غُرَفٞ مِّن فَوۡقِهَا غُرَفٞ مَّبۡنِيَّةٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ﴾[(٤)]»[(٥)].

قال السعدي: «والحاصل: أن الله وصفهم بالوقار والسكينة والتواضع له

---

(١) هود: الآية (١٠٨).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٥/ ١٧٤).
(٣) سبأ: الآية (٣٧).
(٤) الزمر: الآية (٢٠).
(٥) أضواء البيان (٦/ ٣٥٨).

ولعباده وحسن الأدب والحلم وسعة الخلق والعفو عن الجاهلين والإعراض عنهم ومقابلة إساءتهم بالإحسان وقيام الليل والإخلاص فيه، والخوف من النار والتضرع لربهم أن ينجيهم منها وإخراج الواجب والمستحب في النفقات والاقتصاد في ذلك -وإذا كانوا مقتصدين في الإنفاق الذي جرت العادة بالتفريط فيه أو الإفراط، فاقتصادهم وتوسطهم في غيره من باب أولى- والسلامة من كبائر الذنوب والاتصاف بالإخلاص لله في عبادته والعفة عن الدماء والأعراض والتوبة عند صدور شيء من ذلك، وأنهم لا يحضرون مجالس المنكر والفسوق القولية والفعلية ولا يفعلونها بأنفسهم وأنهم يتنزهون من اللغو والأفعال الردية التي لا خير فيها، وذلك يستلزم مروءتهم وإنسانيتهم وكمالهم ورفعة أنفسهم عن كل خسيس قولي وفعلي، وأنهم يقابلون آيات اللَّه بالقبول لها والتفهم لمعانيها والعمل بها، والاجتهاد في تنفيذ أحكامها، وأنهم يدعون اللَّه تعالى بأكمل الدعاء، في الدعاء الذي ينتفعون به، وينتفع به من يتعلق بهم وينتفع به المسلمون من صلاح أزواجهم وذريتهم، ومن لوازم ذلك سعيهم في تعليمهم ووعظهم ونصحهم لأن من حرص على شيء ودعا اللَّه فيه لا بد أن يكون متسببا فيه، وأنهم دعوا اللَّه ببلوغ أعلى الدرجات الممكنة لهم وهي درجة الإمامة والصديقية.

فلله ما أعلى هذه الصفات وأرفع هذه الهمم وأجل هذه المطالب، وأزكى تلك النفوس، وأطهر تلك القلوب، وأصفى هؤلاء الصفوة، وأتقى هؤلاء السادة. ولله، فضل اللَّه عليهم ونعمته ورحمته التي جللتهم، ولطفه الذي أوصلهم إلى هذه المنازل. ولله، منة اللَّه على عباده أن بين لهم أوصافهم، ونعت لهم هيئاتهم وبين لهم هممهم، وأوضح لهم أجورهم، ليشتاقوا إلى الاتصاف بأوصافهم، ويبذلوا جهدهم في ذلك، ويسألوا الذي من عليهم وأكرمهم الذي فضله في كل زمان ومكان، وفي كل وقت وأوان، أن يهديهم كما هداهم ويتولاهم بتربيته الخاصة كما تولاهم»[١].

قال ابن القيم في معرض رده على من فضل الفقير الصابر على الغني الشاكر:
«أما الآية فالصبر فيها يتناول صبر الشاكر على طاعته، وصبره عن معصيته، وصبر

---

(١) تفسير السعدي (٥/ ٥٠٠-٥٠٢).

المبتلى بالفقر وغيره على بلائه، ولو كان المراد بها الصبر على الفقر وحده لم يدل رجحانه على الشكر، فإن القرآن كما دل على جزاء الصابرين دل على جزاء الشاكرين أيضًا، كما قال تعالى: ﴿وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ﴾[(١)] ﴿وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾[(٢)] بل قد أخبر أن رضاه في الشكر، ورضاه أكبر من جزائه بالجنات وما فيها، وإذا جزى اللَّه الصابرين الغرفة بما صبروا لم يدل ذلك على أنه لا يجزي الشاكرين الغرفة بما شكروا»[(٣)].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في صفة الجنة وموجبات دخولها

* عن أبي مالك الأشعري قال: قال رسول اللَّه ﷺ: **«إن في الجنة غرفة يرى ظاهرها من باطنها، وباطنها من ظاهرها أعدها اللَّه لمن أطعم الطعام، وألان الكلام، وتابع الصيام، وصلى والناس نيام»**[(٤)].

★ فوائد الحديث:

قال المناوي: «**«إن في الجنة غرفا يرى»** بالبناء للمفعول، أي يرى أهل الجنة **«ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها»** لكونها شفافة لا تحجب ما وراءها قالوا: لمن هي يا رسول الله؟ قال: **«أعدها اللَّه تعالى»** أي هيأها **«لمن أطعم الطعام»** في الدنيا للعيال والفقراء والأضياف والإخوان ونحوهم **«وألان الكلام»** أي: تملق للناس واستعطفهم، قال في الصحاح: اللين ضد الخشونة، وقد لان الشيء لينا وألينه: صيره لينا، وقد ألانه أيضًا على النقصان والتمام، وتلين تملق»[(٥)].

وقال ابن القيم: «والغرفة جنس كالجنة، وتأمل كيف جعل جزاءهم على هذه الأقوال المتضمنة للخضوع والذل والاستكانة لله الغرفة والتحية والسلام في مقابلة صبرهم على سوء خطاب الجاهلين لهم، فبدلوا بذلك سلام اللَّه وملائكته عليهم»[(٦)].

---

(١) آل عمران: الآية (١٤٥). (٢) آل عمران: الآية (١٤٤).
(٣) عدة الصابرين (٢٨٦).
(٤) أخرجه: أحمد (٥/ ٣٤٣)، وابن حبان (٢/ ٢٦٢/ ٥٠٩)، والحاكم (١/ ٨٠) عن عبداللَّه بن عمرو. والطبراني (٣/ ٣٤٢/ ٣٤٦٦ و ٣٤٦٧)، قال الهيثمي في المجمع (٢/ ٢٥٤): رواه الطبراني في الكبير ورجاله ثقات، ومصنف عبدالرزاق (١١/ ٤١٨-٤١٩/ ٢٠٨٨٣) وفي الباب عن علي عند الترمذي (٤/ ٣١١/ ١٩٨٤).
(٥) الفيض (٢/ ٤٦٥). (٦) حادي الأرواح (ص: ١٢٨).

قال الطيبي: «جعل جزاء من تلطف في الكلام الغرفة، كما في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ﴾ بعد قوله: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا ۝٦٣﴾[1]. وفيه تلويح إلى أن لين الكلام من صفات عباد اللّٰه الصالحين الذين خضعوا لبارئهم، وعاملوا الخلق بالرفق في الفعل والقول. ولذلك جعلت جزاء من أطعم الطعام، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ﴾[2]. فدل على أن الجواد من شأنه أن يتوخى القصد في الإطعام والبذل، ليكون من عباد الرحمن، وإلا كان من إخوان الشيطان، وكذا جعلت جزاء من صلى بالليل، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمۡ سُجَّدٗا وَقِيَٰمٗا ۝٦٤﴾[3]، فأومأ به إلى أن المتهجد ينبغي أن يتحرى في القيام الإخلاص ويجتنب الرياء؛ لأن البيوتة للرب لم تشرع إلا لإخلاص العمل لله. ولم يذكر الصيام في التنزيل استغناء بقوله: ﴿بِمَا صَبَرُواْ﴾؛ لأن الصيام صبر كله، وفي تأخيره بالذكر بعد ذكر الجزاء إرادة إلى قوله ﷺ: «**الصوم لي وأنا أجزي به**»[4] تبليغا لقول اللّٰه تعالى»[5].

* * *

(١) الفرقان: الآية (٦٣).
(٢) الفرقان: الآية (٦٧).
(٣) الفرقان: الآية (٦٤).
(٤) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٧٣)، والبخاري (٤/ ١٣٠/ ١٨٩٤)، ومسلم (٨٠٧/ ١١٥١)، وأبو داود (٢/ ٧٦٨/ ٢٣٦٣)، والترمذي (٣/ ١٣٦/ ٧٦٤)، والنسائي (٤/ ٤٧١-٤٧٣/ ٢٢١٣/ ٢٢١٨).
(٥) الكاشف عن حقائق السنن (٤/ ١٢٠٨-١٢٠٩).

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُاْ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَآؤُكُمْۖ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴿٧٧﴾﴾

★ **غريب الآية:**

يعبؤا: يبالي ويهتم. أصله من العبء: وهو الثقل. والمعنى: لا وزن لكم ولا قدر.

لزاما: أي ملازما لكم لا ينفك. من لزمه يلزمه ملازمة ولزاما: إذا أطال المكث معه.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «أي: لا يبالي ولا يكترث بكم إذا لم تعبدوه؛ فإنه إنما خلق الخلق ليعبدوه ويوحدوه ويسبحوه بكرة وأصيلا.

قال مجاهد، وعمرو بن شعيب: ﴿مَا يَعْبَؤُاْ بِكُمْ رَبِّي﴾ يقول: ما يفعل بكم ربي.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُاْ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَآؤُكُمْۖ﴾ يقول: لولا إيمانكم، وأخبر اللَّه الكفار أنه لا حاجة له بهم إذ لم يخلقهم مؤمنين، ولو كان له بهم حاجة لحبب إليهم الإيمان كما حببه إلى المؤمنين.

وقوله: ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ﴾ أي: أيها الكافرون ﴿فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾ أي: فسوف يكون تكذيبكم لزامًا لكم، يعني: مقتضيا لعذابكم وهلاككم ودماركم في الدنيا والآخرة، ويدخل في ذلك يوم بدر، كما فسره بذلك عبد اللَّه بن مسعود، وأبي بن كعب، ومحمد بن كعب القرظي، ومجاهد، والضحاك، وقتادة، والسدي، وغيرهم.

وقال الحسن البصري: ﴿فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾ يعني: يوم القيامة. ولا منافاة بينهما»[1].

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٥/ ١٧٤).

قال ابن باديس: «قد أفادت الآية السابقة كمال حال عباد الرحمن في نفوسهم وعقولهم، وأخلاقهم، وأعمالهم، وأفادت عظيم منزلتهم عند ربهم، ورفيع ما أعد لهم من درجاتهم، جزاء على صالحاتهم وحسناتهم. وجاءت هذه الآية تفيد أن ذلك المقام العظيم الذي كان عند ربهم، إنما هو بسبب عبادتهم. وتعلم للناس أن عبادتهم هي الشيء الوحيد، الذي يكون لهم به قدر وقيمة عند ربهم، وبدونها لا يكون لهم وزن عند خالقهم، ولا يكونون شيئًا يبالى به. وأن من كذب وخلع بتكذيبه ربقة العبادة، فقد حقت عليه كلمة العذاب، وهو واقع به لا محالة»[١].

* * *

(١) تفسير ابن باديس: الآية (٢٤٣).



سورة الشعراء

أغراض السورة

قال ابن عاشور: «أولها التنويه بالقرآن، والتعريض بعجزهم عن معارضته، وتسلية النبي ﷺ على ما يلاقيه من إعراض قومه عن التوحيد الذي دعاهم إليه القرآن.

وفي ضمنه تهديدهم على تعرضهم لغضب اللَّه تعالى، وضرب المثل لهم بما حل بالأمم المكذبة رسلها والمعرضة عن آيات اللَّه.

وأحسب أنها نزلت إثر طلب المشركين أن يأتيهم الرسول بخوارق فافتتحت بتسلية النبي ﷺ وتثبيت له ورباطة لجأشه بأن ما يلاقيه من قومه هو سنة الرسل من قبله مع أقوامهم مثل موسى وإبراهيم ونوح وهود وصالح ولوط وشعيب؛ ولذلك ختم كل استدلال جيء به على المشركين المكذبين بتذييل واحد هو قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۝٨ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ۝٩﴾ تسجيلًا عليهم بأن آيات الوحدانية وصدق الرسل عديدة كافية لمن يتطلب الحق ولكن أكثر المشركين لا يؤمنون، وأن اللَّه عزيز قادر على أن ينزل بهم العذاب، وأنه رحيم برسله فناصرهم على أعدائهم..

ثم التنويه بالقرآن، وشهادة أهل الكتاب له، والرد على مطاعنهم في القرآن وجعله عضين، وأنه منزه عن أن يكون شعرا ومن أقوال الشياطين، وأمر الرسول ﷺ بإنذار عشيرته، وأن الرسول ما عليه إلا البلاغ، وما تخلل ذلك من دلائل»[1].

---

(١) التحرير (١٩/ ٩٠-٩١).

قوله تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ طسم ۝١﴾

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في مناقب خباب بن الأرت لكونه حفظ سورة الشعراء

* عن معد يكرب قال: أتينا عبداللَّه بن مسعود فسألناه أن يقرأ علينا ﴿طسم ۝١﴾ المائتين فقال: ما هي معي، ولكن عليكم من أخذها من رسول اللَّه ﷺ خباب بن الأرت، فأتينا خباب بن الأرت فقرأها علينا[1].

⋆ غريب الحديث:

(طسم) المائتين: هي سورة الشعراء، ويؤيده رواية الطبراني: أتينا عبداللَّه بن مسعود نسأله (طسم) الشعراء.

⋆ فوائد الحديث:

قال السندي: «يحتمل أنه -أي: عبد اللَّه بن مسعود- ما حفظها أو حفظها لكن لا بالسماع من النبي ﷺ»[2].

فيه فضيلة لخباب بن الأرت رضي الله عنه لأخذه سورة الشعراء من رسول اللَّه ﷺ.

* * *

---

(١) أخرجه: أحمد (١/ ٤١٩) والطبراني في الكبير (٤/ ٥٥/ ٣٦١٤) وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٧/ ٨٤) وقال: «رواه أحمد ورجاله ثقات ورواه الطبراني». وصححه الشيخ أحمد شاكر رحمه الله في تعليقه على المسند.

(٢) حاشية المسند (٧/ ٨٨ طبعة الأرنؤوط).

قوله تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ۝٣﴾

★ غريب الآية:

باخع نفسك: مهلك وقاتل.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «فتأويل الكلام على قول ابن عباس والجميع: إن هذه الآيات التي أنزلتها على محمد ﷺ في هذه السورة لآيات الكتاب الذي أنزلته إليه من قبلها الذي بين لمن تدبره بفهم، وفكر فيه بعقل، أنه من عند اللّه جلّ جلاله، لم يتخرّصه محمد ﷺ، ولم يتقوّله من عنده، بل أوحاه إليه ربه.

وقوله: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ۝٣﴾ يقول -تعالى ذكره-: لعلك يا محمد قاتل نفسك ومهلكها إن لم يؤمن قومك بك، ويصدقوك على ما جئتهم به، والبخْع: هو القتل والإهلاك في كلام العرب»[1].

قال السعدي: «يشير الباري تعالى إشارة، تدل على التعظيم لآيات الكتاب المبين البين الواضح، الدال على جميع المطالب الإلهية، والمقاصد الشرعية، بحيث لا يبقى عند الناظر فيه شك ولا شبهة فيما أخبر به، أو حكم به، لوضوحه، ودلالته على أشرف المعاني، وارتباط الأحكام بحكمها، وتعليقها بمناسبها، فكان رسول اللّه ﷺ ينذر به الناس، ويهدي به الصراط المستقيم، فيهتدي بذلك عباد اللّه المتقون، ويعرض عنه من كتب عليه الشقاء، فكان يحزن حزنا شديدا على عدم إيمانهم، حرصا منه على الخير ونصحا لهم.

فلهذا قال تعالى لنبيه: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ﴾ أي: مهلكها وشاق عليها، ﴿أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ أي: فلا تفعل، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات، فإن الهداية بيد اللّه، وقد

---

(١) جامع البيان (١٩/ ٥٨).

أديت ما عليك من التبليغ، وليس فوق هذا القرآن المبين آية، حتى ننزلها ليؤمنوا بها، فإنه كاف شاف، لمن يريد الهداية»[١].

قال ابن عطية: «الآية تسلية لمحمد ﷺ لما كان من القلق والحرص على إيمانهم فكان من شغل البال في حيز الخوف على نفسه»[٢].

قال الرازي: «ألفاظ القرآن من حيث تعذر عليهم أن يأتوا بمثله يمكن أن يستدل به على فاعل مخالف لهم كما يستدل بسائر ما لا يقدر العباد على مثله، فهو دليل التوحيد من هذا الوجه ودليل النبوة من حيث الإعجاز، ويعلم به بعد ذلك أنه إذا كان من عند اللَّه تعالى فهو دلالة الأحكام أجمع، وإذا ثبت هذا صارت آيات القرآن كافية في كل الأصول والفروع أجمع»[٣].

* * *

(١) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٥٠٤-٥٠٥).

(٢) المحرر الوجيز (٤/ ٢٢٤).

(٣) التفسير الكبير (٢٤/ ١١٩-١٢٠).

قوله تعالى: ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ۝٤﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «أي: لو شئنا لأنزلنا آية تضطرهم إلى الإيمان قهرا، ولكنا لا نفعل ذلك؛ لأنا لا نريد من أحد إلا الإيمان الاختياري؛ وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾[(١)]، وقال: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝١١٨ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ﴾[(٢)] فنفَذ قدَرُه، ومضت حكمته، وقامت حجته البالغة على خلقه بإرسال الرسل إليهم، وإنزال الكتب عليهم»[(٣)].

قال ابن عاشور: «وجعل تنزيل الآية من السماء حينئذ أوضح وأشدّ تخويفًا لقلّة العهد بأمثالها ولتوقع كل من تحت السماء أن تصيبه. فإن قلت: لماذا لم يُرهم آية كما أُرِي بنو إسرائيل نَتْقَ الجبل فوقهم كأنه ظُلَّةٌ؟ قلت: كان بنو إسرائيل مؤمنين بموسى وما جاء به فلم يكن إظهار الآيات لهم لإلجائهم على الإيمان ولكنه كان لزيادة تثبيتهم كما قال إبراهيم: ﴿أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾[(٤)].

وفرّع على تنزيل الآية ما هو في معنى الصفة لها وهو جملة ﴿فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ﴾ بفاء التعقيب.. وفيه تمثيل لحال المنقادين الخائفين الأذلّة بحال الخاضعين الذين يتّقون أن تصيبهم قاصمة على رؤوسهم فهم يطأطئون رؤوسهم وينحنون اتقاء المصيبة النازلة بهم»[(٥)].

قال الطبري: «اختلف أهل التأويل في تأويل قوله: ﴿فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ﴾ الآية فقال بعضهم: معناه: فظل القوم الذين أنزل عليهم من السماء آية خاضعة أعناقهم لها من الذلة.. وقال آخرون: بل معنى ذلك: فظلت سادتهم وكبراؤهم للآية خاضعين،

---

(١) يونس: الآية (٩٩).

(٢) هود: الآيتان (١١٨و١١٩).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٦/ ١٤٤-١٤٥).

(٤) البقرة: الآية (٢٦٠).

(٥) التحرير والتنوير (١٩/ ٩٥-٩٦).

ويقول: الأعناق: هم الكبراء من الناس.. قال أبو جعفر: وأولى الأقوال في ذلك بالصواب وأشبهها بما قال أهل التأويل في ذلك أن تكون الأعناق هي أعناق الرجال، وأن يكون معنى الكلام: فظلت أعناقهم ذليلة للآية التي ينزلها الله عليهم من السماء، ويكون قوله: ﴿خَٰضِعِينَ﴾ مذكرا لأنه خبر عن الهاء والميم في الأعناق فيكون ذلك نظير قول جرير:

أرى مرَّ السنين أخذن مني كما أخذ السرار من الهلال

وذلك أن قوله: مر لو أسقط من الكلام لأدى ما بقي من الكلام عنه، ولم يفسد سقوطه معنى الكلام عما كان به قبل سقوطه، وكذلك لو أسقطت الأعناق من قوله: ﴿فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ﴾ لأدى ما بقي من الكلام عنها، وذلك أن الرجال إذا ذلوا فقد ذلت رقابهم، وإذا ذلت رقابهم فقد ذلوا»[١].

قال المراغي: «والخلاصة أن القرآن وإن بلغ في البيان الغاية غير موصل لهم إلى الإيمان، فلا تبالغ في الأسى والحزن، فإنك إن فعلت ذلك كنت كمن يقتل نفسه ثم لا ينتفع بذلك، فكما أن الكتاب على وضوحه لم يفدهم شيئًا، فحزنك عليهم لا يجدي نفعا، وقد كان في مقدورنا أن نلجئهم إلى الإيمان إلجاء، ولكن جرت سنتنا أن يكون الإيمان طوعا لا كرها، ومن جراء هذا أرسلنا رسلنا بالعظات والزواجر، وأنزلنا الكتب لتهديهم إلى سواء السبيل، لكنهم ضلوا وأضلوا، وما ربك بظلام للعبيد»[٢].

* * *

---

(١) جامع البيان (١٩/ ٦٢).

(٢) تفسير المراغي (١٩/ ٤٥-٤٦).

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴿٥﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: وما يجيء هؤلاء المشركين الذين يكذّبونك ويجحدون ما أتيتهم به يا محمد من عند ربك من تذكير وتنبيه على مواضع حجج اللَّه عليهم على صدقك، وحقيقة ما تدعوهم إليه مما يحدثه اللَّه إليك ويوحيه إليك، لتذكرهم به، إلا أعرضوا عن استماعه، وتركوا إعمال الفكر فيه وتدبره»[(١)].

قال ابن كثير: «أي كلما جاءهم كتاب من السماء أعرض عنه أكثر الناس كما قال: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾[(٢)]، وقال: ﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣٠﴾﴾[(٣)]، وقال: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ﴾[(٤)]»[(٥)].

وفي الآية يقول أبو السعود: «بيان لشدة شكيمتهم، وعدم ارعوائهم عما كانوا عليه من الكفر، والتكذيب بغير ما ذكر من الآية الملجئة لصرف رسول اللَّه ﷺ عن الحرص على إسلامهم وقطع رجائه عنه.. ففيه دلالة على فضله وشرفه، وشناعة ما فعلوا به، والتعرض لعنوان الرحمة لتغليظ شناعتهم، وتهويل جنايتهم؛ فإن الإعراض عما يأتيهم من جنابه ﷺ على الإطلاق شنيع قبيح، وعما يأتيهم بموجب رحمته تعالى المحض منفعتهم أشنع وأقبح؛ أي: ما يأتيهم من موعظة من المواعظ القرآنية، أومن طائفة نازلة من القرآن تذكرهم أكمل تذكير، وتنبههم عن الغفلة أتم تنبيه كأنها نفس الذكر من جهته تعالى بمقتضى رحمته الواسعة مجدد تنزيله حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة إلا جددوا إعراضا عنه على وجه التكذيب والاستهزاء على ما كانوا عليه من الكفر والضلال»[(٦)].

---

(١) جامع البيان (١٩/ ٦٢).
(٢) يوسف: الآية (١٠٣).
(٣) يس: الآية (٣٠).
(٤) المؤمنون: الآية (٤٤).
(٥) تفسير القرآن العظيم (٥/ ١٧٦).
(٦) تفسير أبي السعود (٦/ ٢٣٤).

قال السعدي: «هذا إعراضهم عن الذكر المحدث الذي جرت العادة أن يكون موقعه أبلغ من غيره، فكيف بإعراضهم عن غيره؟ وهذا لأنهم لا خير فيهم، ولا تنجع فيهم المواعظ»(١).

قال الشيرازي: «ولعل الإتيان بلفظة الرحمن للدلالة على أن المراد بذلك الذكر ما يسبب لهم الرحمة ﴿مُحۡدَثٍ﴾ أي: جديد، كالقرآن ﴿إِلَّا كَانُواْ عَنۡهُ مُعۡرِضِينَ﴾ أي: يعرضون عنه، فقد اعتاد الناس على أن لا يخضعوا إلا للتقاليد وإن رأوا الحق والصدق في الشيء الجديد، فقد كانوا يعاملون مع كل كتاب جديد هذه المعاملة، من غير فرق بين التوراة والإنجيل والقرآن، وسائر الكتب»(٢).

قال ابن تيمية: «إن دلالة هذه الآية على نقيض قولهم(٣) أقوى؛ فإنها تدل على أن بعض الذكر محدث وبعضه ليس بمحدث وهو ضد قولهم. والحدوث في لغة العرب العامة ليس هو الحدوث في اصطلاح أهل الكلام؛ فإن العرب يسمون ما تجدد حادثا وما تقدم على غيره قديما وإن كان بعد أن لم يكن كقوله تعالى: ﴿كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ﴾(٤)، وقوله تعالى عن إخوة يوسف: ﴿تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَٰلِكَ ٱلۡقَدِيمِ﴾(٥)، وقوله تعالى: ﴿وَإِذۡ لَمۡ يَهۡتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفۡكٞ قَدِيمٞ﴾(٦)، وقوله تعالى عن إبراهيم: ﴿أَفَرَءَيۡتُم مَّا كُنتُمۡ تَعۡبُدُونَ ٧٥ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلۡأَقۡدَمُونَ﴾(٧)»(٨).

كما قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إنه لم يزل متكلما إذا شاء ومتى شاء وكيف شاء بكلام يقوم به وهو يتكلم به بصوت يسمع، وأن نوع الكلام أزلي قديم وإن لم يجعل نفس الصوت المعين قديما، وهذا هو المأثور عن أئمة الحديث والسنة»(٩).

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ أيضًا: «فإن قلتم لنا: قد قلتم بقيام الحوادث بالرب. قالوا لكم: نعم، وهذا قولنا الذي دل عليه الشرع والعقل، ومن لم يقل: إن البارئ يتكلم، ويريد، ويحب، ويبغض، ويرضى، ويأتي، ويجيء فقد ناقض كتاب اللَّه تعالى. ومن قال: إنه لم يزل ينادي موسى في الأزل فقد خالف كلام اللَّه مع مكابرة العقل؛

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٥٠٥).
(٢) تقريب القرآن (١٩/ ٤٩).
(٣) الضمير يعود على المعتزلة في احتجاجهم بهذه: الآية على خلق القرآن.
(٤) يس: الآية (٣٩).
(٥) يوسف: الآية (٩٥).
(٦) الأحقاف: الآية (١١).
(٧) الشعراء: الآيتان (٧٥و٧٦).
(٨) درء التعارض (١/ ٣٧٤-٣٧٥).
(٩) منهاج السنة (٢/ ٣٦٢).

لأن اللّه يقول: ﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ﴾[١]، وقال: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٨٢﴾[٢] فأتى بالحروف الدالة على الاستقبال. قالوا: وبالجملة فكل ما يحتج به المعتزلة والشيعة مما يدل على أن كلامه متعلق بمشيئته وقدرته، وأنه يتكلم إذا شاء، وأنه يتكلم شيئًا بعد شيء فنحن نقول به، وما يقول به من يقول إن كلام اللّه قائم بذاته، وإنه صفة له، والصفة لا تقوم إلا بالموصوف، فنحن نقول به، وقد أخذنا بما في قول كل من الطائفتين من الصواب، وعدلنا عما يرده الشرع والعقل من قول كل منهما. فإذا قالوا لنا: فهذا يلزم أن تكون الحوادث قامت به، قلنا: ومن أنكر هذا قبلكم من السلف والأئمة، ونصوص القرآن والسنة تتضمن ذلك مع صريح العقل، وهو قول لازم لجميع الطوائف، ومن أنكره فلم يعرف لوازمه وملزوماته، ولفظ الحوادث مجمل، فقد يراد به الأمراض والنقائص، واللّه تعالى منزه عن ذلك، كما نزه نفسه عن السنة والنوم واللغوب، وعن أن يؤوده حفظ السماوات والأرض، وغير ذلك مما هو منزه عنه بالنص والإجماع. ثم إن كثيرا من نفاة الصفات، المعتزلة وغيرهم، يجعلون مثل هذا حجة في نفي قيام الصفات، أو قيام الحوادث به مطلقا، وهو غلط منهم؛ فإن نفي الخاص لا يستلزم نفي العام، ولا يجب إذا نفيت عنه النقائص والعيوب أن ينتفي عنه ما هو من صفات الكمال ونعوت الجلال، ولكن يقوم به ما يشاؤه ويقدر عليه من كلامه وأفعاله، ونحو ذلك مما دل عليه الكتاب والسنة. ونحن نقول لمن أنكر قيام ذلك به: أتنكره لإنكارك قيام الصفة به كإنكار المعتزلة أم تنكره لأن من قامت به الحوادث لم يخل منها ونحو ذلك مما يقوله الكلابية؟ فإن قال بالأول كان الكلام في أصل الصفات وفي كون الكلام قائما بالمتكلم لا منفصلا عنه كافيا في هذا الباب، وإن كان الثاني قلنا لهؤلاء: أتجوزون حدوث الحوادث بلا سبب حادث أم لا؟ فإن جوزتم ذلك وهو قولكم لزم أن يفعل الحوادث من لم يكن فاعلا لها ولا لضدها، فإذا جاز هذا فلم لا يجوز أن تقوم الحوادث بمن لم تكن قائمة به هي ولا ضدها، ومعلوم أن الفعل أعظم من القبول، فإذا جاز فعلها بلا سبب حادث، فكذلك قيامها بالمحل..»[٣].

---

(١) النمل: الآية (٨).

(٢) يس: الآية (٨٢).

(٣) منهاج السنة (٢/ ٣٨٠-٣٨٢).

قال الرازي: «فنبه تعالى على أنه مع قدرته على أن يجعلهم مؤمنين بالإلجاء، رحيم بهم من حيث يأتيهم حالا بعد حال بالقرآن، وهو الذكر، ويكرره عليهم وهم مع ذلك على حد واحد في الإعراض والتكذيب والاستهزاء، ثم عند ذلك زجر وتوعد؛ لأن المرء إذا استمر على كفره فليس ينفع فيه إلا الزجر الشديد فلذلك قال: ﴿فَقَدۡ كَذَّبُوا۟﴾»[1].

* * *

(١) التفسير الكبير (٢٤/ ١٢٠).

قوله تعالى: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا۟ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٦﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: فقد كذب يا محمد هؤلاء المشركون بالذكر الذي أتاهم من عند اللَّه، وأعرضوا عنه ﴿فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ يقول: فسيأتيهم أخبار الأمر الذي كانوا يسخرون منه، وذلك وعيد منَّ اللَّه لهم أنه محلّ بهم عقابه على تماديهم في كفرهم، وتمرّدهم على ربهم»[(١)].

قال المكي الناصري: «إشارة إلى أن خصوم الرسالات الإلهية يتوارثون الكفر باللَّه وكتبه جيلا بعد جيل، ولا ينفكون عما طبعوا عليه من الجحود والعناد والتضليل، وكلما مَنَّ اللَّه على خلقه بإنزال كتاب إلهي جديد لهدايتهم إلى دين الحق والتوحيد، أعرضوا عن هدايته وتصدوا لمحاربته وإن كان تنزيل آياته يتجدد على فترات، وتعلمه والعمل به في متناول جميع الفئات فهم على باطلهم مصرون في كل حين إلى يوم الدين»[(٢)].

قال الرازي: «وصف الكفار بالإعراض أولًا وبالتكذيب ثانيًا وبالاستهزاء ثالثًا، وهذه درجات من أخذ يترقى في الشقاوة، فإنه يعرض أولًا ثم يصرح بالتكذيب والإنكار إلى حيث يستهزىء به ثالثًا»[(٣)].

قال أبو السعود: «أي: كذبوا بالذكر الذي يأتيهم تكذيبا صريحا مقارنا للاستهزاء به، ولم يكتفوا بالإعراض عنه حيث جعلوه تارة سحرا وأخرى أساطير وأخرى شعرا، والفاء في قوله تعالى: لترتيب ما بعدها على ما قبلها، والسين لتأكيد مضمون الجملة وتقريره؛ أي: فسيأتيهم ألبتة من غير تخلف أصلا، عدل عما يقتضيه سائر ما سلف من الإعراض والتكذيب للإيذان بأنهما كانا مقارنين

(١) جامع البيان (١٩/ ٦٢).
(٢) التيسير (٤/ ٣٦٣-٣٦٤).
(٣) التفسير الكبير (٢٤/ ١٢١).

للاستهزاء كما أشير إليه حسبما وقع في قوله تعالى : ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَـٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٥﴾﴾(١) وأنباؤه ما سيحيق بهم من العقوبات العاجلة والآجلة، عبر عنها بذاك إما لكونها مما نبأ بها القرآن الكريم، وإما لأنهم بمشاهدتها يقفون على حقيقة حال القرآن كما يقفون على الأحوال الخافية عنهم باستماع الأنباء، وفيه تهويل له لأن النبأ لا يطلق إلا على خبر خطير له وقع عظيم؛ أي: فسيأتيهم لا محالة مصداق ما كانوا يستهزءون به قبل من غير أن يتدبروا في أحواله ويقفوا عليها»(٢).

* * *

---

(١) الأنعام: الآيتان (٤و٥).

(٢) تفسير أبي السعود (٦/ ٢٣٤).

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ۝٧﴾

★ **غريب الآية:**

زوج: يقال لكل واحد من القرينين من الذكر والأنثى في الحيوانات المتزاوجة زوج، ولكل قرينين فيها وفي غيرها زوج كالخف والنعل ولكل ما يقترن بآخر مماثلا له أو مضاد زوج.

كريم: النفيس من نوعه، وكل شيء شرف في بابه فإنه يوصف بالكرم.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن عطية: «ولما كان إعراضهم عن النظر في الصانع والإله من أعظم كفرهم، وكانوا يجعلون الأصنام آلهة، ويعرضون عن الذكر في ذلك، نبه على قدرة اللَّه وأنه الخالق المنشئ الذي يستحق العبادة بقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ﴾ الآية»[1].

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: أولم ير هؤلاء المشركون المكذّبون بالبعث والنشر إلى الأرض، ﴿كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا﴾ كم أنبتنا فيها بعد أن كانت ميتة لا نبات فيها ﴿مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ يعني بالكريم: الحسن، كما يقال للنخلة الطيبة الحمل: كريمة، وكما يقال للشاة أو الناقة إذا غزرتا، فكثرت ألبانهما: ناقة كريمة، وشاة كريمة»[2].

قال أبو السعود: «﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ الهمزة للإنكار التوبيخي والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام؛ أي: فعلوا ما فعلوا من الإعراض عن الآيات، والتكذيب، والاستهزاء بها، ولم ينظروا ﴿إِلَى الْأَرْضِ﴾ أي: إلى عجائبها الزاجرة عما فعلوا، الداعية إلى الإقبال على ما أعرضوا عنه، وإلى الإيمان به، وقوله تعالى: ﴿كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ استئناف مبين لما في الأرض من الآيات الزاجرة عن الكفر،

---

(١) المحرر الوجيز (٤/ ٢٢٦).

(٢) جامع البيان (١٩/ ٦٣).

الداعية إلى الإيمان، و(كم) خبرية منصوبة بما بعدها على المفعولية، والجمع بينها وبين (كل) لإفادة الإحاطة والكثرة معا، و(من كل زوج) أي: صنف تمييز، والكريم من كل شيء مرضيه ومحموده؛ أي: كثيرا من كل صنف مرضي كثير المنافع أنبتنا فيها، وتخصيص إنباته بالذكر دون ما عداه من الأصناف لاختصاصه بالدلالة على القدرة والنعمة معا، ويحتمل أن يراد به جميع أصناف النبات نافعها وضارها، ويكون وصف الكل بالكرم للتنبيه على أنه تعالى ما أنبت شيئًا إلا وفيه فائدة كما نطق به قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾[1]، فإن الحكيم لا يكاد يفعل فعلا إلا وفيه حكمة بالغة، وإن غفل عنها الغافلون، ولم يتوصل إلى معرفة كنهها العاقلون»[2].

قال المكي الناصري: «إشارة إلى ظاهرة كونية يواجهها كل إنسان وبدونها لا يستطيع العيش لا هو ولا غيره من الحيوان، وهذه الظاهرة هي ظاهرة النبات الذي هو بالنسبة للإنسان والحيوان أساس الغذاء والاقتيات، فكم لله من حكمة باهرة فيما مهد به للنبات، من أرض صالحة ومطر يحيي الموات، ثم كم لله من حكمة باهرة فيما تنبت الأرض من حبوب وثمار وأزهار، وأشجار متنوعة الأوراق والأغصان وفواكه وخضر مختلفة الطعوم والأحجام والأشكال والألوان. ومما يزيد معنى هذه الآية توضيحا وتفسيرا قوله تعالى في سورة الرعد: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾[3]، وقوله تعالى في سورة فاطر: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ﴾[4].

وقوله تعالى في هذا الربع: ﴿مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ يمكن حمله على أمر ظاهر للناس جميعًا وهو أن النوع الواحد من أنواع النبات توجد منه أصناف متعددة، لكل صنف مزيته الخاصة، مثل أصناف العنب وأصناف التمر وأصناف البرتقال، وغيرها مما لا يحصى عدا، ووصف النبات بالكرم في هذه الآية جار على ما هو متعارف في لسان العرب، يقال نخلة كريمة أي: كثيرة التمر. ويمكن أن يكون قوله تعالى هنا: ﴿مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ شاهدا من الذكر الحكيم على معنى جديد لم يهتد إليه العلم

---

(١) البقرة: الآية (٢٩).
(٢) تفسير أبي السعود (٦/ ٢٣٤-٢٣٥).
(٣) الرعد: الآية (٤).
(٤) فاطر: الآية (٢٧).

الحديث إلا أخيرا، وهذا المعنى هو مبدأ ثنائية الكائنات وازدواجها على اختلاف أنواعها، وهو المبدأ الذي ينص على أن كل شيء من الكائنات، من أوائل أو مركبات، ثنائي مزدوج يجتمع فيه السالب والموجب، وهذا المبدأ العلمي العام يشهد له قوله تعالى على وجه العموم: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾﴾[1] وقوله تعالى في آية ثانية: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾[2]»[3].

* * *

(١) الذاريات: الآية (٤٩).

(٢) يس: الآية (٣٦).

(٣) التيسير (٤/ ٣٦٤-٣٦٥).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۝٨ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٩﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: إن في إنباتنا في الأرض من كلّ زوج كريم لآية. يقول: لدلالة لهؤلاء المشركين المكذّبين بالبعث، على حقيقته، وأن القدرة التي بها أنبت اللَّه في الأرض ذلك النبات بعد جدوبتها، لن يُعجزه أن يُنْشر بها الأموات بعد مماتهم، أحياء من قبورهم.

وقوله: ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ يقول: وما كان أكثر هؤلاء المكذبين بالبعث، الجاحدين نبوتك يا محمد، بمصدقيك على ما تأتيهم به من عند اللَّه من الذكر.

يقول جلّ ثناؤه: وقد سبق في علمي أنهم لا يؤمنون، فلا يؤمن بك أكثرهم للسابق من علمي فيهم. وقوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٩﴾ يقول: وإن ربك يا محمد لهو العزيز في نقمته، لا يمتنع عليه أحد أراد الانتقام منه. يقول -تعالى ذكره-: وإني إن أحللت بهؤلاء المكذبين بك يا محمد، المعرضين عما يأتيهم من ذكر من عندي، عقوبتي بتكذيبهم إياك، فلن يمنعهم مني مانع؛ لأني أنا العزيز الرحيم، يعني أنه ذو الرحمة بمن تاب من خلقه من كفره ومعصيته، أن يعاقبه على ما سلف من جرمه بعد توبته.

وكان ابن جُرَيج يقول في معنى ذلك، ما حدثنا القاسم، قال: ثنا الحسين، قال: ثني الحجاج، عن ابن جُرَيج قال: كلّ شيء في الشعراء من قوله: ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ فهو ما أهلك ممن مضى من الأمم، يقول عزيز، حين انتقم من أعدائه، رحيم بالمؤمنين، حين أنجاهم مما أهلك به أعداءه. قال أبو جعفر: وإنما اخترنا القول الذي اخترناه في ذلك في هذا الموضع؛ لأن قوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٩﴾ عقيب وعيد اللَّه قوما من أهل الشرك والتكذيب بالبعث، لم يكونوا أهلكوا، فيوجه إلى أنه خبر من اللَّه عن فعله بهم وإهلاكه. ولعلّ ابن جُرَيج بقوله هذا أراد ما

كان من ذلك عقيب خبر اللَّه عن إهلاكه من أهلك من الأمم، وذلك إن شاء اللَّه إذا كان عقيب خبرهم كذلك»[١].

قال الرازي: «أما قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾﴾ فهو كقوله: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾[٢] والمعنى أن في ذلك دلالة لمن يتفكر ويتدبر، ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي: مع كل ذلك يستمر أكثرهم على كفرهم، فأما قوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٩﴾﴾ فإنما قدم ذكر العزيز على ذكر الرحيم لأنه لو لم يقدمه لكان ربما قيل إنه رحمهم لعجزه عن عقوبتهم، فأزال هذا الوهم بذكر العزيز وهو الغالب القاهر، ومع ذلك فإنه رحيم بعباده، فإن الرحمة إذا كانت عن القدرة الكاملة كانت أعظم وقعًا. والمراد أنهم مع كفرهم وقدرة اللَّه على أن يعجل عقابهم لا يترك رحمتهم بما تقدم ذكره من خلق كل زوج كريم من النبات، ثم من إعطاء الصحة والعقل والهداية»[٣].

قال أبو السعود: «وفي التعرُّض لوصف الربوبيةِ مع الإضافة إلى ضميره ﷺ من إظهار اللطفِ به ﷺ ما لا يخفى»[٤].

قال المكي الناصري: «﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾ وهي تتضمن فوق ذلك تقرير حقيقة تاريخية ثابتة، ألا وهي أن انتصار الرسل وانتشار الرسالات لا يعني القضاء التام على أولياء الشيطان، الذي تعهد بإغوائهم والإيحاء إليهم في كل زمان، فالدنيا دار ازدواج وامتزاج يعيش فوق سطحها البر والفاجر، ويصطدم في ساحتها المومن بالكافر ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾، وتنتهي الآية المشار إليها بخطاب كريم، من رب رحيم، يوجهه الحق ﷻ إلى خاتم أنبيائه ورسله، مذكرا إياه أن اللَّه لأعدائه بالمرصاد، ولأوليائه بالرحمة والإمداد ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ بالنسبة لأعدائه ﴿الرَّحِيمُ﴾ بالنسبة لأوليائه»[٥].

* * *

(١) جامع البيان (١٩/ ٦٣-٦٤).
(٢) البقرة: الآية (٢).
(٣) التفسير الكبير (٢٤/ ١٢١).
(٤) تفسير أبي السعود (٦/ ٢٣٥).
(٥) التيسير (٤/ ٣٦١-٣٦٢).

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: واذكر يا محمد إذ نادى ربك موسى بن عمران ﴿أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ يعني الكافرين قوم فرعون، ونصب (القوم) الثاني ترجمة عن (القوم) الأوّل، وقوله: ﴿أَلَا يَتَّقُونَ﴾ يقول: ألا يتقون عقاب اللّه على كفرهم به. ومعنى الكلام: قوم فرعون فقل لهم: ألا يتقون. وترك إظهار فقل لهم لدلالة الكلام عليه. وإنما قيل: (ألا يتقون) بالياء، ولم يقل ألا تتقون بالتاء؛ لأن التنزيل كان قبل الخطاب»[1].

قال أبو السعود: «﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ﴾ كلامٌ مستأنف مسوق لتقريرِ ما قبله من إعراضِهم عن كلِّ ما يأتيهم من الآيات التنزيلية وتكذيبهم بها إثر بيان إعراضهم عمَّا يشاهدونه من الآيات التَّكوينيَّة. و(إذْ) منصوبٌ على المفعوليةِ بمضمر خُوطب به النبي عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ أي: واذكر لأولئك المعرضين المكذِّبين وقت ندائه تعالى إيَّاه عليه الصلاة والسلام، وذكِّرهم بما جَرى على قوم فرعون بسبب تكذيبِهم إيَّاه زجرًا لهم عمَّا هم عليه من التَّكذيبِ، وتحذيرًا من أنْ يحيق بهم مثلُ ما حاق بأضرابهم المكذِّبين الظَّالمين حتَّى يتَّضحَ لك أنَّهم لا يؤمنون بما يأتيهم من الآيات، لكن لا بقياس حال هؤلاء بحال أولئك فقط، بل بمشاهدة إصرارهم على ما هم عليه بعد سماع الوحي النَّاطق بقصتهم، وعدم اتِّعاظِهم بذلك كما يُلوِّحُ به تكرير قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾﴾ عقيب كلِّ قصَّةٍ»[2].

قال ابن عاشور: «تفصيل لأسباب الموعظة بذكر دعوة موسى إلى ما أُمر بإبلاغه، وإعراضِ فرعون وقومِه، وما عقبَ ذلك إلى الخاتمة.

---

(١) جامع البيان (١٩/ ٦٤).

(٢) تفسير أبي السعود (٦/ ٢٣٦).

واستحضار قوم فرعون بوصفهم بالقوم الظالمين إيماء إلى علة الإرسال. وفي هذا الإجمال توجيه نفس موسى لترقب تعيين هؤلاء القوم بما يبينه، وإثارةٌ لغضب موسى عليهم حتى ينضمّ داعي غضبه عليهم إلى داعي امتثال أمر اللَّه الباعِثِه إليهم، وذلك أوقع لكلامه في نفوسهم. وفيه إيماء إلى أنهم اشتهروا بالظلم.

ثم عقب ذلك بذكر وصفهم الذاتي بطريقة البيان من القوم الظالمين وهو قوله: ﴿قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾، وفي تكرير كلمة ﴿قَوْمَ﴾ موقع من التأكيد فلم يقل: ائت قوم فرعون الظالمين، كقول جرير:

يا تيم تيمَ عدي لا أبا لكم لا يُلْفِيَنَّكُمُ في سَوْأة عُمَرُ

والظلم يعم أنواعه، فمنها ظلمهم أنفسهم بعبادة ما لا يستحق العبادة، ومنها ظلمهم الناسَ حقوقهم إذ استعبدوا بني إسرائيل واضطهدوهم، وتقدم استعماله في المعنيين مرارًا في ضد العدل ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾(١)، وبمعنى الشرك في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾(٢).

واعلم أنه قد عدل هنا عن ذكر ما ابتدئ به نداء موسى مما هو في سورة طه بقوله: ﴿إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ﴾(٣) إلى قوله: ﴿لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾﴾(٤) لأن المقام هنا يقتضي الاقتصار على ما هو شرح دعوة قوم فرعون وإعراضهم للاتّعاظ بعاقبتهم. وأما مقام ما في سورة طه فلبيان كرامة موسى عند ربّه ورسالته معًا فكان مقام إطناب مع ما في ذلك من اختلاف الأسلوب في حكاية القصة الواحدة.

والإتيان المأمور به هو ذهابه لتبليغ الرسالة إليهم. وهذا إيجاز يبيّنه قوله: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾﴾ إلى آخره.

وجملة: ﴿أَلَا يَتَّقُونَ﴾ مستأنفة استئنافًا بيانيًا؛ لأنه لمّا أمره بالإتيان إليهم لدعوتهم، ووصَفَهم بالظالمين كان الكلام مثيرًا لسؤالٍ في نفس موسى عن مَدى ظلمهم، فجيء بما يدل على توغّلهم في الظلم، ودوامهم عليه تقوية للباعث لِموسى على بلوغ الغاية في الدعوة، وتهيئة لتلقّيه تكذيبَهم بدون مفاجأة، فيكون (ألا) من قوله: ﴿أَلَا يَتَّقُونَ﴾ مركبًا من حرفين همزة الاستفهام و(لا) النافية. والاستفهام

(١) البقرة: الآية (١١٤).
(٢) الأنعام: الآية (٨٢).
(٣) طه: الآية (١٢).
(٤) طه: الآية (٢٣).

لإنكار انتفاء تقواهم، وتعجيب موسى من ذلك، فإن موسى كان مطّلعًا على أحوالهم إذ كان قد نشأ فيهم، وقد عَلم مظالمهم وأعظمها الإشراك وقتلُ أنبياء بني إسرائيل . .

ويجوز أن يكون (ألا) كلمةً واحدة هي أداة العرض والتحضيض، فتكون جملة: ﴿أَلَا يَتَّقُونَ﴾ بيانًا لجملة (ائت). والمعنى: قل لهم: ألا تتقون. فحكى مقالته بمعناها لا بلفظها. وذلك واسع في حكاية القول كما في قوله تعالى: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ﴾[1] فإن جملة: ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟﴾ مفسرة لجملة ﴿أَمَرْتَنِى﴾. وإنما أمره اللَّه أن يعبدوا اللَّه ربَّ موسى وربهم، فحكى ما أمره اللَّه به بالمعنى. وهذا العرض نظير قوله في سورة النازعات: ﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾﴾[2]. والاتّقاء: الخوف والحذر، وحذف متعلق فعل (يتقون) لظهور أن المراد: ألا يتقون عواقب ظلمهم. وتقدم في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾﴾[3].

ويَعلم موسى من إجراء وصف الظلم وعدم التقوى على قوم فرعون في معرض أمره بالذهاب إليهم أن من أول ما يبدأ به دعوتَهم أن يدعوهم إلى ترك الظلم وإلى التقوى»[4].

* * *

(١) المائدة: الآية (١١٧).

(٢) النازعات: الآية (١٨).

(٣) الأنفال: الآية (٥٦).

(٤) التحرير والتنوير (١٩/ ١٠٣-١٠٥).

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدۡرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرۡسِلۡ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمۡ عَلَيَّ ذَنۢبٞ فَأَخَافُ أَن يَقۡتُلُونِ ﴿١٤﴾﴾

★ **غريب الآية:**

ذنب: الذنب الأصل الأخذ بذنب الشيء، يقال: ذنبته: أصبت ذنبه، ويستعمل في كل فعل يستوخم عقباه اعتبارا بذنب الشيء، ولهذا يسمى الذنب تبعة اعتبارا لما يحصل من عاقبته.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: (قال) موسى لربه: ﴿رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ﴾ من قوم فرعون الذين أمرتني أن آتيهم ﴿أَن يُكَذِّبُونِ﴾ بقيلي لهم: إنك أرسلتني إليهم. ﴿وَيَضِيقُ صَدۡرِي﴾ من تكذيبهم إياي إن كذّبوني. ورفع قوله: ﴿وَيَضِيقُ صَدۡرِي﴾ عطفا به على أخاف، وبالرفع فيه قرأته عامة قرّاء الأمصار، ومعناه: وإني يضيق صدري. وقوله: ﴿وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي﴾ يقول: ولا ينطق بالعبارة عما ترسلني به إليهم، للعلة التي كانت بلسانه. وقوله: ﴿وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي﴾ كلام معطوف به على (يضيق). وقوله: ﴿فَأَرۡسِلۡ إِلَىٰ هَٰرُونَ﴾ يعني: هارون أخاه، ولم يقل: فأرسل إليّ هارون ليؤازرني وليعينني، إذ كان مفهوما معنى الكلام، وذلك كقول القائل: لو نزلت بنا نازلة لفزعنا إليك، بمعنى: لفزعنا إليك لتعيننا. وقوله: ﴿وَلَهُمۡ عَلَيَّ ذَنۢبٞ﴾ يقول: ولقوم فرعون عليّ دعوى ذنب أذنبت إليهم، وذلك قتله النفس التي قتلها منهم»[1].

قال الرازي: «واعلم أنه ليس في التماس موسى ﷺ، أن يضم إليه هرون ما يدل على أنه استعفى من الذهاب إلى فرعون بل مقصوده فيما سأل أن يقع ذلك الذهاب على أقوى الوجوه في الوصول إلى المراد»[2].

(١) جامع البيان (١٩/ ٦٤).
(٢) التفسير الكبير (٢٤/ ١٢٤).

قال سعيد حوى: «من ثم فإن كل من يقوم بشأن الدعوة إلى اللَّه عليه أن يقدر الموقف الذي يمكن أن يجابهه، ويطلب من اللَّه العون واللَّه المعين»[١].

* * *

(١) الأساس في التفسير (٧/ ٣٩١١).

قوله تعالى: ﴿قَالَ كَلَّاۖ فَٱذۡهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسۡتَمِعُونَ ۝١٥ فَأۡتِيَا فِرۡعَوۡنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝١٦ أَنۡ أَرۡسِلۡ مَعَنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ۝١٧﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ﴿كَلَّآ﴾: أي: لن يقتلك قوم فرعون. ﴿فَٱذۡهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآۖ﴾ يقول: فاذهب أنت وأخوك بآياتنا، يعني: بأعلامنا وحججنا التي أعطيناك عليهم. وقوله: ﴿إِنَّا مَعَكُم مُّسۡتَمِعُونَ﴾ من قوم فرعون ما يقولون لكم، ويجيبونكم به. وقوله: ﴿فَأۡتِيَا فِرۡعَوۡنَ فَقُولَآ﴾.. الآية، يقول: فأت أنت يا موسى وأخوك هارون فرعون. ﴿فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ إليك بـ ﴿أَنۡ أَرۡسِلۡ مَعَنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ۝١٧﴾ وقال رسول ربّ العالمين، وهو يخاطب اثنين بقوله فقولا لأنه أراد به المصدر من أرسلت، يقال: أرسلت رسالة ورسولا كما قال الشاعر:

لَقَد كَذَبَ الوَاشُون ما بُحتُ عِندَهم ... بِسُوءٍ وَلا أرْسَلْتُهُم بِرسول

يعنى برسالة، وقال الآخر:

ألا مَنْ مُبْلِغٌ عَنّي خُفافا ... رَسُولا بَيْتُ أهلِكَ مُنْتَهاها

يعني بقوله: رسولا رسالة، فأنث لذلك الهاء»[١].

قال ابن كثير: «﴿قَالَ كَلَّآ﴾ أي: قال اللّه له: لا تخف من شيء من ذلك كما قال: ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجۡعَلُ لَكُمَا سُلۡطَٰنًا﴾ أي: برهانا ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيۡكُمَا بِـَٔايَٰتِنَآۚ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾[٢].

﴿فَٱذۡهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسۡتَمِعُونَ﴾ كما قال تعالى: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ﴾[٣] أي: إنني معكما بحفظي وكلاءتي ونصري وتأييدي. ﴿فَأۡتِيَا فِرۡعَوۡنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝١٦﴾، وقال في الآية الأخرى: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾[٤] أي: كل

(١) جامع البيان (١٩/ ٦٥).
(٢) القصص: الآية (٣٥).
(٣) طه: الآية (٤٦).
(٤) طه: الآية (٤٧).

منا رسول اللَّه إليك، ﴿أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾﴾ أي: أطلقهم من إسارك وقبضتك وقهرك وتعذيبك، فإنهم عباد اللَّه المؤمنون، وحزبه المخلصون، وهم معك في العذاب المهين»[١].

* * *

(١) تفسير القرآن (٥/ ١٧٧-١٧٨).

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾﴾

* **غريب الآية:**

وليدا: يقال لمن قرب عهده بالولادة وإن كان في الأصل يصح لمن قرب عهده بالولادة أو بعد.

فعلتك: الفعلة: المرة الواحدة من الفعل.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «وفي هذا الكلام محذوف استغني بدلالة ما ظهر عليه منه، وهو: فأتيا فرعون فأبلغاه رسالة ربهما إليه، فقال فرعون: ألم نربك فينا يا موسى وليدا، ولبثت فينا من عمرك سنين؟ وذلك مكثه عنده قبل قتل القتيل الذي قتله من القبط. ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ﴾ يعني: قتله النفس التي قتل من القبط. وقوله: ﴿وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ اختلف أهل التأويل في تأويل ذلك، فقال بعضهم: معنى ذلك: وأنت من الكافرين بالله على ديننا.

قال أبو جعفر: وهذا القول الذي قاله ابن زيد أشبه بتأويل الآية؛ لأن فرعون لم يكن مقرّا لله بالربوبية وإنما كان يزعم أنه هو الرب، فغير جائز أن يقول لموسى إن كان موسى كان عنده على دينه يوم قتل القتيل على ما قاله السديّ: فعلت الفعلة وأنت من الكافرين، الإيمان عنده: هو دينه الذي كان عليه موسى عنده، إلا أن يقول قائل: إنما أراد: وأنت من الكافرين يومئذ يا موسى، على قولك اليوم، فيكون ذلك وجها يتوجه. فتأويل الكلام إذن: وقتلت الذي قتلت منا وأنت من الكافرين نعمتنا عليك، وإحساننا إليك في قتلك إياه.

وقد قيل: معنى ذلك: وأنت الآن من الكافرين لنعمتي عليك، وتربيتي إياك»[1].

---

(١) جامع البيان (١٩/ ٦٥-٦٦).

قال ابن عاشور: «وأعرض فرعون عن الاعتناء بإبطال دعوة موسى فعدل إلى تذكيره بنعمة الفراعنة أسلافه على موسى، وتخويفه من جنايته حسبانًا بأن ذلك يقتلع الدعوة من جذمها، ويكف موسى عنها، وقصدُه من هذا الخطاب إفحام موسى كي يتلعثم من خشيةِ فرعون حيث أوجد له سببًا يتذرع به إلى قتله، ويكون معذورًا فيه حيث كفر نعمة الولاية بالتربية، واقترف جرم الجناية على الأنفس»[1].

قال الشنقيطي: «أبهم -جل وعلا- هذه الفعلة التي فعلها لتعبيره عنها بالاسم المبهم الذي هو الموصول في قوله: (التي فعلت)، وقد أوضحها في آيات أخر، وبين أن الفعلة المذكورة هي قتله نفسًا منهم كقوله تعالى: ﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيۡهِۖ﴾[2]. وقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلۡتُ مِنۡهُمۡ نَفۡسٗا﴾[3] الآية. وقوله عن الإسرائيلي الذي استغاث بموسى مرتين: ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقۡتُلَنِي كَمَا قَتَلۡتَ نَفۡسَۢا بِٱلۡأَمۡسِۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِينَ﴾[4]»[5].

* * *

(١) التحرير والتنوير (١٩/ ١١٠).
(٢) القصص: الآية (١٥).
(٣) القصص: الآية (٣٣).
(٤) القصص: الآية (١٩).
(٥) الأضواء (٦/ ٣٧٠).

قوله تعالى: ﴿قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: قال موسى لفرعون: فعلت تلك الفعلة التي فعلت؛ أي: قتلت تلك النفس التي قتلت إذن وأنا من الضالين. يقول: وأنا من الجاهلين قبل أن يأتيني من الله وحي بتحريم قتله عليّ. والعرب تضع من الضلال موضع الجهل، والجهل موضع الضلال، فتقول: قد جهل فلان الطريق وضل الطريق، بمعنى واحد..

وقوله: ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ﴾.. الآية، يقول -تعالى ذكره- مخبرًا عن قيل موسى لفرعون: ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ﴾ معشر الملأ من قوم فرعون ﴿لَمَّا خِفْتُكُمْ﴾ أن تقتلوني بقتلي القتيل منكم. ﴿فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا﴾ يقول: فوهب لي ربي نبوّة وهي الحكم..

وقوله: ﴿وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ يقول: وألحقني بعداد من أرسله إلى خلقه، مبلغا عنه رسالته إليهم بإرساله إياي إليك يا فرعون»[1].

قال الشنقيطي: «لفظ الضلال يطلق في القرآن وفي اللغة العربية ثلاثة إطلاقات.

الإطلاق الأول: يطلق الضلال مرادًا به الذهاب عن حقيقة الشيء. فتقول العرب في كل من ذهب عن علم حقيقة شيء ضل عنه، وهذا الضلال ذهاب عن علم شيء ما، وليس من الضلال في الدين.

ومن هذا المعنى قوله هنا: (وأنا من الضالين) أي: من الذاهبين عن علم حقيقة العلوم، والأسرار التي لا تعلم إلا عن طريق الوحي؛ لأني في ذلك الوقت لم يوح

(١) جامع البيان (١٩/ ٦٧-٦٨).

إلي، ومنه على التحقيق: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧﴾[(١)] أي: ذاهبًا عما علمك من العلوم التي لا تدرك إلا بالوحي.

ومن هذا المعنى قوله تعالى: ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ۝٥٢﴾[(٢)] فقوله: ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّي﴾ أي: لا يذهب عنه علم شيء كائنًا ما كان، وقوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾[(٣)] فقوله: ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا﴾ أي: تذهب عن علم حقيقة المشهود به بدليل قوله بعده: ﴿فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾، وقوله تعالى عن أولاد يعقوب: ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[(٤)] وقوله: ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ۝٩٥﴾[(٥)] على التحقيق في ذلك كله. ومن هذا المعنى قول الشاعر:

وتظن سلمى أنني أبغي بها ... بدلًا أراها في الضلال تهيم

والإطلاق الثاني: وهو المشهور في اللغة، وفي القرآن هو إطلاق الضلال على الذهاب عن طريق الإيمان إلى الكفر، وعن طريق الحق إلى الباطل، وعن طريق الجنة إلى النار، ومنه قوله تعالى: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾[(٦)].

والإطلاق الثالث: هو إطلاق الضلال على الغيبوبة والاضمحلال، تقول العرب: ضل الشيء إذا غاب واضمحل، ومنه قولهم: ضل السمن في الطعام، إذا غاب فيه واضمحل، ولأجل هذا سمت العرب الدفن في القبر إضلالًا؛ لأن المدفون تأكله الأرض فيغيب فيها ويضمحل.

ومن هذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾[(٧)] الآية يعنون إذا دفنوا وأكلتهم الأرض، فضلوا فيها أي: غابوا فيها واضمحلوا»[(٨)].

* * *

(١) الضحى: الآية (٧).
(٢) طه: الآية (٥٢).
(٣) البقرة: الآية (٢٨٢).
(٤) يوسف: الآية (٨).
(٥) يوسف: الآية (٩٥).
(٦) الفاتحة: الآية (٧).
(٧) السجدة: الآية (١٠).
(٨) الأضواء (٦/ ٣٧١-٣٧٢).

قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾﴾

★ غريب الآية:

موقنين: اليقين: الأمر الثابت الذي لا ريب فيه. أصله من يَقَنَ الماءُ: إذا سَكَنَ وثَبَتَ.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- مخبرا عن قيل نبيه موسى ﷺ لفرعون ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ﴾ يعني بقوله: وتلك تربية فرعون إياه، يقول: وتربيتك إياي، وتركك استعبادي، كما استعبدت بني إسرائيل نعمة منك تمنها عليّ بحقّ. وفي الكلام محذوف استغني بدلالة ما ذكر عليه عنه، وهو: وتلك نعمة تمنها علي أن عبدت بني إسرائيل وتركتني، فلم تستعبدني، فترك ذكر «وتركتني» لدلالة قوله: ﴿أَنْ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ عليه، والعرب تفعل ذلك اختصارا للكلام، ونظير ذلك في الكلام أن يستحق رجلان من ذي سلطان عقوبة، فيعاقب أحدهما، ويعفو عن الآخر، فيقول المعفو عنه هذه نعمة علي من الأمير أن عاقب فلانا، وتركني، ثم حذف «وتركني» لدلالة الكلام عليه، ولأن في قوله: ﴿أَنْ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ وجهين: أحدهما النصب، لتعلق «تمنها» بها، وإذا كانت نصبا كان معنى الكلام: وتلك نعمة تمنها علي لتعبدك بني إسرائيل. والآخر: الرفع على أنها ردّ على النعمة. وإذا كانت رفعا كان معنى الكلام: وتلك نعمة تمنها عليّ تعبيدك بني إسرائيل. ويعني بقوله: ﴿أَنْ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾: أن اتخذتهم عبيدا لك. يقال منه: عبدت العبيد وأعبدتهم، قال الشاعر:

عَلامَ يُعْبِدنِي قَومِي وقدْ كَثُرَتْ فِيها أباعِرُ ما شاءُوا وَعُبْدَانُ»(١).

قال القاسمي: «﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾﴾ إبطال لمنته عليه في التربية، ببيان أنها في الحقيقة نقمة؛ لأنه كان اتخذ بني إسرائيل عبيدا مسخرين في شؤونه، مذللين لأموره، مقهورين لعسفه. وموسى عليه السلام وإن لم ينله من ذلك ما نالهم إلا أنه لما كان منهم فكأنه وصل إليه وحل به كما قيل: (وظلم الجار إذلال المجير) أي: لا يفي إحسانك إلى رجل منهم بما أسأت إلى مجموعهم وما أنا إلا عضو منهم. وفي فحوها تقريعه بالكبرياء المتناهية والقسوة البالغة، والسلطة الغالية التي من ورائها الفرج القريب والمخرج العجيب»(٢).

قال ابن كثير: «يقول تعالى مخبرًا عن كفر فرعون، وتمرده وطغيانه وجحوده، في قوله: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؟ وذلك أنه كان يقول لقومه: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾(٣)، ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ﴾(٤)، وكانوا يجحدون الصانع -تعالى- ويعتقدون أنه لا رب لهم سوى فرعون، فلما قال له موسى: ﴿إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، قال له: ومَنْ هذا الذي تزعم أنه رب العالمين غيري؟ هكذا فسره علماء السلف وأئمة الخلف، حتى قال السدي: هذه الآية كقوله تعالى: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾﴾(٥).

ومن زعم من أهل المنطق وغيرهم؛ أن هذا سؤال عن الماهية، فقد غلط؛ فإنه لم يكن مقرًا بالصانع حتى يسأل عن الماهية، بل كان جاحدًا له بالكلية فيما يظهر، وإن كانت الحجج والبراهين قد قامت عليه، فعند ذلك قال موسى لما سأله عن رب العالمين: ﴿قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾ أي: خالق جميع ذلك ومالكه، والمتصرف فيه وإلهه، لا شريك له، هو اللَّه الذي خلق الأشياء كلها، العالم العلوي وما فيه من الكواكب الثوابت والسيارات النيرات، والعالم السفلي وما فيه من بحار وقفار، وجبال وأشجار، وحيوان ونبات وثمار، وما بين ذلك من الهواء والطيور، وما يحتوي عليه الجو، الجميع عبيد له خاضعون ذليلون.

---

(١) جامع البيان (١٩/ ٦٨).
(٢) محاسن التأويل (١٣/ ٩).
(٣) القصص: الآية (٣٨).
(٤) الزخرف: الآية (٥٤).
(٥) طه: الآيتان (٤٩و٥٠).

﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ أي: إن كانت لكم قلوب موقنة، وأبصار نافذة»[1].

قال الناصري: «وتضمنت قصة موسى إشارة إلى القاسم المشترك الذي تلتقي فيه جميع الرسالات الإلهية، وأنها رسالة تحرير للإنسان أيا كان من الرق والاستبداد، وإنقاذ له من معتقدات الشرك والوثنية التي هي الحليف الطبيعي للتخلف والاستعباد، فمن المعنى الأول: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾﴾ ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾﴾ ومن المعنى الثاني: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾﴾ ﴿قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾﴾[2]»[3].

قال الرازي: «واعلم أن في الآية دلالة على أن كفر الكافر لا يبطل نعمته على من يحسن إليه ولا يبطل منته؛ لأن موسى عليه السلام إنما أبطل ذلك بوجه آخر على ما بينا، واختلف العلماء فقال بعضهم إذا كان كافرًا لا يستحق الشكر على نعمه على الناس إنما يستحق الإهانة بكفره، فلو استحق الشكر بإنعامه، والشكر لا يوجد إلا مع التعظيم، فيلزم كونه مستحقًا للإهانة وللتعظيم معًا، واستحقاق الجمع بين الضدين محال، وقال آخرون لا يبطل الشكر بالكفر وإنما يبطل بالكفر الثواب والمدح الذي يستحقه على الإيمان، والآية تدل على هذا القول الثاني»[4].

قال ابن عاشور: «ومن دقائق هذه المجادلة أن الاستفسار مقدَّم في المناظرات، ولذلك ابتدأ فرعون بالسؤال عن حقيقة الذي أرسل موسى عليه السلام»[5].

* * *

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٥/ ١٧٨-١٧٩).
(٢) الشعراء: الآية (٢٨).
(٣) التيسير (٤/ ٣٦٦-٣٦٧).
(٤) التفسير الكبير (٢٤/ ١٢٧).
(٥) التحرير والتنوير (١٩/ ١١٧).

قوله تعالى: ﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَـٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يعني -تعالى ذكره- بقوله: ﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾﴾ قال فرعون لمن حوله من قومه: ألا تستمعون لما يقول موسى، فأخبر موسى عليه السلام القوم الجواب عن مسألة فرعون إياه وقيله له: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ ليفهم بذلك قوم فرعون مقالته لفرعون، وجوابه إياه عما سأله، إذ قال لهم فرعون ﴿أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾ إلى قول موسى، فقال لهم الذي دعوته إليه وإلى عبادته ﴿رَبُّكُمْ﴾ الذي خلقكم ﴿وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ فقال فرعون لما قال لهم موسى ذلك، وأخبرهم عما يدعو إليه فرعون وقومه: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ يقول: إن رسولكم هذا الذي يزعم أنه أرسل إليكم لمغلوب على عقله؛ لأنه يقول قولا لا نعرفه ولا نفهمه، وإنما قال ذلك ونسب موسى عدو اللَّه إلى الجنة؛ لأنه كان عنده وعند قومه أنه لا رب غيره يعبد، وأن الذي يدعوه إليه موسى باطل ليست له حقيقة، فقال موسى عند ذلك محتجًّا عليهم، ومعرفهم ربهم بصفته وأدلته، إذ كان عند قوم فرعون أن الذي يعرفونه ربًّا لهم في ذلك الوقت هو فرعون، وأن الذي يعرفونه لآبائهم أربابا ملوك أخر، كانوا قبل فرعون، قد مضوا فلم يكن عندهم أن موسى أخبرهم بشيء له معنى يفهمونه ولا يعقلونه، ولذلك قال لهم فرعون: إنه مجنون؛ لأن كلامه كان عندهم كلاما لا يعقلون معناه، وقوله: ﴿قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ﴾ فمعناه: الذي أدعوكم وفرعون إلى عبادته رب المشرق والمغرب وما بينهما، يعني: ملك مشرق الشمس ومغربها، وما بينهما من شيء لا إلى عبادة ملوك مصر الذين كانوا ملوكها قبل فرعون لآبائكم فمضوا، ولا إلى عبادة فرعون الذي هو ملكها. ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾

يقول: إن كان لكم عقول تعقلون بها ما يقال لكم، وتفهمون بها ما تسمعون مما يعين لكم؛ فلما أخبرهم عليه السلام بالأمر الذي علموا أنه الحق الواضح، إذ كان فرعون ومن قبله من ملوك مصر لم يجاوز ملكهم عريش مصر، وتبين لفرعون ومن حوله من قومه أن الذي يدعوهم موسى إلى عبادته، هو الملك الذي يملك الملوك. قال فرعون حينئذ استكبارا عن الحق، وتماديا في الغي لموسى: ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى﴾ يقول: لئن أقررت بمعبود سواي ﴿لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ يقول: لأسجننك مع من في السجن من أهله»[1].

قال السعدي: «فقال فرعون معاندا للحق، قادحا بمن جاء به: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ حيث قال خلاف ما نحن عليه، وخالفنا فيما ذهبنا إليه، فالعقل عنده وأهل العقل من زعموا أنهم لم يخلقوا، أو أن السماوات والأرض ما زالتا موجودتين من غير موجد، وأنهم بأنفسهم خلقوا من غير خالق، والعقل عنده أن يعبد المخلوق الناقص من جميع الوجوه، والجنون عنده أن يثبت الرب الخالق للعالم العلوي والسفلي، والمنعم بالنعم الظاهرة والباطنة، ويدعو إلى عبادته، وزين لقومه هذا القول، وكانوا سفهاء الأحلام، خفيفي العقول ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾﴾[2] فقال موسى عليه السلام، مجيبا لإنكار فرعون، وتعطيله لرب العالمين: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾ من سائر المخلوقات ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ فقد أديت لكم من البيان والتبيين ما يفهمه كل من له أدنى مسكة من عقل، فما بالكم تتجاهلون فيما أخاطبكم به؟ وفيه إيماء وتنبيه إلى أن الذي رميتم به موسى من الجنون، أنه داؤكم فرميتم أزكى الخلق عقلا وأكملهم علما بالجنون، والحال أنكم أنتم المجانين، حيث ذهبت عقولكم لإنكار أظهر الموجودات، خالق الأرض والسماوات وما بينهما، فإذا جحدتموه، فأي شيء تثبتون؟ وإذا جهلتموه، فأي شيء تعلمون؟ وإذا لم تؤمنوا به وبآياته، فبأي شيء -بعد اللّه وآياته- تؤمنون؟ تاللّه، إن المجانين الذين بمنزلة البهائم أعقل منكم، وإن الأنعام السارحة أهدى منكم»[3].

---

(١) جامع البيان (١٩/ ٦٩-٧٠).

(٢) الزخرف: الآية (٥٤).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٥١٢-٥١٣).

قال الألوسي: «إن العلماء اختلفوا في أن اللعين هل كان يعلم أن للعالم ربا هو اللَّه ﷻ أولًا، فقال بعضهم: كان يعلم ذلك بدليل ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[1] ومنهم من استدل بطلبه شرح الماهية زعما منه أن فيه الاعتراف بأصل الوجود، وذكروا أن ادعاءه الألوهية وقوله: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾[2] إنما كان إرهابًا لقومه الذين استخفهم، ولم يكن ذلك عن اعتقاد، وكيف يعتقد أنه رب العالم وهو يعلم بالضرورة أنه وجد بعد أن لم يكن، ومضى على العالم ألوف من السنين وهو ليس فيه، ولم يكن له إلا ملك مصر ولذا قال شعيب[3] لموسى عليهما السلام: لما جاءه في مدين ﴿لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[4].

وقال بعضهم: إنه كان جاهلًا باللَّه تعالى، ومع ذلك لا يعتقد في نفسه أنه خالق السماوات والأرض وما فيهما، بل كان دهريا نافيًا للصانع سبحانه معتقدًا وجوب الوجود بالذات للأفلاك وأن حركاتها أسباب لحصول الحوادث، ويعتقد أن من ملك قطرا وتولى أمره لقوة طالعة استحق العبادة من أهله وكان ربًا لهم، ولهذا خصص ألوهيته وربوبيته ولم يعممهما حيث قال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾[5] و ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾، ويجوز أن يكون الحلولية القائلين بحلول الرب ﷻ في بعض الذوات، ويكون معتقدًا حلوله ﷻ فيه ولذلك سمي نفسه إلهًا، وقيل: كان يدعي الألوهية لنفسه ولغيره وهو ما كان يعبده من دون اللَّه ﷻ كما يدل عليه ظاهر قوله تعالى: ﴿وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾[6] وهو وكذا ما قبله بعيد، والذي يغلب على الظن ويقتضيه أكثر الظواهر أن اللعين كان يعرف اللَّه ﷻ، وأنه سبحانه هو خالق العالم، إلا أنه غلبت عليه شقوته وغرته دولته فأظهر لقومه خلاف علمه فأذعن منهم له من كثر جهله ونزر عقله، ولا يبعد أن يكون في الناس من يذعن بمثل هذه الخرافات ولا يعرف أنها مخالفة للبديهيات»[7].

قلت: وهذا الذي أشار إليه الألوسي في هذا الترجيح لعله هو الصحيح؛ لأنه

---

(١) الإسراء: الآية (١٠٢).
(٢) النازعات: الآية (٢٤).
(٣) ليس نبي اللَّه المعروف شعيبا، تنظر سورة القصص.
(٤) القصص: الآية (٢٥).
(٥) القصص: الآية (٣٨).
(٦) الأعراف: الآية (١٢٧).
(٧) روح المعاني (١٩/ ٧٣-٧٤).

من المعلوم عقلًا ونقلًا وفطرةً أن الأفلاك لا علاقة لها بتسيير الكون وتدبيره، بله خلقه وإنشاءه من عدم؛ بل هي مخلوقة مصنوعة مدبرة تَسِير بأمر اللَّه الذي جبلها على ذلك، قال تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾[1].

وما أشار إليه رَحِمَهُ اللَّهُ من تصديق الناس لهذه الخرافات لهو عين واقع الجهال اليوم مع الأسف، فهم يعتقدون أن الموتى ينفعون ويضرون، ويسيرون الكون وله يدبرون، ويرسلون الرياح والسحاب، وللأمطار منزلون، ويحيون ويميتون، ويشفون المرضى ويرزقون.. مع كونهم يعتقدون ابتداءً أن هؤلاء الموتى قد انقطعوا عن الدنيا، وأكلت الديدان أجسادهم، ولا يعلمون حالهم أهم من أهل الجنة أم من أهل النار، ومع ذلك صدق عليهم إبليس وعده، فخبطهم في ظلمات الشرك لبعدهم عن أنوار التوحيد، واستعان بزبانية من الخلق زينوا لأهل الإلحاد باطلهم، وقدموه على أنه التراث وموروث الآباء والأجداد، في حجج داحضة وأقوال متشابهة لما كان في الأمم السابقة، نسأل اللَّه العافية.

* * *

(١) فصلت: الآية (١١).

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: قال موسى لفرعون لما عرفه ربه، وأنه رب المشرق والمغرب، ودعاه إلى عبادته وإخلاص الألوهة له، وأجابه فرعون بقوله: ﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾﴾: أتجعلني من المسجونين ﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾﴾ يبين لك صدق ما أقول يا فرعون وحقيقة ما أدعوك إليه؟ وإنما قال ذلك له؛ لأن من أخلاق الناس السكون للإنصاف، والإجابة إلى الحق بعد البيان؛ فلما قال موسى له ما قال من ذلك، قال له فرعون: فأت بالشيء المبين حقيقة ما تقول، فإنا لن نسجنك حينئذ إن اتخذت إلها غيري إن كنت من الصادقين: يقول: إن كنت محقا فيما تقول، وصادقا فيما تصف وتخبر ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾﴾ يقول جلّ ثناؤه: فألقى موسى عصاه فتحوّلت ثعبانا، وهي الحية الذكر كما قد بيَّنت فيما مضى قبل من صفته وقوله ﴿مُّبِينٌ﴾ يقول: يبين لفرعون والملأ من قومه أنه ثعبان..

وقوله: ﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ﴾ يقول: وأخرج موسى يده من جيبه فإذا هي بيضاء تلمع ﴿لِلنَّٰظِرِينَ﴾ لمن ينظر إليها ويراها»[1].

قال الرازي: «فإن قيل كيف قال ههنا: ﴿ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ وفي آية أخرى: ﴿فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾﴾[2] وفي آية ثالثة: ﴿كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾[3] والجان مائل إلى الصغر والثعبان مائل إلى الكبر؟ جوابه: أما الحية فهي اسم الجنس ثم إنها لكبرها صارت

---

(١) جامع البيان (١٩/ ٧٠-٧١).

(٢) طه: الآية (٢٠).

(٣) النمل: الآية (١٠).

ثعبانًا، وشبهها بالجان لخفتها وسرعتها فصح الكلامان، ويحتمل أنه شبهها بالشيطان لقوله تعالى: ﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ۝٢٧﴾[1]»[2].

* * *

(١) الحجر: الآية (٢٧).

(٢) التفسير الكبير (٢٤/ ١٣٢).

قوله تعالى: ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: قال فرعون لما أراه موسى من عظيم قدرة اللَّه وسلطانه حجة عليه لموسى بحقيقة ما دعاه إليه، وصدق ما أتاه به من عند ربه ﴿لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ﴾ يعني لأشراف قومه الذين كانوا حوله. ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾ يقول: إن موسى سحر عصاه حتى أراكموها ثعبانا، ﴿عَلِيمٌ﴾ يقول: ذو علم بالسحر وبصر به. ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ﴾ يقول: يريد أن يخرج بني إسرائيل من أرضكم إلى الشأم بقهره إياكم بالسحر. وإنما قال: يريد أن يخرجكم فجعل الخطاب للملإ حوله من القبط، والمعنيّ به بنو إسرائيل؛ لأن القبط كانوا قد استعبدوا بني إسرائيل، واتخذوهم خدما لأنفسهم ومهانا، فلذلك قال لهم: ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم﴾ وهو يريد: أن يخرج خدمكم وعبيدكم من أرض مصر إلى الشأم.

وإنما قلت معنى ذلك كذلك؛ لأن اللَّه إنما أرسل موسى إلى فرعون يأمره بإرسال بني إسرائيل معه، فقال له ولأخيه ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾﴾.

وقوله: ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ يقول: فأي شيء تأمرون في أمر موسى وما به تشيرون من الرأي فيه؟ ﴿قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾﴾ يقول -تعالى ذكره-: فأجاب فرعون الملأ حوله بأن قالوا له: أخّر موسى وأخاه وأنظره، وابعث في بلادك وأمصار مصر حاشرين يحشرون إليك كل سحّار عليم بالسحر»[1].

قال أبو السعود: «﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم﴾ قسرا ﴿مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾

(١) جامع البيان (١٩/ ٧١).

بهره سلطان المعجزة وحيره حتى حطه عن ذروة ادعاء الربوبية إلى حضيض الخضوع لعبيده في زعمه، والامتثال بأمرهم، أو إلى مقام مؤامرتهم ومشاورتهم بعد ما كان مستقلا في الرأي والتدبير، وأظهر استشعار الخوف من استيلائه على ملكه»[1].

قال الرازي: «قوله: ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ﴾ وهذا يجري مجرى التنفير عنه لئلا يقبلوا قوله، والمعنى: يريد أن يخرجكم من أرضكم بما يلقيه بينكم من العداوات فيفرق جمعكم، ومعلوم أن مفارقة الوطن أصعب الأمور فنفرهم عنه بذلك، وهذا نهاية ما يفعله المبطل في التنفير عن المحق»[2].

* * *

(١) تفسير أبي السعود (٦/ ٢٤١).
(٢) التفسير الكبير (٢٤/ ١٣٣).

قوله تعالى: ﴿فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلۡ أَنتُم مُّجۡتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُواْ هُمُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: فجمع الحاشرون الذين بعثهم فرعون بحشر السحرة ﴿لِمِيقَٰتِ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ﴾ يقول: لوقت واعد فرعون لموسى الاجتماع معه فيه من يوم معلوم، وذلك يوم الزينة، وأن يحشر الناس ضحى. وقيل للناس: هل أنتم مجتمعون لتنظروا إلى ما يفعل الفريقان، ولمن تكون الغلبة، لموسى أو للسحرة؟ فلعلنا نتبع السحرة، ومعنى لعل هنا كي، يقول: كي نتبع السحرة، إن كانوا هم الغالبين موسى، وإنما قلت ذلك معناها: لأن قوم فرعون كانوا على دين فرعون، فغير معقول أن يقول من كان على دين: أنظر إلى حجة من هو على خلافي لعلي أتبع ديني، وإنما يقال: أنظر إليها كي أزداد بصيرة بديني، فأقيم عليه. وكذلك قال قوم فرعون. فإياها عنوا بقيلهم: ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُواْ هُمُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾﴾»[1].

قال ابن عاشور: «قولهم: ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ﴾ كناية عن رجاء تأييدهم في إنكار رسالة موسى فلا يتبعونه. وليس المقصود أن يصير السحرة أيمة لهم لأن فرعون هو المتّبع. وقد جيء في شرط ﴿إِن كَانُواْ هُمُ ٱلۡغَٰلِبِينَ﴾ بحرف (إن) لأنها أصل أدوَات الشرط ولم يكن لهم شك في أن السحرة غالبون. وهذا شأن المغرورين بهواهم، العُمي عن النظر في تقلبات الأحوال أنهم لا يفرضون من الاحتمالات إلا ما يوافق هواهم، ولا يأخذون العُدة لاحتمال نقيضه»[2].

قال ابن كثير: «ذكر اللَّه تعالى هذه المناظرة الفعلية بين موسى والقبط في سورة الأعراف وفي سورة طه وفي هذه السورة: وذلك أن القبط أرادوا أن يطفئوا نور اللَّه بأفواههم، فأبى اللَّه إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون. وهذا شأن الكفر والإيمان، ما تواجها وتقابلا إلا غلبه الإيمان»[3].

---

(١) جامع البيان (١٩/ ٧٢).
(٢) التحرير والتنوير (١٩/ ١٢٦).
(٣) تفسير القرآن العظيم (٥/ ١٨١).

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ﴾ أي: إلى مجلس فرعون وقد ضرب له وطاقا، وجمع حشمه وخدمه وأمراءه ووزراءه ورؤساء دولته وجنود مملكته، فقام السحرة بين يدي فرعون يطلبون منه الإحسان إليهم والتقرب إليه إن غلبوا؛ أي: هذا الذي جمعتنا من أجله، فقالوا: أي: وأخص مما تطلبون أجعلكم من المقربين عندي وجلسائي. فعادوا إلى مقام المناظرة ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟﴾[1]، وقد اختصر هذا هاهنا فقال لهم موسى: ﴿أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾﴾، وهذا كما يقوله الجهلة من العوام إذا فعلوا شيئا: هذا بثواب فلان. وقد ذكر الله في سورة الأعراف: أنهم ﴿سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾[2]، وقال في سورة طه: ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾﴾[3]»[4].

قال ابن جرير: «يقول: أقسموا بقوّة فرعون وشدّة سلطانه، ومنعة مملكته ﴿إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ موسى»[5].

قال الآلوسي: «والظاهر أن هذا قسم منهم بعزته عليه اللعنة على الغلبة،

---

(١) طه: الآيتان (٦٥و٦٦).
(٢) الأعراف: الآية (١١٦).
(٣) طه: الآيات (٦٦-٦٩).
(٤) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٣٢٣).
(٥) جامع البيان (١٩/ ٧٣).

وخصوها بالقسم هنا لمناسبتها للغلبة، وقسمهم على ذلك لفرط اعتقادهم في أنفسهم وإتيانهم بأقصى ما يمكن أن يؤتى به من السحر. وفي ذلك إرهاب لموسى عليه السلام بزعمهم، وعدلوا عن الخطاب إلى الغيبة في قولهم ﴿بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ﴾ تعظيمًا له، وهذا القسم من نوع أقسام الجاهلية، وقد سلك كثير من المسلمين في الأيمان ما هو أشنع من أيمانهم لا يرضون بالقسم بالله تعالى وصفاته عز وجل، ولا يعتدون بذلك حتى يحلف أحدهم بنعمة السلطان أو برأسه أو برأس المحلف أو بلحيته أو بتراب قبر أبيه فحينئذ يستوثق منه، ولهم أشياء يعظمونها ويحلفون بها غير ذلك، ولا يبعد أن يكون الحلف بالله تعالى كذبًا أقل إثمًا من الحلف بها صدقًا، وهذا مما عمت به البلوى، ولا حول ولا قوة إلا بالله تعالى العلي العظيم»[١].

قلت: وهذا الذي أشار إليه المفسر الألوسي رحمه الله من ألوان القسم بغير الله هو نفسه ما يجري على ألسنة الناس في هذا الزمان، بل على ألسنة عليتهم من مثقفيهم ودكاترتهم وأشباه علمائهم! مما يدلك على أن العناية بالمعتقد وحراسة حياضه من الشوائب أمر واجب؛ بل هو من أكبر الجهاد في هذا العصر، وتأمل قول ابن مسعود: «**لأن أحلف بالله كاذبًا أحب إلي من أن أحلف بغيره صادقًا**»[٢] يظهر لك جسامة وفداحة القسم بغير الله، وفي الوقت نفسه يظهر لك أن صحة المعتقد شرط في الإسلام كما أن الطهارة شرط في الصلاة، حيث تبطل إذا وقع الحدث، فكذلك يبطل العمل ويحبط بالشرك مصداقًا لقول الله -جل وعلا-: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[٣].

فالشرك بالله وباء خطير، وعلامة هلاك الأمم وذهاب ريحها واندثارها إذا حل بها، وبعض أفراده أخطر من بعض حتى إن الشرك الأصغر قد ينقلب إلى شرك أكبر -عياذًا بالله-، لذا وجب تظافر جهود العلماء والدعاة والمصلحين في التركيز على تصحيح المعتقد على جميع المستويات، سواء كانت تربوية أو تعليمية أو غيرهما، لا أن يعتبروه قشورًا ويزهدوا في العناية به، ويتنكبوه مسلكًا في الإصلاح،

---

(١) روح المعاني (٢٠/ ٧٧-٧٨).

(٢) أخرجه: عبد الرزاق (٨/ ٤٦٩/ ١٥٩٢٩)، والطبراني في الكبير (٩/ ١٨٣/ ٨٩٠٢)، وقال الهيثمي في المجمع (٤/ ١٧٧): «ورجاله رجال الصحيح».

(٣) الزمر: الآية (٦٥).

والمتأمل لواقع الأمة يدرك ما قلته، ويراه متمثلًا في المؤلفات والكتابات والندوات والمحاضرات وعلى ألسنة الخطباء والوعاظ وغيرهم، فإلى الله المشتكى وهو المستعان.

قال الرازي: «اعلم أنهم لما اجتمعوا كان لا بد من أن يبدأ موسى أو يبدأوا ثم إنهم تواضعوا له فقدموه على أنفسهم، وقالوا: ﴿إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ﴾[1] فلما تواضعوا له تواضع هو أيضًا لهم فقدمهم على نفسه، وقال: ﴿أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ﴾ فإن قيل كيف جاز لموسى ﷺ أن يأمر السحرة بإلقاء الحبال والعصي وذلك سحر وتلبيس وكفر والأمر بمثله لا يجوز؟ الجواب: لا شبهة في أن ذلك ليس بأمر؛ لأن مراد موسى ﷺ منهم كان أن يؤمنوا به ولا يقدموا على ما يجري مجرى المغالبة، وإذا ثبت هذا وجب تأويل صيغة الأمر، وفيه وجوه:

أحدها: ذلك الأمر كان مشروطًا، والتقدير: ألقوا ما أنتم ملقون إن كنتم محقين كما في قوله: ﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[2].

وثانيها: لما تعين ذلك طريقًا إلى كشف الشبهة صار جائزًا.

وثالثها: أن هذا ليس بأمر بل هو تهديد؛ أي: إن فعلتم ذلك أتينا بما تبطله، كقول القائل: لئن رميتني لأفعلن ولأصنعن، ثم يفوق له السهم فيقول له: ارم فيكون ذلك منه تهديدًا.

ورابعها: ما ذكرنا أنهم لما تواضعوا له وقدموه على أنفسهم فهو قدمهم على نفسه على رجاء أن يصير ذلك التواضع سببًا لقبول الحق، ولقد حصل ببركة ذلك التواضع ذلك المطلوب، وهذا تنبيه على أن اللائق بالمسلم في كل الأحوال التواضع؛ لأن مثل موسى ﷺ لما لم يترك التواضع مع أولئك السحرة، فبأن يفعل الواحد منا أولى»[3].

* * *

(١) طه: الآية (٦٥).
(٢) البقرة: الآية (٢٣).
(٣) التفسير الكبير (٢٤/ ١٣٤-١٣٥).

قوله تعالى: ﴿فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾﴾

★ **غريب الآية:**

تلقف: يقال لقفت الشيء وتلقفته، إذا أخذته من الهواء بقوة وسرعة. والمراد: تلتهم وتبتلع.

يأفكون: الإفك أشد الكذب.

لأصلبنكم: الصلب تعليق الإنسان المقتل.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ﴿فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ﴾ حين ألقت السحرة حبالهم وعصيهم. ﴿فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ يقول: فإذا عصا موسى تزدرد ما يأتون به من الفرية والسحر الذي لا حقيقة له، وإنما هو مخاييل وخدعة. ﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ﴿٤٦﴾﴾ يقول: فلما تبين السحرة أن الذي جاءهم به موسى حق لا سحر، وأنه مما لا يقدر عليه غير اللَّه الذي فطر السماوات والأرض من غير أصل، خرّوا لوجوههم سجدا لله، مذعنين له بالطاعة، مقرّين لموسى بالذي أتاهم به من عند اللَّه أنه هو الحقّ، وأن ما كانوا يعملونه من السحر باطل، قائلين: ﴿آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾.

﴿آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ الذي دعانا موسى إلى عبادته دون فرعون وملئه. ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ﴾ يقول جلّ ثناؤه: قال فرعون للذين كانوا سحرته فآمنوا: آمنتم لموسى بأن ما جاء به حق قبل أن آذن لكم في الإيمان به.

﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾ يقول: إن موسى لرئيسكم في السحر، وهو الذي علَّمكموه، ولذلك آمنتم به. ﴿فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ عند عقابي إياكم وبال ما فعلتم، وخطأ ما صنعتم من الإيمان به»[١].

قال ابن كثير: «تهددهم فلم ينفع ذلك فيهم، وتوعدهم فما زادهم إلا إيمانا وتسليما. وذلك أنه قد كشف عن قلوبهم حجاب الكفر، وظهر لهم الحق بعلمهم ما جهل قومهم، من أن هذا الذي جاء به موسى لا يصدر عن بشر، إلا أن يكون اللّٰه قد أيده به، وجعله له حجة ودلالة على صدق ما جاء به من ربه؛ ولهذا لما قال لهم فرعون: ﴿ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾؟ أي: كان ينبغي أن تستأذنوني فيما فعلتم، ولا تفتاتوا عليَّ في ذلك، فإن أذنت لكم فعلتم، وإن منعتكم امتنعتم، فإني أنا الحاكم المطاع؛ ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾. وهذه مكابرة يعلم كل أحد بُطلانها، فإنهم لم يجتمعوا بموسى قبل ذلك اليوم، فكيف يكون كبيرهم الذي أفادهم صناعة السحر؟ هذا لا يقوله عاقل»[٢].

قال الآلوسي: «﴿أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ﴾ لم يرد ﷺ الأمر بالسحر والتمويه حقيقة، فإن السحر حرام وقد يكون كفرًا، فلا يليق بالمعصوم الأمر به، بل الإذن بتقديم ما علم بإلهام أو فراسة صادقة أو قرائن الحال أنهم فاعلوه ألبتة، ولذا قال: ﴿مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ﴾ ليتوصل بذلك إلى إبطاله.

وهذا كما يؤمر الزنديق بتقرير حجته لترد، وليس في ذلك الرضا الممتنع فإنه الرضا على طريق الاستحسان وليس في الإذن المذكور، ومطلق الرضا غير ممتنع، وما اشتهر من قولهم: الرضا بالكفر كفر ليس على إطلاقه كما عليه المحققون من الفقهاء والأصوليين»[٣].

قال الرازي: «اعلم أنهم لما آمنوا بأجمعهم لم يأمن فرعون أن يقول الناس: إن هؤلاء السحرة على كثرتهم وتظاهرهم لم يؤمنوا إلا عن معرفة بصحة أمر موسى ﷺ فيسلكون مثل طريقهم، فلبس على القوم وبالغ في التنفير عن موسى ﷺ من وجوه:

---

(١) جامع البيان (١٩/ ٧٣).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٥/ ١٨٢-١٨٣).

(٣) روح المعاني (١٩/ ٧٧).

أولها: قوله: ﴿ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾ وهذا فيه إيهام أن مسارعتكم إلى الإيمان به دالة على أنكم كنتم مائلين إليه، وذلك يطرق التهمة إليهم فلعلهم قصروا في السحر حياله.

وثانيها: قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾ وهذا تصريح بما رمز به أولًا، وغرضه منه أنهم فعلوا ذلك عن مواطأة بينهم وبين موسى عليه السلام وقصروا في السحر ليظهر أمر موسى عليه السلام، وإلا ففي قوة السحرة أن يفعلوا مثل ما فعل موسى عليه السلام، وهذه شبهة قوية في تنفير من يقبل قوله.

وثالثها: قوله: ﴿فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ وهو وعيد مطلق وتهديد شديد.

ورابعها: قوله: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ وهذا هو الوعيد المفصل، وقطع اليد والرجل من خلاف هو قطع اليد اليمنى والرجل اليسرى، والصلب معلوم، وليس في الإهلاك أقوى من ذلك»[1].

قال الشوكاني: «وإنما اعترف له بكونه كبيرهم مع كونه لا يحبّ الاعتراف بشيء يرتفع به شأن موسى؛ لأنه قد علم كل من حضر أن ما جاء به موسى أبهر مما جاء به السحرة، فأراد أن يشكك على الناس بأن هذا الذي شاهدتم، وإن كان قد فاق على ما فعله هؤلاء السحرة، فهو فعل كبيرهم، ومن هو أستاذهم الذي أخذوا عنه هذه الصناعة، فلا تظنوا أنه فعل لا يقدر عليه البشر، وأنه من فعل الربّ الذي يدعو إليه موسى»[2].



(١) التفسير الكبير (٢٤/ ١٣٦).
(٢) فتح القدير (٤/ ١٤٢).

قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ ۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ۝٥٠ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَـٰيَـٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٥١﴾

★غريب الآية:

لا ضير: لا ضرر. والضير والضرر بمعنى واحد.

منقلبون: راجعون.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «توعَّدهم فرعون بقطع الأيدي والأرجل والصلب، فقالوا: ﴿لَا ضَيْرَ ۖ﴾ أي: لا حرج، ولا يضرنا ذلك، ولا نبالي به ﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ أي: المرجع إلى اللّه، وهو لا يضيع أجر مَنْ أحسن عملا ولا يخفى عليه ما فعلت بنا، وسيجزينا على ذلك أتم الجزاء؛ ولهذا قالوا: ﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَـٰيَـٰنَآ﴾ أي: ما قارفناه من الذنوب، وما أكرهتنا عليه من السحر، ﴿أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: بسبب أنا بادرنا قومنا من القبط إلى الإيمان. فقتلهم كلهم»[١].

قال المكي الناصري: «وهكذا انتقل السحرة من حال إلى حال، وكان لهول المفاجأة في نفس فرعون وملائه وقع الصاعقة أو الزلزال، فبعد أن كانوا سحرة كفرة يقسمون بعزة فرعون، انقلبوا إلى مؤمنين بررة يرجون من اللّه العفو والعون، فسبقوا إلى الإيمان، من حضر موقف التحدي والرهان، وإذا كان جوابهم قد جاء في هذه السورة موجزا مجملا فقد سبق في سورة طه مطولا ومفصلا، ﴿قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَـٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَـٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ۝٧٢ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَـٰيَـٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۝٧٣﴾[٢]»[٣].

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٥/ ١٨٣).

(٢) طه: الآيتان (٧٢و٧٣).

(٣) التيسير (٤/ ٣٧١-٣٧٢).

قال الآلوسي: «وقولهم: ﴿أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ يحتمل أنهم أرادوا به أول المؤمنين من أتباع فرعون، أو أول المؤمنين من أهل المشهد، أو أول المؤمنين من أهل زمانهم، ولعل الإخبار بكونهم كذلك لعدم علمهم بمؤمن سبقهم بالإيمان، فهو إخبار مبني على غالب الظن ولا محذور فيه؛ كذا قيل، وقيل: أرادوا أول من أظهر الإيمان باللَّه تعالى وبرسوله عند فرعون كفاحًا بعد الدعوة وظهور الآية فلا يرد مؤمن من آل فرعون وآسية، وكذا لا يرد بني إسرائيل لأنهم كما في البحر كانوا مؤمنين قبلهم، إما لعدم علم السحرة بذلك، أو لأن كلا من المذكورين لم يظهر الإيمان باللَّه تعالى ورسوله عند فرعون كفاحًا بعد الدعوة وظهور الآية، فتأمل.

وقرأ أبان بن تغلب وأبو معاذ (إن كُنَّا) بكسر همزة (إن) وخرج على أن (إن) شرطية والجواب محذوف يدل عليه ما قبله؛ أي: إن كنا أول المؤمنين فإنا نطمع، وجعل صاحب اللوامح الجواب ﴿إِنَّا نَطْمَعُ﴾ المتقدم وقال: جاز حذف الفاء منه لتقدمه وهو مبني على مذهب الكوفيين وأبي زيد والمبرد حيث يجوزون تقديم جواب الشرط، وعلى هذا فالظاهر أنهم لم يكونوا متحققين بأنهم أول المؤمنين، وقيل: كانوا متحققين ذلك لكنهم أبرزوه في صورة الشك لتنزيل الأمر المعتمد منزلة غيره تمليحًا وتضرعًا لله تعالى، وفي ذلك هضم النفس والمبالغة في تحري الصدق والمشاكلة مع (نَطْمَعُ) على ما هو الظاهر فيه، وجوز أبو حيان أن تكون أن هي المخففة من الثقيلة ولا يحتاج إلى اللام الفارقة لدلالة الكلام على أنهم مؤمنون فلا احتمال للنفي، وقد ورد مثل ذلك في الفصيح ففي الحديث: «إن كان رسول اللَّه ﷺ يحب العسل»[(١)]، وقال الشاعر:

ونحن أباة الضيم من آل مالك وإن مالك كانت كرام المعادن

وعلى هذا الوجه يكونون جازمين بأنهم أول المؤمنين أتم جزم. واختلف في أن فرعون هل فعل بهم ما أقسم عليه أولًا؟ والأكثرون على أنه لم يفعل لظاهر قوله تعالى: ﴿أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ﴾[(٢)]»[(٣)].

---

(١) أخرجه: أحمد (٦/ ٥٩) والبخاري (١٠/ ٩٦/ ٥٦١٤) ومسلم (٢/ ١١٠١-١١٠٢/ ١٤٧٤(٢١)) وأبو داود (٤/ ١٠٦-١٠٧/ ٣٧١٥) والترمذي (٤/ ٢٤١/ ١٨٣١) من حديث عائشة ﵂.

(٢) القصص: الآية (٣٥).

(٣) روح المعاني (١٩/ ٨٠-٨١).

قال ابن عاشور: «والقرآن لم يتعرض هنا، ولا في سورة الشعراء، ولا في سورة طه، للإخبار عن وقوع ما توعدهم به فرعون؛ لأن غرض القصص القرآنية هو الاعتبار بمحل العبرة وهو تأييد اللَّه موسى، وهداية السحرة، وتصلبهم في إيمانهم بعد تعرضهم للوعيد بنفوس مطمئنّة.

وليس من غرض القرآن معرفة الحوادث كما قال في سورة النازعات: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾[1] فاختلاف المفسرين في البحث عن تحقيق وعيد فرعون زيادة في تفسير الآية»[2].

* * *

(١) النازعات: الآية (٢٦).

(٢) التحرير والتنوير (٩/٥٦-٥٧).

قوله تعالى: ﴿ ۞ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾

★ غريب الآية:

أسر: من الإسراء: وهو السير ليلًا. يقال: سرى وأسرى، لغتان.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «لما طال مُقام موسى، عَلَيْهِ السَّلَامُ، ببلاد مصر، وأقام بها حُجَج اللَّه وبراهينه على فرعون وملئه، وهم مع ذلك يكابرون ويعاندون، لم يبق لهم إلا العذاب والنكال، فأمر اللَّه موسى، عَلَيْهِ السَّلَامُ، أن يخرج ببني إسرائيل ليلا من مصر، وأن يمضي بهم حيث يؤمَر، ففعل موسى، عَلَيْهِ السَّلَامُ، ما أمره به ربه عَزَّ وَجَلَّ»[1].

قال الرازي: «لما ظهر أمر موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بما شاهدوه من الآية، أمره اللَّه تعالى بأن يخرج ببني إسرائيل لما كان في المعلوم من تدبير اللَّه تعالى في موسى وتخليصه من القوم وتمليكه بلادهم وأموالهم، ولم يأمن وقد جرت تلك الغلبة الظاهرة أن يقع من فرعون ببني إسرائيل ما يؤدي إلى الاستئصال، فلذلك أمره اللَّه تعالى أن يسري ببني إسرائيل، وهم الذين آمنوا وكانوا من قوم موسى»[2].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان ما وقع لبني إسرائيل أثناء خروجهم من مصر

* عن أبي موسى، قال: أتى النبي ﷺ أعرابيًا فأكرمه، فقال له: «**ائتنا**، فأتاه، فقال رسول اللَّه ﷺ: **سل حاجتك**، فقال: ناقة نركبها، وأعنزًا يحلبها أهلي، فقال رسول اللَّه ﷺ: **عجزتم أن تكونوا مثل عجوز بني إسرائيل؟ قال: إن موسى لما سار ببني إسرائيل من مصر ضلوا الطريق، فقال: ما هذا؟ فقال علماؤهم: إن يوسف لما**

(١) تفسير القرآن العظيم (٦/ ١٥١).
(٢) التفسير الكبير (٢٤/ ١٣٧-١٣٨).

حضره الموت أخذ علينا موثقا من اللَّه أن لا نخرج من مصر حتى ننقل عظامه معنا، قال: فمن يعلم موضع قبره، قال: عجوز من بني إسرائيل، فبعث إليها فأتته، فقال: دليني على قبر يوسف، قالت: حتى تعطيني حكمي، قال: ما حكمك؟ قالت: أكون معك في الجنة، فكره أن يعطيها ذلك، فأوحى اللَّه إليه: أن أعطها حكمها، فانطلقت بهم إلى بحيرة: موضع مستنقع ماء، فقالت: أنضبوا هذا الماء، فأنضبوا، قالت: احتفروا واستخرجوا عظام يوسف، فلما أقلوها إلى الأرض إذا الطريق مثل ضوء النهار»[1].

★ **غريب الحديث:**

أنضبوا: من نضب: أي نزح ماؤه ونشف، والمعنى: أنشفوا الماء وأنزحوه.

أقلوها: أقل الشيء يقله واستقله يستقله إذا رفعه وحمله.

تنبيه:

قال الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ: «كنت استشكلت قديما قوله في هذا الحديث: «عظام يوسف» لأنه يتعارض بظاهره مع الحديث الصحيح: «إن اللَّه حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء»[2] حتى وقفت على حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ لما بدن، قال له تميم الداري: ألا أتخذ لك منبرا يا رسول اللَّه يجمع أو يحمل عظامك؟ قال: بلى فاتخذ له منبرا مرقاتين». أخرجه أبو داود (١٠٨١) بإسناد جيد على شرط مسلم.

فعلمت منه أنهم كانوا يطلقون «العظام»، ويريدون البدن كله، من باب إطلاق الجزء وإرادة الكل، كقوله تعالى: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ﴾[3] أي: صلاة الفجر. فزال الإشكال والحمد لله، فكتبت هذا لبيانه»[4].

---

(١) أخرجه أبو يعلى (١٣/ ٢٣٦-٢٣٧/ ٧٢٥٤) وابن حبان (٢/ ٥٠٠-٥٠١/ ٧٢٣ الإحسان) والحاكم (٢/ ٤٠٤-٤٠٥) وقال: «حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه» ووافقه الذهبي. قال الألباني: «إنما هو على شرط مسلم وحده» انظر الصحيحة (١/ ٣١٣/ ٦٢٣).

(٢) أخرجه: أحمد (٤/ ٨) وأبو داود (١/ ٦٣٥/ ١٠٤٧) والنسائي (٣/ ١٠١-١٠٢/ ١٣٧٣) وابن ماجه (١/ ٣٤٥/ ١٠٨٥) وصححه ابن خزيمة (٣/ ٢١٨/ ١٧٣٣) وابن حبان (٣/ ١٩٠-١٩١/ ٩١٠ الإحسان) والحاكم (١/ ٢٧٨) وقال: «على شرط البخاري» ووافقه الذهبي. من حديث أوس بن أوس.

(٣) الإسراء: الآية (٧٨).

(٤) الصحيحة (١/ ٦٢٣-٦٢٤).

قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ ﴿٥٦﴾﴾

★ غريب الآية:

شرذمة: الشرذمة: الجماعة المنقطعة. من قولك: ثوب شرذام: أي متقطع.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «فلما أصبحوا وليس في ناديهم داع ولا مجيب، غاظ ذلك فرعون واشتد غضبه على بني إسرائيل؛ لما يريد اللَّه به من الدمار، فأرسل سريعا في بلاده حاشرين؛ أي: مَنْ يحشر الجندَ ويجمعه، كالنّقباء والحُجّاب، ونادى فيهم: ﴿إِنَّ هَٰؤُلَاءِ﴾ -يعني: بني إسرائيل- ﴿لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾ أي: لطائفة قليلة.

﴿وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ ﴿٥٥﴾﴾ أي: كل وقت يصل لنا منهم ما يغيظنا. ﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ أي: نحن كل وقت نحذر من غائلتهم، وإني أريد أن أستأصل شأفتهم، وأبيد خضراءهم. فجوزي في نفسه وجنده بما أراد لهم»[1].

قال ابن عاشور: «وقوله: ﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ حثّ لأهل المدائن على أن يكونوا حَذِرين على أبلغ وجه إذ جعل نفسه معهم في ذلك بقوله: ﴿لَجَمِيعٌ﴾ وذلك كناية عن وجوب الاقتداء به في سياسة المملكة؛ أي: إنا كلّنا حَذِرُون، فـ(جميع) وقع مبتدأ وخبرُه (حاذرون)، والجملة خبر (إنَّ)، و(جميع) بمعنى: (كل) كقوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾[2] في سورة يونس.

و (حَاذِرون) قرأه الجمهور بدون ألف بعد الحاء فهو جمع حَذِر، وهو من أمثلة المبالغة عند سيبويه والمحققين. وقرأه حمزة وعاصم والكسائي وابن ذكوان عن ابن عامر وخلف بألف بعد الحاء جمع (حَاذر) بصيغة اسم الفاعل. والمعنى: أن

---

(١) تفسير القرآن (٥/ ١٨٤).

(٢) يونس: الآية (٤).

الحَذَر من شيمته وعادته فكذلك يجب أن تكون الأمة معه في ذلك؛ أي: إنا من عادتنا التيقظ للحوادث والحَذرُ مما عسى أن يكون لها من سيّىء العواقب.

وهذا أصل عظيم من أصول السياسة وهو سدّ ذرائع الفساد ولو كان احتمالُ إفضائها إلى الفساد ضعيفًا، فالذرائع الملغاة في التشريع في حقوق الخصوص غير ملغاة في سياسة العموم، ولذلك يقول علماء الشريعة: إن نظر ولاة الأمور في مصالح الأمة أوسع من نظر القضاة، فالحذر أوسع من حفظ الحقوق وهو الخوف من وقوع شيء ضار يمكن وقوعه، والترصدُ لِمنع وقوعه، وتقدم في قوله: ﴿يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾[1] في براءة. والمحمود منه هو الخوف من الضارّ عند احتمال حدوثه دون الأمر الذي لا يمكن حدوثه فالحذرُ منه ضرب من الهوس»[2].



(١) التوبة: الآية (٦٤).

(٢) التحرير والتنوير (١٩/ ١٣١-١٣٢).

قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾﴾

★ **غريب الآية:**

كنوز: جمع كنز، وهو المال المخبأ في الأرض.

مقام: الموضع الذي يقام فيه.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: فأخرجنا فرعون وقومه من بساتين وعيون ماء، وكنوز ذهب وفضة، ومقام كريم. قيل: إن ذلك المقام الكريم: المنابر. وقوله: (كذلك) يقول: هكذا أخرجناهم من ذلك كما وصفت لكم في هذه الآية والتي قبلها. ﴿وَأَوْرَثْنَاهَا﴾ يقول: وأورثنا تلك الجنات التي أخرجناهم منها والعيون والكنوز والمقام الكريم عنهم بهلاكهم بني إسرائيل. وقوله: ﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾﴾ فأتبع فرعون وأصحابه بني إسرائيل، مشرقين حين أشرقت الشمس، وقيل: حين أصبحوا»[1].

قال ابن كثير: «ذكر غير واحد من المفسرين: أن فرعون خرج في جحفل عظيم وجمع كبير، وهو عبارة عن مملكة الديار المصرية في زمانه، أولي الحل والعقد والدول، من الأمراء والوزراء والكبراء والرؤساء والجنود، فأمَّا ما ذكره غير واحد من الإسرائيليات، من أنه خرج في ألف ألف وستمائة ألف فارس، منها مائة ألف على خيل دُهْم، وقال كعب الأحبار: فيهم ثمانمائة ألف حصان أدهم، ففي ذلك نظر. والظاهر أنه من مجازفات بني إسرائيل، والله ﷻ أعلم، والذي أخبر به هو النافع، ولم يعين عدتهم؛ إذ لا فائدة تحته، إلا أنهم خرجوا بأجمعهم»[2].

---

(١) جامع البيان (١٩/ ٧٨).

(٢) تفسير القرآن (٥/ ١٨٥).

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلۡجَمۡعَانِ قَالَ أَصۡحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ ۝٦١ قَالَ كَلَّآۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ۝٦٢ فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡبَحۡرَۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرۡقٖ كَٱلطَّوۡدِ ٱلۡعَظِيمِ ۝٦٣﴾

★غريب الآية:

تراءى: تقابلا بحيث يرى كل واحد الآخر.

مدركون: الإدراك: اللحاق: يقال: أدركه: إذا لَحِقَهُ.

انفلق: من الفلق وهو شق الشيء وإبانة بعضه عن بعض يقال: فلقته فانفلق.

فِرْق: الفِرْقُ: القطعة.

الطود: الجبل العظيم. جمعه: أطواد.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «قوله -تعالى ذكره-: فلما تناظر الجمعان: جمع موسى وهم بنو إسرائيل، وجمع فرعون وهم القبط ﴿قَالَ أَصۡحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ﴾ أي: إنا لملحقون، الآن يلحقنا فرعون وجنوده فيقتلوننا، وذكر أنهم قالوا ذلك لموسى، تشاؤما بموسى..

وقوله: ﴿كَلَّآۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ﴾ قال موسى لقومه: ليس الأمر كما ذكرتم، كلا لن تدركوا إن معي ربي سيهدين، يقول: سيهدين لطريق أنجو فيه من فرعون وقومه..

وقوله: ﴿فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡبَحۡرَۖ فَٱنفَلَقَ﴾ ذكر أن اللَّه كان قد أمر البحر أن لا ينفلق حتى يضربه موسى بعصاه.

وقوله: ﴿فَكَانَ كُلُّ فِرۡقٖ كَٱلطَّوۡدِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ يقول -تعالى ذكره-: فكان كل طائفة من البحر لما ضربه موسى كالجبل العظيم»[1].

---

(١) جامع البيان (١٩/ ٧٩-٨٠).

قال الآلوسي: «وإنما أمر عليه السلام بالضرب فضرب وترتب الانفلاق عليه إعظامًا لموسى عليه السلام بجعل هذه الآية العظيمة مترتبة على فعله، ولو شاء عز وجل لفلقه بدون ضربه بالعصا»[١].

قال ابن عاشور: «واقتصر موسى على نفسه في قوله: ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ لأنهم لم يكونوا عالمين بما ضَمِن اللَّه له من معيّة العناية، فإذا علموا ذلك علموا أن هدايته تنفعهم لأنه قائدهم والمرسل لفائدتهم. ووجه اقتصاره على نفسه أيضًا أن طريق نجاتهم بعد أن أدركهم فرعون وجنده لا يحصل إلا بفعل يقطع دابر العدوّ، وهذا الفعل خارق للعادة فلا يقع إلا على يد الرسول. وهذا وجه اختلاف المعية بين ما في هذه الآية وبين ما في قوله تعالى في قصة الغار ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾[٢] لأن تلك معية حفظهما كليهما بصرف أعين الأعداء عنهما»[٣].

* * *

(١) روح المعاني (١٩/ ٨٦).

(٢) التوبة: الآية (٤٠).

(٣) التحرير والتنوير (١٩/ ١٣٥).

قوله تعالى: ﴿وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْآخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْآخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾﴾

★ غريب الآية:

أزلفنا: قربنا. قال الشاعر:

وكل يوم مضى أو ليلة سلفت فيها النفوس إلى الآجال تزدلف

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يعني بقوله -تعالى ذكره-: ﴿وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْآخَرِينَ ﴿٦٤﴾﴾: وقرّبنا هنالك آل فرعون من البحر، وقدمناهم إليه، ومنه قوله: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾﴾[1] بمعنى: قربت وأدنيت؛ ومنه قول العجاج:

طَيَّ اللَّيالي زُلَفاً فَزُلَفا سَماوَةَ الهِلالِ حتى احْقَوْقَفا

وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل..

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ في انتقامه ممن كفر به وكذب رسله من أعدائه ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بمن أنجى من رسله، وأتباعهم من الغرق والعذاب الذي عذب به الكفرة»[2].

قال ابن عاشور: «وكانت هذه القصة آية لأنها دالة على أن ذلك الانقلاب العظيم في أحوال الفريقين الخارج عن معتاد تقلبات الدول والأمم دليل على أنه تصرف إلهي خاص أيد به رسوله وأمته، وخضّد به شوكة أعدائهم ومن كفروا به، فهو آية على عواقب تكذيب رسل الله مع ما تتضمنه القصة من دلائل التوحيد»[3].

قال المراغي: «وفي هذا بشارة لنبيه بأن النصر سيكتب له، والفوز سيكون

(١) الشعراء: الآية (٩٠) وق: الآية (٣١).
(٢) جامع البيان (١٩/ ٨١-٨٣).
(٣) التحرير والتنوير (١٩/ ١٣٦).

حليفه كما قال: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾[١]»[٢].

قال أبو السعود: «﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي: في جميع ما فصل مما صدر عن موسى عليه السلام وظهر على يديه من المعجزات القاهرة، ومما فعل فرعون وقومه من الأقوال والأفعال، وما فعل بهم من العذاب والنكال، وما في اسم الإشارة من معنى البعد لتهويل أمر المشار إليه وتفظيعه كتنكير الآية في قوله تعالى: ﴿لَأٓيَةً﴾ أي: أية آية، أو أية عظيمة لا تكاد توصف، موجبة لأن يعتبر بها المعتبرون، ويقيسوا شأن النبي عليه الصلاة والسلام بشأن موسى عليه السلام، وحال أنفسهم بحال أولئك المهلكين، ويجتنبوا تعاطي ما كانوا يتعاطونه من الكفر والمعاصي ومخالفة الرسول، ويؤمنوا باللَّه تعالى، ويطيعوا رسوله كيلا يحل بهم مثل ما حل بأولئك، أو إن فيما فصل من القصة من حيث حكايته عليه الصلاة والسلام إياها على ما هي عليه من غير أن يسمعها من أحد لآية عظيمة دالة على أن ذلك بطريق الوحي الصادق، موجبة للإيمان باللَّه تعالى وحده، وطاعة رسوله عليه الصلاة والسلام ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم﴾ أي: أكثر هؤلاء الذين سمعوا قصتهم منه عليه الصلاة والسلام ﴿مُّؤْمِنِينَ﴾ لا بأن يقيسوا شأنه بشأن موسى عليهما السلام، وحال أنفسهم بحال أولئك المكذبين المهلكين، ولا بأن يتدبروا في حكايته عليه الصلاة والسلام لقصتهم من غير أن يسمعها من أحد، مع كون كل من الطريقين مما يؤدي إلى الإيمان قطعا، ومعنى ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ على أن (كان) زائدة كما هو رأي سيبويه فيكون كقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾[٣] وهو إخبار منه تعالى بما سيكون من المشركين بعدما سمعوا الآيات الناطقة بالقصة تقريرا لما مر من قوله تعالى: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴿٥﴾﴾[٤] الخ وإيثار الجملة الاسمية للدلالة على استقرارهم على عدم الإيمان واستمرارهم عليه، ويجوز أن يجعل (كان) بمعنى صار كما فعل ذلك في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[٥] فالمعنى: وما صار أكثرهم مؤمنين مع ما سمعوا من الآية العظيمة الموجبة له بما ذكر من الطريقين، فيكون الإخبار بعدم الصيرورة قبل الحدوث للدلالة على كمال

---

(١) الحج: الآية (٤٠).
(٢) تفسير المراغي (١٩/ ٦٩).
(٣) يوسف: الآية (١٠٣).
(٤) الشعراء: الآية (٥).
(٥) البقرة: الآية (٣٤).

تحققه وتقرره كقوله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾[1] الآية.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ﴾ الغالب على كل ما يريده من الأمور التي من جملتها الانتقام من المكذبين. ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ المبالغ في الرحمة ولذلك يمهلهم ولا يعجل عقوبتهم بعدم إيمانهم بعد مشاهدة هذه الآية العظيمة بطريق الوحي مع كمال استحقاقهم لذلك. هذا هو الذي يقتضيه جزالة النظم الكريم من مطلع السورة الكريمة إلى آخر القصص السبع بل إلى آخر السورة الكريمة اقتضاء بينا لا ريب فيه، وأما ما قيل من أن ضمير (أكثرهم) لأهل عصر فرعون من القبط وغيرهم، وأن المعنى وما كان أكثر أهل مصر مؤمنين، حيث لم يؤمن منهم إلا آسية وحزقيل ومريم ابنة ياموشا التي دلت على تابوت يوسف ﷺ. وبنو إسرائيل بعد ما نجوا سألوا بقرة يعبدونها، واتخذوا العجل، وقالوا لن نؤمن لك حتى نرى اللّه جهرة، فبمعزل من التحقيق كيف لا ومساق كل قصة من القصص الواردة في السورة الكريمة، سوى قصة إبراهيم ﷺ، إنما هو لبيان حال طائفة معينة قد عتوا عن أمر ربهم، وعصوا رسله عليهم الصلاة والسلام كما يفصح عنه تصدير القصص بتكذيبهم المرسلين بعد ما شاهدوا بأيديهم من الآيات العظام ما يوجب عليهم الإيمان، ويزجرهم عن الكفر والعصيان، وأصروا على ما هم عليه من التكذيب، فعاقبهم اللّه تعالى لذلك بالعقوبة الدنيوية، وقطع دابرهم بالكلية، فكيف يمكن أن يخبر عنهم بعدم إيمان أكثرهم، لاسيما بعد الإخبار بإهلاكهم، وعد المؤمنين من جملتهم أولا، وإخراجهم منها آخرا، مع عدم مشاركتهم لهم في شيء مما حكي عنهم من الجنايات أصلا مما يوجب تنزيه التنزيل عن أمثاله، فتدبر»[2].

* * *

---

(١) النحل: الآية (١).

(٢) تفسير أبي السعود (٦/ ٢٤٦-٢٤٧).

قوله تعالى: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ إِبۡرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَا تَعۡبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُواْ نَعۡبُدُ أَصۡنَامٗا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾﴾

★ غريب الآية:

نبأ: النبأ ذو فائدة عظيمة يحصل به علم أو غلبة ظن ولا يقال للخبر في الأصل نبأ حتى يتضمن هذه الأشياء الثلاثة.

عاكفين: العكوف الإقبال على الشيء وملازمته على سبيل التعظيم له.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الرازي: «اعلم أنه تعالى ذكر في أول السورة شدة حزن محمد ﷺ بسبب كفر قومه، ثم إنه ذكر قصة موسى عليه السلام ليعرف محمد أن مثل تلك المحنة كانت حاصلة لموسى، ثم ذكر عقبها قصة إبراهيم عليه السلام ليعرف محمد أيضًا أن حزن إبراهيم عليه السلام بهذا السبب كان أشد من حزنه؛ لأن من عظيم المحنة على إبراهيم عليه السلام أن يرى أباه وقومه في النار وهو لا يتمكن من إنقاذهم إلا بقدر الدعاء»[(١)].

قال ابن كثير: «هذا إخبار من اللَّه تعالى عن عبده ورسوله وخليله إبراهيم إمام الحنفاء، أمر اللَّه رسوله محمدًا، صلوات اللَّه وسلامه عليه، أن يتلوه على أمته، ليقتدوا به في الإخلاص والتوكل، وعبادة اللَّه وحده لا شريك له، والتبرؤ من الشرك وأهله؛ فإن اللَّه تعالى آتى إبراهيم رشده من قبل؛ أي: من صغره إلى كبره، فإنه من وقت نَشأ وشَب، أنكر على قومه عبادة الأصنام مع اللَّه، عز وجل، فقال: ﴿لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَا تَعۡبُدُونَ﴾؟ أي: ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون؟ ﴿قَالُواْ نَعۡبُدُ أَصۡنَامٗا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾﴾ أي: مقيمين على عبادتها ودعائها»[(٢)].

قال أبو السعود: «قوله لهم: ﴿مَا تَعۡبُدُونَ﴾ على أن المتلو ما قاله لهم في ذلك

---

(١) التفسير الكبير (٢٤/ ١٤٢-١٤٣).

(٢) تفسير القرآن (٥/ ١٨٨).

الوقت، سألهم عليه الصلاة والسلام عن ذلك ليبني على جوابهم أن ما يعبدونه بمعزول من استحقاق العبادة بالكلية.

﴿قَالُواْ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾﴾ لم يقتصروا على الجواب الكافي بأن يقولوا أصناما كما في قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ﴾[1] وقوله تعالى: ﴿مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُواْ خَيْرًا﴾[2] ونظائرهما، بل أطنبوا فيه بإظهار الفعل. وعطف دوام عكوفهم على أصنامهم قصدا إلى إبراز ما في نفوسهم الخبيثة من الابتهاج والافتخار بذلك، والمراد بالظلول الدوام، وقيل: كانوا يعبدونها بالنهار دون الليل، وصلة العكوف كلمة (على). وإيراد (اللام) لإفادة معنى زائد كأنهم قالوا فنظل لأجلها مقبلين على عبادتها، أو مستديرين حولها، وهذا أيضًا من جملة إطنابهم»[3]. قال السمرقندي: «وهكذا ينبغي للعاقل إذا دخل بلدة أن يسألهم عن مذهبهم، فإن وجدهم على الاستقامة، دخل معهم، وإن وجدهم على غير الاستقامة، أنكر عليهم»[4].

قال ابن عاشور: «والاستفهام صوري فإن إبراهيم يعلم أنهم يعبدون أصناما ولكنه أراد بالاستفهام افتتاح المجادلة معهم، فألقى عليهم هذا السؤال ليكونوا هم المبتدئين بشرح حقيقة عبادتهم ومعبوداتهم، فتلوح لهم من خلال شرح ذلك لوائح ما فيه من فساد؛ لأن الذي يتصدى لشرح الباطل يشعر بما فيه من بطلان عند نظم معانيه أكثر مما يشعر بذلك من يسمعه، ولأنه يعلم أن جوابهم ينشأ عنه ما يريده من الاحتجاج على فساد دينهم، وقد أجابوا استفهامه بتعيين نوع معبوداتهم.

وأدخل أباه في إلقاء السؤال عليهم: إما لأنه كان حاضرا في مجلس قومه إذ كان سادن بيت الأصنام كما روي، وإما لأنه سأله على انفراد وسأل قومه مرة أخرى فجمعت الآية حكاية ذلك»[5].

* * *

(١) البقرة: الآية (٢١٩).
(٢) النحل: الآية (٣٠).
(٣) تفسير أبي السعود (٦/ ٢٤٧).
(٤) تفسير السمرقندي (٢/ ٤٧٥).
(٥) التحرير والتنوير (١٩/ ١٣٨).

قوله تعالى: ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ۝٧٢ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ۝٧٣ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ۝٧٤﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: قال إبراهيم لهم: هل تسمع دعاءكم هؤلاء الآلهة إذ تدعونهم؟ واختلف أهل العربية في معنى ذلك: فقال بعض نحويي البصرة معناه: هل يسمعون منكم أو هل يسمعون دعاءكم. فحذف الدعاء، كما قال زُهَير:

القَائِدُ الخَيْلَ مَنْكُوبًا دَوَابِرُها قدْ أُحْكِمَتْ حَكماتِ القِدّ والأَبَقا

وقال: يريد أحكمت حكمات الأبق، فألقى الحكمات وأقام الأبق مقامها. وقال بعض من أنكر ذلك من قوله من أهل العربية: الفصيح من الكلام في ذلك هو ما جاء في القرآن؛ لأن العرب تقول: سمعت زيدا متكلما، يريدون: سمعت كلام زيد، ثم تعلم أن السمع لا يقع على الأناسي. إنما يقع على كلامهم ثم يقولون: سمعت زيدا: أي سمعت كلامه. قال: ولو لم يقدم في بيت زهير حكمات القد لم يجز أن يسبق بالأبق عليها؛ لأنه لا يقال: رأيت الأبق، وهو يريد الحكمة. وقوله: ﴿أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ۝٧٣﴾ يقول: أو تنفعكم هذه الأصنام، فيرزقونكم شيئًا على عبادتكموها، أو يضرونكم فيعاقبونكم على ترككم عبادتها بأن يسلبوكم أموالكم، أو يهلكوكم إذا هلكتم وأولادكم ﴿قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ۝٧٤﴾. وفي الكلام متروك استغني بدلالة ما ذكر عما ترك، وذلك جوابهم إبراهيم عن مسألته إياهم: ﴿هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ۝٧٢ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ﴾ فكان جوابهم إياه: لا ما يسمعوننا إذا دعوناهم، ولا ينفعوننا ولا يضرون، يدل على أنهم بذلك أجابوه قولهم: ﴿بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ وذلك رجوع عن مجحود، كقول القائل: ما كان كذا بل كذا وكذا، ومعنى قولهم: ﴿وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ وجدنا من قبلنا من آبائنا يعبدونها، ويعكفون عليها لخدمتها وعبادتها، فنحن نفعل ذلك اقتداء

بهم، واتباعا لمنهاجهم»[١].

قال الآلوسي: «أضربوا عن أن يكون لهم سمع أو نفع أو ضر اعترافًا بما لا سبيل لهم إلى إنكاره واضطروا إلى إظهار أن لا سند لهم سوى التقليد، فكأنهم قالوا: لا يسمعون ولا ينفعوننا ولا يضرون وإنما وجدنا آباءنا يفعلون مثل فعلنا، ويعبدونهم مثل عبادتنا فاقتدينا بهم»[٢].

قال الرازي: «وهذا من أقوى الدلائل على فساد التقليد ووجوب التمسك بالاستدلال، إذ لو قلبنا الأمر فمدحنا التقليد وذممنا الاستدلال لكان ذلك مدحا لطريقة الكفار التي ذمها اللَّه تعالى، وذما لطريقة إبراهيم ﷺ التي مدحها اللَّه تعالى، فأجابهم إبراهيم ﷺ بقوله: ﴿قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾﴾ أراد به أن الباطل لا يتغير بأن يكون قديما أو حديثا، ولا بأن يكون في فاعلية كثرة أو قلة»[٣].

قال الشوكاني: «وهذا الجواب هو العصى التي يتوكأ عليها كلّ عاجز، ويمشي بها كلّ أعرج، ويغترّ بها كل مغرور، وينخدع لها كل مخدوع؛ فإنك لو سألت الآن هذه المقلدة للرجال التي طبقت الأرض بطولها والعرض، وقلت لهم: ما الحجة لهم على تقليد فرد من أفراد العلماء، والأخذ بكل ما يقوله في الدين، ويبتدعه من الرأي المخالف للدليل لم يجدوا غير هذا الجواب، ولا فاهوا بسواه، وأخذوا يعدّدون عليك من سبقهم إلى تقليد هذا من سلفهم، واقتداء بأقواله وأفعاله، وهم قد ملؤوا صدورهم هيبة، وضاقت أذهانهم عن تصوّرهم، وظنوا أنهم خير أهل الأرض، وأعلمهم، وأورعهم، فلم يسمعوا لناصح نصحًا، ولا لداع إلى الحق دعاء، ولو فطنوا لوجدوا أنفسهم في غرور عظيم وجهل شنيع وإنهم كالبهيمة العمياء، وأولئك الأسلاف كالعمي الذين يقودون البهائم العمي، كما قال الشاعر:

كبهيمة عمياء قاد زمامها ... أعمى على عوج الطريق الحائر

فعليك أيها العامل بالكتاب والسنة المبرأ من التعصب والتعسف: أن تورد

(١) جامع البيان (١٩/ ٨٤).
(٢) روح المعاني (١٩/ ٩٤).
(٣) التفسير الكبير (٢٤/ ١٤٣).

عليهم حجج اللَّه، وتقيم عليهم براهينه، فإنه ربما انقاد لك منهم من لم يستحكم داء التقليد في قلبه، وأما من قد استحكم في قلبه هذا الداء، فلو أوردت عليه كل حجة، وأقمت عليه كل برهان لما أعارك إلا أذنا صماء، وعينا عمياء، ولكنك قد قمت بواجب البيان الذي أوجبه عليك القرآن، والهداية بيد الخلاق العليم ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾[1]»[2].

* * *

(١) القصص: الآية (٥٦).

(٢) فتح القدير (٤/١٤٨-١٤٩).

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ الْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾﴾

★ غريب الآية:

الأقدمون: جمع الأقدم، وهو الأول والأسبق.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: قال إبراهيم لقومه: أفرأيتم أيها القوم ما كنتم تعبدون من هذه الأصنام أنتم وآباؤكم الأقدمون، يعني بالأقدمين: الأقدمين من الذين كان إبراهيم يخاطبهم، وهم الأولون قبلهم ممن كان على مثل ما كان عليه الذين كلمهم إبراهيم من عبادة الأصنام ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ الْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾﴾. يقول قائل: وكيف يوصف الخشب والحديد والنحاس بعداوة ابن آدم؟ فإن معنى ذلك: فإنهم عدو لي لو عبدتهم يوم القيامة، كما قال -جل ثناؤه-: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾﴾[1].

وقوله: ﴿إِلَّا رَبَّ الْعَٰلَمِينَ﴾ نصبا على الاستثناء، والعدو بمعنى الجمع، ووحد لأنه أخرج مخرج المصدر، مثل القعود والجلوس. ومعنى الكلام: أفرأيتم كل معبود لكم ولآبائكم، فإني منه بريء لا أعبده، إلا رب العالمين»[2].

قال ابن كثير: «وهذا كما قال تعالى مخبرا عن نوح، ﷺ: ﴿فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾[3] وقال هود، ﷺ: ﴿إِنِّيٓ أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوٓا أَنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[4] وهكذا تبرأ إبراهيم من آلهتهم وقال: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ

---

(١) مريم: الآيتان (٨١و٨٢).
(٢) جامع البيان (١٩/ ٨٤).
(٣) يونس: الآية (٧١).
(٤) هود: الآيات (٥٤-٥٦).

أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا﴾[١] وقال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾[٢] وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾[٣] يعني: لا إله إلا الله»[٤].

قال أبو السعود: «وقوله: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ﴾ بيان لحال ما يعبدونه بعد التنبيه على عدم علمهم بذلك؛ أي: فاعلموا أنهم أعداء لعابديهم الذين يحبونهم كحب اللَّه تعالى لما أنهم يتضررون من جهتهم فوق ما يتضرر الرجل من جهة عدوه، أو لأن من يغريهم على عبادتهم ويحملهم عليها هو الشيطان الذي هو أعدى عدو الإنسان، لكنه عليه الصلاة والسلام صور الأمر في نفسه تعريضا بهم، فإنه أنفع في النصيحة من التصريح، وإشعارا بأنها نصيحة بدأ بها نفسه ليكون أدعى إلى القبول. والعدو والصديق يجيئان في معنى الواحد والجمع. ومنه قوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ﴾[٥] شبها بالمصادر للموازنة كالقبول والولوع والحنين والصهيل»[٦].

قال الآلوسي: «ومن هنا استعمل الأكابر التعريض في النصح. ومنه ما يحكي عن الشافعي رضي اللَّه تعالى عنه أن رجلًا واجهه بشيء فقال: لو كنت بحيث أنت لاحتجت إلى أدب. وسمع رجل ناسًا يتحدثون في الحجر فقال: ما هو بيتي ولا بيتكم»[٧].

* * *

(١) الأنعام: الآية (٨١).
(٢) الممتحنة: الآية (٤).
(٣) الزخرف: الآيات (٢٦-٢٨).
(٤) تفسير القرآن (٥/ ١٨٨).
(٥) الكهف: الآية (٥٠).
(٦) تفسير أبي السعود (٦/ ٢٤٨).
(٧) روح المعاني (١٩/ ٩٥).

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ۝٧٨ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ۝٧٩﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يعني: لا أعبد إلا الذي يفعل هذه الأشياء، ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ۝٧٨﴾ أي: هو الخالق الذي قدر قدرا، وهدى الخلائق إليه، فكل يجري على ما قدر، وهو الذي يهدي من يشاء ويضل من يشاء.

﴿وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ۝٧٩﴾ أي: هو خالقي ورازقي، بما سخر ويسر من الأسباب السماوية والأرضية، فساق المزن، وأنزل الماء، وأحيا به الأرض، وأخرج به من كل الثمرات رزقا للعباد، وأنزل الماء عذبا زلالا لـ ﴿نُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا﴾[(١)]»[(٢)].

قال ابن عاشور: «وتقديم المسند إليه على الخبر الفعلي في قوله: ﴿فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ دون أن يقول: فيهدين، لتخصيصه بأنه متولي الهداية دون غيره؛ لأن المقام لإبطال اعتقادهم تصرف أصنامهم.. والتعبير بالمضارع في قوله: (يهدين) لأن الهداية متجددة له. وجعل فعل الهداية مفرعا بالفاء على فعل الخلق لأنه معاقب له؛ لأن الهداية بهذا المعنى من مقتضى الخلق لأنها ناشئة عن خلق العقل كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾[(٣)]. والمراد بالهداية الدلالة على طرق العلم كما في قوله تعالى: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠﴾[(٤)] فيكون المعنى: الذي خلقني جسدا وعقلا. ومن الهداية المذكورة دفع وساوس الباطل عن العقل حتى يكون إعمال النظر معصوما من الخطأ»[(٥)].

قال القرطبي: «فإن قيل: فهذه صفة تجمع الخلق فكيف جعلها إبراهيم دليلا على هدايته ولم يهتد بها غيره؟ قيل: إنما ذكرها احتجاجا على وجوب

---

(١) الفرقان: الآية (٤٩).
(٢) تفسير القرآن (٥/ ١٨٨).
(٣) طه: الآية (٥٠).
(٤) البلد: الآية (١٠).
(٥) التحرير (١٩/ ١٤٢).

الطاعة؛ لأن من أنعم وجب أن يطاع ولا يعصى ليلتزم غيره من الطاعة ما قد التزمها، وهذا إلزام صحيح»[١].

* * *

(١) الجامع (١٣/ ١١١).

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ۝٨٠﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «أسند المرض إلى نفسه، وإن كان عن قدر اللَّه وقضائه وخلقه، ولكن أضافه إلى نفسه أدبا، كما قال تعالى آمرا للمصلي أن يقول: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾[(١)] فأسند الإنعام إلى اللَّه، ﷻ، والغضب حذف فاعله أدبا، وأسند الضلال إلى العبيد، كما قالت الجن: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾[(٢)]؛ ولهذا قال: إبراهيم: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ أي: إذا وقعت في مرض فإنه لا يقدر على شفائي أحد غيره، بما يقدر من الأسباب الموصلة إليه»[(٣)].

قال الزمخشري: «وإنما قال: ﴿مَرِضْتُ﴾ دون «أمرضني» لأن كثيرا من أسباب المرض يحدث بتفريط من الإنسان في مطاعمه ومشاربه وغير ذلك.

قال ابن المنير: والذي ذكره الزمخشري أن السر في إضافة المرض إلى نفسه التأدب مع اللَّه تعالى بتخصيصه بنسبة الشفاء الذي هو نعمة ظاهرة إليه تعالى، ولعل الزمخشري إنما عدل عن هذا لأن إبراهيم ﷺ قد أضاف الإماتة إلى اللَّه تعالى وهي أشد من المرض فلم يثبت عنده المعنى المذكور، ولكن المعنى الذي أبداه الزمخشري أيضًا في المرض ينكسر بالموت، فإن المرض كما يكون بسبب تفريط الإنسان في نفسه كذلك الموت الناشئ عن سبب هذا المرض الذي يكون بتفريط الإنسان وقد أضافه إلى اللَّه تعالى. ويمكن أن يفرق بين نسبة الموت ونسبة المرض في مقتضى الأدب بأن الموت قد علم واشتهر أنه قضاء محتوم من اللَّه تعالى على سائر البشر وحكم عام لا يخص ولا كذلك المرض، فكم من معافى منه قد بغته

---

(١) الفاتحة: الآيتان (٦و٧).

(٢) الجن: الآية (١٠).

(٣) تفسير القرآن (٥/ ١٨٨-١٨٩).

الموت، فالتأسي بعموم الموت لعلة يسقط أثر كونه بلاء محققا فاقتضى العلو في الأدب مع اللَّه تعالى أن ينسبه الإنسان إلى نفسه باعتبار ذلك السبب الذي لا يخلو منه، ويؤيد ذلك أن كل ما ذكره مع المرض أخبر عن وقوعه بتا وجزما لأنه أمر لا بد منه، وأما المرض فلما كان قد يتفق وقد لا أورده مقرونا بشرط إذا فقال: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ﴾ وكان ممكنا أن يقول: (والذي يمرضني فيشفيني) كما قال في غيره، فما عدل عن المطابقة المجانسة المأثورة إلا لذلك واللَّه أعلم»[1].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان أن الشفاء بيد الله

* عن ابن عباس قال: أبو معاوية أراه رفعه. قال: «**من عاد مريضا فقال: أسأل اللَّه العظيم رب العرش العظيم أن يشفيك، سبع مرات، شفاه اللَّه إن كان قد أخر، يعني في أجله**»[2].

★ غريب الحديث:

عاد: من العيادة يقال: عدت المريض إذا زُرته وسألته عن حاله.

★ فوائد الحديث:

قال أبو الطيب آبادي: «(**من عاد مريضا**»: أي زاره في مرضه (لم يحضر أجله): صفة المريض (فقال): أي العائد (عنده): أي المريض (أسأل اللَّه العظيم): أي في ذاته وصفاته (أن يشفيك): بفتح أوله مفعول ثان (إلا عافاه الله»)[3].

قال ابن القيم: «كان ﷺ يعود من مرض من أصحابه، وعاد غلاما كان يخدمه من أهل الكتاب، وعاد عمه وهو مشرك، وعرض عليهما الإسلام، فأسلم اليهودي، ولم يسلم عمه، وكان يدنو من المريض، ويجلس عند رأسه، ويسأله عن حاله فيقول: كيف تجدك؟

وذكر أنه كان يسأل المريض عما يشتهيه فيقول: هل تشتهي شيئا؟ فإن اشتهى

---

(١) الكشاف (٣/ ١١٧).

(٢) أخرجه: أحمد (١/ ٢٣٩) والبخاري في الأدب المفرد (٥٣٦) والترمذي (٤/ ٣٥٧/ ٢٠٨٣) وأبو داود (٣/ ٤٧٩/ ٣١٠٦) والحاكم (١/ ٣٤٣) وابن حبان (٧/ ٢٤٠/ ٢٩٧٥ الإحسان).

(٣) عون المعبود (٨/ ٣٧١).

شيئًا، وعلم أنه لا يضره، أمر له به، وكان يمسح بيده اليمنى على المريض ويقول: **«اللهم رب الناس أذهب البأس واشفه أنت الشافي لا شفاء إلا شفاؤك شفاء لا يغادر سقما»**[١].

وكان يقول: **«امسح البأس رب الناس بيدك الشفاء لا كاشف له إلا أنت»**[٢].

وكان يدعو للمريض ثلاثا كما قاله لسعد: **«اللهم اشف سعدا، اللهم اشف سعدا، اللهم اشف سعدا»**[٣][٤].

* * *

(١) أخرجه: البخاري (١٠/ ١٦١/ ٥٦٧٥) ومسلم (٤/ ١٧٢١-١٧٢٢/ ٢١٩١).

(٢) أخرجه: البخاري (١٠/ ٢٥٣/ ٥٧٤٤).

(٣) أخرجه: البخاري (١٠/ ١٤٨-١٤٩/ ٥٦٥٩) ومسلم (٣/ ١٢٥٣/ ١٦٢٨)(٨).

(٤) زاد المعاد (١/ ٣٩٤-٣٩٥).

قوله تعالى : ﴿وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير : «يقول : والذي يميتني إذا شاء ثم يحييني إذا أراد بعد مماتي»(١) .

قال ابن كثير : «أي : هو الذي يحيي ويميت ، لا يقدر على ذلك أحد سواه فإنه هو الذي يبدئ ويعيد»(٢) .

قال البقاعي : «ولم يأت هنا بما يدل على الحصر لأنه لا مدعي للإحياء والإماتة إلا ما ذكره سبحانه عن نمرود في سورة البقرة ، وأن إبراهيم عليه السلام أبهته ببيان عجزه في إظهار صورة من مكان من الأمكنة بلا شرط من روح ولا غيرها ، وإذا عجز عن ذلك كان عجزه عن إيجاد صورة أبين ، فكيف إذا انضم إلى ذلك إفادتها روحا أو سلبها منها ، فعد ادعاؤه لذلك -مع القاطع المحسوس الذي أبهته- عدما ، والله أعلم»(٣) .

* * *

(١) جامع البيان (١٩/ ٨٥) .

(٢) تفسير القرآن (٥/ ١٨٩) .

(٣) نظم الدرر (١٤/ ٥٣) .

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴿٨٢﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «أي: لا يقدر على غفران الذنوب في الدينا والآخرة إلا هو، ومن يغفر الذنوب إلا الله، وهو الفعال لما يشاء»[(١)].

قال ابن جرير: «فربي هذا الذي بيده نفعي وضري، وله القدرة والسلطان وله الدنيا والآخرة، لا الذي لا يسمع إذا دعي ولا ينفع ولا يضر، وإنما كان هذا الكلام من إبراهيم احتجاجا على قومه في أنه لا تصلح الألوهة، ولا ينبغي أن تكون العبودة إلا لمن يفعل هذه الأفعال، لا لمن لا يطيق نفعا ولا ضرا، وقيل: إن إبراهيم صلوات الله عليه عنى بقوله: ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴿٨٢﴾﴾ والذي أرجو أن يغفر لي قولي: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾[(٢)] وقولي: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾[(٣)] وقولي لسارة: (إنها أختي)[(٤)]»[(٥)].

قال ابن عطية: «وقالت فرقة أراد بـ(الخطيئة) اسم الجنس، فدعا في كل أمره من غير تعيين.

قال القاضي أبو محمد: وهذا أظهر عندي؛ لأن تلك الثلاث قد خرجها كثير من العلماء على المعارض، وهي وإن كانت كذبات بحكم قول النبي ﷺ: «لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات»[(٦)]، وبحكم ما في حديث الشفاعة من قوله في شأن

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٦/ ١٥٦).

(٢) الصافات: الآية (٨٩).

(٣) الأنبياء: الآية (٦٣).

(٤) أخرجه: أحمد (٢/ ٤٠٣-٤٠٤) والبخاري (٦/ ٤٧٨-٤٧٩/ ٣٣٥٨) ومسلم (٤/ ١٨٤٠-١٨٤١/ ٢٣٧١) وأبو داود (٢/ ٦٥٩-٦٦٠/ ٢٢١٢) والترمذي (٥/ ٣٠٠-٣٠١/ ٣١٦٦) والنسائي في الكبرى (٥/ ٩٨/ ٨٣٧٤) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٥) جامع البيان (١٩/ ٨٥).

(٦) سبق تخريجه قريبا.

إبراهيم: «نفسي نفسي»[١] فهي في مصالح وعون شرع وحق»[٢].

قال أبو السعود: «﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴿٨٢﴾﴾ ذكره عليه الصلاة والسلام هضما لنفسه، وتعليما للأمة أن يجتنبوا المعاصي، ويكونوا على حذر وطلب مغفرة لما يفرط منهم، وتلافيا لما عسى يندر منه عليه الصلاة والسلام من الصغائر، وتنبيها لأبيه وقومه على أن يتأملوا في أمرهم فيقفوا على أنهم من سوء الحال في درجة لا يقادر قدرها، فإن حاله عليه الصلاة والسلام مع كونه في طاعة اللَّه تعالى وعبادته في الغاية القاصية، حيث كانت بتلك المثابة فما ظنك بحال أولئك المغمورين في الكفر وفنون المعاصي والخطايا. وحمل الخطيئة على كلماته الثلاث: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ﴾ وقوله لسارة هي أختي مما لا سبيل إليه لأنها مع كونها معاريض لامن قبيل الخطايا المفتقرة إلى الاستغفار؛ إنما صدرت عنه عليه الصلاة والسلام بعد هذه المقاولة الجارية بينه وبين قومه، أما الثالثة فظاهرة لوقوعها بعد مهاجرته عليه الصلاة والسلام إلى الشأم، وأما الأوليان فلأنهما وقعتا مكتنفتين بكسر الأصنام، ومن البين أن جريان هذه المقالات فيما بينهم كان في مبادىء الأمر، وتعليق مغفرة الخطيئة بيوم الدين مع أنها إنما تغفر في الدنيا لأن أثرها يؤمئذ يتبين؛ ولأن في ذلك تهويلا له، وإشارة إلى وقوع الجزاء فيه إن لم تغفر»[٣].

قال السمعاني: «واعلم أن الأنبياء معصومون من الكبائر فأما الخطايا والصغائر تجوز عليهم»[٤].

قال ابن تيمية: «واعلم أن المنحرفين في مسألة العصمة على طرفي نقيض، كلاهما مخالف لكتاب اللَّه من بعض الوجوه: قوم أفرطوا في دعوى امتناع الذنوب، حتى حرفوا نصوص القرآن المخبرة بما وقع منهم من التوبة من الذنوب، ومغفرة اللَّه لهم، ورفع درجاتهم بذلك، وقوم أفرطوا في أن ذكروا عنهم مادل

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٤٣٥-٤٣٦) والبخاري (٦/ ٤٨٧/ ٣٣٦١) ومسلم (١/ ١٨٤-١٨٦/ ١٩٤) والترمذي (٤/ ٥٣٧-٥٣٩/ ٢٤٣٤) والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٧٨-٣٧٩/ ١١٢٨٦) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) المحرر الوجيز (٤/ ٢٣٥).

(٣) تفسير أبي السعود (٦/ ٢٤-٢٥).

(٤) تفسير القرآن (٤/ ٥٤).

القرآن على براءتهم منه، وأضافوا إليهم ذنوبا وعيوبا نزههم اللَّه عنها. وهؤلاء مخالفون للقرآن ومن اتبع القرآن على ما هو عليه، من غير تحريف كان من الأمة الوسط، مهتديا إلى الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم اللَّه عليهم من النبيين والصدقين والشهداء والصالحين»[١].

وقال أيضًا: «السلف قاطبة من القرون الثلاثة الذين هم خير قرون الأمة، وأهل الحديث والتفسير، وأهل كتب قصص الأنبياء والمبتدأ، وجمهور الفقهاء والصوفية، وكثير من أهل الكلام، كجمهور الأشعرية وغيرهم، وعموم المؤمنين، فعلى ما دل عليه الكتاب والسنة مثل قوله تعالى: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾[٢] وقوله: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[٣] بعد أن قال لهما: ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾[٤]. وقوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾﴾[٥] مع أنه عوقب بإخراجه من الجنة. وهذه نصوص لا ترد إلا بنوع من تحريف الكلم عن مواضعه، والمخطيء والناسي إذا كانا مكلفين في تلك الشريعة فلا فرق، وإن لم يكونا مكلفين امتنعت العقوبة، ووصف العصيان والإخبار بظلم النفس، وطلب المغفرة والرحمة، وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ وإنما ابتلى اللَّه الأنبياء بالذنوب رفعا لدرجاتهم بالتوبة، وتبليغا لهم إلى محبته وفرحه بهم؛ فـ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾[٦]، ويفرح بتوبة التائب أشد فرح، فالمقصود كمال الغاية لا نقص البداية؛ فإن العبد تكون له الدرجة لا ينالها إلا بما قدره اللَّه له من العمل أو البلاء»[٧].

وقال أيضًا: «فإن القائلين بالعصمة احتجوا بأن التأسي بهم مشروع، وذلك لا يجوز إلا مع تجويز كون الأفعال ذنوبا، ومعلوم أن التأسي بهم إنما هو مشروع فيما أقروا عليه دون ما نهوا عنه ورجعوا عنه، كما أن الأمر والنهي إنما تجب

---

(١) مجموع الفتاوى (١٥/ ١٥٠).
(٢) طه: الآية (١٢١).
(٣) الأعراف: الآية (٢٣).
(٤) الأعراف: الآية (٢٢).
(٥) البقرة: الآية (٣٧).
(٦) البقرة: الآية (٢٢٢).
(٧) مجموع الفتاوى (٢٠/ ٨٩).

طاعتهم فيما لم ينسخ منه، فأما ما نسخ من الأمر والنهي فلا يجوز جعله مأمورا به، ولا منهيا عنه فضلا عن وجوب اتباعه والطاعة فيه. وكذلك ما احتجوا به من أن الذنوب تنافي الكمال، أو أنها ممن عظمت عليه النعمة أقبح، أو أنها توجب التنفير، أو نحو ذلك من الحجج العقلية، فهذا إنما يكون مع البقاء على ذلك، وعدم الرجوع، وإلا فالتوبة النصوح التي يقبلها اللَّه يرفع بها صاحبها إلى أعظم مما كان عليه، كما قال بعض السلف: كان داود ﷺ بعد التوبة خيرا منه قبل الخطيئة، وقال آخر: لو لم تكن التوبة أحب الأشياء إليه لما ابتلى بالذنب أكرم الخلق عليه، وقد ثبت في الصحاح حديث التوبة «**لله أفرح بتوبة عبده من رجل نزل منزلا**»[1] الخ. وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾[2] وقال تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾[3] وقد ثبت في الصحيح حديث الذي يعرض اللَّه صغار ذنوبه، ويخبأ عنه كبارها وهو مشفق من كبارها أن تظهر، فيقول اللَّه له: إني قد غفرتها لك، وأبدلتك مكان كل سيئة حسنة، فيقول: أي رب إن لي سيئات لم أرها[4] إذا رأى تبديل السيئآت بالحسنات طلب رؤية الذنوب الكبار التي كان مشفقا منها أن تظهر، ومعلوم أن حاله هذه مع هذا التبديل أعظم من حاله لو لم يقع السيئات ولا التبديل. وقال طائفة من السلف منهم سعيد بن جبير: إن العبد ليعمل الحسنة فيدخل بها النار، وإن العبد ليعمل السيئة فيدخل بها الجنة، يعمل الحسنة فيعجب بها، ويفتخر بها حتى تدخله النار، ويعمل السيئة فلا يزال خوفه منها، وتوبته منها، حتى تدخله الجنة، وقد قال تعالى: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًۢا﴾[5]. فغاية كل إنسان أن يكون من المؤمنين والمؤمنات الذين تاب اللَّه عليهم. وفي الكتاب والسنة الصحيحة والكتب التي أنزلت قبل القرآن مما يوافق هذا القول ما يتعذر إحصاؤه. والرادون لذلك تأولوا ذلك بمثل تأويلات الجهمية والقدرية والدهرية،

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٣١٦) ومسلم (٤/ ٢١٠٤/ ٢٦٧٥) واللفظ له، والترمذي (٥/ ٥١١/ ٣٥٣٨) وابن ماجه (٢/ ١٤١٩/ ٤٢٤٧) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) البقرة: الآية (٢٢٢).

(٣) الفرقان: الآية (٧٠).

(٤) أخرجه: أحمد (٥/ ١٥٧) ومسلم (١/ ١٧٧/ ١٩٠) والترمذي (٤/ ٦١٤/ ٢٥٩٦) من حديث أبي ذر ﷺ.

(٥) الأحزاب: الآيتان (٧٢و٧٣).

لنصوص الأسماء والصفات، ونصوص القدر ونصوص المعاد، وهي من جنس تأويلات القرامطة الباطنية التي يعلم بالاضطرار أنها باطلة، وأنها من باب تحريف الكلم عن مواضعه، وهؤلاء يقصد أحدهم تعظيم الأنبياء فيقع في تكذيبهم، ويريد الإيمان بهم فيقع في الكفر بهم. ثم إن العصمة المعلومة بدليل الشرع والعقل والإجماع وهي العصمة في التبليغ، لم ينتفعوا بها إذ كانوا لا يقرون بموجب ما بلغته الأنبياء، وإنما يقرون بلفظ حرفوا معناه أو كانوا فيه كالأميين الذين لا يعلمون الكتاب إلا أماني، والعصمة التي كانوا ادعوها لو كانت ثابتة لم ينتفعوا بها، ولا حاجة بهم إليها عندهم، فإنها متعلقة بغيرهم لا بما أمروا بالإيمان به، فيتكلم أحدهم فيها على الأنبياء بغير سلطان من اللَّه، ويدع ما يجب عليه من تصديق الأنبياء وطاعتهم، وهو الذي تحصل به السعادة، وبضده تحصل الشقاوة، قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ﴾[1] الآية، واللَّه تعالى لم يذكر في القرآن شيئًا من ذلك عن نبي من الأنبياء إلا مقرونا بالتوبة والاستغفار، كقول آدم وزوجته: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[2]، وقول نوح: ﴿رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[3]، وقول الخليل عليه السلام: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾﴾[4] وقوله: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾﴾، وقول موسى: ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾[5]، وقوله: ﴿رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى﴾[6]، وقوله: ﴿فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[7]، وقوله تعالى عن داود: ﴿فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾[8]، وقوله تعالى عن سليمان: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾﴾[9]. وأما يوسف الصديق فلم يذكر اللَّه عنه ذنبا، فلهذا لم يذكر اللَّه عنه

(١) النور: الآية (٥٤).
(٢) الأعراف: الآية (٢٣).
(٣) هود: الآية (٤٧).
(٤) إبراهيم: الآية (٤١).
(٥) الأعراف: الآيتان (١٥٥و١٥٦).
(٦) القصص: الآية (١٦).
(٧) الأعراف: الآية (١٤٣).
(٨) ص: الآيتان (٢٤و٢٥).
(٩) ص: الآية (٣٥).

ما يناسب الذنب من الاستغفار؛ بل قال: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾(١)، فأخبر أنه صرف عنه السوء والفحشاء، وهذا يدل على أنه لم يصدر منه سوء ولا فحشاء..

والمقصود هنا أن ما تضمنته قصة ذي النون مما يلام عليه كله مغفور بدله الله به حسنات، ورفع درجاته، وكان بعد خروجه من بطن الحوت وتوبته أعظم درجة منه قبل أن يقع ما وقع قال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾(٢)، وهذا بخلاف حال التقام الحوت فإنه قال: ﴿فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾﴾(٣)، فأخبر أنه في تلك الحال مليم، والمليم الذي فعل ما يلام عليه، فالملام في تلك الحال لا في حال نبذه بالعراء وهو سقيم، فكانت حاله بعد قوله: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾(٤) أرفع من حاله قبل أن يكون ما كان، والاعتبار بكمال النهاية لا بما جرى في البداية، والأعمال بخواتيمها. والله تعالى خلق الإنسان وأخرجه من بطن أمه لا يعلم شيئًا، ثم علمه، فنقله من حال النقص إلى حال الكمال، فلا يجوز أن يعتبر قدر الإنسان بما وقع منه قبل حال الكمال؛ بل الاعتبار بحال كماله، ويونس ﷺ وغيره من الأنبياء في حال النهاية حالهم أكمل الأحوال، ومن هنا غلط من غلط في تفضيل الملائكة على الأنبياء والصالحين، فإنهم اعتبروا كمال الملائكة مع بداية الصالحين ونقصهم فغلطوا، ولو اعتبروا حال الأنبياء والصالحين بعد دخول الجنان، ورضى الرحمن، وزوال كل ما فيه نقص وملام، وحصول كل ما فيه رحمة وسلام، حتى استقر بهم القرار، ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾(٥) فإذا اعتبرت تلك الحال ظهر فضلها على حال غيرهم من المخلوقين، وإلا فهل يجوز لعاقل أن يعتبر حال أحدهم قبل الكمال في مقام المدح والتفضيل والبراءة من النقائص والعيوب؟! ولو اعتبر ذلك لاعتبر أحدهم وهو نطفة، ثم علقة ثم مضغة، ثم حين نفخت فيه الروح،

---

(١) يوسف: الآية (٢٤).
(٢) القلم: الآيات (٤٨-٥٠).
(٣) الصافات: الآية (١٤٢).
(٤) الأنبياء: الآية (٨٧).
(٥) الرعد: الآيتان (٢٣و٢٤).

ثم هو وليد ثم رضيع ثم فطيم، إلى أحوال أخر، فعلم أن الواحد في هذه الحال لم تقم به صفات الكمال التي يستحق بها كمال المدح والتفضيل، وتفضيله بها على كل صنف وجيل، وإنما فضله باعتبار المآل عند حصول الكمال. وما يظنه بعض الناس أنه من ولد على الإسلام فلم يكفر قط أفضل ممن كان كافرا فأسلم ليس بصواب؛ بل الاعتبار بالعاقبة، وأيهما كان أتقى لله في عاقبته كان أفضل، فإنه من المعلوم أن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، الذين آمنوا باللّه ورسوله بعد كفرهم هم أفضل ممن ولد على الإسلام من أولادهم وغير أولادهم؛ بل من عرف الشر وذاقه، ثم عرف الخير وذاقه، فقد تكون معرفته بالخير ومحبته له، ومعرفته بالشر وبغضه له، أكمل ممن لم يعرف الخير والشر، ويذقهما كما ذاقهما؛ بل من لم يعرف إلا الخير فقد يأتيه الشر فلا يعرف أنه شر، فإما أن يقع فيه، وإما أن لا ينكره كما أنكره الذي عرفه. ولهذا قال عمر بن الخطاب ﷺ: (إنما تنقض عرى الإسلام عروة عروة إذا نشأ في الإسلام من لم يعرف الجاهلية). وهو كما قال عمر، فإن كمال الإسلام هو بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتمام ذلك بالجهاد في سبيل اللّه، ومن نشأ في المعروف لم يعرف غيره، فقد لا يكون عنده من العلم بالمنكر، وضرره ما عند من علمه، ولا يكون عنده من الجهاد لأهله ما عند الخبير بهم، ولهذا يوجد الخبير بالشر وأسبابه إذا كان حسن القصد عنده من الاحتراز عنه، ومنع أهله والجهاد لهم ما ليس عند غيره. ولهذا كان الصحابة ﷺ أعظم إيمانا وجهادا ممن بعدهم لكمال معرفتهم بالخير والشر، وكمال محبتهم للخير وبغضهم للشر لما علموه من حسن حال الإسلام والإيمان والعمل الصالح، وقبح حال الكفر والمعاصي، ولهذا يوجد من ذاق الفقر والمرض والخوف أحرص على الغنى والصحة والأمن ممن لم يذق ذلك، ولهذا يقال: والضد يظهر حسنه الضد، ويقال: وبضدها تتبين الأشياء. وكان عمر بن الخطاب ﷺ يقول: (لست بخب، ولا يخدعني الخب) فالقلب السليم المحمود هو الذي يريد الخير لا الشر، وكمال ذلك بأن يعرف الخير والشر، فأما من لا يعرف الشر فذاك نقص فيه لا يمدح به. وليس المراد أن كل من ذاق طعم الكفر والمعاصي يكون أعلم بذلك وأكره له ممن لم يذقه مطلقا، فإن هذا ليس بمطرد؛ بل قد يكون الطبيب أعلم بالأمراض من

المرضى، والأنبياء عليهم الصلاة والسلام أطباء الأديان، فهم أعلم الناس بما يصلح القلوب ويفسدها، وإن كان أحدهم لم يذق من الشر ما ذاقه الناس. ولكن المراد أن من الناس من يحصل له بذوقه الشر من المعرفة به والنفور عنه والمحبة للخير إذا ذاقه ما لا يحصل لبعض الناس، مثل من كان مشركًا أو يهوديًّا أو نصرانيًّا، وقد عرف ما في الكفر من الشبهات والأقوال الفاسدة، والظلمة والشر، ثم شرح اللَّه صدره للإسلام، وعرفه محاسن الإسلام، فإنه قد يكون أرغب فيه وأكره للكفر من بعض من لم يعرف حقيقة الكفر والإسلام؛ بل هو معرض عن بعض حقيقة هذا وحقيقة هذا، أو مقلد في مدح هذا وذم هذا، ومثال ذلك من ذاق طعم الجوع، ثم ذاق طعم الشبع بعده، أو ذاق المرض ثم ذاق طعم العافية بعده، أو ذاق الخوف ثم ذاق الأمن بعده، فإن محبة هذا ورغبته في العافية والأمن والشبع ونفوره عن الجوع والخوف والمرض أعظم ممن لم يبتل بذلك ولم يعرف حقيقته. وكذلك من دخل مع أهل البدع والفجور، ثم بين اللَّه له الحق وتاب عليه توبة نصوحا، ورزقه الجهاد في سبيل اللَّه، فقد يكون بيانه لحالهم وهجره لمساويهم وجهاده لهم أعظم من غيره.

قال نعيم بن حماد الخزاعي -وكان شديدا على الجهمية-: أنا شديد عليهم لأني كنت منهم، وقد قال اللَّه تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾[1] نزلت هذه الآية في طائفة من الصحابة، كان المشركون فتنوهم عن دينهم ثم تاب اللَّه عليهم، فهاجروا إلى اللَّه ورسوله وجاهدوا وصبروا. وكان عمر بن الخطاب وخالد بن الوليد رضي الله عنهما من أشد الناس على الإسلام، فلما أسلما تقدما على من سبقهما إلى الإسلام، وكان بعض من سبقهما دونهما في الإيمان والعمل الصالح بما كان عندهما من كمال الجهاد للكفار والنصر لله ورسوله، وكان عمر لكونه أكمل إيمانا وإخلاصا، وصدقا ومعرفة، وفراسة ونورا، أبعد عن هوى النفس وأعلى همة في إقامة دين اللَّه مقدما على سائر المسلمين غير أبي بكر رضي الله عنهم أجمعين. وهذا وغيره مما يبين أن الاعتبار بكمال النهاية لا بنقص البداية»[2].

(١) النحل: الآية (١١٠).

(٢) مجموع الفتاوى (١٠/ ٢٩٣-٣٠٤).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أن التوحيد شرط في العمل، كالطهارة شرط في الصلاة فالشرك كالحدث

* عن عائشة أنها قالت: يا رسول اللَّه ابن جدعان كان في الجاهلية يصل الرحم، ويطعم المسكين فهل ذاك نافعه؟ قال: «**لا ينفعه، إنه لم يقل يوما: رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين**»[(١)].

* **فوائد الحديث:**

قال النووي: «معنى هذا الحديث أن ما كان يفعله من الصلة والإطعام ووجوه المكارم لا ينفعه في الآخرة لكونه كافرا هو معنى قوله ﷺ: «**لم يقل رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين**»؛ أي: لم يكن مصدقا بالبعث، ومن لم يصدق به كافر ولا ينفعه عمل. قال القاضي عياض رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى: وقد انعقد الإجماع على أن الكفار لا تنفعهم أعمالهم، ولا يثابون عليها بنعيم ولا تخفيف عذاب، لكن بعضهم أشد عذابا من بعض بحسب جرائمهم، هذا آخر كلام القاضي. وذكر الإمام الحافظ الفقيه أبو بكر البيهقي في كتابه «البعث والنشور» نحو هذا عن بعض أهل العلم والنظر. قال البيهقي: وقد يجوز أن يكون حديث ابن جدعان وما ورد من الآيات والأخبار في بطلان خيرات الكافر إذا مات على الكفر، ورد في أنه لا يكون لها موقع التخلص من النار وإدخال الجنة، ولكن يخفف عنه من عذابه الذي يستوجبه على جنايات ارتكبها سوى الكفر بما فعل من الخيرات، هذا كلام البيهقي، قال العلماء: وكان ابن جدعان كثير الإطعام، وكان اتخذ للضيفان جفنة يرقى إليها بسلم، وكان من بني تميم بن مرة أقرباء عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وكان من رؤساء قريش، واسمه عبداللَّه وجدعان بضم الجيم وإسكان الدال المهملة وبالعين المهملة وأما صلة الرحم: فهي الإحسان إلى الأقارب؛ وقد تقدم بيانها، وأما الجاهلية: فما كان قبل النبوة؛ سموا بذلك لكثرة جهالاتهم واللَّه تعالى أعلم»[(٢)].

ويستفاد من هذا الحديث أن الكافر لا تصح منه قربة لعدم وجود شرطها الذي

---

(١) أخرجه: أحمد (٦/ ٩٣) ومسلم (١/ ١٩٦/ ٢١٤).

(٢) شرح مسلم (٣/ ٧٣-٧٤).

لا تقبل بدونه وهو الإيمان[١].

قال النووي: «أجمع العلماء على أن الكافر الذي مات على كفره لا ثواب له في الآخرة، ولا يجازى فيها بشيء من عمله في الدنيا متقربا إلى اللَّه تعالى، وصرح في هذا الحديث[٢] بأن يطعم في الدنيا بما عمله من الحسنات؛ أي: بما فعله متقربا به إلى اللَّه تعالى مما لا يفتقر صحته إلى النية، كصلة الرحم، والصدقة، والعتق، والضيافة، وتسهيل الخيرات ونحوها. وأما المؤمن فيدخر له حسناته وثواب أعماله إلى الآخرة، ويجزى بها مع ذلك أيضًا في الدنيا، ولا مانع من جزائه بها في الدنيا والآخرة، وقد ورد الشرع به فيجب اعتقاده.. وأما إذا فعل الكافر مثل هذه الحسنات ثم أسلم فإنه يثاب عليها في الآخرة على المذهب الصحيح»[٣].

قال الشنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ: «اعلم أن القرآن العظيم دل على أن العمل الصالح هو ما استكمل ثلاثة أمور:

الأول: موافقته لما جاء به النبي ﷺ لأن اللَّه يقول: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾[٤].

الثاني: أن يكون خالصا لله تعالى لأن اللَّه -جل وعلا- يقول: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾[٥].

الثالث: أن يكون مبنيا على أساس العقيدة الصحيحة لأن اللَّه يقول: ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾[٦] فقيد ذلك بالإيمان، ومفهوم مخالفته أنه لو كان غير مؤمن لما قبل به[٧] ذلك العمل الصالح»[٨].

---

(١) أفاده القرطبي في المفهم (١/ ٤٦٠).

(٢) يشير إلى ما أخرجه أحمد (٣/ ١٢٣) ومسلم (٤/ ٢١٦٢/ ٢٨٠٨) من حديث أنس بن مالك قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «إن اللَّه لا يظلم مؤمنا حسنة يعطى بها في الدنيا ويجزى بها في الآخرة وأما الكافر فيطعم بحسنات ما عمل بها لله في الدنيا. حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم يكن له حسنة يجزى بها».

(٣) شرح مسلم (١٧/ ١٢٤).

(٤) الحشر: الآية (٧).

(٥) البينة: الآية (٥).

(٦) غافر: الآية (٤٠).

(٧) كذا في الأصل، ولعل الصواب واللَّه أعلم: قبل منه.

(٨) الأضواء (٢/ ٤٣٩-٤٤٠).

قوله تعالى: ﴿رَبِّ هَبۡ لِي حُكۡمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ٨٣﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الرازي: «اعلم أن اللَّه تعالى لما حكى عن إبراهيم ﷺ ثناءه على اللَّه تعالى، ذكر بعد ذلك دعاءه ومسألته؛ وذلك تنبيه على أن تقديم الثناء على الدعاء من المهمات، وتحقيق الكلام فيه، أن هذه الأرواح البشرية من جنس الملائكة، فكلما كان اشتغالها بمعرفة اللَّه تعالى ومحبته، والانجذاب إلى عالم الروحانيات أشد كانت مشاكلتها للملائكة أتم، فكانت أقوى على التصرف في أجسام هذا العالم، وكلما كان اشتغالها بلذات هذا العالم واستغراقها في ظلمات هذه الجسمانيات أشد كانت مشاكلتها للبهائم أشد فكانت أكثر عجزا وضعفا، وأقل تأثيرا في هذا العالم، فمن أراد أن يشتغل بالدعاء يجب أن يقدم عليه ثناء اللَّه تعالى وذكر عظمته وكبريائه.. ويصير قريب المشاكلة من الملائكة فتحصل له بسبب تلك المشاكلة قوة إلهية سماوية فيصير مبدأ لحدوث ذلك الشيء الذي هو المطلوب بالدعاء»(١).

قال ابن جرير: «يقول: واجعلني رسولا إلى خلقك، حتى تلحقني بذلك بعداد من أرسلته من رسلك إلى خلقك، وائتمنته على وحيك، واصطفيته لنفسك»(٢).

قال الرازي: «وإنما قدم قوله: ﴿رَبِّ هَبۡ لِي حُكۡمٗا﴾ على قوله: ﴿وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ لما أن القوة النظرية مقدمة على القوة العملية بالشرف وبالذات، وأيضًا فإنه يمكنه أن يعلم الحق وإن لم يعلم بالخير وعكسه غير ممكن، ولأن العلم صفة الروح والعمل صفة البدن، ولما كان الروح أشرف من البدن كان العلم أفضل من العمل»(٣).

---

(١) التفسير الكبير (٢٤/ ١٤٨).

(٢) جامع البيان (١٩/ ٨٦).

(٣) التفسير الكبير (٢٤/ ١٤٩).

قال ابن عاشور : «(ولفظ الصالحين) يعم جميع الصالحين من الأنبياء والمرسلين، فيكون قد سأل بلوغ درجات الرسل أولي العزم نوح وهود وصالح والشهداء والصالحين، فجعل الصالحين آخرًا لأنه يعم، فكان تذييلًا»[١] .

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في موافقته ﷺ لأبيه إبراهيم في الدعاء والطلب

* عن رفاعة الزرقي قال : لما كان يوم أحد، وانكفأ المشركون، قال رسول اللَّه ﷺ : «**استووا حتى أثني على ربي**» فصاروا خلفه صفوفا، فقال : «**اللهم لك الحمد كله، اللهم لا قابض لما بسطت، ولا باسط لما قبضت، ولا هادي لما أضللت، ولا مضل لمن هديت، ولا معطي لما منعت، ولا مانع لما أعطيت، ولا مقرب لما باعدت، ولا مباعد لما قربت، اللهم ابسط علينا من بركاتك ورحمتك وفضلك ورزقك، اللهم إني أسألك النعيم المقيم الذي لا يحول ولا يزول، اللهم إني أسألك النعيم يوم العيلة، والأمن يوم الخوف، اللهم إني عائذ بك من شر ما أعطيتنا وشر ما منعت، اللهم حبب إلينا الإيمان، وزينه في قلوبنا، وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان، واجعلنا من الراشدين، اللهم توفنا مسلمين، وأحينا مسلمين، وألحقنا بالصالحين غير خزايا ولا مفتونين، اللهم قاتل الكفرة الذين يكذبون رسلك، ويصدون عن سبيلك، واجعل عليهم رجزك وعذابك، اللهم قاتل الكفرة، الذين أوتوا الكتاب، إله الحق**»[٢] .

---

(١) التحرير والتنوير (١٩/ ١٤٥).

(٢) أخرجه : أحمد (٣/ ٤٢٤) واللفظ له، والنسائي في الكبرى (٦/ ١٠٦/ ١٠٤٤٥) والطبراني (٥/ ٤٧/ ٤٥٤٩) والبزار (كشف الأستار ٢/ ٣٢٩-٣٣٠/ ١٨٠٠)، وذكره الهيثمي في المجمع (٦/ ١٢١-١٢٢) وقال : رواه أحمد والبزار واقتصر على عبيد بن رفاعة عن أبيه وهو الصحيح وقال : «**اللهم قاتل كفرة أهل الكتاب**» ورجال أحمد رجال الصحيح.

وأخرجه البخاري في الأدب المفرد (٦٩٩) والحاكم (٣/ ٢٣-٢٤)، وقال : «صحيح على شرط الشيخين» ووافقه الذهبي. وقال الألباني في تخريج فقه السيرة للغزالي (ص٢٨٤,) قلت : إنما هو فقط صحيح فإن فيه عبيد بن رفاعة ولم يخرج له الشيخان».

★ **غريب الحديث:**

وانكفأ المشركون: أي انقلبوا ورجعوا إلى بيوتهم.

حتى أثني: بضم الهمزة من الثناء.

يوم العيلة: ضبط بفتح العين؛ أي: يوم الحاجة.

غير خزايا: جمع خزيان، هو من وقع في ذل المعصية.

ولا مفتونين: أي غير واقعين في الفتنة الدينية والبلية الأخروية، أو ولا معذبين[1].

* عن عائشة قالت: كان رسول اللَّه ﷺ وهو صحيح يقول: «**إنه لم يقبض نبي قط حتى يرى مقعده من الجنة، ثم يحيا -أو يخير-**» فلما اشتكى وحضره القبض ورأسه على فخذ عائشة، غشي عليه، فلما أفاق شخص بصره نحو سقف البيت ثم قال: «**اللهم في الرفيق الأعلى**». **فقلت: إذا لا يختارنا، فعرفت أنه حديثه الذي كان يحدثنا وهو صحيح**[2].

★ **غريب الحديث:**

يحيا: بضم التحتية الأولى وتشديد الثانية مفتوحة، بينهما حاء مهملة مفتوحة أي يسلم إليه الأمر أو يملك في أمره أو يسلم عليه تسليم الوداع[3].

شخص بصره نحو سقف البيت: أي حدد نظره إلى سقف البيت كما تفعل الموتى.

★ **فوائد الحديثين:**

قد تقدم الكلام على هذا المعنى عند قوله تعالى من سورة يوسف ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ الآية (١٠١).

---

(١) فضل اللَّه الصمد (٢/ ١٦٢).

(٢) أخرجه بهذا السياق: أحمد (٦/ ٨٩) والبخاري (٨/ ١٧٢/ ٤٤٣٧) ومسلم (٤/ ١٨٩٤/ ٢٤٤٤)(٨٧). وأخرج محل الشاهد منه: الترمذي (٥/ ٤٩١/ ٣٤٩٦) والنسائي في الكبرى (٦/ ٢٦٩/ ١٠٩٣٤-١٠٩٣٥-١٠٩٣٦) وابن ماجه (١/ ٥١٧/ ١٦١٩).

(٣) قاله القسطلاني. إرشاد الساري (٩/ ٤٧٣).

قلت: ومطابقة الآية للحديثين بيان موافقة النبي ﷺ لأبيه إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام في دعائه بإلحاقه ﷺ بالصالحين واختياره الرفيق الأعلى بعد التخيير.

* * *

قوله تعالى: ﴿وَٱجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي ٱلْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي: «أي: اجعل لي ثناء صدق، مستمر إلى آخر الدهر. فاستجاب اللَّه دعاءه، فوهب له من العلم والحكم، ما كان به من أفضل المرسلين، وألحقه بإخوانه المرسلين، وجعله محبوبا مقبولا معظما مثنًى عليه، في جميع الملل، في كل الأوقات.

قال تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي ٱلْآخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾﴾[(١)]»[(٢)].

قال القرطبي: «وقد فعل اللَّه ذلك إذ ليس أحد يصلي على النبي ﷺ إلا وهو يصلي على إبراهيم وخاصة في الصلوات، وعلى المنابر التي هي أفضل الحالات وأفضل الدرجات. والصلاة دعاء بالرحمة»[(٣)].

قال الآلوسي: «أي: اجعل لنفعي ذكرًا صادقًا في جميع الأمم إلى يوم القيامة، وحاصله خلد صيتي وذكري الجميل في الدنيا، وذلك بتوفيقه للآثار الحسنة، والسنن المرضية لديه تعالى المستحسنة التي يقتدي بها الآخرون ويذكرونه بسببها بالخير وهم صادقون.. وتعريف (الآخرين) للاستغراق، والكلام مستلزم لطلب التوفيق للآثار الحسنة التي أشرنا إليها، وكأنه المقصود بالطلب على أبلغ وجه، ولا بأس بأن يريد تخليد ذكره بالجميل ومدحه بما كان عليه ﷺ في زمانه، ولكون الثناء الحسن مما يدل على محبة اللَّه تعالى ورضائه، كما ورد في الحديث يحسن طلبه من الأكابر من هذه الجهة، والقصد كل القصد هو الرضا. ويحتمل أن يراد بالآخرين آخر أمة يبعث فيها نبي، وأنه ﷺ طلب الصيت الحسن والذكر الجميل فيهم ببعثة نبي فيهم يجدد

---

(١) الصافات: الآيات (١٠٨-١١١).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٥٢٥).

(٣) الجامع لحكام القرآن (١٣/ ١١٣).

أصل دينه، ويدعو الناس إلى ما كان يدعوهم إليه من التوحيد معلما لهم أن ذلك ملة إبراهيم عليه السلام، فكأنه طلب بعثة نبي كذلك في آخر الزمان لا تنسخ شريعته إلى يوم القيامة، وليس ذلك إلا نبينا محمدا ﷺ، وقد طلب بعثته عليهما الصلاة والسلام بما هو أصرح مما ذكر أعني قوله: ﴿وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ﴾[1]»[2].

قال القرطبي: «روى أشهب عن مالك قال قال الله عز وجل: ﴿وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿٨٤﴾﴾ لا بأس أن يحب الرجل أن يثنى عليه صالحا ويرى في عمل الصالحين، إذا قصد به وجه الله تعالى، وقد قال الله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى﴾[3] وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾﴾[4] أي: حبا في قلوب عباده وثناء حسنًا، فنبه تعالى بقوله: ﴿وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿٨٤﴾﴾ على استحباب اكتساب ما يورث الذكر الجميل»[5].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في استجابة الله دعوة الخليل عليه السلام

* عن أبي أمامة قال: قلت يا نبي الله! ما كان أول بدء أمرك؟ قال: «**دعوة أبي إبراهيم، وبشرى عيسى، ورأت أمي أنه يخرج منها نور أضاءت منها قصور الشام**»[6].

★ **فوائد الحديث:**

قال المناوي: «**«أنا دعوة إبراهيم»** أي: صاحب دعوته بقوله حين بنى الكعبة: ﴿وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾، وفائدته بعد فرض وقوعه نبيا مقدرا له ذلك التنويه بشرفه، وكونه مطلوب الوجود، تاليا للكتاب، مطهرا للناس من الشرك، معروفا عند الأنبياء المتقدمين»[7].

قال ابن تيمية في معرض كلامه على بشارة المسيح عليه السلام بنبينا محمد ﷺ: «وبالجملة فمعلوم باتفاق أهل الأرض أنه لم يأت بعد المسيح من ساد العالم باطنا

---

(١) البقرة: الآية (١٢٩).
(٢) روح المعاني (١٩/ ٩٨-٩٩).
(٣) طه: الآية (٣٩).
(٤) مريم: الآية (٩٦).
(٥) الجامع لحكام القرآن (١٣/ ١١٣).
(٦) أخرجه: أحمد (٥/ ٢٦٢) والطيالسي (١١٤٠) وابن سعد في الطبقات (١/ ١٠٢) والطبراني في الكبير (٨/ ١٧٥/ ٧٧٢٩) وذكره الهيثمي (٨/ ٢٢٢) وابن حبان (١٤/ ٣١٢-٣١٣/ ٦٤٠٤ الإحسان) والحاكم (٢/ ٦٠٠/ ٤١٧٥). وانظر الصحيحة (٤/ ٦٢/ ٥٩).
(٧) فيض القدير (٣/ ٤٦).

وظاهرا، وانقادت له القلوب والأجساد، وأطيع في السر والعلانية، في محياه وبعد مماته في جميع الأعصار وأفضل الأقاليم، شرقا وغربا، غير محمد؛ فإن الملوك يطاعون ظاهرا لا باطنا، ولا يطاعون بعد موتهم، ولا يطيعهم أهل الدين طاعة يرجون بها ثواب اللَّه في الدار الآخرة، ويخافون عقاب اللَّه في الدار الآخرة؛ بخلاف الأنبياء.

ومحمد أظهر دين الرسل قبله، وصدقهم ونوه بذكرهم وتعظيمهم، فبه آمن بالأنبياء والرسل قبل موسى والمسيح وغيرهما أمم عظيمة، لولا محمد لم يؤمنوا بهم، ومن كان يعرف هؤلاء من أهل الكتاب كانوا مختلفين فيهم؛ كاختلاف أهل الكتاب في المسيح، وكانوا يقدحون في داود وسليمان وغيرهما بما هو معروف عندهم. وأيضًا فإنه ذكر لهم من الرسل ما لم يكونوا يعرفونه، مثل هود وصالح وشعيب وغيرهم.

ومحمد ﷺ صدق المسيح في أخباره بأنه أركون العالم، فقال: «**أنا سيد ولد آدم ولا فخر، آدم فمن دونه تحت لوائي، أنا خطيب الأنبياء إذا وفدوا، وإمام الأنبياء إذا اجتمعوا**»[1] وهو صاحب لواء الحمد، وهو صاحب المقام المحمود الذي يغبطه به الأولون والآخرون يوم القيامة، فهو سيد العالمين حقا، وهذا مطابق لقول المسيح: إنه أركون العالم، فهو أركون الآخرين في الدنيا والآخرة، وهو أركون الأولين والآخرين في الآخرة»[2].

قلت: وجه المطابقة بين الآية والحديث بيان استجابة اللَّه دعوة الخليل عليه السلام ببعثة خاتم الأنبياء يدعو الناس إلى ما كان يدعوهم إليه فمن تأمل حال الرسولين الكريمين ودعوتهما وجدهما متوافقين متطابقين حذو القذة بالقذة، وباللَّه التوفيق.

* * *

---

(١) طرفه الأول أخرجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: أحمد (٢/ ٥٤٠) ومسلم (٤/ ١٧٨٢/ ٢٢٧٨) وأبو داود (٥/ ٥٤/ ٤٦٧٣). أما طرفه الثاني والأخير: فأخرجه بلفظ قريب: الدارمي (١/ ٢٦-٢٧) والترمذي (٥/ ٥٤٦/ ٣٦١٠) وقال: «حسن غريب».

(٢) الجواب الصحيح (٥/ ٣٠٥-٣٠٧).

قوله تعالى: ﴿وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الرازي: «اعلم أنه لما طلب سعادة الدنيا طلب بعدها سعادة الآخرة وهي جنة النعيم، وشبهها بما يورث لأنه الذي يغتنم في الدنيا، فشبه غنيمة الآخرة بغنيمة الدنيا»[(١)].

قال ابن جرير: «يعني إبراهيم صلوات اللَّه عليه بقوله: ﴿وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾﴾ أورثني يا ربّ من منازل من هلك من أعدائك المشركين بك من الجنة، وأسكني ذلك. ﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ﴾ يقول: واصفح لأبي عن شركه بك، ولا تعاقبه عليه ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ يقول: إنه كان ممن ضل عن سبيل الهدى، فكفر بك»[(٢)].

قال ابن كثير: «وهذا مما رجع عنه إبراهيم، عليه السلام، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾[(٣)].

وقد قطع اللَّه تعالى الإلحاق في استغفاره لأبيه، فقال: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾[(٤)]»[(٥)].

وقد بينا المعنى الذي من أجله استغفر إبراهيم لأبيه صلوات اللَّه عليه واختلاف أهل العلم في ذلك في سورة التوبة.

* * *

(١) التفسير الكبير (٢٤/ ١٥٠-١٥١).
(٢) جامع البيان (١٩/ ٨٦).
(٣) التوبة: الآية (١١٤).
(٤) الممتحنة: الآية (٤).
(٥) تفسير القرآن (٥/ ١٨٩-١٩٠).

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «ولا تذلني بعقابك إياي يوم تبعث عبادك من قبورهم لموقف القيامة»[(١)].

قال مصطفى المنصوري: «وهذا تواضع منه أمام عظمة اللّه وجلاله، وكل ذلك مبني على هضم النفس منه عليه السلام»[(٢)].

قال الناصري: «تضمن التماس العز والكرامة وعدم التعرض للهوان والذل يوم القيامة»[(٣)].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة
في أن الشرك مفرق بين الأب وبنيه ولو كان نبيا

* عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة، وعلى وجه آزر قترة وغبرة، فيقول له إبراهيم: ألم أقل لك لا تعصيني؟ فيقول أبوه: فاليوم لا أعصيك، فيقول إبراهيم: رب إنك وعدتني أن لا تخزيني يوم يبعثون، فأي خزي أخزى من أبي الأبعد، فيقول الله: إني حرمت الجنة على الكافرين، ثم يقال: يا إبراهيم ما تحت رجليك؟ فإذا هو بذيخ متلطخ، فيؤخذ بقوائمه فيلقى في النار»[(٤)].

★ **غريب الحديث:**

قترة وغبرة: هذا موافق لظاهر القرآن ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾﴾[(٥)] أي يغشاها قترة فالذي يظهر أن الغبرة الغبار من التراب والقترة السواد

---

(١) جامع البيان (١٩/ ٨٦-٨٧).
(٢) المقتطف من عيون التفاسير (٤/ ٦٥).
(٣) التيسير في أحاديث التفسير (٤/ ٣٧٧).
(٤) أخرجه: البخاري (٦/ ٤٧٧/ ٣٣٥٠)، النسائي في الكبرى (٦/ ٤٢٢/ ١١٣٧٥).
(٥) عبس: الآيتان (٤٠و٤١).

الكائن عن الكآبة[١].

بذيخ متلطخ: والذيخ بكسر الذال المعجمة بعدها تحتانية ساكنة ثم خاء معجمة ذكر الضباع وقيل: لا يقال ذيخ إلا إذا كان كثير الشعر ومتلطخ أي: في رجيع أو دم أو طين.

* عن رجل من بني كنانة قال: صليت خلف النبي ﷺ عام الفتح فسمعته يقول: «**اللهم لا تخزني يوم القيامة**»[٢].

⋆ فوائد الحديثين:

قال الحافظ: «قيل: الحكمة في مسخه لتنفر نفس إبراهيم منه، ولئلا يبقى في النار على صورته، فيكون فيه غضاضة على إبراهيم. وقيل: الحكمة في مسخه ضبعا أن الضبع من أحمق الحيوان، وآزر كان من أحمق البشر؛ لأنه بعد أن ظهر له من ولده من الآيات البينات أصر على الكفر حتى مات. واقتصر في مسخه على هذا الحيوان لأنه وسط في التشويه بالنسبة إلى ما دونه، كالكلب والخنزير وإلى ما فوقه كالأسد مثلا، ولأن إبراهيم بالغ في الخضوع له وخفض الجناح فأبى واستكبر وأصر على الكفر فعومل بصفة الذل يوم القيامة، ولأن للضبع عوجا فأشير إلى أن آزر لم يستقم فيؤمن؛ بل استمر على عوجه في الدين. وقد استشكل الإسماعيلي هذا الحديث من أصله وطعن في صحته فقال بعد أن أخرجه: هذا خبر في صحته نظر من جهة أن إبراهيم علم أن اللّه لا يخلف الميعاد؛ فكيف يجعل ما صار لأبيه خزيا مع علمه بذلك؟ وقال غيره: هذا الحديث مخالف لظاهر قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾[٣] انتهى. والجواب عن ذلك أن أهل التفسير اختلفوا في الوقت الذي تبرأ فيه إبراهيم من أبيه، فقيل: كان ذلك في الحياة الدنيا لما مات آزر مشركا، وهذا أخرجه الطبري من طريق حبيب بن أبي ثابت عن سعيد بن جبير عن ابن عباس وإسناده صحيح..

---

(١) الفتح (٨/ ٦٤١).

(٢) أخرجه: أحمد (٤/ ٢٣٤) والطبراني في الكبير (٣/ ٤/ ٢٥٢٢-٢٥٢٤). وذكره الهيثمي في المجمع (١٠/ ١٠٩) وقال: «رواه أحمد ورجاله ثقات».

(٣) التوبة: الآية (١١٤).

ويمكن الجمع بين القولين بأنه تبرأ منه لما مات مشركا فترك الاستغفار له، لكن لما رآه يوم القيامة أدركته الرأفة والرقة فسأل فيه، فلما رآه مسخ يئس منه حينئذ فتبرأ منه تبرءا أبديا. وقيل: إن إبراهيم لم يتيقن موته على الكفر بجواز أن يكون آمن في نفسه ولم يطلع إبراهيم على ذلك، وتكون تبرئته منه حينئذ بعد الحال التي وقعت في هذا الحديث. قال الكرماني: فإن قلت: إذا أدخل اللَّه أباه النار فقد أخزاه لقوله: ﴿إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ﴾[1] وخزي الوالد خزي الولد فيلزم الخلف في الوعد وهو محال، ولو أنه يدخل النار لزم الخلف في الوعيد وهو المراد بقوله: «**إن اللَّه حرم الجنة على الكافرين**» والجواب أنه إذا مسخ في صورة ضبع وألقي في النار لم تبق الصورة التي هي سبب الخزي، فهو عمل بالوعد والوعيد. وجواب آخر: وهو أن الوعد كان مشروطا بالإيمان، وإنما استغفر له وفاء بما وعده، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه. قلت: وما قدمته يؤدي المعنى المراد مع السلامة مما في اللفظ من الشناعة، واللَّه أعلم»[2].

* * *

(١) آل عمران: الآية (١٩٢).

(٢) الفتح (٨/ ٦٤١-٦٤٢).

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «أي: لا يقي المرء من عذاب اللَّه ماله، ولو افتدى بملء الأرض ذهبا: ﴿وَلَا بَنُونَ﴾ ولو افتدى بِمَنْ في الأرض جميعًا، ولا ينفعُ يومئذ إلا الإيمانُ باللَّه، وإخلاص الدين له، والتبري من الشرك؛ ولهذا قال: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ أي: سالم من الدنس والشرك.

قال محمد بن سيرين: القلب السليم أن يعلم أن اللَّه حق، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن اللَّه يبعث مَنْ في القبور.

وقال ابن عباس: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ حَي يشهد أن لا إله إلا اللَّه.

وقال مجاهد، والحسن، وغيرهما: ﴿بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ يعني: من الشرك.

وقال سعيد بن المسيب: القلب السليم: هو القلب الصحيح، وهو قلب المؤمن؛ لأن قلب الكافر والمنافق مريض، قال الله: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾[1].

وقال أبو عثمان النيسابوري: هو القلب الخالي من البدعة، المطمئن إلى السنة»[2].

قال المراغي: «أي: يوم لا يقي المرء من عذاب اللَّه المال ولو افتدى بملء الأرض ذهبا، ولا البنون ولو افتدى بهم جميعًا، ولكن ينفعه أن يجيء خالصا من الذنوب وأدرانها، وحب الدنيا وشهواتها، وخص الابن بالذكر لأنه أولى القرابة بالدفع والنفع، فإذا لم ينفع فغيره من القرابة أولى»[3].

قال النسفي: «إن المال إذا صرف في وجوه البر وبنوه صالحون فإنه ينتفع به وبهم سليم القلب، أو جعل المال والبنون في معنى الغنى كأنه قيل يوم لا ينفع غنى

(١) البقرة: الآية (١٠).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٥/ ١٩٠-١٩١).
(٣) تفسير المراغي (١٩/ ٧٥).

إلا غنى من أتى اللَّه بقلب سليم؛ لأن غنى الرجل في دينه بسلامة قلبه كما أن غناه في دنياه بماله وبنيه، وقد جعل (من) مفعولا (لينفع) أي: لا ينفع مال ولا بنون إلا رجلا سلم قلبه مع ماله، حيث أنفقه في طاعة اللَّه ومع بنيه حيث أرشدهم إلى الدين وعلمهم الشرائع، ويجوز على هذا ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ من فتنة المال والبنين، وقد صوب الجليل استثناء الخليل إكراما له ثم جعله صفة له في قوله: ﴿۞ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾﴾[1] وما أحسن ما رتب عليه السلامة كلامه مع المشركين حيث سألهم أولا عما يعبدون سؤال مقرر لا مستفهم، ثم أقبل على آلهتهم فأبطل أمرها بأنها لا تضر ولا تنفع ولا تسمع، وعلى تقليدهم آباءهم الأقدمين فأخرجه من أن يكون شبهة فضلا عن أن يكون حجة، ثم صور المسألة في نفسه دونهم حتى تخلص منها إلى ذكر اللَّه تعالى فعظم شأنه، وعدد نعمته من حين إنشائه إلى وقت وفاته مع ما يرجى في الآخرة من رحمته، ثم أتبع ذلك أن دعا بدعوات المخلصين وابتهل إليه ابتهال الأوابين، ثم وصله بذكر يوم القيامة، وثواب اللَّه وعقابه، وما يدفع إليه المشركون يومئذ من الندم والحسرة على ما كانوا فيه من الضلال، وتمني الكرة إلى الدنيا ليؤمنوا ويطيعوا»[2].

قال ابن القيم: «لما كان القلب يوصف بالحياة وضدها انقسم بحسب ذلك إلى هذه الأحوال الثلاثة، فالقلب الصحيح: هو القلب السليم الذي لا ينجو يوم القيامة إلا من أتى اللَّه به كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾﴾ والسليم هو السالم، وجاء على هذا المثال لأنه للصفات كالطويل والقصير والظريف، فالسليم القلب الذي قد صارت السلامة صفة ثابتة له، كالعليم والقدير، وأيضًا فإنه ضد المريض والسقيم والعليل، وقد اختلفت عبارات الناس في معنى القلب السليم، والأمر الجامع لذلك: أنه الذي قد سلم من كل شهوة تخالف أمر اللَّه ونهيه، ومن كل شبهة تعارض خبره، فسلم من عبودية ما سواه، وسلم من تحكيم غير رسوله، فسلم في محبة اللَّه مع تحكيمه لرسوله في خوفه ورجائه، والتوكل عليه والإنابة إليه، والذل له وإيثار مرضاته في كل حال، والتباعد من سخطه بكل طريق، وهذا

(١) الصافات: الآيتان (٨٣و٨٤).
(٢) تفسير النسفي (٣/ ١٨٨).

هو حقيقة العبودية التي لا تصلح إلا لله وحده، فالقلب السليم: هو الذي سلم من أن يكون لغير اللّه فيه شرك بوجه ما، بل قد خلصت عبوديته لله تعالى: إرادة ومحبة، وتوكلا وإنابة، وإخباتا وخشية ورجاء، وخلص عمله لله، فإن أحب أحب في اللّه، وإن أبغض أبغض في اللّه، وإن أعطى أعطى لله، وإن منع منع لله، ولا يكفيه هذا حتى يسلم من الانقياد والتحكيم لكل من عدا رسوله ﷺ، فيعقد قلبه معه عقدا محكما على الائتمام والاقتداء به وحده دون كل أحد في الأقوال والأعمال؛ من أقوال القلب: وهي العقائد، وأقوال اللسان: وهي الخبر عما في القلب، وأعمال القلب: وهي الإرادة والمحبة والكراهة وتوابعها، وأعمال الجوارح فيكون الحاكم عليه في ذلك كله دقه وجله هو ما جاء به الرسول صلى اللّه تعالى عليه وآله وسلم، فلا يتقدم بين يديه بعقيدة ولا قول ولا عمل، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾[1] أي: لا تقولوا حتى يقول، ولا تفعلوا حتى يأمر. قال بعض السلف: ما من فعلة وإن صغرت إلا ينشر لها ديوانان: لم وكيف. أي: لم فعلت، وكيف فعلت، فالأول: سؤال عن علة الفعل وباعثه وداعيه: هل هو حظ عاجل من حظوظ العامل وغرض من أغراض الدنيا في محبة المدح من الناس أو خوف ذمهم أو استجلاب محبوب عاجل أو دفع مكروه عاجل، أم الباعث على الفعل القيام بحق العبودية وطلب التودد والتقرب إلى الرب ﷻ، وابتغاء الوسيلة إليه. ومحل هذا السؤال: أنه هل كان عليك أن تفعل هذا الفعل لمولاك، أم فعلته لحظك وهواك. والثاني: سؤال عن متابعة الرسول عليه الصلاة والسلام في ذلك التعبد؛ أي: هل كان ذلك العمل مما شرعته لك على لسان رسولي أم كان عملا لم أشرعه ولم أرضه؛ فالأول سؤال عن الإخلاص والثاني عن المتابعة. فإن اللّه سبحانه لا يقبل عملا إلا بهما، فطريق التخلص من السؤال الأول: بتجريد الإخلاص، وطريق التخلص من السؤال الثاني: بتحقيق المتابعة وسلامة القلب من إرادة تعارض الإخلاص، وهوى يعارض الاتباع، فهذا حقيقة سلامة القلب الذي ضمنت له النجاة والسعادة»[2].

قال أيضًا: «فهذا القلب السليم في جنة معجلة في الدنيا وفي جنة في البرزخ وفي

---

(١) الحجرات: الآية (١).

(٢) إغاثة اللهفان (١/ ١١-١٣).

جنة يوم المعاد، ولا تتم له سلامته مطلقا حتى يسلم من خمسة أشياء: من شرك يناقض التوحيد، وبدعة تخالف السنة، وشهوة تخالف الأمر، وغفلة تناقض الذكر، وهوى يناقض التجريد والإخلاص. وهذه الخمسة حجب عن اللَّه، وتحت كل واحد منها أنواع كثيرة تتضمن أفرادًا لا تنحصر»[1].

* * *

(١) الداء والدواء (٢١٩).

قوله تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾﴾

★ **غريب الآية:**

برزت: التبريز: الإظهار والكشف. يقال: أبرزه: إذا أظهره.

كبكبوا: كبكب الشيء: إذا قلبه على وجهه. قيل: الكَبْكَبَةُ: تكريرُ الكَبِّ، وهو تدهور الشيء في الهوة.

الغاوون: جمع غَاوٍ، وهو الضال المنهمك في ضلاله لا يزجره شيء.

إبليس: اسم أعجمي ممنوع من الصرف وقيل عربي، واشتقاقه من الإبلاس لأن اللَّه تعالى أبلسه من رحمته وآيسه من مغفرته. قال ابن جرير: لم يصرف وإن كان عربيا لقلة نظيره في كلامهم فشبهوه بالأعجمي.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال الناصري: «وإذا كان الحوار الإبراهيمي مفيدا ومنتجا بالنسبة للماضي في مهاجمة الشرك والوثنية، والتعريف بخصائص الألوهية ومظاهر الربوبية، فإن التذكير به في كتاب اللَّه على عهد الرسالة المحمدية، أعظم فائدة وأعم عائدة، لا سيما ومشركو قريش يعتبرون أنفسهم عربا إسماعلية فهم بالنسبة لإبراهيم الخليل أقرب الأقرباء، ودعوة إبراهيم للتوحيد ضد الشرك الذي هم عليه سند قوي يؤكد دعوة خاتم الأنبياء، ولذلك جاء التعقيب عليها بما ينتظر مشركي قريش وغيرهم من المشركين من عذاب يوم الدين، فقال تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُوا۟ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِن شَـٰفِعِينَ

﴿١٠٠ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ١٠١ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ١٠٢﴾»[1].

قال ابن جرير: «يعني جلّ ثناؤه بقوله: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ٩٠﴾ وأدنيت الجنة وقرّبت للمتقين، الذين اتقوا عقاب الله في الآخرة بطاعتهم إياه في الدنيا، ﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ٩١﴾ يقول: وأظهرت النار للذين غووا فضلوا عن سواء السبيل. ﴿وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ٩٢ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ من الأنداد ﴿هَلْ يَنصُرُونَكُمْ﴾ اليوم من الله، فينقذونكم من عذابه ﴿أَوْ يَنتَصِرُونَ﴾ لأنفسهم، فينجونها مما يُرَاد بها؟

وقوله: ﴿فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ٩٤﴾ يقول: فرمي ببعضهم في الجحيم على بعض، وطرح بعضهم على بعض، منكبين على وجوههم. وأصل كبكبوا: كببوا، ولكن الكاف كرّرت كما قيل: ﴿بِرِيحٍ صَرْصَرٍ﴾[2] يعني به صرّ، ونهنهني يُنهنهَني، يعني به: نههني. .

وقوله: ﴿وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ٩٥﴾ يقول: وكبكب فيها مع الأنداد والغاوين جنود إبليس أجمعون. وجنوده: كل من كان من تباعه، من ذرّيته كان أو من ذرّية آدم»[3].

قال ابن عاشور: «والخروج إلى تصوير هذه الأحوال شيء اقتضاه مقام الدعوة إلى الإيمان بالرغبة والرهبة لأنه ابتدأ الدعوة بإلقاء السؤال على قومه فيما يعبدون إيقاظًا لبصائرهم، ثم أعقب ذلك بإبطال إلهية أصنامهم. والاستدلال على عدم استئهالها الإلهية بدليل التأمل، وهو أنها فاقدة السمع والبصر وعاجزة عن النفع والضر، ثم طال دليل التقليد الذي نحا إليه قومه لما عجزوا عن تأييد دينهم بالنظر.

فلما نهضت الحجة على بطلان إلهية أصنامهم، انتصب لبيان الإله الحق رب العالمين، الذي له صفات التصرف في الأجسام والأرواح، تصرف المنعم المتوحّد بشتّى التصرف إلى أن يأتي تصرفه بالإحياء المؤبد، وأنه الذي نطمع في تجاوزه عنه يوم البعث، فليعلموا أنهم إن استغفروا الله عما سلف منهم مِن كُفْر فإن الله يغفر لهم، وأنهم إن لم يقلعوا عن الشرك لا ينفعهم شيء يوم البعث، ثم صور لهم عاقبة حَالَي التقوى والغواية بذكر دار إجزاء الخير ودار إجزاء الشر.

---

(١) التيسير (٤/ ٣٧٥).

(٢) الحاقة: الآية (٦).

(٣) جامع البيان (١٩/ ٨٧-٨٨).

ولما كان قومه مستمرين على الشرك ولم يكن يومئذ أحد مؤمنًا غيره وغير زوجه وغير لوط ابن أخيه كان المقام بذكر الترهيب أجدر، فلذلك أطنب في وصف حال الضالّين يوم البعث وسوءِ مصيرهم حيث يندمون على ما فرطوا في الدنيا من الإيمان والطاعة، ويتمنون أن يعودوا إلى الدنيا ليتداركوا الإيمان ولات ساعة مَندم»[١].

قال الرازي: «اعلم أن إبراهيم عليه السلام ذكر في وصف هذا اليوم أمورًا:

أحدها: قوله: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾﴾ والمعنى أن الجنة قد تكون قريبة من موقف السعداء ينظرون إليها ويفرحون بأنهم المحشورون إليها، والنار تكون بارزة مكشوفة للأشقياء بمرأى منهم يتحسرون على أنهم المسوقون إليها، قال اللَّه تعالى في صفة أهل الثواب ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾﴾[٢] وقال في صفة أهل العقاب: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾[٣] وإنما يفعل اللَّه تعالى ذلك ليكون سرورًا معجلًا للمؤمنين وغمًّا عظيمًا للكافرين.

ثانيها: قوله: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾﴾ والمعنى أين آلهتكم هل ينفعونكم بنصرتهم لكم، أو هل ينفعون أنفسهم بانتصارهم؛ لأنهم وآلهتهم وقود النار وهو قوله: ﴿فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾﴾ أي: الآلهة وعبدتهم الذين برزت لهم الجحيم، والكبكبة تكرير الكب، جعل التكرير في اللفظ دليلًا على التكرير في المعنى؛ كأنه إذا ألقي في جهنم ينكب مرة بعد مرة حتى يستقر في قعرها ﴿وَجُنُودُ إِبْلِيسَ﴾ متبعوه من عصاة الإنس والجن»[٤].

* * *

---

(١) التحرير والتنوير (١٩/ ١٥٠-١٥١).

(٢) ق: الآية (٣١).

(٣) الملك: الآية (٢٧).

(٤) التفسير الكبير (٢٤/ ١٥٣).

قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ۝٩٦ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٩٧ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٩٨﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: قال هؤلاء الغاوون والأنداد التي كانوا يعبدونها من دون الله وجنود إبليس، وهم في الجحيم يختصمون. ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٩٧﴾ يقول: تالله لقد كنا في ذهاب عن الحقّ، إن كنا لفي ضلال مبين، يبين ذهابنا ذلك عنه عن نفسه، لمن تأمله وتدبره، أنه ضلال وباطل. وقوله: ﴿إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٩٨﴾ يقول الغاوون للذين يعبدونهم من دون الله: تالله إن كنا لفي ذهاب عن الحقّ حين نعدلكم برب العالمين فنعبدكم من دونه»[1].

قال ابن عاشور: «وجيء في القسم بالتاء دون الواو والباء لأن التاء تختص بالقسم في شيء متعجب منه كما تقدم في قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾[2] في سورة يوسف، وقوله: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم﴾[3] في سورة الأنبياء، فهم يعجبون من ضلالهم إذ ناطوا آمالهم المعونة والنصر بحجارة لا تغني عنهم شيئًا. ولذلك أفادوا تمكن الضلال منهم باجتلاب حرف الظرفية المستعار لمعنى الملابسة؛ لأن المظروف شديد الملابسة لظرفه، وأكدوا ذلك بوصفهم الضلال بالمبين؛ أي: الواضح البين. وفي هذا تسفيه منهم لأنفسهم إذ تمشى عليها هذا الضلال، الذي ما كان له أن يروج على ذي مسكة من عقل»[4].

قال ابن تيمية: «وقوله: ﴿إِذْ نُسَوِّيكُم﴾ لم يريدوا به أنهم جعلوهم مساوين لله من كل وجه، فإن هذا لم يقله أحد من بني آدم ولا نقل عن قوم قط من الكفار أنهم قالوا: إن هذا العالم له خالقان متماثلان، حتى المجوس القائلين بالأصلين النور والظلمة

(١) جامع البيان (١٩/ ٨٨).
(٢) يوسف: الآية (٧٣).
(٣) الأنبياء: الآية (٥٧).
(٤) التحرير والتنوير (١٩/ ١٥٣).

متفقون على أن النور خير يستحق أن يعبد ويحمد وأن الظلمة شريرة تستحق أن تذم وتلعن، واختلفوا هل الظلمة محدثة أو قديمة على قولين، وبكل حال لم يجعلوها مثل النور من كل وجه، وكذلك مشركوا العرب كانوا متفقين على أن أربابهم لم تشارك اللَّه في خلق السماوات والأرض، بل كانوا مقرين بأن اللَّه وحده خلق السماوات والأرض وما بينهما كما أخبر اللَّه عنهم بذلك في غير آية كقوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (٦١) اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٦٢) وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (٦٣)﴾[1] وقال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ (٩) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٠) وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ (١١) وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ (١٢) لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ (١٣) وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ (١٤)﴾[2].

وهذه الصفات من كلام اللَّه تعالى ليست من تمام جوابهم وقال تعالى: ﴿قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٤) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٨٥) قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٨٦) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾[3] الآيات وقال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٤٠) بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَاءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ (٤١)﴾[4] وكذلك قوله: ﴿آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ (٥٩) أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ (٦٠) أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ﴾[5] أي أإله مع اللَّه فعل هذا وهذا، استفهام إنكار، وهم مقرون بأنه لم يفعل هذا إله آخر مع اللَّه.

---

(١) العنكبوت: الآيات (٦١-٦٣).
(٢) الزخرف: الآيات (٩-١٤).
(٣) المؤمنون: الآيات (٨٤-٨٧).
(٤) الأنعام: الآيتان (٤٠و٤١).
(٥) النمل: الآيات (٥٩-٦١).

ومن قال من المفسرين إن المراد هل مع اللَّه إله آخر فقد غلط؛ فإنهم كانوا يجعلون مع اللَّه آلهة أخرى كما قال تعالى: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَىٰ قُل لَّا أَشْهَدُ﴾(١) وقال تعالى: ﴿فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾(٢) وقال تعالى عنهم: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ⑤﴾(٣).

وكانوا معترفين بأن آلهتهم لم تشارك اللَّه في خلق السماوات والأرض ولا خلق شيء بل كانوا يتخذونهم شفعاء ووسائط كما قال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾(٤) وقال عن صاحب يس: ﴿وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ㉒ أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنقِذُونِ ㉓﴾(٥) وقال تعالى: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾(٦) وقال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾(٧)، وقال: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ㉒ وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾(٨) فنفى عما سواه كل ما يتعلق به المشركون، فنفى أن يكون لغيره ملك أو قسط من الملك أو يكون عونا لله ولم يبق إلا الشفاعة فبين أنها لا تنفع إلا لمن أذن له الرب كما قال تعالى: ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾(٩) وقال تعالى عن الملائكة: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ﴾(١٠) وقال: ﴿۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ ㉖﴾(١١)»(١٢).

* * *

(١) الأنعام: الآية (١٩).
(٢) هود: الآية (١٠١).
(٣) ص: الآية (٥).
(٤) يونس: الآية (١٨).
(٥) يس: الآيتان (٢٢و٢٣).
(٦) الأنعام: الآية (٥١).
(٧) السجدة: الآية (٤).
(٨) سبأ: الآيتان (٢٢و٢٣).
(٩) البقرة: الآية (٢٥٥).
(١٠) الأنبياء: الآية (٢٨).
(١١) النجم: الآية (٢٦).
(١٢) الإيمان (ص٧٢ - ٧٤).

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾﴾

*** غريب الآية:**

حميم: الحميم: الصديق المخلص المشفق.

كرة: الكرة: العودة والرجوع مرة أخرى. من كَرَّ في الحرب: إذا رجع إليها.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- مخبرا عن قيل هؤلاء الغاوين في الجحيم: ﴿وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ يعني بالمجرمين إبليس، وابن آدم الذي سنّ القتل..

وقوله: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾﴾ يقول: فليس لنا شافع فيشفع لنا عند اللّه من الأباعد، فيعفو عنا، وينجينا من عقابه. ﴿وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ من الأقارب.

واختلف أهل التأويل في الذين عُنوا بالشافعين، وبالصديق الحميم، فقال بعضهم: عنى بالشافعين: الملائكة، وبالصديق الحميم: النسيب..

وقال آخرون: كل هؤلاء من بني آدم..

وقوله: ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ يقول: فلو أن لنا رجعة إلى الدنيا فنؤمن باللّه فنكون بإيماننا به من المؤمنين»(١).

قال ابن عطية: «وصف تعالى أن أهل النار ﴿يَخْتَصِمُونَ﴾ فيها ويتلاومون ويأخذون في شأنهم بجدال، ومن جملة قولهم لأصنامهم على جهة الإقرار وقول الحق قسم ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا﴾ إلا ضالين في أن نعبدكم ونجعلكم سواء مع اللّه تعالى الذي هو رب العالمين وخالقهم ومالكهم، ثم عطفوا يردون الملامة على غيرهم أي: ما أضلنا إلا كبراؤنا وأهل الجرم والجرأة والمكانة، ثم قالوا على جهة

---

(١) جامع البيان (١٩/ ٨٩).

التلهف والتأسف حين رأوا شفاعة الملائكة والأنبياء والعلماء نافعة في أهل الإيمان عموما، وشفاعة الصديق في صديقه خاصة ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ۝١٠٠ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ۝١٠١﴾ وفي هذه اللفظة منبهة على محل الصديق من المرء، قال ابن جريج: ﴿شَٰفِعِينَ﴾ من الملائكة و﴿صَدِيقٍ﴾ من الناس.

قال القاضي أبو محمد: ولفظة (الشفيع) تقتضي رفعة مكانه، ولفظ (الصديق) يقتضي شدة مساهمة ونصرة، وهو فعيل من صدق الود، و(الحميم) الولي والقريب الذي يخصك أمره ويخصه أمرك، وحامة الرجل خاصته»[1].

قال أبو السعود: «وقولهم: ﴿وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٩٩﴾ بيان لسبب ضلالهم بعد اعترافِهم بصدوره عنهم لكن لا على معنى قصرِ الإضلال على المُجرمين دونَ منَ عداهم بل على مَعنى قصر ضلالِهم على كونه بسببِ إضلالهم من غير أنْ يستقلُّوا في تحقّقه أو يكون بسبب إضلال الغيرِ كأنّه قيل: وما صدر عنا ذلك الضلال الفاحش إلا بسبب إضلالهم. والمراد بالمجرمين الذين أضلوهم رُؤساؤهم وكُبراؤُهم، كما في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠﴾[2]»[3].

قال السيوطي: «﴿وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٩٩﴾ رد على المجبرة ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ۝١٠٠﴾ رد على المرجئة»[4].

* * *

(١) المحرر الوجيز (٤/ ٢٣٦).
(٢) الأحزاب: الآية (٦٧).
(٣) تفسير أبي السعود (٦/ ٢٥٢).
(٤) الإكليل (١٩٩).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: إن فيما احتجّ به إبراهيم على قومه من الحجج التي ذكرنا له لدلالة بينة واضحة لمن اعتبر، على أن سنة اللَّه في خلقه الذين يستنون بسنة قوم إبراهيم من عبادة الأصنام والآلهة، ويقتدون بهم في ذلك ما سنّ فيهم في الدار الآخرة، من كبكبتهم وما عبدوا من دونه مع جنود إبليس في الجحيم، وما كان أكثرهم في سابق علمه مؤمنين. وإن ربك يا محمد لهو الشديد الانتقام ممن عبد دونه، ثم لم يتب من كفره حتى هلك، الرحيم بمن تاب منهم أن يعاقبه على ما كان سلف منه قبل توبته من إثم وجرم»(١).

قال ابن عاشور: «تكرير ثالث لهاته الجملة تعدادًا على المشركين وتسجيلًا لتصميمهم. واسم الإشارة إشارة إلى كلام إبراهيم عليه السلام فإن فيه دليلًا بيّنًا على الوحدانية لله تعالى وبطلان إلهية الأصنام، فكما لم يهتد بها قوم إبراهيم فما كان أكثر المشركين بمكة بمؤمنين بها بعد سماعها، ولكن التبليغ حق على الرسول ﷺ»(٢).

قال المكي الناصري: «وإنما أعيد ذكر هذه الآية عقب كل قصة من قصص الأنبياء السابقين، إشارة إلى أن كل واحدة منها كافية لاستخلاص العبر واستذكار المثلات، بالنسبة لما مضى وما هو آت، فالرسول عليه الصلاة والسلام يأخذ منها العبرة التي تناسب منصب الرسالة بما له من مسؤوليات وتبعات، وما يتطلب القيام به على الوجه الأكمل من المتاعب والتضحيات، كما يستخلص العبرة منها من آمن من قومه ومن كفر، إذ فيما أصاب أقوام الرسل السابقين من النجاة والخلاص أو الهلاك والخسران اللذين تضمنتهما كل قصة عبرة لمن اعتبر، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾

---

(١) جامع البيان (١٩/ ٩٠).

(٢) التحرير والتنوير (١٩/ ١٥٦).

وهي تتضمن فوق ذلك تقرير حقيقة تاريخية ثابتة، ألا وهي أن انتصار الرسل وانتشار الرسالات لا يعني القضاء التام على أولياء الشيطان، الذي تعهد بإغوائهم والإيحاء إليهم في كل زمان، فالدنيا دار ازدواج وامتزاج يعيش فوق سطحها البر والفاجر، ويصطدم في ساحتها المومن بالكافر ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾، وتنتهي الآية المشار إليها بخطاب كريم، من رب رحيم، يوجهه الحق ﷻ إلى خاتم أنبيائه ورسله، مذكرا إياه أن اللّه لأعدائه بالمرصاد، ولأوليائه بالرحمة والإمداد ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ بالنسبة لأعدائه ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بالنسبة لأوليائه»[1].

* * *

---

(١) التيسير (٤/ ٣٦١-٣٦٢).

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «هذا إخبار من اللَّه ﷻ عن عبده ورسوله نوح ﷺ، وهو أول رسول بُعث إلى الأرض بعدما عبدت الأصنام والأنداد، بعثه اللَّه ناهيًا عن ذلك، ومحذرًا من وَبيل عقابه، فكذبه قومه واستمروا على ما هم عليه من الفعال الخبيثة في عبادتهم أصنامهم، ويتنزل تكذيبهم له بمنزلة تكذيب جميع الرسل؛ ولهذا قال: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ أي: ألا تخافون اللَّه في عبادتكم غيره؟

﴿إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾﴾ أي: إني رسول من اللَّه إليكم، أمين فيما بعثني به، أبلغكم رسالة اللَّه لا أزيد فيها ولا أنقص منها. ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾ أي: لا أطلب منكم جزاء على نصحي لكم، بل أدخر ثواب ذلك عند اللَّه ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ فقد وضح لكم وبان صدقي ونصحي وأمانتي فيما بعثني به وائتمنني عليه»[1].

قال السعدي: «﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ كرر ذلك ﷺ، لتكريره دعوة قومه، وطول مكثه في ذلك، كما قال تعالى: ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾[2] وقال: ﴿رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا﴾[3] الآيات»[4].

قال أبو السعود: «والفاء في قوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ لترتيب ما بعدها على ما قبلها من تنزهه عليه الصلاة والسلام عن الطمع، كما أن نظيرتها السابقة

(١) تفسير القرآن العظيم (٦/ ١٦٠).
(٢) العنكبوت: الآية (١٤).
(٣) نوح: الآيتان (٥و٦).
(٤) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٥٣٠).

لترتيب ما بعدها على أمانته، والتكرير للتأكيد والتنبيه»[(١)].

قال ابن عاشور: «وفي قوله: ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ إشارة إلى يوم الجزاء وكانوا ينكرون البعث كما دل عليه قوله في سورة نوح: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾﴾[(٢)]»[(٣)].

قال المكي الناصري: «ومما يستلفت النظر، ويدل على وحدة الرسالات الإلهية ووحدة الرسل الذي جاؤوا بها أن كتاب اللّه استعمل أسلوبا واحدا في حكاية ما خاطب به أولئك الرسل أقوامهم، على اختلاف أزمانهم وتعدد مواطنهم، إذ نجده يحكي عن نوح وهود وصالح ولوط وشعيب في هذه السورة أنهم جميعًا عبروا عن نفس المعاني والمقاصد، واستعملوا نفس الطريقة في مخاطبة أقوامهم ودعوتهم إلى الإيمان بالرسالة التي جاؤوا بها من عند اللّه، إذ قال كل منهم مخاطبا لقومه: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وهذا الخطاب يوضح أن هدف الرسالات الإلهية الأساسي هو وضع حد لما يقع فيه الناس من الانحراف والاستهتار، وإيقاظ ضمائرهم للخروج من تيه الغفلة واللامبالاة وقفص الجحود والإنكار، حتى يقبلوا على إصلاح ما فسد، ويهتموا بترميم ما تداعى للسقوط، ويحيوا حياة إنسانية نظيفة، منسجمة مع إرادة اللّه، لا تجلب سخطه وإنما تجلب رضاه، وتتحقق بها في الأرض الخلافة عن اللّه، وهذا هو معنى التقوى الذي يدعو إليه كافة الأنبياء والرسل ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾، إذ التقوى في معناه العام هو جعل النفس في وقاية مما يخاف منه ويؤذي، لتفادي جميع الأدواء والأسقام، والعيش في هناء وسعادة وسلام، لكن وسائل الوقاية الناجعة لا يستطيع الإنسان الإلمام بها على الوجه الأكمل، إلا إذا تلقاها عن ربه الذي يعلم السر في السماوات والأرض، فهو سبحانه وحده الذي أحاط بكل شيء علما، وهو وحده الذي خلق الإنسان ويعلم ما توسوس به نفسه ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾﴾[(٤)]، ولا طريق لذلك إلا تلقي الرسالات الإلهية عن رسل اللّه، الذين اختصهم برعايته،

---

(١) تفسير أبي السعود (٦/ ٢٥٤).

(٢) نوح: الآيتان (١٧و١٨).

(٣) التحرير والتنوير (١٩/ ١٥٩).

(٤) ق: الآية (١٦).

وائتمنهم على رسالته، وجعل طاعته سبيلا إلى طاعته، فقال كل منهم لقومه عن أمر اللّه وكلمته: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۝١٠٧ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ وحتى لا يوصم رسل اللّه من أقوامهم بالطمع والاستغلال، تكفل الحق ﷻ لرسله بأرزاقهم، فكانوا يواجهون أقوامهم بما يدفع الشبهة في هذا الباب، حتى لا يجدوا لرفض دعوتهم أي سبب من الأسباب، وهذا هو مغزى قوله تعالى حكاية عن كل واحد منهم: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝١٠٩﴾.

ثم إن كتاب اللّه عندما أراد أن يحكي مقالة الرسل إلى أقوامهم أتى بلفظ معبر له مغزى خاص في هذا المقام بالذات، فوصف الرسول بأنه أخو قومه كما في قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ۝١٠٥ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ﴾ وقوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ ۝١٢٣ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ﴾ وقوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ۝١٤١ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ﴾ وقوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ۝١٦٠ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ﴾. ذلك أن الحكمة الإلهية اقتضت بادئ ذي بدء أن يكون الرسل إلى عامة البشر بشرا مثلهم، يشاركونهم في المشاعر والأحاسيس ويعايشونهم أفرادا وجماعات، ويلازمونهم ملازمة الظل للشاخص، وبذلك يحصل التفاهم والتجاوب بينهم وبين الناس، مصداقا لقوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ۝٩﴾[1] وللمزيد من الألفة بين الرسل ومن أرسل إليهم اقتضت الحكمة الإلهية أن يتكلم بلسانهم، وأن يكون بالنسبة إلى قومه أخا من إخوانهم، إما أخا لهم عن طريق القرابة والنسب، وإما أخا لهم من باب المجانسة والأدب، وإلى هذا المعنى يشير قوله تعالى في آية أخرى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾[2].

ولا شك أن تقديم كتاب اللّه لقصص الأنبياء السابقين، وتلاوة رسوله للآيات التي نزلت في شأنها على المومنين، وسماع أخبارها في فجر الإسلام من طرف المكذبين والكافرين مما يزيد المومنين إيمانا على إيمانهم، عندما يعرفون نجاة إخوانهم الذين سبقوهم بالإيمان في سالف الأزمان، ومما يزعزع ثقة المكذبين والكافرين بمعتقداتهم الباطلة، عندما يعرفون المصير المفجع الذي آل إليه أمر

---

(١) الأنعام: الآية (٩).

(٢) إبراهيم: الآية (٤).

المكذبين بالرسالات الإلهية، في القرون الماضية، عسى أن يذكروا ويعتبروا ويتراجعوا عن باطلهم ويزدجروا. وإلى هذا المغزى يشير قوله تعالى على لسان شعيب عليه السلام فيما سبق من سورة هود: ﴿وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾﴾[1]، وقوله تعالى فيما سبق من سورة التوبة: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ ۚ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾﴾[2][3].

* * *

(١) هود: الآية (٨٩).

(٢) التوبة: الآية (٧٠).

(٣) التيسير (٤/ ٣٨٥-٣٨٨).

قوله تعالى: ﴿۞ قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾﴾

★ غريب الآية:

الأرذلون: جمع الأرذل، وهو النذل الخسيس الوضيع. والرُّذَالُ: الشيء المرغوب عنه لِرَدَاءَتِهِ.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: قال قوم نوح له مجيبيه عن قيله لهم: ﴿إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾﴾ قالوا: أنؤمن لك يا نوح، ونقرّ بتصديقك فيما تدعونا إليه، وإنما اتبعك منا الأرذلون دون ذوي الشرف وأهل البيوتات. ﴿قَالَ وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾﴾ قال نوح لقومه: وما علمي بما كان أتباعي يعملون، إنما لي منهم ظاهر أمرهم دون باطنه، ولم أُكَلَّفْ علم باطنهم، وإنما كلّفت الظاهر، فمن أظهر حسنا ظننت به حسنا، ومن أظهر سيئا ظننت به سيئا. يقول: إن حساب باطن أمرهم الذي خفي عني إلا على ربي لو تشعرون، فإنه يعلم سرّ أمرهم وعلانيته»[1].

قال السعدي: «بهذا يعرف تكبرهم عن الحق، وجهلهم بالحقائق، فإنهم لو كان قصدهم الحق، لقالوا -إن كان عندهم إشكال وشك في دعوته- بيّن لنا صحة ما جئت به بالطرق الموصلة إلى ذلك، ولو تأملوا حق التأمل، لعلموا أن أتباعه هم الأعلون، خيار الخلق، أهل العقول الرزينة، والأخلاق الفاضلة، وأن الأرذل من سلب خاصية عقله، فاستحسن عبادة الأحجار، ورضي أن يسجد لها، ويدعوها، وأبى الانقياد لدعوة الرسل الكمل. وبمجرد ما يتكلم أحد الخصمين في الكلام الباطل يعرف فساد ما عنده بقطع النظر عن صحة دعوى خصمه، فقوم نوح لما سمعنا عنهم، أنهم قالوا في ردهم دعوة نوح: ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ﴾ فبنوا على هذا

(١) جامع البيان (١٩/ ٩٠-٩١).

الأصل الذي كل أحد يعرف فساده رد دعوته، عرفنا أنهم ضالون مخطئون، ولو لم نشاهد من آيات نوح ودعوته العظيمة ما يفيد الجزم واليقين بصدقه وصحة ما جاء به»(١).

قال ابن عطية: «ويظهر من الآية أن مراد قوم نوح بنسبة الرذيلة إلى المؤمنين تهجين أفعالهم لا النظر في صنائعهم، يدل على ذلك قول نوح: ﴿وَمَا عِلْمِى﴾ الآية؛ لأن معنى كلامه ليس في نظري وعلمي بأعمالهم ومعتقداتهم فائدة إنما أقنع بظاهرهم وأجتزىء به، ثم حسابهم على اللَّه تعالى، وهذا نحو قول رسول اللَّه ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس»(٢) الحديث بجملته»(٣).

قال النسفي: «ولا يجوز أن يسمى المؤمن رذلا، وإن كان أفقر الناس وأوضعهم نسبا، وما زالت أتباع الأنبياء كذلك»(٤).

قال القنوجي: «وإنما بادروا للاتباع قبل الأغنياء لاستيلاء الرياسة على الأغنياء وصعوبة الانفكاك منها، والأنفة عن الانقياد للغير. والفقير خلي من تلك الموانع فهو سريع الإجابة والانقياد، وهذا غالب أحوال أهل الدنيا، وهذا من سخافة عقولهم وقصر رأيهم على حطام الدنيا حتى جعلوا اتباع المقلين من الدنيا مانعا من اتباعهم، وجعلوا إيمانهم بما يدعوهم إليه دليلا على بطلانه»(٥).

* * *

(١) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٥٣١).
(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٤٢٣) والبخاري (١/ ١٠٢/ ٢٥) ومسلم (١/ ٥٣/ ٢٢) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.
(٣) المحرر الوجيز (٤/ ٢٣٧).
(٤) تفسير النسفي (٣/ ١٩٠).
(٥) فتح البيان (٩/ ٣٩٩).

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٥﴾ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾﴾

★ غريب الآية:

المرجومين: الرجم: الرمي بالحجارة وقد غلب استعماله في القتل به. ويستعار للرمي بالظن والتوهم والشتم والطرد.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «وما أنا بطارد من آمن بالله واتبعني على التصديق بما جئت به من عند الله. ﴿إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٥﴾﴾ يقول: ما أنا إلا نذير لكم من عند ربكم أنذركم بأسه، وسطوته على كفركم به مبين: يقول: نذير قد أبان لكم إنذاره، ولم يكتمكم نصيحته. ﴿قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾﴾ يقول: قال لنوح قومه: لئن لم تنته يا نوح عما تقول، وتدعو إليه، وتعيب به آلهتنا، لتكوننّ من المشتومين، يقول: لنشتمك»[1].

قال ابن كثير: «كأنهم سألوا منه أن يبعدهم عنه ويتابعوه، فأبى عليهم ذلك وقال: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٥﴾﴾ أي: إنما بعثت نذيرا، فمن أطاعني واتبعني وصدقني كان مني وأنا منه، سواء كان شريفًا أو وضيعًا، أو جليلًا أو حقيرًا»[2].

* * *

---

(١) جامع البيان (١٩/ ٩١).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٦/ ١٦١).

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَنجَيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾﴾

★ غريب الآية:

فتحا: الفتح أن تحكم بين قوم يختصمون إليك. والفاتحة: الحكومة، والفتاح: الحاكم لأنه يفتح المستغلق. كما سمي فيصلا لأنه يفصل بين الخصومات.

المشحون: المملوء. يقال: شحنت السفينة إذا ملأتها.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «لما طال مقام نبي الله بين أظهرهم يدعوهم إلى الله ليلا ونهارا، وجهرا وإسرارا، وكلما كرر عليهم الدعوة صمموا على الكفر الغليظ، والامتناع الشديد، وقالوا في الآخر: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ﴾ أي: عن دعوتك إيانا إلى دينك يا نوح ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ أي: لنرجمنك. فعند ذلك دعا عليهم دعوة استجاب الله منه، فقال: ﴿رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، كما قال في الآية الأخرى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾﴾[1].

وقال هاهنا: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾﴾. والمشحون: هو المملوء بالأمتعة والأزواج التي حمل فيه من كل زوجين اثنين؛ أي: نجيناه ومن معه كلهم، وأغرقنا من كذبه وخالف أمره كلهم»[2].

---

(١) القمر: الآيات (١٠-١٤).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٥/ ١٩٤).

قال الشنقيطي: «قوله تعالى هنا عن نوح: ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ ۝١١٧﴾ أوضحه في غير هذا الموضع كقوله: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيَ إِلَّا فِرَارًا ۝٦ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَٱسْتَكْبَرُوا ٱسْتِكْبَارًا ۝٧﴾[1] وقوله هنا: ﴿فَٱفْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا﴾ أي احكم بيني وبينهم حكمًا، وهذا الحكم الذي سأل ربه إياه هو إهلاك الكفار، وإنجاؤه هو ومن آمن معه، كما أوضحه تعالى في آيات أخر كقوله تعالى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ۝١٠﴾[2] وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ۝٢٦﴾[3] إلى غير ذلك من الآيات، وقوله هنا عن نوح: ﴿وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ قد بين في آيات كثيرة أنه أجاب دعاءه هذا كقوله هنا: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ۝١١٩﴾[4]، وقوله تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ﴾[5] الآية، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ۝٧٥ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ۝٧٦﴾[6]، والآيات بمثل ذلك كثيرة.

وقوله هنا: ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ۝١٢٠﴾ جاء موضحًا في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾[7] وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُخَٰطِبْنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾[8] إلى غير ذلك من الآيات، والمشحون المملوء ومنه قول عبيد بن الأبرص:

شحنا أرضهم بالخيل حتى ... تركناهم أذل من الصراط

والفلك: يطلق على الواحد والجمع، فإن أطلق على الواحد جاز تذكيره كقوله هنا: ﴿فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ وإن جمع أنث، والمراد بالفلك هنا بالسفينة، كما صرح تعالى بذلك في قوله: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ﴾ الآية»[9].

* * *

(١) نوح: الآيات (٥-٧).
(٢) القمر: الآية (١٠).
(٣) نوح: الآية (٢٦).
(٤) الشعراء: الآية (١١٩).
(٥) العنكبوت: الآية (١٥).
(٦) الصافات: الآيتان (٧٥و٧٦).
(٧) العنكبوت: الآية (١٤).
(٨) هود: الآية (٣٧) والمؤمنون (٢٧).
(٩) الأضواء (٦/ ٣٧٧-٣٧٨).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: إن فيما فعلنا يا محمد بنوح ومن معه من المؤمنين في الفلك المشحون، حين أنزلنا بأسنا وسطوتنا بقومه الذين كذبوه، لآية لك ولقومك المصدّقيك منهم والمكذّبيك، في أن سنتنا تنجية رسلنا وأتباعهم، إذا نزلت نقمتنا بالمكذبين بهم من قومهم، وإهلاك المكذبين بالله، وكذلك سنتي فيك وفي قومك. ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ يقول: ولم يكن أكثر قومك بالذين يصدّقونك مما سبق في قضاء الله أنهم لن يؤمنوا. ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ في انتقامه ممن كفر به، وخالف أمره ﴿الرَّحِيمُ﴾ بالتائب منهم، أن يعاقبه بعد توبته»[1].

قال المراغي: «﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي: ومع كل ما حذر به نوح وأنذر لم يؤمن به إلا القليل، وفي هذا إيماء إلى أنه لو كان أكثرهم مؤمنين لما عوجلوا بالعقاب»[2].

* * *

(١) جامع البيان (١٩/ ٩٢).
(٢) تفسير المراغي (١٩/ ٨٤).

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «وهذا إخبار من اللَّه تعالى عن عبده ورسوله هود، عليه السلام، أنه دعا قومه عادًا، وكانوا قومًا يسكنون الأحقاف، وهي: جبال الرمل قريبًا من بلاد حضرموت متاخمة لبلاد اليمن، وكان زمانهم بعد قوم نوح، كما قال في سورة الأعراف: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾[1] وذلك أنهم كانوا في غاية من قوة التركيب، والقوة والبطش الشديد، والطول المديد، والأرزاق الدارة، والأموال والجنات والعيون، والأبناء والزروع والثمار، وكانوا مع ذلك يعبدون غير اللَّه معه، فبعث اللَّه إليهم رجلا منهم رسولا وبشيرًا ونذيرًا، فدعاهم إلى اللَّه وحده، وحذرهم نقمته وعذابه في مخالفته، فقال لهم كما قال نوح لقومه»[2].

قال ابن عاشور: «قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ يفيد أنهم كذبوا رسولهم هودًا وكذبوا رسالة نوح لأن هودًا وعظهم بمصير قوم نوح في آية: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ في سورة الأعراف.. وقوله: ﴿إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾﴾ هو كقول نوح لقومه، فإن الرسول لا يبعث إلا وقد كان معروفا بالأمانة وحسن الخلق قبل الرسالة. ويدل لكون هود قد كان كذلك في قومه قول قومه له: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾[3] في سورة هود الدال على أنهم زعموا أن تغير حاله عما كان معروفا به من قبل بسبب سوء اعتقاده في آلهتهم»[4].

قال أبو السعود: «الكلام فيه كالذي مر، وتصدير القصص به للتنبيه على أن مبنى

---

(١) الأعراف: الآية (٦٩).

(٢) تفسير القرآن (٦/ ١٦٢).

(٣) هود: الآية (٥٤).

(٤) التحرير والتنوير (١٩/ ١٦٤).

البعثة هو الدعاء إلى معرفة الحق والطاعة فيما يقرب المدعو إلى الثواب ويبعده من العقاب، وأن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مجمعون على ذلك وإن اختلفوا في بعض فروع الشرائع المختلفة باختلاف الأزمنة والأعصار، وأنهم متنزهون عن المطامع الدنية والأعراض الدنيوية بالكلية»[١].

* * *

(١) تفسير أبي السعود (٦/ ٢٥٦).

قوله تعالى: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾﴾

★ **غريب الآية:**

ريع: الريع: ما ارتفع من الأرض جمعه: أرياع وريعَة.

آية: الآية العلامة الدالة على الطريق، وتطلق على المصنوع المعجب لأنه يكون علامة على إتقان صانعه أو عظمة صاحبه.

مصانع: القصور والحصون وقيل: مجاري الماء.

بطشتم: البطش: التناول بشدة وقهر. يقال: بَطش يَبْطِش به: إذا أخذه بقوة وعنف.

جبارين: جمع جبار، وهو الذي قهر غيرَهُ بسلطانه وسطوته.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «اختلف المفسرون في الريع بما حاصله: أنه المكان المرتفع عند جواد الطرق المشهورة. تبنون هناك بناء محكما باهرًا هائلا؛ ولهذا قال: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً﴾ أي: معلما بناء مشهورًا؛ أي: وإنما تفعلون ذلك عبثًا لا للاحتياج إليه؛ بل لمجرد اللعب واللهو وإظهار القوة؛ ولهذا أنكر عليهم نبيهم، ﷺ، ذلك؛ لأنه تضييع للزمان وإتعاب للأبدان في غير فائدة، واشتغال بما لا يجدي في الدنيا ولا في الآخرة.

ثم قال: ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾﴾. قال مجاهد: المصانع: البروج المشيدة، والبنيان المخلد. وفي رواية عنه: بروج الحمام.

وقال قتادة: هي مأخذ الماء»[1].

---

(١) تفسير القرآن (٦/ ١٦٢).

قال ابن جرير: «والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن المصانع جمع مصنعة، والعرب تسمي كل بناء مصنعة، وجائز أن يكون ذلك البناء كان قصورًا وحصونا مشيدة، وجائز أن يكون كان مآخذ للماء، ولا خبر يقطع العذر بأيّ ذلك كان، ولا هو مما يدرك من جهة العقل. فالصواب أن يقال فيه ما قال الله: إنهم كانوا يتخذون مصانع. وقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ يقول: كأنكم تخلدون، فتبقون في الأرض.. وقوله: ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ۝١٣٠﴾ يقول: وإذا سطوتم قتلا بالسيوف وضربا بالسياط»[1].

قال العدوي: «وعلم ظاهر يلفت نظر كل من يراه، وأنهم لم يبنوا أولئك الآيات لأغراض صحيحة، ومصالح تعود عليهم بالنفع وإنما كانوا عابثين لاعبين، فكانوا سفهاء في بعثرة المال، وإضاعة الثروة، وما أكثر هؤلاء في زماننا، ما أكثر البانين للعب والعبث، والمشيدين للرياء والفخر، وما أضيع المال في أيدي أولئك السفهاء العابثين، وما أحوجهم إلى أوصياء يضربون على أيديهم، ويحولون بينهم وبين ذلك العبث، وهي دعوة من نبي الله هود ﷺ إلى الاقتصاد وتوفير المال، ووضعه حيث يفيد ويثمر، وما فائدة الأمة من قصر مشيد قد بذل في بنائه عشرات الآلاف من الجنيهات؟ ما فائدة الأمة من ذلك القصر الذي يلهو به ويتمتع رجل واحد، والملايين من الأمة لا تجد ما تأكل، ولا تعرف أين تعيش؟ نعم إن ذلك القصر وأمثاله يكون قذى في عين كل عاقل، ما دامت مرافق الأمة ضائعة، وصناعاتها معطلة، وأيديها العاملة لا تجد مكانا تعمل فيه، ولعل لأغنيائنا الذين لم يعرفوا قيمة للمال، ولا منزلة للثروة، أن يعتبروا بتلك النصيحة، فيبني المثري منهم على قدر متاعه غير لاعب ولا عابث، ذاكرين أن المال قد جعله الله قياما للناس في معاشهم ومصالحهم»[2].

قال ابن عاشور: «والأعمال إذا خلت عن مراعاة المقاصد التي ترضي الله تعالى اختلفت مشارب عامليها طرائق قِدَدًا على اختلاف الهمم واجتلاب المصالح الخاصة، فلذلك أنكرها عليهم رسولهم بالاستفهام الإنكاري على سنة المواعظ، فإنها تُبنَى على مراعاة ما في الأعمال من الضر الراجح على النفع، فلا يلفت

---

(١) جامع البيان (١٩/ ٩٥-٩٦).

(٢) دعوة الرسل (ص٢٥).

الواعظ إلى ما عسى أن يكون في الأعمال من مرجوح إذا كان ذلك النفع مرغوبًا للناس، فإن باعث الرغبة المنْبَثَّ في الناس مغنٍ عن ترغيبهم فيه، وتصدي الواعظ لذلك فضول وخروج عن المقصد بتحذيرهم أو تحريضهم فيما عدا ذلك، إذا كان الباعث على الخير مفقودًا أو ضئيلًا.

وقد كان هذا المقام مقام موعظة كما دلّ عليه قوله تعالى عنهم: ﴿قَالُواْ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ ۝١٣٦﴾. ومقام الموعظة أوسع من مقام تغيير المنكر، فموعظة هود عليه السلام متوجهة إلى ما في نفوسهم من الأدواء الروحية، وليس في موعظته أمر بتغيير ما بنَوه من العلامات ولا ما اتخذوه من المصانع»[1].

قال العدوي: «ثم قال لهم: ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ۝١٣٠﴾ يريد أنكم قساة غلاظ، إذا سلطتم على من هو دونكم في القوة كان بطشكم بهم بطش جبابرة، لا ترعون له عهدا، ولا تعملون لجواره حسابا.

وما أقرب ذلك الوصف الذي يصف به نبي اللَّه هود عادا إلى غلاة المستعمرين، ودول الحضارة اليوم، إذا سلطهم اللَّه على شعب من الشعوب بطشوا به بطش الجبابرة، وأذاقوه العذاب ألوانا فيتموا الأطفال، وسبوا النساء، وهتكوا الحرمات، ومزقوا المصاحف، وقتلوا الأبرياء، وهذه آثارهم في كل مكان تشيب الطفل، وتضج لها الإنسانية، ويغيض لها ماء الحياة»[2].

قال الرازي: «وحاصل الأمر في هذه الأمور الثلاثة أن اتخاذ الأبنية العالية، يدل على حب العلو، واتخاذ المصانع يدل على حب البقاء، والجبارية تدل على حب التفرد بالعلو، فيرجع الحاصل إلى أنهم أحبوا العلو وبقاء العلو والتفرد بالعلو، وهذه صفات الإلهية، وهي ممتنعة الحصول للعبد، فدل ذلك على أن حب الدنيا قد استولى عليهم بحيث استغرقوا فيه وخرجوا عن حد العبودية وحاموا حول ادعاء الربوبية، وكل ذلك ينبه على أن حب الدنيا رأس كل خطيئة وعنوان كل كفر ومعصية»[3].

---

(١) التحرير والتنوير (١٩/ ١٦٦).

(٢) دعوة الرسل (ص٢٥).

(٣) التفسير الكبير (٢٤/ ١٥٨).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في التحذير من التعلق بالدنيا

* عن ابن عمر قال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «إذا تبايعتم بالعينة، وأخذتم أذناب البقر، ورضيتم بالزرع، وتركتم الجهاد، سلط اللَّه عليكم ذلًّا لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم»[١].

★ **فوائد الحديث:**

تقدم الكلام على غريب الحديث وبعض فوائده في سورتي البقرة والتوبة بما أغنى عن الإعادة هنا، ووجه العلاقة بين الآية والحديث هو أن مناط الذل والذم التعلق بالدنيا وحب العلو فيها.

قال الشيخ الألباني: «فإن من المعلوم أن الغلو في السعي وراء الكسب يلهي صاحبه عن الواجب، ويحمله على التكالب على الدنيا والإخلاد إلى الأرض، والإعراض عن الجهاد، كما هو مشاهد من الكثيرين من الأغنياء»[٢].

وقال أيضًا: «فتأمل كيف بين هذا الحديث ما أجمل في حديث أبي أمامة المتقدم قبله[٣]، فذكر أن تسليط الذل ليس هو لمجرد الزرع والحرث؛ بل لما اقترن به من الإخلاد إليه والانشغال به عن الجهاد في سبيل اللَّه، فهذا هو المراد بالحديث، وأما الزرع الذي لم يقترن به شيء من ذلك فهو المراد بالأحاديث المرغبة في الحرث، فلا تعارض بينها ولا إشكال»[٤].

* * *

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٤٢) من طريق أبي بكر بن عياش، وأبو داود (٣/ ٧٤٠-٧٤١/ ٣٤٦٢) واللفظ له عن إسحاق أبي عبدالرحمن، وأبو يعلى (١٠/ ٢٩) عن ليث عن عبدالملك بن أبي سليمان، والبيهقي (٥/ ٣١٦) وصححه ابن القطان في الوهم والإيهام (٥/ ٢٩٥). وقال الشيخ الألباني: «وهو حديث صحيح لمجموع طرقه».

(٢) السلسلة الصحيحة (ح١٠ص٤٢).

(٣) ولفظه عن أبي أمامة الباهلي قال -ورأى سكة وشيئا من آلة الحرث- فقال: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «لا يدخل هذا بيت قوم إلا أدخله اللَّه الذل» رواه البخاري (٥/ ٥/ ٢٣٢١).

(٤) السلسلة الصحيحة (ح١١ص٤٤).

قوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- مخبرا عن قيل هود لقومه من عاد: اتقوا عقاب اللَّه أيها القوم بطاعتكم إياه فيما أمركم ونهاكم، وانتهوا عن اللهو واللعب، وظلم الناس، وقهرهم بالغلبة والفساد في الأرض، واحذروا سخط الذي أعطاكم من عنده ما تعلمون، وأعانكم به من بين المواشي والبنين، والبساتين والأنهار. ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ﴾ من اللَّه ﴿عَظِيمٍ﴾»[(١)].

قال ابن عاشور: «وابتدأ في تعداد النعم بذكر الأنعام لأنها أجلّ نعمة على أهل ذلك البلد؛ لأن منها أقواتهم ولباسهم وعليها أسفارهم، وكانوا أهلَ نُجعة فهي سبب بقائهم، وعطف عليها البنين لأنهم نعمة عظيمة بأنها أنسهم وعونهم على أسباب الحياة وبقاء ذكرهم بعدهم وكثرة أمتهم، وعطف الجنات والعيون لأنها بها رفاهية حالهم واتساع رزقهم وعيش أنعامهم.

وجملة: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ تعليل لإنكار عدم تقواهم وللأمر بالتقوى؛ أي: أخاف عليكم عذابًا إن لم تتقوا، فإن الأمر بالشيء يستلزم النهي عن ضده»[(٢)].

قال أبو السعود: «﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾ إن لم تقوموا بشكر هذه النعم ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ في الدنيا والآخرة، فإن كفران النعمة مستتبع للعذاب كما أن شكرها مستلزم لزيادتها قال تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾[(٣)]»[(٤)].

---

(١) جامع البيان (١٩/ ٩٦).
(٢) التحرير والتنوير (١٩/ ١٧٠).
(٣) إبراهيم: الآية (٧).
(٤) تفسير أبي السعود (٦/ ٢٥٧).

قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يقول تعالى مخبرا عن جواب قوم هود له، بعدما حذرهم وأنذرهم، ورغبهم ورهبهم، وبين لهم الحق ووضحه: ﴿قَالُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ ﴿١٣٦﴾﴾ أي: لا نرجع عما نحن فيه، ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾[(١)] وهكذا الأمر؛ فإن اللّه تعالى قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾﴾[(٢)] وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾[(٣)].

وقولهم: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾﴾: قرأ بعضهم: «إن هذا إلا خلق» بفتح الخاء وتسكين اللام.

قال ابن مسعود، والعوفي عن عبداللّه بن عباس، وعلقمة، ومجاهد: يعنون ما هذا الذي جئتنا به إلا أخلاق الأولين. كما قال المشركون من قريش: ﴿وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾﴾[(٤)]، وقال: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾[(٥)]، وقال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۙ قَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾﴾[(٦)].

وقرأ آخرون: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾﴾ -بضم الخاء واللام- يعنون: دينهم وما هم عليه من الأمر هو دين الأوائل من الآباء والأجداد، ونحن تابعون لهم، سالكون وراءهم، نعيش كما عاشوا، ونموت كما ماتوا، ولا بعث ولا معاد؛

---

(١) هود: الآية (٥٣).
(٢) البقرة: الآية (٦).
(٣) يونس: الآيتان (٩٦و٩٧).
(٤) الفرقان: الآية (٥).
(٥) الفرقان: الآيتان (٤و٥).
(٦) النحل: الآية (٢٤).

ولهذا قالوا: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ۝١٣٨﴾.

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٣٧﴾ يقول: دين الأولين»[١].

قال ابن جرير: «لأنهم إنما عوتبوا على البنيان الذي كانوا يتخذونه، وبطشهم بالناس بطش الجبابرة، وقلة شكرهم ربهم فيما أنعم عليهم، فأجابوا نبيّهم بأنهم يفعلون ما يفعلون من ذلك، احتذاء منهم سنة من قبلهم من الأمم، واقتفاء منهم آثارهم، فقالوا: ما هذا الذي نفعله إلا خلق الأوّلين، يعنون بالخلق: عادة الأوّلين. ويزيد ذلك بيانا وتصحيحا لما اخترنا من القراءة والتأويل، قولهم: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ۝١٣٨﴾ لأنهم لو كانوا لا يقرُّون بأن لهم ربا يقدر على تعذيبهم، ما قالوا: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ۝١٣٨﴾ بل كانوا يقولون: إن هذا الذي جئتنا به يا هود إلا خلق الأوّلين، وما لنا من معذب يعذبنا، ولكنهم كانوا مقرين بالصانع، ويعبدون الآلهة، على نحو ما كان مشركو العرب يعبدونها، ويقولون إنها تقربنا إلى اللّه زلفى، فلذلك قالوا لهود وهم منكرون نبوته: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ﴾ ثم قالوا له: ما هذا الذي نفعله إلا عادة من قبلنا وأخلاقهم، وما اللّه معذبنا عليه. كما أخبرنا تعالى ذكره عن الأمم الخالية قبلنا، أنهم كانوا يقولون لرسلهم: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾[٢]»[٣].

قال الزمخشري: «فإن قلت: لو قيل: ﴿أَوَعَظْتَ﴾ أو لم تعظ كان أخصر. والمعنى واحد. قلت: ليس المعنى بواحد وبينهما فرق؛ لأن المراد: سواء علينا أفعلت هذا الفعل الذي هو الوعظ، أو لم تكن أصلا من أهله ومباشريه، فهو أبلغ في قلة اعتدادهم بوعظه من قولك: أم لم تعظ»[٤].

* * *

(١) تفسير القرآن (٥/ ١٩٦).
(٢) الزخرف: الآية (٢٣).
(٣) جامع البيان (١٩/ ٩٨).
(٤) الكشاف (٣/ ١٢٢).

قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: فكذبت عاد رسول ربهم هودا، والهاء في قوله: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ من ذكر هود. ﴿فَأَهْلَكْنَاهُمْ﴾ يقول: فأهلكنا عادا بتكذيبهم رسولنا. ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾ يقول -تعالى ذكره-: إن في إهلاكنا عادا بتكذيبها رسولها، لعبرة وموعظة لقومك يا محمد المكذبيك فيما أتيتهم به من عند ربك.

﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ يقول: وما كان أكثر من أهلكنا بالذين يؤمنون في سابق علم اللَّه. ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ في انتقامه من أعدائه ﴿الرَّحِيمُ﴾ بالمؤمنين به»[1].

قال ابن كثير: «وقد بين سبب إهلاكه إياهم في غير موضع من القرآن بأنه أرسل عليهم ريحًا صرصرًا عاتية؛ أي: ريحا شديدة الهبوب ذات برد شديد جدًا، فكان إهلاكهم من جنسهم، فإنهم كانوا أعتى شيء وأجبره، فسلط اللَّه عليهم ما هو أعتى منهم وأشد قوة، كما قال: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾﴾[2] وهم عاد الأولى، كما قال: ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾﴾[3]، وهم من نسل إرم بن سام بن نوح. ﴿ذَاتِ الْعِمَادِ﴾ أي: الذين كانوا يسكنون العمد. ومن زعم أن «إرم» مدينة، فإنما أخذ ذلك من الإسرائيليات من كلام كعب ووهب، وليس لذلك أصل أصيل. ولهذا قال: ﴿الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾﴾[4]؛ أي: لم يخلق مثل هذه القبيلة في قوتهم وشدتهم وجبروتهم، ولو كان المراد بذلك مدينة لقال: التي لم يبن مثلها في البلاد، وقال: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾﴾[5].

---

(١) جامع البيان (١٩/٩٨).
(٢) الفجر: الآيتان (٦و٧).
(٣) النجم: الآية (٥٠).
(٤) الفجر: الآية (٨).
(٥) فصلت: الآية (١٥).

وقد قدمنا أن اللَّه تعالى لم يرسل عليهم من الريح إلا بمقدار أنف الثور، عتت على الخزنة، فأذن اللَّه لها في ذلك، وسلكت وحصبت بلادهم، فحصبت كل شيء لهم، كما قال تعالى: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ﴾[1] الآية، وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾؛ أي: كاملة ﴿فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾[2]؛ أي: بقوا أبدانا بلا رؤوس؛ وذلك أن الريح كانت تأتي الرجل منهم فتقتلعه وترفعه في الهواء، ثم تنكسه على أم رأسه فتشدخ دماغه، وتكسر رأسه، وتلقيه، كأنهم أعجاز نخل منقعر. وقد كانوا تحصنوا في الجبال والكهوف والمغارات، وحفروا لهم في الأرض إلى أنصافهم، فلم يغن عنهم ذلك من أمر اللَّه شيئًا، ﴿إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ﴾[3]؛ ولهذا قال ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ۝١٣٩ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ۝١٤٠﴾»[4].

* * *

(١) الأحقاف: الآية (٢٥).

(٢) الحاقة: الآيتان (٦و٧).

(٣) نوح: الآية (٤).

(٤) تفسير القرآن العظيم (٦/ ١٦٤).

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٥﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: كذّبت ثمود رسل اللّه، إذ دعاهم صالح أخوهم إلى اللّه، فقال لهم: ألا تتقون عقاب اللّه يا قوم على معصيتكم إياه، وخلافكم أمره، بطاعتكم أمر المفسدين في أرض اللّه. ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ﴾ من اللّه أرسلني إليكم بتحذيركم عقوبته على خلافكم أمره ﴿أَمِينٌ﴾ على رسالته التي أرسلها معي إليكم. ﴿فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ﴾ أيها القوم، واحذروا عقابه ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ في تحذيري إياكم، وأمر ربكم باتباع طاعته. ﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ يقول: وما أسألكم على نصحي إياكم، وإنذاركم من جزاء ولا ثواب. ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ يقول: إن جزائي وثوابي إلا على ربّ جميع ما في السماوات، وما في الأرض، وما بينهما من خلق»[1].

قال المكي الناصري: «وأما صالح عليه السلام فقد استنكر من قومه ثمود ما هم عليه من الإسراف في الفساد، والتعنت والعناد، والتفنن في النحت والبناء، والإغراق في سعة العيش والنعيم والرخاء، مع الفقر الروحي البارز في سلوك الآباء والأبناء، فهم لا يفكرون في أي عمل صالح، يقيهم النكبات والجوائح وهم يقدُرون اللّه حق قدره، ولا يأتمرون بأمره، وهاهو كتاب اللّه يحكي الخطاب الذي وجهه صالح إلى قومه»[2].

قال العدوي: «وبعد أن طالبهم بتقوى اللّه تعالى، وعرفهم أنه رسول أمين على دعوته لم يخن فيها شيئًا من الخيانة، وأنه لم يسألهم على تبليغه لهم أجرا، ومن كان

---

(١) جامع البيان (١٩/ ٩٩).

(٢) التيسير (٤/ ٣٩٠).

كذلك ينبغي أن تقابل دعوته بالرضا . بعد ذلك كله قال لهم : ﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ﴾»[1] .

* * *

(١) دعوة الرسل (ص٣٤).

قوله تعالى: ﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾

★ غريب الآية:

طلعها: الطلع من النخل: أول ما يطلع من التمر وبعده يسمى بلحا ثم بسرا ثم رطبا.

هضيم: الهضيم: المنضم في وعائه قبل أن يظهر. وأصل الهضم النقص.

فارهين: أي: أَشِرِينَ بَطِرِين. والجمع: فُرَّهٌ.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يقول لهم واعظا لهم ومحذرا إياهم نقم اللَّه أن تحل بهم، ومذكرا بأنعم اللَّه عليهم فيما رزقهم من الأرزاق الدارة، وجعلهم في أمن من المحذورات: وأنبت لهم من الجنات، وأنبع لهم من العيون الجاريات، وأخرج لهم من الزروع والثمرات؛ ولهذا قال: ﴿وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾. قال العوفي، عن ابن عباس: أينع وبلغ، فهو هضيم»[١].

قال ابن جرير: «واختلف أهل التأويل في معنى قوله: ﴿هَضِيمٌ﴾ فقال بعضهم: معناه اليانع النضيج.. وقال آخرون: بل هو المتهشم المتفتت.. وقال آخرون: هو الرطب اللين.. وقال آخرون: هو الراكب بعضه بعضًا.. وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: الهضيم: هو المتكسر من لينه ورطوبته، وذلك من قولهم: هضم فلان حقه: إذا انتقصه وتحيفه، فكذلك الهضم في الطلع، إنما هو التنقص منه من رطوبته ولينه إما بمسّ الأيدي، وإما بركوب بعضه بعضا»[٢].

(١) تفسير القرآن العظيم (٦/ ١٦٥). (٢) جامع البيان (١٩/ ١٠٠).

قال الرازي: «خص النخل بإفراده بعد دخوله في جملة سائر الشجر تنبيها على فضله على سائر الأشجار»(١).

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾﴾ قال ابن عباس، وغير واحد: يعني: حاذقين. وفي رواية عنه: شرهين أشرين. وهو اختيار مجاهد وجماعة. ولا منافاة بينهما؛ فإنهم كانوا يتخذون تلك البيوت المنحوتة في الجبال أشرا وبطرا وعبثا، من غير حاجة إلى سكناها، وكانوا حاذقين متقنين لنحتها ونقشها، كما هو المشاهد من حالهم لمن رأى منازلهم؛ ولهذا قال: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ أي: أقبلوا على عمل ما يعود نفعه عليكم في الدنيا والآخرة، من عبادة ربكم الذي خلقكم ورزقكم لتوحدوه وتعبدوه وتسبحوه بكرة وأصيلا»(٢).

قال ابن عاشور: «وفيه حثّ على العمل لاستبقاء تلك النعم بأن يشكروا اللَّه عليها كما قال صاحب «الحكم» من لم يشكر النعم فقد تعرَّض لزوالها ومن شكرها فقد قيّدها بعقالها.. و ﴿ءَامِنِينَ﴾ حال مبنية لبعض ما أجمله قوله: ﴿فِي مَا هَٰهُنَآ﴾ وذلك تنبيه على نعمة عظيمة لا يدل عليها اسم الإشارة لأنها لا يشار إليها وهي نعمة الأمن التي هي من أعظم النعم ولا يُتذوَّق طعمُ النعم الأخرى إلا بها»(٣).

قال الرازي: «واعلم أن ظاهر هذه الآيات يدل على أن الغالب على قوم هود هو اللذات الحالية، وهي طلب الاستعلاء والبقاء والتفرد والتجبر، والغالب على قوم صالح هو اللذات الحسية، وهي طلب المأكول والمشروب والمساكن الطيبة الحصينة»(٤).

* * *

(١) التفسير الكبير (٢٤/ ١٦٠).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٦/ ١٦٦).
(٣) التحرير والتنوير (١٩/ ١٧٥).
(٤) التفسير الكبير (٢٤/ ١٦٠).

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمۡرَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا يُصۡلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾﴾

* **غريب الآية:**

المسحرين: جمع مُسَحَّر، وهو الذي سُحِرَ مرة بعد أخرى. أو ممن جُعِلَ له سحر؛ أي: رئة، تنبيها على احتياجه للطعام.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- مخبرا عن قيل صالح لقومه من ثمود: لا تطيعوا أيها القوم أمر المسرفين على أنفسهم في تماديهم في معصية اللّه، واجترائهم على سخطه، وهم الرهط التسعة الذين كانوا يفسدون في الأرض، ولا يصلحون من ثمود الذين وصفهم اللّه -جلّ ثناؤه- بقوله: ﴿وَكَانَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ تِسۡعَةُ رَهۡطٖ يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا يُصۡلِحُونَ ﴿٤٨﴾﴾[1] يقول: الذين يسعون في أرض اللّه بمعاصيه، ﴿وَلَا يُصۡلِحُونَ﴾ يقول: ولا يصلحون أنفسهم بالعمل بطاعة اللّه.

وقوله: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ﴾ اختلف أهل التأويل في تأويله، فقال بعضهم: معناه إنما أنت من المسحورين.

وقال آخرون: معناه: من المخلوقين.

واختلف أهل المعرفة بكلام العرب في معنى ذلك، فكان بعض أهل البصرة يقول: كل من أكل من إنس أو دابة فهو مسحر، وذلك لأن له سحرا يقري ما أكل فيه، واستشهد على ذلك بقول لبيد:

فَإِنْ تَسْأَلِينا فِيمَ نَحْنُ فإنَّنا ... عَصَافِيرُ مِنْ هَذَا الأنامِ المُسَحَّرِ

وقال بعض نحويي الكوفيين نحو هذا، غير أنه قال: أخذ من قولك: انتفخ

---

(١) النمل: الآية (٤٨).

سحرك: أي أنك تأكل الطعام والشراب، فتُسَحَّر به وتعلل. وقال: معنى قول لبيد: «من هذا الأنام المسحر»: من هذا الأنام المعلل المخدوع. قال: ويُروى أن السحر من ذلك؛ لأنه كالخديعة.

والصواب من القول في ذلك عندي: القول الذي ذكرته عن ابن عباس، أن معناه: إنما أنت من المخلوقين الذين يعللون بالطعام والشراب مثلنا، ولست ربا ولا ملكا فنطيعك، ونعلم أنك صادق فيما تقول. والمسحر: المفعل من السحرة، وهو الذي له سحرة»[1].

قال الرازي: «قوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾﴾ وهذا إشارة إلى أنه يجب الاكتفاء من الدنيا بقدر الكفاف، ولا يجوز التوسع في طلبها والاستكثار من لذاتها وشهواتها»[2].

قال الزمخشري: «إن قلت: ما فائدة قوله: ﴿وَلَا يُصْلِحُونَ﴾؟ قلت: فائدته أن فسادهم فساد مصمت ليس معه شيء من الصلاح، كما تكون حال بعض المفسدين مخلوطة ببعض الصلاح»[3].

* * *

(١) جامع البيان (١٩/ ١٠٢-١٠٣).

(٢) التفسير الكبير (٢٤/ ١٦٠).

(٣) الكشاف (٣/ ١٢٣).

قوله تعالى: ﴿مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾﴾

★ **غريب الآية:**

شِرْب: الشِّرْبُ، بالكسر: الحظ والنصيب من الماء والشَّراب: ما يُشْرَبُ.

سوء: كل ما يغم الإنسان ويضره.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره- مخبرا عن قيل ثمود لنبيها صالح: ﴿مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ من بني آدم، تأكل ما نأكل، وتشرب ما نشرب، ولست بربّ ولا ملك، فعلام نتبعك؟ فإن كنت صادقا في قيلك، وأن اللّه أرسلك إلينا ﴿فَأْتِ بِـَٔايَةٍ﴾ يعني: بدلالة وحجة على أنك محقّ فيما تقول، إن كنت ممن صدقنا في دعواه أن اللّه أرسله إلينا..

وقوله: ﴿قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾﴾ يقول -تعالى ذكره-: قال صالح لثمود لما سألوه آية يعلمون بها صدقه، فأتاهم بناقة أخرجها من صخرة أو هضبة: هذه ناقة يا قوم، لها شرب ولكم مثله شرب يوم آخر معلوم، ما لكم من الشرب، ليس لكم في يوم وردها أن تشربوا من شربها شيئًا، ولا لها أن تشرب في يومكم مما لكم شيئًا. ويعني بالشرب: الحظّ والنصيب من الماء، يقول: لها حظّ من الماء، ولكم مثله، والشُّرْب والشَّرْب والشِّرْب مصادر كلها بالضم والفتح والكسر.

وقد حُكي عن العرب سماعا: آخرها أقلها شُربا وشِربا.

وقوله: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ﴾ يقول: لا تمسوها بما يؤذيها من عقر وقتل ونحو ذلك»[1].

---

(١) جامع البيان (١٩/ ١٠٣-١٠٤).

قال الرازي: «عظم اليوم لحلول العذاب فيه، ووصف اليوم به أبلغ من وصف العذاب؛ لأن الوقت إذا عظم بسببه كان موقعه من العظم أشد»[١].

قال الآلوسي: «واستدل بالآية على جواز قسمة ماء نحو الآبار على هذا الوجه»[٢].

* * *

(١) التفسير الكبير (٢٤/ ١٦١).

(٢) روح المعاني (١٩/ ١١٤).

قوله تعالى: ﴿فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾﴾

★ غريب الآية:

عقروها: نحروها. يقال: عقرته أصبت عقره، أي أصله نحو رأسه ومنه عقرت النخل: قطعته من أصله، وعقرت البعير: نحرته وعقرت ظهر البعير فانعقر.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-، فخالفت ثمود أمر نبيها صالح ﷺ، فعقروا الناقة التي قال لهم صالح: لا تمسوها بسوء، فأصبحوا نادمين على عقرها، فلم ينفعهم ندمهم، وأخذهم عذاب اللّه الذي كان صالح توعدهم به فأهلكهم. ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾ يقول: إنّ في إهلاك ثمود بما فعلت من عقرها ناقة اللّه وخلافها أمر نبي اللّه صالح لعبرة لمن اعتبر به يا محمد من قومك. ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ يقول: ولن يؤمن أكثرهم في سابق علم اللّه. ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ﴾ يا محمد ﴿لَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ في انتقامه من أعدائه ﴿الرَّحِيمُ﴾ بمن آمن به من خلقه»(١).

قال أبو السعود: «﴿فَعَقَرُوهَا﴾ أسند العقر إلى كلهم لما أن عاقرها عقرها برأيهم ولذلك عمهم العذاب»(٢).

قال العدوي: «فهذه آية اللّه لنبيه صالح وقد صدقه اللّه وعده وحل بهم من العذاب على عقر الناقة ما حل، وكانت عقوبة اللّه لهم على عصيانه، والخروج عن أمره آية من آياته، وعبرة من العبر، وما كان أكثر قوم صالح مؤمنين برسالته، ولا موقنين بصدقه، لذلك حل بهم من العذاب ما حل، ولا غرابة في ذلك فإن اللّه عزيز، والعزيز لا يغلب، ومع عزته هو رحيم في هذه العزة فلا يسلط عذابه للتشفي

---

(١) جامع البيان (١٩/ ١٠٤).

(٢) تفسير أبي السعود (٦/ ١٥٩).

وإنما يسلطه للتأديب والإصلاح في الأرض، فهو رحيم في عزته لطيف في تأديبه لمن عصاه، ولا تفهم من قوله: ﴿فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ﴾ أنهم ندموا على عقر الناقة ندم توبة، ولكنهم ندموا ندم خائف أن يعاقب على العقر عقابا عاجلا، ولذلك لم يفدهم ذلك الخوف، فأخذهم العذاب، ولو كان ندم توبة فإنه لا يجديهم؛ لأنه عند معاينة العذاب فتوبتهم توبة إلجاء فلا فضل لهم فيها كتوبة فرعون وهو يقاسي شدة الغرق»[1].

* * *

(١) دعوة الرسل (ص٣٥).

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٤﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ﴾ من أرسله اللَّه إليهم من الرسل حين ﴿قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ اللَّه أيها القوم. ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ﴾ من ربكم ﴿أَمِينٌ﴾ على وحيه، وتبليغ رسالته. ﴿فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ﴾ في أنفسكم، أن يحل بكم عقابه على تكذيبكم رسوله ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ فيما دعوتكم إليه أهدكم سبيل الرشاد. ﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ يقول: وما أسألكم على نصيحتي لكم ودعايتكم إلى ربي جزاء ولا ثوابا. ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ يقول: ما جزائي على دعايتكم إلى اللَّه، وعلى نصحي لكم وتبليغ رسالات اللَّه إليكم، إلا على رب العالمين»[1].

قال الناصري: «وأما لوط عليه السلام فقد استنكر من قومه ما ابتدعوه دون بقية الناس من الانحراف والشذوذ، والخروج على كل ما هو متعارف بين البشر ومعهود، فقد خلق اللَّه الذكر والأنثى ليكمل بعضهما بعضًا، لا ليستغني أحدهما عن الآخر فيبطل حكمة اللَّه ويرفض حكمه رفضا، إذ في ذلك ما فيه من ضياع النسل وانقطاع الذرية، وتعطيل الحكمة الإلهية، وكفى بهما بلية وأي بلية، قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾[2]»[3].

* * *

(١) جامع البيان (١٩/ ١٠٥).
(٢) الروم: الآية (٢١).
(٣) التيسير (٤/ ٣٩١).

قوله تعالى: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُمۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾﴾

★ غريب الآية:

عادون: جمع عَادٍ، وهو الظالم الجائر. مأخوذ من العدوان.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يعني بقوله: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾﴾: أتنكحون الذكران من بني آدم في أدبارهم. وقوله: ﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُمۚ﴾ يقول: وتدعون الذي خلق لكم ربكم من أزواجكم من فروجهن، فأحله لكم. وذكر أن ذلك في قراءة عبدالله: وتذرون ما أصلح لكم ربكم من أزواجكم»[1].

قال العدوي: «صاروا قومًا عادين للحدود، متجاوزين لها، كما وصفهم في آية أخرى بأنهم قوم مسرفون، وقوم يجهلون سنة اللّه ونظامه، فهم بذلك العمل جنوا جنايتين:

الأولى: إفسادهم للذكران والقضاء على شهامتهم، وكسر ما فيهم من إباء وشمم.

والثانية: تعطيلهم النساء من التمتع بهن وقد خلقن لذلك، ويتبع ذلك تعريضهن للزنا والقضاء على النسل، وذلك مضاد لنظام الحياة وهدم لكيان المجتمع»[2].

وقال أيضًا: «ومجموع الآيات يرينا أنهم كانوا مرزوئين بفساد العقل والنفس، فلا هم يعقلون ضرر هذه الفاحشة في الجناية على النسل، وعلى الصحة والفضيلة، والآداب العامة، ولا هم على شيء من الحياء وحسن الخلق يصرفهم عن ذلك.

وكانت هذه الفعلة فاحشة؛ لأنها جناية على الفطرة البشرية، ومفسدة للشبان

---

(١) جامع البيان (١٩/ ١٠٥).

(٢) دعوة الرسل (ص٧٠).

بالإسراف في الشهوة، وإذلال للرجال، وكسر لما فيهم من إباء وشمم، وتعطيل للنسل، ومفسدة للنساء اللواتي تصرف أزواجهن عنهن، حتى يقصروا فيما يجب عليهم من إحصان، وكم من امرأة اضطرها زوجها إلى الزنا لانصرافه عنها بتلك الفاحشة، مع وفور جمالها وكمالها.

ومن آثار تلك الفاحشة أنها ذريعة للاستمناء، وإتيان البهائم، وهما معصيتان قبيحتان شديدتا الضرر في الأبدان والآداب؛ لأن تلك الفاحشة تمرن الإنسان على قصد الشهوة لذاتها، بقطع النظر عن المكان المعد لها، وهو يفضي إلى وضعها في غير موضعها، وإنما موضعها الزوجة الشرعية المتخذة للنسل، وفي الحياة الزوجية الشرعية إحصان كل من الزوجين الآخر، بقصر لذة الاستمتاع عليه، وجعله وسيلة للحياة الوالدية التي تنمى بها الأمة، ويحفظ النوع البشري من الزوال»[1].



(١) دعوة الرسل (ص٦٥).

قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّى لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾﴾

★ غريب الآية:

القالين: الكارهين، جمع قَالٍ. من قَلاهُ يَقْلِيهِ: إذا أبغضه بغضًا شديدًا.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: قال قوم لوط: ﴿قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ﴾ عن نهينا عن إتيان الذكران ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ﴾ من بين أظهرنا وبلدنا. ﴿قَالَ إِنِّى لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾﴾ يقول لهم لوط: إني لعملكم الذي تعملونه من إتيان الذكران في أدبارهم من القالين، يعني من المبغضين، المنكرين فعله»[1].

قال العدوي: «يقابله قومه في هذه الموعظة اللينة، وذلك الأسلوب الهادئ بقولهم: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ﴾ يطالبون لوطا بالانتهاء عن تقبيح أعمالهم، فإذا لم ينته عن ذلك النهي أخرجوه من بلده، وحالوا بينه وبين وطنه، وأخرجوه فيمن أخرجوا.

يا سبحان الله! رسول من اللَّه يدعو الناس إلى الطهر ويحببهم في النزاهة، ويحول بينهم وبين فساد الفطر، يكون جزاؤه من قومه أن يهددوه بالنفي، ويتوعدوه بالتغريب ولا ذنب له في ذلك سوى طهارة غايته، وسمو مبادئه، ونبل مقصده، ذلك هو ذنبه عند قومه وقد صرحوا بذلك في سورة الأعراف إذ يقولون: ﴿أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾[2] وكان الوطن الذي نشأ فيه الرجل، وأعقب فيه مالا وأولادا هو المكان المحبوب الذي يهدد به كل مصلح، ويتوعد به أرباب المبادئ الصحيحة إلى أن ينزلوا عن مبادئهم ويسكتوا عن دعوتهم. فهؤلاء قوم لوط

(١) جامع البيان (١٩/١٠٦).
(٢) الأعراف: الآية (٨٢).

يقولون لرسولهم: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ﴾[(١)] وهذا الملأ من قوم شعيب يقول له: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾[(٢)].

فليس بعجيب أن يلجأ المستعمرون في أنحاء الأرض إلى ذلك العمل الذي لجأ إليه أعداء الرسل في كل زمان ومكان ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾[(٣)].

ليس بعجيب أن يلجأ المستعمرون إلى ما لجأ إليه أعداء الرسل من نفي وتغريب، ولكن اللّه تعالى تكفل لهم بالنصر، ووعدهم ميراث الأرض، كما توعد أعداء الرسل بالهلاك ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾[(٤)]. فليمعن المبطل في باطله، وليزدد الفاجر من فجوره، ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾[(٥)]»[(٦)].

قلت: لا يختلف هذا الأسلوب الذي ذكره العدوي عن أسلوب المستعمر لبلاد الإسلام، في طرد واضطهاد الدعاة الصادقين؛ بل والتنكيل بهم، مما يلجئ كثيرين إلى الفرار بأبدانهم. فالتاريخ يعيد نفسه، وأعداء دعوة الرسل يتوارثون الأسلوب عينه ويتواصون به، كما قال اللّه في شأن قوم نوح: ﴿وَلَا يَلِدُوٓا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾[(٧)]، والحرب قائمة على المستضعفين ممن أراد أن يستقيم على عقيدته، ويدين للّه بسنة نبيه ﷺ، تارة بكيل وتلفيق التهم لهم، وتارة أخرى بافتعال الأكاذيب ونسبتها إليهم، وما ربك بغافل عما يعملون، إنما أراد أن يملي لهم فيزدادوا إثمًا.

فاللّه المستعان على واقع الأمة المرير حيث انقلبت الموازين، فأصبحت عبادة الأضرحة والقبور فَخْرَ وميراثَ الأجداد! وأضحت البدع والمحدثات في المواسم والمناسبات ميزة وخصوصية البلاد، في ادعاء مشين لنسبة ذلك كله للمذهب وأنه العماد الذي لا محيد عنه!

قال النسفي: «﴿قَالَ إِنِّى لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾﴾ هو أبلغ من أن يقول قالٍ فقولك

---

(١) الشعراء: الآية (١٦٧).
(٢) الأعراف: الآية (٨٨).
(٣) إبراهيم: الآية (١٣).
(٤) إبراهيم: الآيتان (١٣و١٤).
(٥) الرعد: الآية (١٧).
(٦) دعوة الرسل (ص٧١).
(٧) نوح: الآية (٢٧).

فلان من العلماء أبلغ من قولك فلان عالم؛ لأنك تشهد بأنه مساهم لهم في العلم. والقلي البغض يقلي الفؤاد والكبد وفيه دليل على عظم المعصية لأن قلاه من حيث الدين»[1].

* * *

(١) تفسير النسفي (٣/ ١٩٣).

قوله تعالى: ﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٧١﴾﴾

★ **غريب الآية:**

الغابرين: جمع غَابِر، وهذا اللفظ من الأضداد. يقال: غبر، بمعنى: مضى وذهب. وغبر بمعنى: بَقِيَ. والمراد: الهالكين الباقين في العذاب.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: فاستغاث لوط حين توعده قومه بالإخراج من بلدهم إن هو لم ينته عن نهيهم عن ركوب الفاحشة، فقال: ﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي﴾ من عقوبتك إياهم على ما يعملون من إتيان الذكران. ﴿فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ﴾ من عقوبتنا التي عاقبنا بها قوم لوط ﴿أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ يعني في الباقين، لطول مرور السنين عليها، فصارت هرمة، فإنها أهلكت من بين أهل لوط؛ لأنها كانت تدل قومها على الأضياف. وقد قيل: إنما قيل من (الغابرين) لأنها لم تهلك مع قومها في قريتهم، وأنها إنما أصابها الحجر بعد ما خرجت عن قريتهم مع لوط وابنتيه، فكانت من الغابرين بعد قومها، ثم أهلكها الله بما أمطر على بقايا قوم لوط من الحجارة»[1].

قال الشيرازي: «﴿مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾ أي: من عاقبة عملهم، أي العذاب الذي يحل بهم، أو المراد أن يبعده عنهم حتى لا يرى عملهم، فوضع ﴿مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾ مكان (منهم) لإفادة العلة في الدعاء»[2].

قال النسفي: «﴿إِلَّا عَجُوزًا﴾ هي امرأة لوط وكانت راضية بذلك، والراضي بالمعصية في حكم العاصي، واستثناء الكافرة من الأهل وهم مؤمنون للاشتراك في هذا الاسم وإن لم تشاركهم في الإيمان»[3].

---

(١) جامع البيان (١٩/ ١٠٦).
(٢) تقريب القرآن إلى الأذهان (١٩/ ٩٧-٩٨).
(٣) تفسير النسفي (٣/ ١٩٣).

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْآخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾﴾

★ غريب الآية:

دمرنا: التدمير: الإهلاك. يقال: دَمَرَ القَوْمُ: إذا هلكوا بدخول الهلاك عليهم.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ثم أهلكنا الآخرين من قوم لوط بالتدمير. ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا﴾ وذلك إرسال الله عليهم حجارة من سجيل من السماء. ﴿فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ يقول: فبئس ذلك المطر مطر القوم الذين أنذرهم نبيهم فكذبوه. ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾ يقول -تعالى ذكره-: إن في إهلاكنا قوم لوط الهلاك الذي وصفنا بتكذيبهم رسولنا، لعبرة وموعظة لقومك يا محمد، يتعظون بها في تكذيبهم إياك، وردهم عليك ما جئتهم به من عند ربك من الحق ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ في سابق علم الله ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾﴾ بمن آمن به»[١].

قال ابن عطية: «والتدمير: الإهلاك بإمطار الحجارة وبذلك جرت السنين في رجم اللوطي»[٢].

وسيأتي بيان حد اللوطي في سورة النمل، وبالله التوفيق.

* * *

---

(١) جامع البيان (١٩/ ١٠٦).

(٢) المحرر الوجيز (٤/ ٢٤١).

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٠﴾﴾

★ غريب الآية:

الأيكة: الغيضة ذات الشجر الملتف. جمعها: أَيْك.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «هؤلاء -يعني أصحاب الأيكة- هم أهل مدين على الصحيح وكان نبي الله شعيب من أنفسهم، وإنما لم يقل ههنا أخوهم شعيب لأنهم نسبوا إلى عبادة الأيكة، وهي شجرة، وقيل شجر ملتف كالغيضة كانوا يعبدونها، فلهذا لما قال: ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾﴾ لم يقل: إذ قال لهم أخوهم شعيب، وإنما قال: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ﴾ فقطع نسب الأخوة بينهم للمعنى الذي نسبوا إليه، وإن كان أخاهم نسبا، ومن الناس من لم يفطن لهذه النكتة فظن أن أصحاب الأيكة غير أهل مدين، فزعم أن شعيبا ﷺ بعثه الله إلى أمتين، ومنهم من قال: ثلاث أمم.. والصحيح أنهم أمة واحدة، وصفوا في كل مقام بشيء؛ ولهذا وعظ هؤلاء وأمرهم بوفاء المكيال والميزان، كما في قصة مدين سواء بسواء، فدل ذلك على أنهم أمة واحدة»[1].

قال ابن جرير: «وقوله: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ يقول -تعالى ذكره-: قال لهم شعيب: ألا تتقون عقاب الله على معصيتكم ربكم؟ ﴿إِنِّى لَكُمْ﴾ من الله ﴿رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ على وحيه. ﴿فَٱتَّقُوا۟﴾ عقاب ﴿ٱللَّهَ﴾ على خلافكم أمره ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ ترشدوا»[2].

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٦/ ١٦٨).

(٢) جامع البيان (١٩/ ١٠٧).

قال البغوي: «وإنما كانت دعوة هؤلاء الأنبياء كلهم فيما حكى اللَّه عنهم على صيغة واحدة لاتفاقهم على الأمر بالتقوى والطاعة، والإخلاص في العبادة، والامتناع من أخذ الأجر على الدعوة وتبليغ الرسالة»[1].

* * *

(١) تفسير البغوي (٣/ ٣٣٩).

قوله تعالى: ﴿۞ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾﴾

★ **غريب الآية:**

المخسرين: جمع المخسر، وهو المعرض النقص في رأس المال.

القسطاس: الميزان ويعبر به عن العدالة كما يعبر عنها بالميزان.

تبخسوا: البخس نقص الشيء على سبيل الظلم.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول: أوفوا الناس حقوقهم من الكيل. ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ﴾ يقول: ولا تكونوا ممن نقصهم حقوقهم.

ويعني بقوله: ﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ﴾ وزنوا بالميزان ﴿الْمُسْتَقِيمِ﴾ الذي لا بخس فيه على من وزنتم له. ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ يقول: ولا تنقصوا الناس حقوقهم في الكيل والوزن. ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ يقول: ولا تكثروا في الأرض الفساد»[1].

قال ابن كثير: «يأمرهم تعالى بإيفاء المكيال والميزان وينهاهم عن التطفيف فيهما فقال: ﴿۞ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾﴾ أي: إذا دفعتم للناس فكملوا الكيل لهم ولا تخسروا الكيل فتعطوه ناقصا وتأخذوه إذا كان لكم تاما وافيا، ولكن خذوا كما تعطون، وأعطوا كما تأخذون ﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ﴾ والقسطاس هو الميزان، وقيل هو القبان، قال بعضهم: هو معرب من الرومية، قال مجاهد: القسطاس المستقيم: العدل بالرومية، وقال قتادة: القسطاس العدل، وقوله: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ أي: لا تنقصوهم أموالهم ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي

---

(١) جامع البيان (١٩/١٠٧-١٠٨).

ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾ يعني: قطع الطريق كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَلَا تَقۡعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٖ تُوعِدُونَ﴾[1]»[2].

قال الزمخشري: «الكيل على ثلاثة أضرب: واف، وطفيف، وزائد. فأمر بالواجب الذي هو الإيفاء، ونهى عن المحرّم الذي هو التطفيف، ولم يذكر الزائد، وكأن تركه عن الأمر والنهي: دليل على أنه إن فعله فقد أحسن وإن لم يفعله فلا عليه»[3].

قال المكي الناصري: «ونهاهم عن الفساد في الأرض نهيا عاما كيفما كان نوع الفساد، بما في ذلك الإخلال بالأمن العام وهناء البلاد، إذ لفظ الفساد في لغة القرآن يشمل معناه الإخلال بالأمن العام، مثل قطع الطرق والاعتداء على الممتلكات والأرواح، التي تتمتع بالقداسة والاحترام. فقوله تعالى هنا حكاية عن شعيب عليه السلام: ﴿وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾ يلتقي معناه مع قوله تعالى في سورة المائدة: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾﴾[4]»[5].

قال العدوي: «يطالب نبي اللّٰه شعيب عليه السلام قومه بإيفاء الكيل والميزان؛ لأن التطفيف كان شائعا فيهم، وقد توعد اللّٰه المطففين بالويل، فقال: ﴿وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمۡ أَو وَّزَنُوهُمۡ يُخۡسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبۡعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴿٥﴾ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾﴾[6]، وفي الآيات بيان للتطفيف وهو أن الرجل إذا أخذ من الناس مكيلا أو موزونا استوفى حقه، وإذا كال الناس أو وزنهم أخسر الكيل والميزان، وهو خلق رديء، يوجد الآن في المسلمين ولاسيما التجار منهم، فتجدهم يعملون نوعين من الكيل نوعا للشراء ونوعا للبيع، وإذا لم يستطيعوا الوصول لذلك العمل خوفا من سلطة الحاكم فإنهم يستبقون عندهم المكاييل القديمة.

---

(١) الأعراف: الآية (٨٦).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٦/ ١٦٩).
(٣) الكشاف (٣/ ١٢٦).
(٤) المائدة: الآية (٣٣).
(٥) التيسير (٤/ ٣٩٨).
(٦) المطففين: الآيات (١-٦).

والشأن فيها أن يتآكلها القدم، فتنقص عن المكاييل الجديدة يستبقون ذلك النوع من المكاييل ليكيلوا الناس به إذا هم باعوهم، أما في شرائهم فيعمدون إلى الجديد منها ليكتالوا بها، وهو ضرب من الغش والخديعة، يلجأ إليه التجار وأصحاب الحبوب والمزارع، ولذلك نزع اللَّه البركة من التجارة كما نزعها من الزروع فسلط عليه الآفات.

ومما نهاهم عنه نبي اللَّه شعيب أن لا يبخسوا الناس أشياءهم. والبخس هو النقص، والأشياء أعم من المكيل والموزون، كالمواشي والمعدودات، ويشمل البخس في المساومة، والغش والحيل التي تنتقص بها الحقوق، ويشمل بخس الحقوق المعنوية كالعلوم والفضائل، وكل ذلك فاش في هذا الزمان، فأكثر التجار باخسون مطففون، مخسرون فيما يبيعون ويشترون، وأكثر أهل العلم والأدب وكتاب السياسة بخاسون لحقوق صنفهم، وينكرون على غيرهم ما أعطاه اللَّه بباعث البغي والحسد والغرور.

وأكبر أنواع البخس ما نراه من رجال السياسة ودعاة الاستعمار، إذا نبغ فيهم رجل شادوا بذكراه، ووضعوا له التماثيل، وأحلوه من المكانة العلمية أو السياسية حيث يستحق، أما إذا نبغ في البلاد التي احتلوها فرد أو جماعة، فإنهم لا يعترفون لهم بنبوغه، ولا ينزلونهم حيث أنزلهم مكانتهم في العلم أو الثقافة، بل يتغاضون عنهم، ويتناسون ما أعطاهم اللَّه من مواهب، وما منحهم من مزايا وخصائص، حتى يموت فيهم ذلك النبوغ، وحتى لا يتأسى أحد بهم في الطريق الذي سلكوه، والتضحيات التي قاموا بها، وكثيرا ما يلجأ المستعمر إلى قتل النبوغ من ناحية أخرى سوى تثبيط النابغ، والحط من شأنه.

تلك الناحية هي أن يصرفه عن الجهة التي نبغ فيها، ويشغله بعمل لا يمت إلى مواهبه بصلة، فمثلا إذا نبغ في البلاد رجل مهندس، فإنه يشغله بعمل إداري ليميت فيه تلك الناحية الهندسية التي ترجو البلاد من ورائها نفعا كبيرا، وخيرا واسعا، وإذا نبغ رجل في علم الكيمياء شغله المستعمر بعمل كتابي أو ما يشبه ذلك العمل، وبمرور الأيام على ذلك النابه تتأكسد معلوماته، وتنتهي تجاربه، ويصبح أثرًا بعد عين، لم تجن البلاد من نبوغه شيئًا، ولم تستفد من عبقريته فائدة، ألا قاتل اللَّه السياسة وأغراضها، فإنها هي العلة الأولى في حرمان البلاد من نبوغ أبنائها،

والحيلولة بينها وبين ثمرات رجالها، قاتل اللَّه السياسة؛ فإنها هي التي تحمل المستعمر على أن يبخس أهل البلاد حقهم، وينقصهم قيمتهم، فإن المستعمر إذا اعترف لأهل البلاد بالنبوغ، واستئهالهم أن يديروا دفتها، ويقوموا بما عليهم لبلادهم من أعمال وتكاليف، فقد أقام على نفسه الحجة بوجوب الجلاء، وترك البلاد لذويها وأصحابها.

بقي من بخس رجال الاستعمار الناس أشياءهم نوع خفي من أنواع البخس، لا يفطن له سوى الخاصة من الناس، ذلك النوع هو شراء ذلك النبوغ بثمن زهيد، لا تستفيد منه البلاد؛ بل هو شر مستطير عليها، شراء ذلك النبوغ بالمناصب الكبيرة، وشغل أصحابه عن التفكير الجدي فيما يعود على الأمة بالخير بتلك المناصب التي تشغل جميع أوقات الرجل، وأن الرجل متى أحس بأنه في منصب كبير يدر عليه مالا جما، وشعر بأنه ذو سلطان ونفوذ، متى أحس الرجل ذلك الإحساس، ضعف إحساسه بالواجب عليه نحو أمته، وأصبح يفكر في بقاء ذلك المنصب، ويعمل له حسابا وألف حساب، وحين ذاك يأخذ في استعمال نبوغه فيما يسمونه الحكمة والتؤدة في الأمور، وإتيان البيوت من أبوابها، وما إلى ذلك من الكلمات المعسولة التي تحمل في طياتها الجبن والخور، والهزيمة والتردد، كل ذلك بفضل سلطان المنصب الكبير، والمال الجم والنفوذ الواسع.

ولو نظر الإنسان نظرة فيها شيء من الإمعان لعرف أن المستعمرين دائما يعمدون إلى الأذكياء فيكبلونهم بالمناصب، كيما يضمنوا كم أفواههم، وصمم آذانهم، وبذلك يكون نبوغهم لهم لا عليهم، وذكاؤهم مستخدما في تثبيت أقدامهم وشرعية بقائهم»[1].



(١) دعوة الرسل (ص١٥٥ - ١٥٦).

قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾﴾

★ غريب الآية:

الجبلة: هي الجماعة العظيمة من الخلق. يقال: جُبِلَ فلانٌ على كذا: أي خُلِقَ.

كسفًا: جمع كِسْفَة، وهي القطعة من الشيء.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ﴿وَٱتَّقُواْ﴾ أيها القوم عقاب ربكم ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾ وخلق ﴿ٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ يعني بالجبلة: الخلق الأولين. وفي الجبلة للعرب لغتان: كسر الجيم والباء وتشديد اللام، وضم الجيم والباء وتشديد اللام؛ فإذا نزعت الهاء من آخرها كان الضم في الجيم والباء أكثر كما قال -جل ثناؤه-: (ولقد أضل منكم جُبُلا كثيرا)[1] وربما سكنوا الباء من الجبل، كما قال أبو ذؤيب:

منايا يقربن الحتوف لأهلها جهارا ويستمتعن بالأنس الجبل..

وقوله: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾﴾ يقول: قالوا: إنما أنت يا شعيب معلل تعلل بالطعام والشراب، كما نعلل بهما، ولست ملكًا. ﴿وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ تأكل وتشرب ﴿وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾. يقول: وما نحسبك فيما تخبرنا وتدعونا إليه، إلا ممن يكذب فيما يقول، فإن كنت صادقا فيما تقول بأنك رسول اللّه كما تزعم ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ يعني قطعا من السماء، وهي جمع كسفة، جمع كذلك كما تجمع تمرة: تمرا»[2].

---

(١) يس: الآية (٦٢)، وهذه قراءة ابن كثير وحمزة والكسائي، انظر النشر (٢/ ٣٥٥) لابن الجزري.

(٢) جامع البيان (١٩/ ١٠٨-١٠٩).

قال السعدي: «﴿وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾﴾ أي: الخليقة الأولين، فكما انفرد بخلقكم وخلق من قبلكم من غير مشارك له في ذلك، فأفردوه بالعبادة والتوحيد، وكما أنعم عليكم بالإيجاد والإمداد بالنعم، فقابلوه بشكره.

قالوا له، مكذبين له، رادين لقوله: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ﴾ فأنت تهذي وتتكلم كلام المسحور، الذي غايته أن لا يؤاخذ به.

﴿وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ فليس فيك فضيلة، اختصصت بها علينا، حتى تدعونا إلى اتباعك، وهذا مثل قول من قبلهم ومن بعدهم، ممن عارضوا الرسل بهذه الشبهة، التي لم يزالوا يدلون بها ويصولون، ويتفقون عليها لاتفاقهم على الكفر، وتشابه قلوبهم. وقد أجابت عنها الرسل بقولهم: ﴿إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾[1].

﴿وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ وهذا جراءة منهم وظلم، وقول زور قد انطووا على خلافه، فإنه ما من رسول من الرسل، واجه قومه ودعاهم، وجادلهم وجادلوه، إلا وقد أظهر اللّه على يديه من الآيات ما به يتيقنون صدقه وأمانته، خصوصًا شعيبًا ﷺ، الذي يسمى خطيب الأنبياء، لحسن مراجعته قومه، ومجادلتهم بالتي هي أحسن، فإن قومه قد تيقنوا صدقه، وأن ما جاء به حق، ولكن إخبارهم عن ظن كذبه كذب منهم. ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: قطع عذاب تستأصلنا. ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ كقول إخوانهم ﴿وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾[2]»[3].

قال الزمخشري: «فإن قلت: هل اختلف المعنى بإدخال الواو ههنا وتركها في قصة ثمود؟ قلت: إذا أدخلت الواو فقد قصد معنيان: كلاهما مناف للرسالة عندهم: التسحير والبشرية، وأن الرسول لا يجوز أن يكون مسحرا ولا يجوز أن يكون بشرا، وإذا تركت الواو فلم يقصد إلا معنى واحد وهو كونه مسحرا ثم قرر بكونه بشرا مثلهم»[4].

---

(١) إبراهيم: الآية (١١).
(٢) الأنفال: الآية (٣٢).
(٣) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٥٤٣-٥٤٤).
(٤) الكشاف (٣/ ١٢٧).

قال العدوي: «والعجب لأولئك القوم يعرفون أن شعيبا لم يكذبهم فيما يخبرهم به من أمور الدنيا، ثم يزعمون أنه يكذب على ربه في أمور الدين، فإذا كان لا يستحل الكذب على الناس فكيف يستحل الكذب على اللّه تعالى؟ ثم كيف يلفتهم إلى أنه لم يسألهم أجرا على تبليغهم الدين، وإنما يطلب الأجر من اللّه تعالى، وذلك شأن الصادق الذي يعمل عن اقتناع، ويدعو وهو مؤمن بما يدعو إليه، وهذه أمارة الصدق ودليل الثقة بصاحب الدعوة، ومع ذلك يقولون له: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ﴾، وهل المسحر يدعو الناس على ذلك الأساس، ويرشدهم بذلك الأسلوب؟ وإذا كان شعيب يدعوهم إلى أن يعطوا كل ذي حق حقه، فلا يطففوا كيلا، ولا يخسروا ميزانا، ولا يبخسوا أحدا شيئًا من حقه.

إذا كانت هذه الدعوة دعوة مسحر فكيف تكون دعوة العقلاء؟ وإذا كان ذلك الأسلوب أسلوب كاذب، فكيف يكون أسلوب الصادق المصدوق؟..

ولماذا كانوا يقعدون بكل طريق يوعدون المؤمنين به ويصدونهم عنه؟ ولماذا توعدون بالنفي هو والمؤمنون من القوم إذا لم يعد في ملتهم؟ وما قيمة رجل مغلوب على عقله؟ ولماذا لا يستوي عندهم رجوعه في ملتهم وعدم رجوعه؟ وبقاؤه في البلد وعدم بقائه؟ أليس للناس عقول تعرف بها الدعوة المبنية على العقل والحزم، وتفرق بينها وبين الدعوة التي يقوم بها مجنون، ويدعو إليها كاذب؟ إذا كان مغلوبا على عقله فدعوه لجنونه يقضي عليه، وإذا كان كاذبا في دعوته فكذبه سيفضحه يومًا ما»[1].



(١) دعوة الرسل (١٧٣-١٧٤).

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: قال شعيب لقومه: ﴿رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ يقول: بأعمالهم هو بها محيط، لا يخفى عليه منها شيء، وهو مجازيكم بها جزاءكم. ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ يقول: فكذبه قومه. ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ﴾ يعني بالظلة: سحابة ظللتهم، فلما تتاموا تحتها التهبت عليهم نارا وأحرقتهم.. وقوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ يقول -تعالى ذكره-: إن عذاب يوم الظلة كان عذاب يوم لقوم شعيب عظيم»[١].

قال المنصوري: «وفي إضافة العذاب إلى يوم الظلة دون نفسها إيذان بأن لهم يومئذ عذاب آخر»[٢].

قال ابن كثير: «قد ذكر اللَّه تعالى صفة إهلاكهم في ثلاثة مواطن كل موطن بصفة تناسب ذلك السياق، ففي الأعراف ذكر أنهم أخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين؛ وذلك لأنهم قالوا: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾[٣]، فأرجفوا بنبي اللَّه ومن اتبعه، فأخذتهم الرجفة. وفي سورة هود قال: ﴿وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ﴾[٤]؛ وذلك لأنهم استهزؤوا بنبي اللَّه في قولهم: ﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾[٥]. قالوا ذلك على سبيل التهكم والازدراء، فناسب أن تأتيهم صيحة تسكتهم، فقال: ﴿وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ﴾ وهاهنا قالوا: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾﴾ على وجه التعنت والعناد، فناسب أن

---

(١) جامع البيان (١٩/ ١٠٩-١١١).
(٢) المقتطف من عيون التفاسير (٤/ ٨١).
(٣) الأعراف: الآية (٨٨).
(٤) هود: الآية (٩٤).
(٥) هود: الآية (٨٧).

يحق عليهم ما استبعدوا وقوعه ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾»[١].

فإن قيل: الهلاك الذي أصاب قوم شعيب ذكر اللَّه -جل وعلا- في الأعراف أنه رجفة وذكر في هود أنه صيحة وذكر في هذه السورة أنه عذاب يوم الظلة، فالجواب ما قال ابن كثير: «قد اجتمع عليهم ذلك كله ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ﴾ وهي سحابة أظلتهم فيها شرر من نار ولهب ووهج عظيم، ثم جاءتهم صيحة من السماء ورجفة من الأرض شديدة من أسفل منهم، فزهقت الأرواح وفاضت النفوس وخمدت الأجسام»[٢].

* * *

(١) تفسير القرآن العظيم (٦/ ١٧٠).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٤٤٥).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: إن في تعذيبنا قوم شعيب عذاب يوم الظلة، بتكذيبهم نبيهم شعيبا لآية لقومك يا محمد، وعبرة لمن اعتبر، إن اعتبروا أن سنتنا فيهم بتكذيبهم إياك، سنتنا في أصحاب الأيكة. ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ في سابق علمنا فيهم ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ﴾ يا محمد ﴿لَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ في نقمته ممن انتقم منه من أعدائه ﴿الرَّحِيمُ﴾ بمن تاب من خلقه، وأناب إلى طاعته»[1].

قال الزمخشري: «فإن قلت: كيف كرر في هذه السورة في أول كل قصة وآخرها ما كرر؟ قلت: كل قصة منها كتنزيل برأسه، وفيها من الاعتبار مثل ما في غيرها، فكانت كل واحدة منها تدلي بحق في أن تفتتح بما افتتحت به صاحبتها، وأن تختتم بما اختتمت به، ولأن في التكرير تقريرا للمعاني في الأنفس، وتثبيتا لها في الصدور. ألا ترى أنه لا طريق إلى تحفظ العلوم إلا ترديد ما يراد تحفظه منها، وكلما زاد ترديده كان أمكن له في القلب وأرسخ في الفهم وأثبت للذكر وأبعد من النسيان، ولأن هذه القصص طرقت بها آذان وقر عن الإنصات للحق، وقلوب غلف عن تدبره، فكوثرت بالوعظ والتذكير، وروجعت بالترديد والتكرير لعل ذلك يفتح أذنا، أو يفتق ذهنا، أو يصقل عقلا طال عهده بالصقل، أو يجلو فهما قد غطى عليه تراكم الصدأ»[2].

قال العدوي: «يلفتنا إلى أن الإعراض عن دعوة الرسل، ومناصبتهم العداوة هو إفساد في الأرض؛ لأن الرسل صلوات الله وسلامه عليهم إنما جاؤوا بسعادة الناس في دينهم ودنياهم، جاؤوا بالأخلاق المرضية والأعمال الصالحة، جاؤوا ليحلوا

---

(١) جامع البيان (١٩/ ١١١).
(٢) الكشاف (٣/ ١٢٧).

للناس الطيب ويحرموا عليهم الخبيث، وما دامت دعوة الرسل هي دعوة إلى الإصلاح في الأرض فالخروج عليها فتنة في الأرض وفساد كبير»[1].

وقوله: ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾﴾. قال العدوي: «مقتضى ذلك الإيمان اتباع رسوله والعمل بجميع ما جاء به من عند اللَّه، وإن خالف الهوى، أو لم تظهر له منفعة بادئ الرأي، بل مقتضى الإيمان اتباع الرسول حتى فيما يظن المؤمن أنه مناف لمصلحته، فتحصل له فوائده ومنافعه، وإن لم يعلم أنه علة لها بحسب حكمة اللَّه وسننه، فكيف إذا علم ذلك بالتفقه في الدين، والوقوف على حكمه وأسراره.

وقد عهد في القرآن الكريم التقيد بهذا الشرط في مواطن كثيرة فتراه في سورة البقرة يؤنب الفريقين بين رسول ورسول في أصل الإيمان، ويقول: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾﴾[2] ليريهم أن مقتضى إيمانهم بما أنزل عليهم من الكتب أن لا يقتلوا رسولا من الرسل، ومثله في سورة آل عمران ﴿قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[3].

وترى نبي اللَّه عيسى عليه السلام وهو يعظ قومه وقد اقترحوا عليه إنزال مائدة من السماء يقول لهم: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[4] يريد أن مقتضى إيمانكم أن لا تحرجوني، وترى القرآن الكريم في سورة الأنفال يقول: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[5].

وتراه وهو يحرض على قتال قوم نكثوا الإيمان، وهموا بإخراج الرسول من بلده وبدؤوا المؤمنين بالعداوة، يقول لهم في سورة التوبة: ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[6].

وتراه في سورة النور بعد أن وعظ الذين جاؤوا بالإفك، وأخذ يذكرهم بما يجب

---

(١) دعوة الرسل (ص١٥٦).
(٢) البقرة: الآية (٩١).
(٣) آل عمران: الآية (١٨٣).
(٤) المائدة: الآية (١١٢).
(٥) الأنفال: الآية (١).
(٦) التوبة: الآية (١٣).

عليهم نحو إخوانهم المؤمنين من ظن الخير، والاحتياط في الرمي بالزنا، وبعد أن بين اللَّه أنه لولا فضل اللَّه عليهم لمسهم فيما أفاضوا فيه عذاب عظيم، بعد ذلك كله يقول لهم: ﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾﴾[1].

من ذلك كله تعرف أن الغرض من هذا الشرط حفز النفوس إلى العمل، وسوقها إلى الامتثال ما دامت قد آمنت بأن اللَّه تعالى لا يشرع للناس إلا ما فيه الخير، ولا يريد بتشريعه إعناتها، وما دام أساس تشريعه العلم المحيط، والحكمة العادلة، وأن الرجل منا إذا وثق بطبيب من الأطباء أسلم له نفسه ليعطيه من الأدوية ما شاء، ويدخل على نظام معيشته من الأساليب ما يريد، وقد يكون في دوائه القضاء العاجل على ذلك المريض، بل يسلم الرجل نفسه للطبيب ليبتر عضوا من أعضائه لا غنى له عن بتره، يقبل المريض على الطبيب راضيا مطمئنا، ثم يكلف نفسه استساغة دوائه المر، وعلاجه الممض، ويصبر على عملية البتر أو بقر البطن أو إخراج عضو من أعضائه الباطنة، كل ذلك لأنه وثق بذلك الطبيب المحدود العلم، القليل البضاعة في صناعة الطب، أفلا يسلم نفسه لإله قادر حكيم، له من العلم المحيط، والقدرة الشاملة، والحكمة الواسعة، ما لا يعرفه غيره، ولا يحيط به سواه. إذا كان الإيمان بالطبيب، وهو عرضة للخطأ ولم يؤت من العلم إلا القليل، قد يصل بالرجل إلى حد أن يسلمه نفسه، فيحرم على نفسه من أنواع المأكولات والمشروبات ما حرمه عليه الطبيب، ويبيح لنفسه ما أباح، وقد يمكث الشهر أو الشهور وهو محمى من بعض الأطعمة أشوق ما تكون إليه، ومن بعض الأشربة ألذ ما تكون عنده، أفلا تكون الثقة باللَّه تعالى أعلى وأغلى من هذه الثقة؟ والاطمئنان إلى تحليله وتحريمه فوق الاطمئنان إلى أوامر الطبيب ونواهيه؟

نعم إن الإيمان باللَّه تعالى أعظم من إيمان الناس بعضهم ببعض، والثقة بتشريع اللَّه الذي لا يأتيه الباطل، ولا يتعرض للخطأ أقوى وأشد، وعلى المؤمن أن يثق بأمر اللَّه تعالى ونهيه، ووعده ووعيده، فإن فقه حكمة اللَّه في تشريعه فذلك فضله، وإن جهل حكمته فليعمل على فقهها، ولا يجرمنه جهله بالحكمة أن يدع العمل بما جهل، فإن ثقته العامة بحكمة الشارع تغنيه عن فهم الحكمة الخاصة للباب الذي

---

(١) النور: الآية (١٧).

جهل حكمته.

وقد ضرب الإمام الغزالي مثلا لذلك الطبيب يصف لك دواء قد ركب من عدة عقاقير، على نسب خاصة، فهل من العقل أن تقول للطبيب لا أتعاطى دواءك إلا بعد أن أعرف ما حواه من عقاقير، وما اشتمل عليه من نسب، أو العقل والحكمة أن تدع ذلك التفصيل للرجل الذي درس العقاقير، وعرف خصائصها ودرس الأمراض فعرف علاجها ويركب لها من الأدوية ما يناسبها، وشرط فيها من النسب والأوضاع ما يمكن من القضاء عليها، فالدين في جملته معقول واضح، وفي أوامره ونواهيه على وفق الحكمة والمصلحة، وقد يعرض لبعض الناس شبهة في حكمة عمل خاص فتقف به تلك الشبهة عن الاطمئنان لذلك العمل، كالحج شرعه اللَّه ليكون وسيلة من وسائل التعارف واتصال الشعوب بعضها ببعض.

وقد أشار اللَّه تعالى إلى تلك الحكمة بقوله: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ﴾[١] وقال: ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ﴾[٢] فإذا جهل الإنسان حكمة السعي بين الصفا والمروة، أو حكمة رمي الجمار فحسبه أن يعرف الحكمة العامة، وكالصلاة شرعها اللَّه تعالى لأنها تنهى صاحبها عن الفحشاء والمنكر كما قال: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾[٣] فإذا جهلنا حكمته في أن جعلها خمسا في كل يوم وليلة، وجعل الظهر أربعا والمغرب ثلاثا، والصبح اثنين، فلنكل حكمة ذلك التفصيل إلى الشرع الحكيم، كما وكلنا حكمة نسب الدواء إلى الطبيب الذي يعرف جملته وتفصيله، وكالصوم شرعه اللَّه تعالى ليعدنا به للتقوى كما قال: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[٤] فإذا جهلنا حكمته في جعله شهرا في كل عام، فلا يقف بنا جهل حكمة العدد عن أداء الصوم وهكذا.

وحسبنا أن نعرف أن العبادات معقولة في جملتها وإن كانت تعبدية في تفصيلها ولعلنا بعد زمن نفقه هذه الحكم، ونقف على أسرار التشريع، ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾[٥]، ﴿يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا

---

(١) المائدة: الآية (٩٧).
(٢) الحج: الآيتان (٢٧و٢٨).
(٣) العنكبوت: الآية (٤٥).
(٤) البقرة: الآية (١٨٣).
(٥) المائدة: الآية (٥٤).

كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾﴾(١)»(٢).

قال أبو السعود: «هذا آخر القصص السبع التي أوحيت إلى رسول اللّه ﷺ لصرفه -عليه الصلاة والسلام- عن الحرص على إسلام قومه، وقطع رجائه عنه، ودفع تحسره على فواته، تحقيقا لمضمون ما مر في مطلع السورة الكريمة من قوله تعالى: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُواْ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴿٥﴾ فَقَدْ كَذَّبُواْ﴾ الآية فإن كل واحدة من هذه القصص ذكر مستقل متجدد النزول قد أتاهم من جهته تعالى بموجب رحمته الواسعة ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ بعد ما سمعوها على التفصيل قصة بعد قصة، لا بأن يتدبروا فيها ويعتبروا بما في كل واحدة منها من الدواعي إلى الإيمان والزواجر عن الكفر والطغيان، ولا بأن يتأملوا في شأن الآيات الكريمة الناطقة بتلك القصص على ما هي عليه، مع علمهم بأنه لم يسمع شيئًا منها من أحد أصلا، واستمروا على ما كانوا عليه من الكفر والضلال كأن لم يسمعوا شيئًا يزجرهم عن ذلك قطعا، كما حقق في خاتمة قصة موسى عليه السلام»(٣).

قال المكي الناصري: «ومن خلال الحوار الذي دار في هذه القصص بين الرسل وأقوامهم يتضح لكل ذي عينين أن الرسالات الإلهية منذ فجرها الأول لم تكن توجه الناس نحو السماء إلا لتلهمهم طريق الصلاح في الأرض، وأن هدفها الأول والمباشر كان هو العمل على إصلاح المجتمع البشري أدبيًا وماديًا، والسعي لتطهيره من كل الشوائب، حتى لا يبقى فيه أثر للمساوئ والمعايب، وبذلك يتفادى الوقوع في الكوارث والنوائب، ويصبح مجتمعًا مثاليًا، جديرا بأن يوصف بكونه إنسانيًا؛ لأنه ينهج نهجًا أخلاقيًا ربانيًا، ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾(٤)»(٥).

* * *

---

(١) البقرة: الآية (٢٦٩).

(٢) دعوة الرسل (ص١٥٧ - ١٥٩).

(٣) تفسير أبي السعود (٦/ ٢٦٣).

(٤) فصلت: الآية (٣٣).

(٥) التيسير (٤/ ٣٩٢).

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾﴾

★ **غريب الآية:**

زبر: الزبر: الكتب. واحدها: زبور.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يقول تعالى مخبرًا عن الكتاب الذي أنزله على عبده ورسوله محمد، صلوات اللَّه وسلامه عليه: ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ أي: القرآن الذي تقدم ذكره في أول السورة في قوله: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ﴾. ﴿لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: أنزله اللَّه عليك وأوحاه إليك.

﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾﴾: وهو جبريل، عليه السلام، قاله غير واحد من السلف. .

﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ أي: نزل به ملك كريم أمين، ذو مكانة عند اللَّه، مطاع في الملأ الأعلى، ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ يا محمد، سالمًا من الدنس والزيادة والنقص؛ ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ أي: لتنذر به بأس اللَّه ونقمته على من خالفه وكذبه، وتبشر به المؤمنين المتبعين له. وقوله: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾ أي: هذا القرآن الذي أنزلناه إليك بلسانك العربي الفصيح الكامل الشامل، ليكون بيّنًا واضحًا ظاهرًا، قاطعًا للعذر، مقيمًا للحجة، دليلا إلى المحجة»[1].

قال ابن جرير: «واختلف القرّاء في قراءة قوله: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾﴾ فقرأته عامة قرّاء الحجاز والبصرة ﴿نَزَلَ بِهِ﴾ مخففة ﴿ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾ رفعا بمعنى: أن الروح الأمين هو الذي نزل بالقرآن على محمد، وهو جبريل. وقرأ ذلك عامة قرّاء أهل الكوفة: (نزّل) مشددة الزاي ﴿الروحَ الأمين﴾ نصبا، بمعنى: أن رب العالمين نزّل بالقرآن الروح الأمين، وهو جبريل عليه السلام.

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٦/ ١٧١-١٧٢).

والصواب من القول في ذلك عندنا أن يقال: إنهما قراءتان مستفيضتان في قرّاء الأمصار، متقاربتا المعنى، فبأيتهما قرأ القارئ فمصيب، وذلك أن الروح الأمين إذا نزل على محمد بالقرآن، لم ينزل به إلا بأمر اللَّه إياه بالنزول، ولن يجهل أن ذلك كذلك ذو إيمان باللَّه، وأن اللَّه إذا أنزله به نزل»[١].

قال السعدي: «﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾﴾ فالذي أنزله فاطر الأرض والسماوات، المربي جميع العالم، العلوي والسفلي، وكما أنه رباهم بهدايتهم لمصالح دنياهم وأبدانهم، فإنه يربيهم أيضًا بهدايتهم لمصالح دينهم وأخراهم، ومن أعظم ما رباهم به إنزال هذا الكتاب الكريم، الذي اشتمل على الخير الكثير، والبر الغزير، وفيه من الهداية لمصالح الدارين، والأخلاق الفاضلة ما ليس في غيره، وفي قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾﴾ من تعظيمه وشدة الاهتمام فيه من كونه نزل من اللَّه لا من غيره، مقصودا فيه نفعكم وهدايتكم.

﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾﴾ وهو جبريل عليه السلام، الذي هو أفضل الملائكة وأقواهم ﴿ٱلْأَمِينُ﴾ الذي قد أمن أن يزيد فيه أو ينقص. ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ يا محمد ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ تهدي به إلى طريق الرشاد، وتنذر به عن طريق الغي. ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ﴾ وهو أفضل الألسنة، بلغة من بعث إليهم، وباشر دعوتهم أصلا اللسان البين الواضح. وتأمل كيف اجتمعت هذه الفضائل الفاخرة في هذا الكتاب الكريم، فإنه أفضل الكتب، نزل به أفضل الملائكة، على أفضل الخلق، على أفضل بضعة فيه وهي قلبه، على أفضل أمة أخرجت للناس، بأفضل الألسنة وأفصحها، وأوسعها، وهو: اللسان العربي المبين»[٢].

قال الشنقيطي: «أكد -جل وعلا- في هذه الآية الكريمة: أن هذا القرآن العظيم تنزيل رب العالمين، وأنه نزل به الروح الأمين الذي هو جبريل على قلب نبينا صلى اللَّه عليهما وسلم، ليكون من المنذرين به، وأنه نزل عليه بلسان عربي مبين، وما ذكره -جل وعلا- هنا أوضحه في غير هذا الموضع، أما كون هذا القرآن تنزيل رب العالمين فقد أوضحه -جل وعلا- في آيات من كتابه كقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ

---

(١) جامع البيان (١٩/ ١١١-١١٢).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٥٤٦-٥٤٧).

﴿٧٧﴾ فِي كِتَٰبٍ مَّكۡنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾﴾[١] وقوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٍۚ قَلِيلًا مَّا تُؤۡمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوۡلِ كَاهِنٍۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾﴾[٢] وقوله تعالى: ﴿طه ﴿١﴾ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذۡكِرَةً لِّمَن يَخۡشَىٰ ﴿٣﴾ تَنزِيلًا مِّمَّنۡ خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلۡعُلَى ﴿٤﴾﴾[٣] وقوله تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ﴿١﴾﴾[٤] وقوله: ﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا﴾[٥] الآية وقوله تعالى: ﴿يسٓ ﴿١﴾ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسۡتَقِيمٍ ﴿٤﴾ تَنزِيلَ ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٥﴾ لِتُنذِرَ قَوۡمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمۡ فَهُمۡ غَٰفِلُونَ ﴿٦﴾﴾[٦] والآيات بمثل ذلك كثيرة، وقوله: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ﴿١٩٣﴾﴾ بينه أيضًا في غير هذا الموضع كقوله: ﴿قُلۡ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبۡرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلۡبِكَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾[٧] الآية. وقوله: ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ﴾ أي: نزل به عليك لأجل أن تكون من المنذرين به، جاء مبينا في آيات أخر كقوله تعالى: ﴿الٓمٓصٓ ﴿١﴾ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٌ مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ﴾[٨] الآية؛ أي: أنزل إليك لتنذر به، وقوله تعالى: ﴿تَنزِيلَ ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٥﴾ لِتُنذِرَ قَوۡمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمۡ﴾[٩] الآية. وقوله: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾ ذكره أيضًا في غير هذا الموضع كقوله تعالى: ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِي يُلۡحِدُونَ إِلَيۡهِ أَعۡجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾[١٠] وقوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا﴾[١١] الآية»[١٢].

قال الرازي: «وأما قوله: ﴿عَلَىٰ قَلۡبِكَ﴾ ففيه قولان: الأول: أنه إنما قال: ﴿عَلَىٰ قَلۡبِكَ﴾ وإن كان إنما أنزله عليه ليؤكد به أن ذلك المنزل محفوظ للرسول متمكن في قلبه لا يجوز عليه التغيير فيوثق بالإنذار الواقع منه الذي بين اللّه تعالى أنه هو المقصود ولذلك قال: ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ﴾. الثاني: أن القلب هو المخاطب في الحقيقة لأنه موضع التميز والاختبار، وأما سائر الأعضاء فمسخرة له والدليل عليه

(١) الواقعة: الآيات (٧٧-٨٠).
(٢) الحاقة: الآيات (٤١-٤٣).
(٣) طه: الآيات (١-٤).
(٤) الزمر: الآية (١).
(٥) فصلت: الآيات (١-٣).
(٦) يس: الآيات (١-٦).
(٧) البقرة: الآية (٩٧).
(٨) الأعراف: الآيتان (١و٢).
(٩) يس: الآيتان (٥و٦).
(١٠) النحل: الآية (١٠٣).
(١١) فصلت: الآية (٣).
(١٢) الأضواء (٦/ ٣٨٠-٣٨١).

القرآن والحديث والمعقول.

أما القرآن فآيات إحداها: قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾[١] وقال ههنا: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ وقال: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾[٢].

وثانيها: أنه ذكر أن استحقاق الجزاء ليس إلا على ما في القلب من المساعي فقال: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾[٣] وقال: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾[٤] والتقوى في القلب لأنه تعالى قال: ﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ﴾[٥] وقال تعالى: ﴿وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ ﴿١٠﴾﴾[٦].

وثالثها: قوله حكاية عن أهل النار: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾[٧] ومعلوم أن العقل في القلب والسمع منفذ إليه، وقال: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾[٨] ومعلوم أن السمع والبصر لا يستفاد منهما إلا ما يؤديانه إلى القلب، فكان السؤال عنهما في الحقيقة سؤالًا عن القلب وقال تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾﴾[٩]، ولم تخن الأعين إلا بما تضمر القلوب عند التحديق بها.

ورابعها: قوله: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾[١٠] فخص هذه الثلاثة بإلزام الحجة منها واستدعاء الشكر عليها، وقد قلنا لا طائل في السمع والأبصار إلا بما يؤديان إلى القلب ليكون القلب هو القاضي فيه والمتحكم عليه، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ﴾[١١] فجعل هذه الثلاثة تمام ما ألزمهم من حجته، والمقصود من ذلك هو الفؤاد القاضي فيما يؤدي إليه السمع والبصر.

---

(١) البقرة: الآية (٩٧).
(٢) ق: الآية (٣٧).
(٣) البقرة: الآية (٢٢٥).
(٤) الحج: الآية (٣٧).
(٥) الحجرات: الآية (٣).
(٦) العاديات: الآية (١٠).
(٧) الملك: الآية (١٠).
(٨) الإسراء: الآية (٣٦).
(٩) غافر: الآية (١٩).
(١٠) السجدة: الآية (٩).
(١١) الأحقاف: الآية (٢٦).

وخامسها: قوله تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ﴾[1] فجعل العذاب لازمًا على هذه الثلاثة وقال: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ﴾[2] وجه الدلالة أنه قصد إلى نفي العلم عنهم رأسًا، فلو ثبت العلم في غير القلب كثباته في القلب لم يتم الغرض، فهذه الآيات وما شاكلها ناطقة بأجمعها أن القلب هو المقصود بإلزام الحجة، وقد بينا أن ما قرن بذكره من ذكر السمع والبصر فذلك لأنهما آلتان للقلب في تأدية صور المحسوسات والمسموعات.

وأما الحديث فما روى النعمان بن بشير قال سمعته ﷺ يقول: «**ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب**»[3].

وأما المعقول فوجوه:

أحدها: أن القلب إذا غشي عليه فلو قطع سائر الأعضاء لم يحصل الشعور به وإذا أفاق القلب فإنه يشعر بجميع ما ينزل بالأعضاء من الآفات، فدل ذلك على أن سائر الأعضاء تبع للقلب، ولذلك فإن القلب إذا فرح أو حزن فإنه يتغير حال الأعضاء عند ذلك، وكذا القول في سائر الأعراض النفسانية.

وثانيها: أن القلب منبع المشاق الباعثة على الأفعال الصادرة من سائر الأعضاء، وإذا كانت المشاق مبادىء للأفعال ومنبعها هو القلب كان الآمر المطلق هو القلب.

وثالثها: أن معدن العقل هو القلب، وإذا كان كذلك كان الآمر المطلق هو القلب. أما المقدمة الأولى: ففيها النزاع، فإن طائفة من القدماء ذهبوا إلى أن معدن العقل هو الدماغ والذي يدل على قولنا وجوه: الأول: قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ﴾[4] وقوله: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ وقوله: ﴿إِنَّ فِى

(١) البقرة: الآية (٧). (٢) الأعراف: الآية (١٧٩).
(٣) أخرجه: البخاري (١/ ١٦٨/ ٥٢) ومسلم (٣/ ١٢١٩-١٢٢٠/ ١٥٩٩).
(٤) الحج: الآية (٤٦).

﴿ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾[1] أي: عقل، أطلق عليه اسم القلب لما أنه معدنه. الثاني: أنه تعالى أضاف أضداد العلم إلى القلب، وقال: ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾[2]، ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾[3] وقولهم: ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾[4]، ﴿يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ﴾[5]، ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ﴾[6]، ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم﴾[7]، ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾[8]، ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾[9]. فدلت هذه الآيات على أن موضع الجهل والغفلة هو القلب فوجب أن يكون موضع العقل والفهم أيضًا هو القلب. الثالث: وهو أنا إذا جربنا أنفسنا وجدنا علومنا حاصلة في ناحية القلب، ولذلك فإن الواحد منا إذا أمعن في الفكر وأكثر منه أحس من قلبه ضيقًا وضجرًا حتى كأنه يتألم بذلك، وكل ذلك يدل على أن موضع العقل هو القلب، وإذا ثبت ذلك وجب أن يكون المكلف هو القلب لأن التكليف مشروط بالعقل. والفهم الرابع: وهو أن القلب أول الأعضاء تكونًا، وآخرها موتًا، وقد ثبت ذلك بالتشريح ولأنه متمكن في الصدر الذي هو أوسط الجسد، ومن شأن الملوك المحتاجين إلى الخدم أن يكونوا في وسط المملكة لتكتنفهم الحواشي من الجوانب فيكونوا أبعد من الآفات.

واحتج من قال العقل في الدماغ بأمور:

أحدها: أن الحواس التي هي الآلات للإدراك نافذة إلى الدماغ دون القلب.

وثانيها: أن الأعصاب التي هي الآلات في الحركات الاختيارية نافذة من الدماغ دون القلب.

وثالثها: أن الآفة إذا حلت في الدماغ اختل العقل.

ورابعها: أن في العرف كل من أريد وصفه بقلة العقل قيل إنه خفيف الدماغ

---

(١) ق: الآية (٣٧).

(٢) البقرة: الآية (١٠).

(٣) البقرة: الآية (٧).

(٤) النساء: الآية (١٥٥).

(٥) التوبة: الآية (٦٤).

(٦) الفتح: الآية (١١).

(٧) المطففين: الآية (١٤).

(٨) محمد: الآية (٢٤).

(٩) الحج: الآية (٤٦).

خفيف الرأس.

وخامسها: أن العقل أشرف فيكون مكانه أشرف، والأعلى هو الأشرف وذلك هو الدماغ لا القلب، فوجب أن يكون محل العقل هو الدماغ.

والجواب عن الأول: لم لا يجوز أن يقال الحواس تؤدي آثارها إلى الدماغ، ثم إن الدماغ يؤدي تلك الآثار إلى القلب، فالدماغ آلة قريبة للقلب والحواس آلات بعيدة، فالحس يخدم الدماغ، ثم الدماغ يخدم القلب وتحقيقه أنا ندرك من أنفسنا أنا إذا عقلنا أن الأمر الفلاني يجب فعله أو يجب تركه، فإن الأعضاء تتحرك عند ذلك، ونحن نجد التعقلات من جانب القلب لا من جانب الدماغ.

وعن الثاني: أنه لا يبعد أن يتأدى الأثر من القلب إلى الدماغ، ثم الدماغ يحرك الأعضاء بواسطة الأعصاب النابتة منه.

وعن الثالث: لا يبعد أن يكون سلامة الدماغ شرطًا لوصول تأثير القلب إلى سائر الأعضاء.

وعن الرابع: أن ذلك العرف إنما كان لأن القلب إنما يعتدل مزاجه بما يستمد من الدماغ من برودته، فإذا لحق الدماغ خروج عن الاعتدال خرج القلب عن الاعتدال أيضًا، إما لازدياد حرارته عن القدر الواجب أو لنقصان حراراته عن ذلك القدر فحينئذ يختل العقل.

وعن الخامس: أنه لو صح ما قالوه لوجب أن يكون موضع العقل هو القحف، ولما بطل ذلك ثبت فساد قولهم والله أعلم»[١].

قال ابن عاشور: «ومعنى: ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ لتكون من الرسل. واختير من أفعاله النذارة لأنها أخص بغرض السورة فإنها افتتحت بذكر إعراضهم وبإنذارهم»[٢].

وقوله: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾ قال الزمخشري: «لأنه لو نزله باللسان الأعجمي، لتجافوا عنه أصلًا، ولقالوا: ما نصنع به لا نفهمه فيتعذر الإنذار به، وفي هذا الوجه: أن تنزيله بالعربية التي هي لسانك ولسان قومك تنزيل له على

(١) التفسير الكبير (٢٤/ ١٦٧-١٦٩).

(٢) التحرير والتنوير (١٩/ ١٩٠).

قلبك؛ لأنك تفهمه ويفهمه قومك. ولو كان أعجميًا لكان نازلًا على سمعك دون قلبك؛ لأنك تسمع أجراس حروف لا تفهم معانيها ولا تعيها، وقد يكون الرجل عارفًا بعدّة لغات، فإذا كلم بلغته التي لقنها أولًا ونشأ عليها وتطبع بها، لم يكن قلبه إلا إلى معاني الكلام يتلقاها بقلبه ولا يكاد يفطن للألفاظ كيف جرت، وإن كلم بغير تلك اللغة وإن كان ماهرًا بمعرفتها كان نظره أولًا في ألفاظها ثم في معانيها، فهذا تقرير أنه نزل على قلبه لنزوله بلسان عربي مبين»[١].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في بيان أن الروح الأمين هو جبريل

* عن ابن مسعود قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «أيها الناس! إنه ليس من شيء يقربكم من الجنة ويبعدكم من النار إلا قد أمرتكم به، وليس شيء يقربكم من النار ويبعدكم من الجنة إلا قد نهيتكم عنه، وإن الروح الأمين نفث في روعي أنه ليس من نفس تموت حتى تستوفي رزقها، فاتقوا اللَّه وأجملوا في الطلب، ولا يحملكم استبطاء الرزق على أن تطلبوه بمعاصي اللَّه، فإنه لا ينال ما عنده إلا بطاعته»[٢].

★ غريب الحديث:

نفث: من النفث بالضم وهو شبيه بالنفخ وهو أقل من التفل لأن التفل لا يكون إلا معه شيء من الريق.

روعي: أي: نفسي وخلدي.

★ فوائد الحديث:

وجه مطابقة الحديث للآية بيان أن الروح الأمين هو جبريل ﷺ، وتأكيد مهمة الرسول ﷺ ألا وهي الإنذار المنصوص عليه في الآية عند قوله تعالى: ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾، وباللَّه التوفيق.

* * *

(١) الكشاف (٣/ ١٢٨).

(٢) أخرجه: ابن أبي شيبة (٧/ ٧٩/ ٣٤٣٣٢) والبزار (٧/ ٣١٤-٣١٥/ ٢٩١٤) وأورده الهيثمي في المجمع (٤/ ٧١) وقال: رواه البزار وفيه قدامة بن زائدة ولم أجد من ترجمه. وبقية رجاله ثقات وصححه لشواهده الشيخ الألباني رحمه الله في تخريج أحاديث مشكلة الفقر رقم ١٥.

قوله تعالى : ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾﴾

★ غريب الآية:

الأعجمين: جمع الأعجم، وهو نقيض الفصيح. والعجمي غير العربي.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير : «أي: أو ليس يكفيهم من الشاهد الصادق على ذلك: أن العلماء من بني إسرائيل يجدون ذكر هذا القرآن في كتبهم التي يدرسونها؟ والمراد: العدول منهم، الذين يعترفون بما في أيديهم من صفة محمد ﷺ ومبعثه وأمته، كما أخبر بذلك من آمن منهم كعبد الله بن سلام، وسلمان الفارسي، عمن أدركه منهم ومن شاكلهم. وقال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾[1] الآية.

ثم قال تعالى مخبرا عن شدة كفر قريش وعنادهم لهذا القرآن؛ أنه لو أنزله على رجل من الأعاجم، ممن لا يدري من العربية كلمة، وأنزل عليه هذا الكتاب ببيانه وفصاحته، لا يؤمنون به؛ ولهذا قال: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾﴾، كما أخبر عنهم في الآية الأخرى: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾﴾[2] وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُواْ لِيُؤْمِنُوٓاْ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾[3]، وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا

---

(١) الأعراف: الآية (١٥٧).

(٢) الحجر: الآيتان (١٤و١٥).

(٣) الأنعام: الآية (١١١).

يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾[١].

﴿كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾﴾ يقول تعالى: كذلك سلكنا التكذيب والكفر والجحود والعناد؛ أي: أدخلناه في قلوب المجرمين.

﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ أي: بالحق ﴿حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ أي: حيث لا ينفع الظالمين معذرتهم، ولهم اللعنة ولهم سوء الدار»[٢].

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: وإن هذا القرآن لفي زبر الأولين: يعني في كتب الأولين، وخرج مخرج العموم ومعناه الخصوص، وإنما هو: وإن هذا القرآن لفي بعض زبر الأولين؛ يعني: أن ذكره وخبره في بعض ما نزل من الكتب على بعض رسله»[٣].

قال المكي الناصري: «وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾﴾ يحتمل معنيين كلاهما صحيح:

المعنى الأول: أن الكتب السماوية السابقة تنبأت بظهور خاتم الأنبياء والمرسلين، ونوهت بنزول الكتاب المبين.

والمعنى الثاني: أن القرآن الكريم جاء ما فيه مصدقا لما بين يديه، ومهيمنا عليه.

ويرتبط بهذين المعنيين أوثق ارتباط قوله تعالى في نفس السياق: ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾﴾ والمراد بعلماء بني إسرائيل المنوه بهم هنا علماؤهم الذين لم يكتموا ما عندهم من العلم، فبادروا إلى الاعتراف بنبوة نبينا ﷺ، وآمنوا برسالته وبالكتاب الذي أنزل عليه، وكانوا من السابقين إلى الدخول في دينه، تصديقا لما عرفوه وتناقلوه من وصفه عليه الصلاة والسلام ووصف رسالته. وقد كان عيسى عليه السلام آخر نبي بشَّر باسم نبينا وبرسالته فيما حكى عنه كتاب الله: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾[٤]، وهذه الفئة من أهل الكتاب التي آمنت مرتين هي

---

(١) يونس: الآيتان (٩٦و٩٧).
(٢) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٢٠٧).
(٣) جامع البيان (١٩/ ١١٣).
(٤) الصف: الآية (٦).

التي وصفها كتاب اللَّه في آية أخرى إذ قال: ﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾﴾[1]»[2].

* * *

(١) القصص: الآية (٥٣).

(٢) التيسير (٤/ ٤٠٢-٤٠٣).

قوله تعالى: ﴿فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾﴾

★ **غريب الآية:**

بغتة: فجأة.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: فيأتي هؤلاء المكذبين بهذا القرآن، العذاب الأليم بغتة، يعني فجأة ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ يقول: لا يعلمون قبل ذلك بمجيئه حتى يفجأهم بغتة. ﴿فَيَقُولُوا﴾ حين يأتيهم بغتة ﴿هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ﴾: أي هل نحن مؤخر عنا العذاب، ومنسأ في آجالنا لنتوب، وننيب إلى الله من شركنا وكفرنا بالله، فنراجع الإيمان به، وننيب إلى طاعته؟ وقوله: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾﴾ يقول -تعالى ذكره-: أفبعذابنا هؤلاء المشركون يستعجلون بقولهم: لن نؤمن لك حتى ﴿تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا﴾[1]»[2].

قال الشنقيطي: «لفظة (هل) هنا يراد بها التمني، والآية تدل على أنهم تمنوا التأخير والإنظار أي: الإمهال، وقد دلت آيات أخر على طلبهم ذلك صريحا، وأنهم لم يجابوا إلى ما طلبوا، كقوله تعالى: ﴿وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾﴾[3] وأوضح أنهم لا ينظرون في آيات من كتابه كقوله تعالى: ﴿بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾﴾[4] وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانُوا إِذًا مُّنظَرِينَ﴾[5] إلى غير ذلك من الآيات»[6].

* * *

(١) الإسراء: الآية (٩٢).
(٢) جامع البيان (١٩/ ١١٦).
(٣) إبراهيم: الآية (٤٤).
(٤) الأنبياء: الآية (٤٠).
(٥) الحجر: الآية (٨).
(٦) الأضواء (٦/ ٣٨٢-٣٨٣).

قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «أي: لو أخرناهم وأنظرناهم، وأملينا لهم برهة من الزمان وحينا من الدهر وإن طال، ثم جاءهم أمر الله، أي شيء يجدي عنهم ما كانوا فيه من النعم، ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾﴾[1]، وقال تعالى: ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ﴿١١﴾﴾[3]؛ ولهذا قال: ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾﴾»[4].

قال الزمخشري: «وذلك أن استعجالهم بالعذاب إنما كان لاعتقادهم أنه غير كائن، ولا لاحق بهم، وأنهم ممتعون بأعمار طوال في سلامة وأمن، فقال تعالى: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾﴾ أشرا وبطرا واستهزاء واتكالا على الأمل الطويل، ثم قال: هب أن الأمر كما يعتقدون من تمتيعهم وتعميرهم فإذا لحقهم الوعيد بعد ذلك ما ينفعهم حينئذ ما مضى من طوال أعمارهم وطيب معايشهم. وعن ميمون بن مهران: أنه لقي الحسن في الطواف وكان يتمنى لقاءه فقال له: عظني، فلم يزده على تلاوة هذه الآية. فقال ميمون: لقد وعظت فأبلغت»[5].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في المقارنة بين نعيم الدنيا وعذاب الآخرة بالنسبة للكافر

* عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «**يؤتى بأنعم أهل الدنيا من أهل النار يوم القيامة فيصبغ في النار صبغة ثم يقال: يا ابن آدم هل رأيت خيرا قط؟ هل**

(١) النازعات: الآية (٤٦).
(٢) البقرة: الآية (٩٦).
(٣) الليل: الآية (١١).
(٤) تفسير القرآن العظيم (٦/ ١٧٤-١٧٥).
(٥) الكشاف (٣/ ١٣٠).

مر بك نعيم قط؟ فيقول: لا، واللَّه يا رب. ويؤتى بأشد الناس بؤسا في الدنيا، من أهل الجنة، فيصبغ صبغة في الجنة، فيقال له: يا ابن آدم هل رأيت بؤسا قط؟ هل مر بك شدة قط؟ فيقول: لا، واللَّه يا رب، ما مر بي بؤس قط، ولا رأيت شدة قط»[١].

تقدم الكلام عن هذا الحديث من حيث غريبه وفوائده في سورة يونس الآية (٢٤) بما يغني عن الإعادة في هذا الموضع، وباللَّه التوفيق.

* * *

(١) أخرجه: أحمد (٣/ ٢٠٣) ومسلم (٤/ ٢١٦٢/ ٢٨٠٧) وابن ماجه (٢/ ١٤٤٥/ ٤٣٢١).

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكۡرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٠٩﴾ وَمَا تَنَزَّلَتۡ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمۡ وَمَا يَسۡتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّمۡعِ لَمَعۡزُولُونَ ﴿٢١٢﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: ﴿وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ﴾ من هذه القرى التي وصفت في هذه السور ﴿إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ﴾ يقول: إلا بعد إرسالنا إليهم رسلا ينذرونهم بأسنا على كفرهم وسخطنا عليهم. ﴿ذِكۡرَىٰ﴾ يقول: إلا لها منذرون ينذرونهم، تذكرة لهم وتنبيها لهم على ما فيه النجاة لهم من عذابنا. ففي الذكرى وجهان من الإعراب: أحدهما النصب على المصدر من الإنذار على ما بينت، والآخر: الرفع على الابتداء كأنه قيل: ذكرى»[1].

قال ابن عاشور: «وعبر عن الرسل بصفة الإنذار لأنه المناسب للتهديد بالإهلاك»[2].

قال ابن جرير: «قوله: ﴿وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ يقول: وما كنا ظالميهم في تعذيبناهم وإهلاكهم؛ لأنا إنما أهلكناهم، إذ عتوا علينا، وكفروا نعمتنا، وعبدوا غيرنا بعد الإعذار عليهم والإنذار، ومتابعة الحجج عليهم بأن ذلك لا ينبغي أن يفعلوه، فأبوا إلا التمادي في الغي.

وقوله: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتۡ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾﴾ يقول -تعالى ذكره-: وما تنزلت بهذا القرآن الشياطين على محمد، ولكنه ينزل به الروح الأمين. ﴿وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمۡ﴾ يقول: وما ينبغي للشياطين أن ينزلوا به عليه، ولا يصلح لهم ذلك. ﴿وَمَا يَسۡتَطِيعُونَ﴾ يقول: وما يستطيعون أن يتنزلوا به؛ لأنهم لا يصلون إلى استماعه في المكان الذي هو به

(١) جامع البيان (١٩/ ١١٧).
(٢) التحرير والتنوير (١٩/ ١٩٨).

من السماء. ﴿إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾﴾ يقول: إن الشياطين عن سمع القرآن من المكان الذي هو به من السماء لمعزولون، فكيف يستطيعون أن يتنزلوا به»[1].

قال ابن كثير: «ذكر أنه يمتنع عليهم من ثلاثة أوجه:

أحدها: أنه ما ينبغي لهم؛ أي: ليس هو من بغيتهم ولا من طلبتهم؛ لأن من سجاياهم الفساد وإضلال العباد، وهذا فيه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ونور وهدى وبرهان عظيم، فبينه وبين الشياطين منافاة عظيمة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ﴾.

وقوله: ﴿وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ أي: ولو انبغى لهم لما استطاعوا ذلك، قال اللَّه تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾[2].

ثم بين أنه لو انبغى لهم واستطاعوا حمله وتأديته، لما وصلوا إلى ذلك؛ لأنهم بمعزل عن استماع القرآن حال نزوله؛ لأن السماء ملئت حرسا شديدا وشهبا في مدة إنزال القرآن على رسوله، فلم يخلص أحد من الشياطين إلى استماع حرف واحد منه، لئلا يشتبه الأمر. وهذا من رحمة اللَّه بعباده، وحفظه لشرعه، وتأييده لكتابه ولرسوله؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾﴾، كما قال تعالى مخبرا عن الجن: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾﴾[3]»[4].

* * *

(١) جامع البيان (١٩/ ١١٧-١١٨).

(٢) الحشر: الآية (٢١).

(٣) الجن: الآيات (٨-١٠).

(٤) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٢٠٨-٢٠٩).

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي: «ينهى تعالى رسوله أصلا، وأمته أسوة له في ذلك عن دعاء غير اللَّه من جميع المخلوقين، وأن ذلك موجب للعذاب الدائم، والعقاب السرمدي، لكونه شركا، ﴿مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ﴾[(١)] والنهي عن الشيء أمر بضده، فالنهي عن الشرك أمر بإخلاص العبادة لله وحده لا شريك له، محبة، وخوفا، ورجاء، وذلا وإنابة إليه في جميع الأوقات»[(٢)].

قال أبو السعود: «خوطب به النبي ﷺ مع ظهور استحالة صدور المنهي عنه عنه ﷺ تهييجا وحثا على ازدياد الإخلاص، ولطفا لسائر المكلفين ببيان أن الإشراك من القبح والسوء بحيث ينهى عنه من لا يمكن صدوره عنه فكيف بمن عداه»[(٣)].

قال ابن عاشور: «فالمعنى: فلا تدعوا مع اللَّه إلها آخر فتكونوا من المعذبين. وفي هذا تعريض بالمشركين أنهم سيعذبون للعلم بأن النبي ﷺ وأصحابه غير مشركين»[(٤)].

* * *

---

(١) المائدة: الآية (٧٢).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٥٥١).

(٣) تفسير أبي السعود (٦/ ٢٦٧).

(٤) التحرير (١٩/ ٢٠٠).

قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ۝٢١٤﴾

⋆ **غريب الآية:**

عشيرتك: العشيرة: قرابة الرجل يتكثر بهم. سموا بذلك لأنه يعاشرهم ويعاشرونه.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -جل ثناؤه- لنبيه محمد ﷺ: وأنذر عشيرتك من قومك الأقربين إليك قرابة، وحذرهم من عذابنا أن ينزل بهم بكفرهم.

وذكر أن هذه الآية لما نزلت، بدأ ببني جده عبد المطلب وولده، فحذرهم وأنذرهم»(1).

قال ابن كثير: «قال تعالى آمرا لرسوله صلوات اللَّه وسلامه عليه أن ينذر عشيرته الأقربين؛ أي: الأدنين إليه، وأنه لا يخلص أحدا منهم إلا إيمانه بربه ﷻ.. هذه النذارة الخاصة لا تنافي العامة؛ بل هي فرد من أجزائها كما قال تعالى: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ۝٦﴾(2) وقال تعالى: ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾(3) وقال تعالى: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾(4) وقال تعالى: ﴿لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا﴾(5) وقال تعالى: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾(6) كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾(7)»(8).

قال السعدي: «كما إذا أمر الإنسان بعموم الإحسان، ثم قيل له "أحسن إلى قرابتك" فيكون هذا الخصوص دالا على التأكيد، وزيادة الحث، فامتثل ﷺ هذا الأمر الإلهي، فدعا سائر بطون قريش، فعمم وخصص، وذكرهم ووعظهم، ولم

---

(1) جامع البيان (١٩/ ١١٨).
(2) يس: الآية (٦).
(3) الشورى: الآية (٧).
(4) الأنعام: الآية (٥١).
(5) مريم: الآية (٩٧).
(6) الأنعام: الآية (١٩).
(7) هود: الآية (١٧).
(8) تفسير القرآن العظيم (٦/ ١٧٦).

يُبْق ﷺ من مقدوره شيئًا، من نصحهم، وهدايتهم، إلا فعله، فاهتدى من اهتدى، وأعرض من أعرض»[1].

قال الآلوسي: «ووجه تخصيص عشيرته صلى اللَّه تعالى عليه وسلم الأقربين بالذكر مع عموم رسالته عليه الصلاة والسلام دفع توهم المحاباة، وأن الاهتمام بشأنهم أهم، وأن البداءة تكون بمن يلي ثم بعده كما قال سبحانه: ﴿قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ﴾[2]»[3].

قال ابن عطية: «وصى ﷻ نبيه ﷺ بالثبوت على توحيد اللَّه تعالى وأمره بنذارة عشيرته تخصيصا لهم إذ العشيرة مظنة المقاربة والطواعية. وإذ يمكنه معهم من الإغلاظ عليهم ما لا يحتمله غيرهم فإن البر بهم في مثل هذا الحمل عليهم، والإنسان غير متهم على عشيرته. وكان هذا التخصيص مع الأمر العام بنذارة العالم»[4].

قال القرطبي: «خص عشيرته الأقربين بالإنذار، لتنحسم أطماع سائر عشيرته وأطماع الأجانب في مفارقته إياهم على الشرك»[5].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في البدء بالأقرب في الدعوة إلى اللَّه ﷻ

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قام رسول اللَّه ﷺ حين أنزل اللَّه ﷻ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ قال: «**يا معشر قريش -أو كلمة نحوها- اشتروا أنفسكم، لا أغني عنكم من اللَّه شيئًا. يا بني عبد مناف لا أغني عنكم من اللَّه شيئًا. يا عباس بن عبد المطلب لا أغني عنك من اللَّه شيئًا. يا صفية عمة رسول اللَّه ﷺ لا أغني عنك من اللَّه شيئًا. ويا فاطمة بنت محمد سليني ما شئت من مالي لا أغني عنك من اللَّه شيئا**»[6].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٥٥٢).
(٢) التوبة: الآية (١٢٣).
(٣) روح المعاني (١٩/ ١٣٤-١٣٥).
(٤) المحرر الوجيز (٤/ ٢٤٥).
(٥) جامع الأحكام (١٣/ ١٤٣).
(٦) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٦٠) والبخاري (٥/ ٤٨٠/ ٢٧٥٣) واللفظ له، ومسلم (١/ ١٩٢/ ٢٠٤-٢٠٦) والترمذي (٥/ ٣١٦-٣١٧/ ٣١٨٥) والنسائي (٦/ ٥٥٨-٥٦٠/ ٣٦٤٦-٣٦٤٩).

* عن عائشة رضي الله عنها قالت: لما نزلت ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ قام رسول الله ﷺ على الصفا، فقال: «**يا فاطمة بنت محمد، يا صفية بنت عبد المطلب، يا بني عبد المطلب لا أملك لكم من الله شيئًا سلوني من مالي ما شئتم**»[١].

* عن قبيصة بن المخارق وزهير بن عمرو قالا: لما نزلت ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ قال: انطلق نبي الله ﷺ إلى رضمة من جبل، فعلا أعلاها حجرا. ثم نادى: «**يا بني عبد منافاه إني نذير، إنما مثلي ومثلكم كمثل رجل رأى العدو فانطلق يربأ أهله فخشي أن يسبقوه، فجعل يهتف: يا صباحاه**»[٢].

⋆ غريب الحديث:

رضمة من جبل: الرضمة بفتح الراء وإسكان الضاد المعجمة وبفتحها لغتان حكاهما صاحب المطالع وغيره، واقتصر صاحب العين والجوهري والهروي وغيرهم على الإسكان، وابن فارس وبعضهم على الفتح.

قالوا: والرضمة واحدة الرضم والرضام وهي صخور عظام بعضها فوق بعض، وقيل: هي دون الهضاب[٣].

يربأ: قال النووي: بفتح الياء وإسكان الراء وبعدها باء موحدة ثم همرة على وزن يقرأ ومعناه: يحفظهم ويتطلع لهم، ويقال لفاعل ذلك ربئة وهو العين والطليعة الذي ينظر للقوم لئلا يدهمهم العدو، ولا يكون في الغالب إلا على جبل أو شرف أو شيء مرتفع لينظر إلى بعد[٤].

يهتف: بفتح الياء وكسر التاء ومعناه يصيح ويصرخ.

يا صباحاه: كلمة يعتادونها عند وقوع أمر عظيم فيقولونها ليجتمعوا ويتأهبوا له[٥].

---

(١) أخرجه أحمد (٦/ ١٨٧) ومسلم (١/ ١٩٢/ ٢٠٥) واللفظ له، والترمذي (٥/ ٣١٦/ ٣١٨٤) والنسائي (٦/ ٥٦٠/ ٣٦٥٠).

(٢) أخرجه: أحمد (٥/ ٦٠) ومسلم (١/ ١٩٣/ ٢٠٧) واللفظ له، والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٢٣/ ١١٣٧٩).

(٣) شرح مسلم (٣/ ٦٨).

(٤) شرح مسلم (٣/ ٦٨-٦٩).

(٥) شرح مسلم (٣/ ٦٩).

* عن أبي موسى الأشعري قال: لما نزلت ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ وضع رسول اللّه ﷺ إصبعيه في أذنيه ورفع صوته وقال: «**يا بني عبد مناف، يا صباحاه..**»[(١)].

* عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما نزلت ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ جعل النبي ﷺ يدعوهم قبائل قبائل[(٢)].

* عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما نزلت ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ ورهطك منهم المخلصين، خرج رسول اللّه ﷺ حتى صعد الصفا فهتف: «**يا صباحاه.. فقالوا من هذا؟ فاجتمعوا إليه، فقال: أرأيتم إن أخبرتكم أن خيلا تخرج من سفح هذا الجبل أكنتم مصدقي؟ قالوا: ما جربنا عليك كذبا. قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد**». قال أبو لهب: تبا لك ما جمعتنا إلا لهذا؟ ثم قام. فنزلت ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾﴾[(٣)]. وقد تب[(٤)].

⋆ **غريب الحديث:**

رهطك منهم المخلصين: قال النووي: هو بفتح اللام فظاهر هذه العبارة أن قوله: (ورهطك منهم المخلصين) كان قرآنا أنزل ثم نسخت تلاوته[(٥)].

سفح الجبل: بفتح السين هو أسفله وقيل: عرضه[(٦)].

تب: من التباب وهو الخسران؛ أي: ألزمه اللّه هلاكًا وخسرانًا.

* عن علي بن أبي طالب قال: لما نزلت هذه الآية ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ جمع النبي ﷺ أهل بيته فاجتمع ثلاثون فأكلوا وشربوا قال: وقال لهم: «**من يضمن عني ديني ومواعيدي ويكون معي في الجنة ويكون خليفتي في أهلي؟ فقال**

---

(١) أخرجه: الترمذي (٥/ ٣١٧/ ٣١٨٦) وقال: «هذا حديث غريب من هذا الوجه من حديث أبي موسى». الطبري (١٩/ ١٢٠) وللحديث شاهد من حديث ابن عباس وسيأتي بعد هذا الحديث.

(٢) أخرجه: البخاري (٦/ ٦٨٣/ ٣٥٢٦) واللفظ له، والنسائي في الكبرى (٦/ ٤٢٣/ ١١٣٧٨).

(٣) المسد: الآية (١).

(٤) أخرجه: البخاري (٨/ ٩٥٦/ ٤٩٧١) ومسلم (١/ ١٩٤/ ٢٠٨).

(٥) المنهاج (٣/ ٦٩).

(٦) المنهاج (٣/ ٦٩).

رجل -لم يسمه شريك- : يا رسول اللَّه، أنت كنت بحرا من يقوم بهذا؟ قال: ثم قال الآخر، قال: فعرض ذلك على أهل بيته، فقال علي: أنا»[(١)].

★ **فوائد الأحاديث:**

في هذه الأحاديث ما يدل على أنه ﷺ قام بهذه الآية حق القيام[(٢)].

قال الطاهر بن عاشور: «وجه الاهتمام أنهم أولى الناس بقبول نصحه وتعزيز جانبه ولئلا يسبق إلى أذهانهم أن ما يلقيه الرسول من الغلظة في الإنذار وأهوال الوعيد لا يقع عليهم لأنهم قرابة هذا المنذر وخاصته. ويدل على هذا قوله ﷺ في ندائه لهم: «لا أغني عنكم من اللَّه شيئا»، وأن فيه تعريضا بقلة رعي كثير منهم حق القرابة إذ آذاه كثير منهم وعصوه مثل أبي لهب، فلا يحسبوا أنهم ناجون في الحالتين، وأن يعلموا أنهم لا يكتفى من مؤمنهم بإيمانه حتى يضم إليه العمل الصالح؛ فهذا مما يدخل في النذارة، ولذلك دعا النبي ﷺ عند نزول هذه الآية قرابته مؤمنين وكافرين.

ففي حديث عائشة وابن عباس وأبي هريرة في صحيحي البخاري ومسلم يجمعها قولهم: لما نزلت ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ قام رسول اللَّه ﷺ الصفا فدعا قريشا فجعل ينادي: «**يا بني فهر يا بني عدي، لبطون قريش حتى اجتمعوا فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولا لينظر ما هو، فقال: يا معشر قريش، فعم وخص، يا بني كعب بن لؤي أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني مرة بن كعب أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد شمس أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد مناف أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني هاشم أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد المطلب أنقذوا أنفسكم من النار، اشتروا أنفسكم من اللَّه لا أغني عنكم من اللَّه شيئًا، يا عباس بن عبد المطلب لا أغني عنك من اللَّه شيئًا، يا صفية عمة رسول اللَّه لا أغني عنك من اللَّه شيئًا، يا فاطمة بنت رسول اللَّه سليني من مالي ما شئت**

---

(١) أخرجه: أحمد (١/ ١١١) وابن جرير (١٩/ ١٢١-١٢٢) البزار: الكشف (٣/ ١٣٧/ ٢١١٧) والطبراني في الأوسط (٢/ ٥٧٨/ ١٩٩٢). وذكره الهيثمي في المجمع (٩/ ١١٣) وقال: «رواه أحمد وإسناده جيد». وقال في (٨/ ٣٠٢): «رواه أحمد ورجاله ثقات». وقال (٨/ ٣٠٣): «رواه البزار واللفظ له وأحمد باختصار والطبراني في الأوسط باختصار أيضا ورجال أحمد وأحد إسنادي البزار رجال الصحيح غير شريك وهو ثقة».

(٢) أفاده البقاعي في نظم الدرر (١٩/ ١٠٧).

لا أغني عنك من اللَّه شيئًا، غير أن لكم رحمًا سأبلها ببلاها»[١] وكانت صفية وفاطمة من المؤمنين وكان إنذارهما إعمالا لفعل الأمر في معانيه كلها من الدعوة إلى الإيمان وإلى صالح الأعمال؛ فجمع النبي ﷺ بين الإنذار من الشرك والإنذار من المعاصي لأنه أنذر صفية وفاطمة وكانتا مسلمتين»[٢].

قال الحافظ: «والسر في الأمر بإنذار الأقربين أولا أن الحجة إذا قامت عليهم تعدت إلى غيرهم، وإلا فكانوا علة للأبعدين في الامتناع، وأن لا يأخذه ما يأخذ القريب للقريب من العطف والرأفة فيحابيهم في الدعوة والتخويف، فلذلك نص له على إنذارهم»[٣].

وفيها: يقول القرطبي: «دليل على أن القرب في الأنساب لا ينفع مع البعد في الأسباب»[٤].

قال ابن كثير: «ومعنى سؤاله، عليه الصلاة والسلام، لأعمامه وأولادهم أن يقضوا عنه دينه، ويخلفوه في أهله، يعني إن قتل في سبيل اللَّه، كأنه خشي إذا قام بأعباء الإنذار أن يقتل، ولما أنزل اللَّه ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾[٥]، فعند ذلك أمن. وكان أولا يحرس حتى نزلت هذه الآية: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾. ولم يكن في بني هاشم إذ ذاك أشد إيمانا وإيقانا وتصديقا لرسول اللَّه ﷺ من علي، رضي الله عنه؛ ولهذا بدرهم إلى التزام ما طلب منهم رسول اللَّه ﷺ، ثم كان بعد هذا واللَّه أعلم- دعاؤه الناس جهرة على الصفا، وإنذاره لبطون قريش عموما وخصوصا، حتى سمى من سمى من أعمامه وعماته وبناته، لينبه بالأدنى على الأعلى؛ أي: إنما أنا نذير، واللَّه يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم»[٦].

* عن أبي هريرة قال قال رسول اللَّه ﷺ: «**والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار**»[٧].

---

(١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه السابق في رواية غير رواية البخاري.
(٢) التحرير والتنوير (١٩/ ٢٠٠-٢٠١).
(٣) الفتح (٨/ ٦٤٥).
(٤) الجامع لأحكام القرآن (١٣/ ١٤٤).
(٥) المائدة: الآية (٦٧).
(٦) تفسير القرآن العظيم (٦/ ١٧٠).
(٧) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٥٠) ومسلم (١/ ١٣٤/ ١٥٣).

★ **فوائد الحديث:**

تقدم شرح وبيان فوائده تحت قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ الآية (١٥٨) من سورة الأعراف.

فصل في بيان بعض الأحكام الفقهية المستفادة من هذه الأحاديث:

يستفاد من هذه الأحاديث في هذا الباب:

«بيان للعشيرة الأقربين» أفاده الشوكاني[(١)].

قال ابن بطال: «. . قد أمر اللَّه نبيه أن ينذر عشيرته الأقربين، فدعا عشائر قريش كلها، وفيهم من يلقاه عند أبيه الثاني، وعند أبيه الثالث وعند أبيه الرابع وعند الخامس وعند السابع، وفيهم من يلقاه عند آبائه الذين فوق ذلك إلا أنه ممن جمعته وإياهم قريش، فبطل قول من جعله إلى الأب الرابع، وثبت قول من جعله إلى أب واحد في الجاهلية أو الإسلام»[(٢)].

وقال: «أجمع العلماء على أن اسم الولد يقع على البنين والبنات وأن النساء التي من صلبه وعصبته كالعمة والابنة والأخت يدخلون في الأقارب إذا أوقف على أقاربه، ألا ترى أن النبي ﷺ خص عمته بالنذارة كما خص ابنته، وكذلك من كان في معناهما ممن يجمعه معه أب واحد»[(٣)].

قال المهلب: وقوله ﷺ لابنته: «**سليني من مالي ما شئت**» فيه من الفقه أن الاستئلاف للمسلمين وغيرهم بالمال جائز؛ لأنه إذا جاز أن يستألف المسلم بالمال حتى يزداد بصيرة في الإسلام جاز أن يستألف الكافر حتى يدخل في الإيمان؛ بل هو أوكد»[(٤)].

وفيها: «دليل على جواز صلة المؤمن الكافر وإرشاده ونصيحته لقوله: «**إن لكم رحمًا سأبلها ببلالها**» وقوله ﷻ: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾[(٥)] الآية» قاله القرطبي[(٦)].

---

(١) فتح القدير (٤/ ١٦٩).
(٢) شرح ابن بطال (٨/ ١٦٥).
(٣) شرح ابن بطال (٨/ ١٦٦).
(٤) شرح ابن بطال على البخاري (٨/ ١٦٩).
(٥) الممتحنة: الآية (٨).
(٦) الجامع لأحكام القرآن (١٣/ ١٤٤).

قوله تعالى: ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٢١٥﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال السعدي: «﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٢١٥﴾ بلين جانبك، ولطف خطابك لهم، وتوددك، وتحببك إليهم، وحسن خلقك والإحسان التام بهم، وقد فعل ﷺ ذلك كما قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ﴾[1] فهذه أخلاقه ﷺ، أكمل الأخلاق، التي يحصل بها من المصالح العظيمة، ودفع المضار، ما هو مشاهد، فهل يليق بمؤمن بالله ورسوله، ويدعي اتباعه والاقتداء به، أن يكون كلاً على المسلمين، شرس الأخلاق، شديد الشكيمة عليهم، غليظ القلب، فظ القول، فظيعه؟ وإن رأى منهم معصية، أو سوء أدب هجرهم، ومقتهم وأبغضهم، لا لين عنده، ولا أدب لديه، ولا توفيق، قد حصل من هذه المعاملة من المفاسد، وتعطيل المصالح ما حصل، ومع ذلك تجده محتقرا لمن اتصف بصفات الرسول الكريم، وقد رماه بالنفاق والمداهنة، وقد كمل نفسه ورفعها، وأعجب بعمله، فهل هذا إلا من جهله، وتزيين الشيطان وخدعه له»[2].

قال الزمخشري: «الطائر إذا أراد أن ينحط للوقوع كسر جناحه وخفضه، وإذا أراد أن ينهض للطيران رفع جناحه، فجعل خفض جناحه عند الانحطاط مثلًا في التواضع ولين الجانب، ومنه قول بعضهم:

وَأَنْتَ الشَّهِيرُ بِخَفْضِ الْجَنَاحِ ... فَلاَ تَكُ فِي رَفْعِهِ أَجْدَلاَ

ينهاه عن التكبر بعد التواضع. فإن قلت: المتبعون للرسول هم المؤمنون، والمؤمنون هم المتبعون للرسول، فما (معنى) قوله: ﴿لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾؟ قلت: فيه وجهان: أن يسميهم قبل الدخول في الإيمان مؤمنين لمشارفتهم ذلك،

---

(١) آل عمران: الآية (١٥٩).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٥٥٢-٥٥٣).

وأن يريد بالمؤمنين المصدّقين بألسنتهم، وهم صنفان: صنف صدّق واتبع رسول اللَّه فيما جاء به، وصنف ما وجد منه إلا التصديق فحسب، ثم إمّا أن يكونوا منافقين أو فاسقين، والمنافق والفاسق لا يخفض لهما الجناح. والمعنى: من المؤمنين من عشيرتك وغيرهم، يعني: أنذر قومك فإن اتبعوك وأطاعوك فاخفض لهم جناحك، وإن عصوك ولم يتبعوك فتبرأ منهم ومن أعمالهم من الشرك باللَّه وغيره»[1].

قال الشنقيطي: «والأظهر عندي في قوله: ﴿لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أنه نوع من التوكيد يكثر مثله في القرآن العظيم كقوله: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾[2] الآية. ومعلوم أنهم إنما يقولون بأفواههم، وقوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ﴾[3] ومعلوم أنهم إنما يكتبونه بأيديهم، وقوله تعالى: ﴿وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾[4]، وقوله تعالى: ﴿حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾[5] إلى غير ذلك من الآيات»[6].

قال الآلوسي: «قال الطيبي: الإجراء على أفانين البلاغة أن يحمل الكلام على أسلوب وضع المظهر موضع المضمر، وأن الأصل: وأنذر عشيرتك الأقربين واخفض جناحك لمن اتبعك منهم فعدل إلى المؤمنين ليعم ويؤذن أن صفة الإيمان هي التي يستحق أن يكرم صاحبها، ويتواضع لأجلها من اتصف بها، سواء كان من عشيرتك أو غيرهم»[7].

قال الشنقيطي: «إن الجناح هنا مستعمل في حقيقته؛ لأن الجناح يطلق لغة حقيقة على يد الإنسان وعضده وإبطه. قال تعالى: ﴿وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ﴾[8]، والخفض مستعمل في معناه الحقيقي، الذي هو ضد الرفع؛ لأن مريد البطش يرفع جناحيه، ومظهر الذل، والتواضع بخفض جناحيه، فالأمر بخفض الجناح للوالدين كناية عن لين الجانب لهما، والتواضع لهما كما قال لنبيه ﷺ: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ وإطلاق العرب خفض الجناح كناية عن التواضع، ولين الجانب. أسلوب معروف ومنه قول الشاعر:

---

(١) الكشاف (٣/ ١٣١).
(٢) آل عمران: الآية (١٦٧).
(٣) البقرة: الآية (٧٩).
(٤) الأنعام: الآية (٣٨).
(٥) البقرة: الآية (١٠٩).
(٦) الأضواء (٦/ ٣٨٧).
(٧) روح المعاني (١٩/ ١٣٦).
(٨) القصص: الآية (٣٢).

وأنت الشهير بخفض الجنا ح فلاتك في رفعه أجدلا

وأما إضافة الجناح إلى الذل، فلا تستلزم المجاز كما يظنه كثير؛ لأن الإضافة فيه كالإضافة في قولك: حاتم الجود.

فيكون المعنى: واخفض لهما الجناح الذليل من الرحمة، أو الذلول على قراءة الذل بالكسر، وما يذكر عن أبي تمام من أنه لما قال:

لا تسقني ماء الملام فإنني صب قد استعذبت ماء بكائي

جاءه رجل فقال له: صب لي في هذا الإناء شيئًا من ماء الملام، فقال له: إن أتيتني بريشة من جناح الذل صببت لك شيئًا من ماء الملام فلا حجة فيه؛ لأن الآية لا يراد بها أن للذل جناحا، وإنما يراد بها خفض الجناح المتصف بالذل للوالدين من الرحمة بهما، وغاية ما في ذلك إضافة الموصوف إلى صفته كحاتم الجود، ونظيره في القرآن الإضافة في قوله: ﴿مَطَرَ ٱلسَّوْءِ﴾[(١)] و ﴿عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾[(٢)] أي مطر حجارة السجيل الموصوف بسوئه من وقع عليه، وعذاب أهل النار الموصوف بهون من وقع عليه. والمسوغ لإضافة خصوص الجناح إلى الذل مع أن الذل من صفة الإنسان لا من صفة خصوص الجناح، أن خفض الجناح كنى به عن ذل الإنسان، وتواضعه ولين جانبه لوالديه رحمة بهما، وإسناد صفات الذات لبعض أجزائها من أساليب اللغة العربية كإسناد الكذب، والخطيئة إلى الناصية في قوله تعالى: ﴿نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾﴾[(٣)]، وكإسناد الخشوع، والعمل والنصب إلى الوجوه في قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾﴾[(٤)]، وأمثال ذلك كثيرة في القرآن، وفي كلام العرب.

وهذا هو الظاهر في معنى الآية، ويدل عليه كلام السلف من المفسرين»[(٥)].

* * *

---

(١) الفرقان: الآية (٤٠).

(٢) الأنعام: الآية (٩٣) والأحقاف: الآية (٢٠).

(٣) العلق: الآية (١٦).

(٤) الغاشية: الآيتان (٢و٣).

(٥) الأضواء (٦/ ٣٧٥-٣٧٧).

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: فإن عصتك يا محمد عشيرتك الأقربون الذين أمرتك بإنذارهم، وأبوا إلا الإقامة على عبادة الأوثان، والإشراك بالرحمن، فقل لهم: ﴿إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ من عبادة الأصنام ومعصية بارئ الأنام»[(١)].

قال ابن عاشور: «فالتبرؤ إنما هو من كفرهم وذلك لا يمنع من صلتهم لأجل الرحم وإعادة النصح لهم كما قال: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰٓ﴾[(٢)]. وإنما أمر بأن يقول لهم ذلك لإظهار أنهم أهل للتبرؤ من أعمالهم، فلا يقتصر على إضمار ذلك في نفسه»[(٣)].

* * *

(١) جامع البيان (١٩/ ١٢٣).
(٢) الشورى: الآية (٢٣).
(٣) التحرير (١٩/ ٢٠٣).

قوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن عاشور: «والمعنى: فإن عصاك أهل عشيرتك فتبرأ منهم. ولما كان التبرؤ يؤذن بحدوث مجافاة وعداوة بينه وبينهم ثبت اللّه جأش رسوله بأن لا يعبأ بهم، وأن يتوكل على ربه فهو كافيه كما قال: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾[(١)]. وعلق التوكل بالاسمين (العزيز الرحيم) وما تبعهما من الوصف بالموصول وما ذيل به من الإيماء إلى أنه يلاحظ قوله ويعلم نيته إشارة إلى أن التوكل على اللّه يأتي بما أومأت إليه هذه الصفات ومستتبعاتها بوصف (العزيز الرحيم) للإشارة إلى أنه بعزته قادر على تغلبه على عدوه الذي هو أقوى منه، وأنه برحمته يعصمه منهم. وقد لوحظ هذان الاسمان غير مرة في هذه السورة لهذا الاعتبار»[(٢)].

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾﴾ أي: في جميع أمورك؛ فإنه مؤيدك وناصرك وحافظك ومظفرك ومعل كلمتك.

وقوله: ﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾﴾ أي: هو معتن بك، كما قال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾[(٣)].

قال ابن عباس: ﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾﴾ يعني: إلى الصلاة.

وقال عكرمة: يرى قيامه وركوعه وسجوده.

وقال الحسن: ﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾﴾: إذا صليت وحدك.

وقال الضحاك: ﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾﴾ أي: من فراشك أو مجلسك.

---

(١) الطلاق: الآية (٣).

(٢) التحرير والتنوير (١٩/ ٢٠٤).

(٣) الطور: الآية (٤٨).

وقال قتادة: ﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ﴾ : قائما وجالسا وعلى حالاتك»[(١)].

قال ابن عاشور: «ووصفه تعالى بـ ﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾﴾ مقصود به لازم معناه. وهو أن النبي ﷺ بمحل العناية منه؛ لأنه يعلم توجهه إلى اللَّه، ويقبل ذلك منه فالمراد من قوله: (يراك) رؤية خاصة وهي رؤية الإقبال والتقبل كقوله: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾»[(٢)].

قال ابن جرير: «﴿وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾﴾ اختلف أهل التأويل في تأويل ذلك، فقال بعضهم: معنى ذلك: ويرى تقلبك في صلاتك حين تقوم، ثم تركع، وحين تسجد.. وقال آخرون: بل معنى ذلك: ويرى تقلبك في المصلين، وإبصارك منهم من هو خلفك، كما تبصر من هو بين يديك منهم.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: وتقلبك مع الساجدين: أي تصرفك معهم في الجلوس والقيام والقعود.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: ويرى تصرفك في الناس.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: وتصرفك في أحوالك كما كانت الأنبياء من قبلك تفعله، والساجدون في قول قائل هذا القول: الأنبياء.

قال أبو جعفر: وأولى الأقوال في ذلك بتأويله قول من قال تأويله: ويرى تقلبك مع الساجدين في صلاتهم معك، حين تقوم معهم وتركع وتسجد؛ لأن ذلك هو الظاهر من معناه. فأما قول من وجهه إلى أن معناه: وتقلبك في الناس، فإنه قول بعيد من المفهوم بظاهر التلاوة، وإن كان له وجه؛ لأنه وإن كان لا شيء إلا وظله يسجد لله، فإنه ليس المفهوم من قول القائل: فلان مع الساجدين، أو في الساجدين، أنه مع الناس أو فيهم، بل المفهوم بذلك أنه مع قوم سجود، السجود المعروف، وتوجيه معاني كلام اللَّه إلى الأغلب أولى من توجيهه إلى الأنكر.

وكذلك أيضًا في قول من قال: معناه: تتقلب في أبصار الساجدين، وإن كان له وجه، فليس ذلك الظاهر من معانيه.

فتأويل الكلام إذن: وتوكل على العزيز الرحيم، الذي يراك حين تقوم إلى

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٦/ ١٨٢).

(٢) التحرير والتنوير (١٩/ ٢٠٤).

صلاتك، ويرى تقلبك في المؤتمين بك فيها بين قيام وركوع وسجود وجلوس.

وقوله: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ يقول -تعالى ذكره-: إن ربك هو السميع تلاوتك يا محمد، وذكرك في صلاتك ما تتلو وتذكر، العليم بما تعمل فيها ويعمل فيها من يتقلب فيها معك مؤتما بك، يقول: فرتل فيها القرآن، وأقم حدودها، فإنك بمرأى من ربك ومسمع»[1].

* * *

(١) جامع البيان (١٩/ ١٢٣-١٢٥).

قوله تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾﴾

★ **غريب الآية:**

أفّاك: الأفّاك: الكثير الإفك، وهو الكذب. وأصل الإفك: القلب والصرف. أي: يقلب الخبر من الصدق إلى الكذب.

أثيم: الأثيم: المبالغ في تعاطي الإثم، وهو الذنب.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن كثير: «يقول تعالى مخاطبًا لِمَنْ زعم من المشركين أن ما جاء به الرسول ليس حقا، وأنه شيء افتعله من تلقاء نفسه، أو أنه أتاه به رئيّ من الجن، فنزه اللَّه سبحانه جناب رسوله عن قولهم وافترائهم، ونبه أن ما جاء به إنما هو من عند اللَّه، وأنه تنزيله ووحيه، نزل به ملك كريم أمين عظيم، وأنه ليس من قَبيل الشياطين، فإنهم ليس لهم رغبة في مثل هذا القرآن العظيم، وإنما ينزلون على من يشاكلهم ويشابههم من الكهان الكذبة؛ ولهذا قال الله: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ﴾ أي: أخبركم. ﴿عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ * تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾﴾ أي: كذوب في قوله، وهو الأفاك الأثيم؛ أي: الفاجر في أفعاله. فهذا هو الذي تنزل عليه الشياطين كالكهان وما جرى مجراهم من الكذبة الفسقة، فإن الشياطين أيضًا كذبة فسقة.

﴿يُلْقُونَ السَّمْعَ﴾ أي: يسترقون السمع من السماء، فيسمعون الكلمة من علم الغيب، فيزيدون معها مائة كذبة، ثم يلقونها إلى أوليائهم من الإنس فيتحدثون بها، فيصدقهم الناس في كل ما قالوه، بسبب صدقهم في تلك الكلمة التي سمعت من السماء»[1].

قال السعدي: «فهذه صفة الأشخاص الذين تنزل عليهم الشياطين، وهذه صفة

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٦/ ١٨٢-١٨٣).

وحيهم له.

وأما محمد ﷺ فحاله مباينة لهذه الأحوال أعظم مباينة لأنه الصادق الأمين، البار الراشد، الذي جمع بين بر القلب وصدق اللهجة، ونزاهة الأفعال من المحرم. والوحي الذي ينزل عليه من عند الله ينزل محروسا محفوظا، مشتملا على الصدق العظيم، الذي لا شك فيه ولا ريب، فهل يستوي -يا أهل العقول- هديه وإفكهم؟ وهل يشتبهان إلا على مجنون لا يميز، ولا يفرق بين الأشياء؟»[١].

قال الشوكاني: «والغرض الذي سيق لأجله هذا الكلام ردّ ما كان يزعمه المشركون من كون النبيّ ﷺ من جملة من يلقي إليه الشيطان السمع من الكهنة ببيان أن الأغلب على الكهنة الكذب، ولم يظهر من أحوال محمد ﷺ إلاّ الصدق، فكيف يكون كما زعموا؟ ثم إن هؤلاء الكهنة يعظمون الشياطين، وهذا النبيّ المرسل من عند الله برسالته إلى الناس يذمهم ويلعنهم، ويأمر بالتعوّذ منهم»[٢].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في شأن الكهان ونحوهم وأن الكهانة كفر

* عن عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الملائكة تنزل في العنان -وهو السحاب- فتذكر الأمر قضي في السماء، فتسترق الشياطين السمع فتسمعه فتوحيه إلى الكهان، فيكذبون منها مائة كذبة من عند أنفسهم**»[٣].

* عن عائشة عن النبي ﷺ قال: «**الملائكة تحدث في العنان -والعنان: الغمام- بالأمر يكون في الأرض، فتستمع الشياطين الكلمة فتقرها في أذن الكاهن كما تقر القارورة، فيزيدون معها مائة كذبة**»[٤].

★ **غريب الحديث:**

الكهان: جمع كاهن، والكاهن لفظ يطلق على العراف والذي يضرب بالحصى

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٥/ ٥٥٥-٥٥٦).

(٢) فتح القدير (٤/ ١٧٠).

(٣) أخرجه: أحمد (٦/ ٨٧) والبخاري (٦/ ٣٧٣-٣٧٤/ ٣٢١٠) ومسلم (٤/ ١٧٥٠/ ٢٢٢٨).

(٤) أخرجه: البخاري (٦/ ٤١٦/ ٣٢٨٨).

والمنجم، ويطلق على من يقوم بأمر آخر ويسعى في قضاء حوائجه. وقال في المحكم: الكاهن القاضي بالغيب. وقال في الجامع: تسمي كل من أذن بشيء قبل وقوعه كاهنا. وقال الخطابي: الكهنة قوم لهم أذهان حادة، ونفوس شريرة، وطباع نارية، فألفتهم الشياطين لما بينهم من التناسب في هذه الأمور، وساعدتهم بكل ما تصل قدرتهم إليه[١].

★ فوائد الحديثين:

قال الحافظ: «الكهانة -بفتح الكاف ويجوز كسرها- ادعاء علم الغيب كالإخبار بما سيقع في الأرض مع الاستناد إلى سبب، والأصل فيها استراق السمع من كلام الملائكة، فيلقيه في أذن الكاهن.. وكانت الكهانة في الجاهلية فاشية، خصوصا في العرب لانقطاع النبوة فيهم. وهي على أصناف:

منها: ما يتلقونه من الجن؛ فإن الجن كانوا يصعدون إلى جهة السماء فيركب بعضهم بعضًا إلى أن يدنو الأعلى بحيث يسمع الكلام فيلقيه إلى الذي يليه، إلى أن يتلقاه من يلقيه في أذن الكاهن فيزيد فيه، فلما جاء الإسلام ونزل القرآن حرست السماء من الشياطين، وأرسلت عليهم الشهب، فبقي من استراقهم ما يتخطفه الأعلى فيلقيه إلى الأسفل قبل أن يصيبه الشهاب، وإلى ذلك الإشارة بقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ۝١٠﴾[٢]. وكانت إصابة الكهان قبل الإسلام كثيرة جدا كما جاء في أخبار شق وسطيح ونحوهما، وأما في الإسلام فقد ندر ذلك جدا حتى كاد يضمحل، ولله الحمد.

ثانيها: ما يخبر الجني به من يواليه بما غاب عن غيره مما لا يطلع عليه الإنسان غالبا، أو يطلع عليه من قرب منه لا من بعد.

ثالثها: ما يستند إلى ظن وتخمين وحدس، وهذا قد يجعل اللَّه فيه لبعض الناس قوة مع كثرة الكذب فيه.

رابعها: ما يستند إلى التجربة والعادة، فيستدل على الحادث بما وقع قبل ذلك، ومن هذا القسم الأخير ما يضاهي السحر، وقد يعتضد بعضهم في ذلك بالزجر

---

(١) الفتح (١٠/ ٢٦٦). (٢) الصافات: الآية (١٠).

والطرق والنجوم، وكل ذلك مذموم شرعا»[١].

* عن ابن مسعود موقوفا: **«من أتى كاهنا أو ساحرا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد»**[٢].

⋆ فوائد الحديث:

قال النووي: «إنما نهى عن إتيان الكهان لأنهم يتكلمون في مغيبات قد يصادف بعضها الإصابة، فيخاف الفتنة على الإنسان بسبب ذلك؛ لأنهم يلبسون على الناس كثيرا من أمر الشرائع، وقد تظاهرت الأحاديث الصحيحة بالنهي عن إتيان الكهان وتصديقهم فيما يقولون»[٣].

ومما ورد في التحذير من إتيان الكهان وسؤالهم ما رواه الإمام أحمد[٤] ومسلم[٥] من حديث صفية عن بعض أزواج النبي ﷺ أنه قال: **«من أتى عرافا فسأله عن شيء لم تقبل له صلاة أربعين ليلة»**.

قال النووي: «وأما عدم قبول صلاته فمعناه أنه لا ثواب له فيها وإن كانت مجزئة في سقوط الفرض عنه، ولا يحتاج معها إلى إعادة، ونظير هذه الصلاة في الأرض المغصوبة مجزئة مسقطة للقضاء، ولكن لا ثواب فيها كذا قاله جمهور أصحابنا. قالوا: فصلاة الفرض وغيرها من الواجبات إذا أتى بها على وجهها الكامل ترتب عليها شيئان: سقوط الفرض عنه وحصول الثواب، فإذا أداها في أرض مغصوبة حصل الأول دون الثاني، ولابد من هذا التأويل في هذا الحديث فإن العلماء متفقون على أنه لا يلزم من أتى العراف إعادة صلوات أربعين ليلة فوجب تأويله والله أعلم»[٦].

قال في المرقاة: «قلت: وجوب تأويله مسلم، لكن تأويله المذكور غير متعين،

---

(١) الفتح (١٠/ ٢٦٦).

(٢) رواه الطبراني (١٠/ ٩٣/ ١٠٠٠٥) وأبو يعلى (٩/ ٥٣٥-٥٣٦) وأورده الهيثمي في المجمع (٥/ ١١٨) وقال: «رواه الطبراني في الكبير والأوسط ورجال الكبير ثقات». وقال الحافظ في الفتح (١٠/ ٢٦٧): «إسناده جيد».

(٣) شرح مسلم (٥/ ٢٠).

(٤) (٤/ ٦٨).

(٥) (٤/ ١٧٥١/ ٢٢٣٠).

(٦) شرح مسلم (١٤/ ١٩٠).

فإن مذهب أهل السنة أن الحسنات لا تبطلها السيئات إلا الردة، مع الإجماع على عدم لزوم الإعادة حتى في الردة إذا عاد إلى الإسلام إلا الحج، فإنه فرض العمر، ثم مفهوم التأويل السابق أنه لو صلى النفل يكون له ثواب وكذا الفرض؛ لأنه تعالى لا يضيع أجر من أحسن عملا، نعم التضاعف من فضله ﷻ، فإذا فعل العبد ما يوجب غضبه تعالى، فله إسقاط المضاعفة الزائدة على مقتضى العدل والله أعلم، ثم تخصيص الصلاة من بين الأعمال يحتمل أن يكون لكونها عماد الدين، والأحسن أن يفوض عمله إلى الشارع»[1].

وقال القرطبي: «وظاهره أن صلاته في هذه الأربعين تحبط وتبطل، وهو خارج على أصول الخوارج الفاسدة في تكفيرهم بالذنوب. وقد بينا فساد هذا الأصل فيما تقدم. وأنه لا يحبط الأعمال إلا الردة، وأما غيرها فالحسنات تبطل السيئات كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾[2] وهذا مذهب أهل السنة والجماعة، فليس معنى قوله: «**لا تقبل له صلاة**» أن تحبط، بل إنما معناه -والله أعلم-: أنها لا تقبل قبول الرضا، وتضعيف الأجر. لكنه إذا فعلها على شروطها الخاصة بها، فقد برئت ذمته من المطالبة بالصلاة، وتُقَصَّى عن عهدة الخطاب بها، ويفوته قبول المرضي عنه، وإكرامه وثوابه، ويتضح ذلك باعتبار ملوك الأرض، ولله المثل الأعلى، وذلك أن المهدي: إما مردود عليه، أو مقبول منه، والمقبول: إما مقرب مكرم مثاب، وإما ليس كذلك. فالأول: هو المبعد المطرود، والثاني: هو المقبول القبول التام الكامل. والثالث: لا يصدق عليه أنه مثل الأول، فإنه لم ترد هديته؛ بل: قد التفت إليه، وقبلت منه، لكنه لما لم يثب، ولم يقرب صار كأنه غير مقبول منه؛ فيصدق عليه أنه لم يقبل منه إذ لم يحصل له ثواب ولا إكرام. وتخصيصه ﷺ الأربعين بالذكر قد جاء في مواضع كثيرة من الشرع.. هو سر من أسرار الشريعة لم يطلع عليه نصًا»[3].

قال الشيخ العثيمين: «تخصيص هذا العدد لا يمكننا أن نعلله؛ لأن الشيء المقدر بعدد لا يستطيع الإنسان غالبا أن يعرف حكمته، فكون الصلاة خمس صلوات أو خمسين لا نعلم لماذا خصصت بذلك؛ فهذا من الأمور التي يقصد بها

---

(١) المرقاة (٨/ ٣٦٣). (٢) هود: الآية (١١٤).
(٣) المفهم (٥/ ٦٣٥-٦٣٦).

التعبد لله، والتعبد لله بما لا تعرف حكمته أبلغ من التعبد له بما تعرف حكمته؛ لأنه أبلغ في التذلل، صحيح أن الإنسان إذا عرف الحكمة اطمأنت نفسه أكثر، لكن كون الإنسان ينقاد لما لا يعرف حكمته دليل على كمال الانقياد والتعبد لله ﷻ؛ فهو من حيث العبودية أبلغ وأكمل، أما ذاك؛ فهو من حيث الطمأنينة إلى الحكم يكون أبلغ؛ لأن النفس إذا علمت بالحكمة في شيء اطمأنت إليه بلا شك، وازدادت أخذا له وقبولا؛ فهناك أشياء مما عينه الشرع بعدد أو كيفية لا نعلم ما الحكمة فيه، ولكن سبيلنا أن نكون كما قال الله تعالى عن المؤمنين: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾[1] فعلينا التسليم والانقياد وتفويض الأمر إلى الله تعالى»[2].

قال في تيسير العزيز الحميد: «وفيه دليل على كفر الكاهن والساحر والمصدق لهما لأنهما يدعيان علم الغيب؛ وذلك كفر، والمصدق لهما يعتقد ذلك ولم يرض به؛ وذلك كفر أيضًا»[3].

وقال أيضًا: «قال بعضهم: لا تعارض بين هذا الخبر، وبين حديث: «**من أتى عرافًا فسأله عن شيء لم تقبل له صلاة أربعين ليلة**»، إذ الغرض في هذا الحديث أنه سأله معتقدًا صدقه وأنه يعلم الغيب فإنه يكفر، فإن اعتقد أن الجن تلقي إليه ما سمعته من الملائكة، أو أنه بإلهام فصدقه من هذه الجهة لا يكفر كذا قال، وفيه نظر. وظاهر الحديث أنه يكفر متى اعتقد صدقه بأي وجه كان، لاعتقاده أنه يعلم الغيب، وسواء كان ذلك من قبل الشياطين، أو من قبل الإلهام، لا سيما وغالب الكهان في وقت النبوة إنما كانوا يأخذون عن الشياطين. وفي حديث رواه الطبراني عن واثلة مرفوعا «**من أتى كاهنا فسأله عن شيء حجبت عنه التوبة أربعين ليلة فإن صدقه بما قال كفر**» قال المنذري: ضعيف. فهذا -لو ثبت- نص في المسألة لكن ما تقدم من الأحاديث يشهد له، فإن الحديث الذي فيه الوعيد بعدم قبول الصلاة أربعين ليلة ليس فيه ذكر تصديقه، والأحاديث التي فيها إطلاق الكفر مقيدة بتصديقه»[4].

---

(١) الأحزاب: الآية (٣٦).

(٢) مجموع فتاوى ورسائل العثيمين (٩/ ٥٣٥-٥٣٦).

(٣) (ص٤١٦).

(٤) تيسير العزيز الحميد (٤١٥-٤١٦).

قال الشيخ العثيمين: «قوله: «فقد كفر بما أنزل على محمد» وجه ذلك أن ما أنزل على محمد، قال الله تعالى فيه: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾[1] وهذا من أقوى طرق الحصر لأن فيه النفي والإثبات، فالذي يصدق الكاهن في علم الغيب وهو يعلم أن لا يعلم الغيب إلا الله فهو كافر كفرا أكبر مخرجا من الملة، وإن كان جاهلا ولا يعتقد أن القرآن فيه كذب فكفره كفر دون كفر»[2].

قال ابن القيم: «ولا ريب أن الإيمان بما جاء به محمد ﷺ، وبما يجيء به هؤلاء، لا يجتمعان في قلب واحد، وإن كان أحدهم قد يصدق أحيانا، فصدقه بالنسبة إلى كذبه قليل من كثير، وشيطانه الذي يأتيه بالأخبار لا بد له أن يصدقه أحيانا ليغوي به الناس، ويفتنهم به.

وأكثر الناس مستجيبون لهؤلاء، مؤمنون بهم، ولا سيما ضعفاء العقول، كالسفهاء والجهال والنساء وأهل البوادي ومن لا علم لهم بحقائق الإيمان، فهؤلاء هم المفتونون بهم، وكثير منهم يحسن الظن بأحدهم، ولو كان مشركا كافرا بالله مجاهرا بذلك، ويزوره، وينذر له، ويلتمس دعاءه. فقد رأينا وسمعنا من ذلك كثيرا، وسبب هذا كله خفاء ما بعث الله به رسوله من الهدى ودين الحق على هؤلاء وأمثالهم، ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾[3] وقد قال الصحابة ﷺ للنبي ﷺ: إن هؤلاء يحدثوننا أحيانا بالأمر، فيكون كما قالوا، فأخبرهم أن ذلك من جهة الشياطين، يلقون إليهم الكلمة تكون حقا، فيزيدون هم معها مائة كذبة فيصدقون من أجل تلك الكلمة»[4].

إذا تبين هذا فاعلم أن ما يأخذه الكهان على كهانته حرام أيضًا، قال القرطبي: «وإذا كان كذلك فسؤالهم عن غيب ليخبروا عنه حرام، وما يأخذونه على ذلك حرام، ولا خلاف فيه لأنه حلوان الكاهن المنهي عنه»[5].

وقال النووي: «وقد تظاهرت الأحاديث الصحيحة بالنهي عن إتيان الكهان، وتصديقهم فيما يقولون، وتحريم ما يعطون من الحلوان، وهو حرام بإجماع المسلمين، وقد نقل الإجماع في تحريمه جماعة منهم أبو محمد البغوي رحمهم

(١) النمل: الآية (٦٥).
(٢) مجموع فتاوى ورسائل العثيمين (٩/ ٥٣٨).
(٣) النور: الآية (٤٠).
(٤) زاد المعاد (٥/ ٧٨٦-٧٨٧).
(٥) المفهم (٥/ ٦٣٣).

اللَّه تعالى. قال البغوي: اتفق أهل العلم على تحريم حلوان الكاهن؛ وهو ما أخذه المتكهن على كهانته؛ لأن فعل الكهانة باطل لا يجوز أخذ الأجرة عليه»[1].

وقال الإمام الماوردي: «ويمنع -أي المحتسب- من التكسب بالكهانة واللهو، ويؤدب عليه الآخذ والمعطي»[2].

ودليل ذلك حديث أبي مسعود قال: «نهى رسول اللَّه ﷺ عن ثمن الكلب وعن مهر البغي وعن حلوان الكاهن»[3].

وقال الخطابي: «حلوان الكاهن هو ما يأخذه المتكهن عن كهانته وهو محرم وفعله باطل»[4].

وقال الحافظ: «وهو حرام بالإجماع لما فيه من أخذ العوض على أمر باطل، وفي معناه التنجيم، والضرب بالحصى، وغير ذلك مما يتعاطاه العرافون من استطلاع الغيب؛ والحلوان مصدر من حلوته حلوانا إذا أعطيته، وأصله من الحلاوة شبه بالشيء الحلو من حيث إنه يأخذه سهلا بلا كلفة ولا مشقة. يقال حلوته إذا أطعمته الحلو. والحلوان أيضًا الرشوة»[5].

وقال ابن القيم: «وتحريم حلوان الكاهن تنبيه على تحريم حلوان المنجم والزاجر وصاحب القرعة التي هي شقيقة الأزلام، وحارية الحصا والعراف والرمال ونحوهم ممن تطلب منهم الإخبار عن المغيبات»[6].

قال القرطبي: «قد انقلبت الأحوال في هذه الأزمان بإتيان المنجمين والكهان لاسيما بالديار المصرية؛ فقد شاع في رؤسائهم وأتباعهم وأمرائهم اتخاذ المنجمين، بل ولقد انخدع كثير من المنتسبين للفقه والدين فجاءوا إلى هؤلاء الكهنة والعرافين فبهرجوا عليهم بالمحال، واستخرجوا منهم الأموال، فحصلوا من أقوالهم على السراب والآل، ومن أديانهم على الفساد والضلال. وكل ذلك من

---

(١) شرح مسلم (٥/ ٢٠).

(٢) الأحكام السلطانية (ص٤١٣).

(٣) أخرجه: أحمد (٤/ ١٢٠) والبخاري (٤/ ٥٣٦/ ٢٢٣٧) ومسلم (٣/ ١١٩٨/ ١٥٦٧) وأبو داود (٣/ ٧١٠/ ٣٤٢٨) والترمذي (٣/ ٤٣٩/ ١١٣٣) والنسائي (٧/ ٢١٥/ ٤٣٠٤).

(٤) معالم السنن (٣/ ٨٩).

(٥) الفتح (٤/ ٥٣٧).

(٦) زاد المعاد (٥/ ٧٨٦).

الكبائر؛ لقوله ﷺ «**لم تقبل له صلاة أربعين ليلة**». فكيف بمن اتخذهم وأنفق عليهم معتمدا على أقوالهم»[(١)].

وقال في التيسير: «والمقصود من هذا معرفة أن من يدعى علم شيء من المغيبات فهو إما داخل في اسم الكاهن، وإما مشارك له في المعنى فيلحق به، وذلك أن إصابة المخبر ببعض الأمور الغائبة في بعض الأحيان يكون بالكشف ومنه ما هو من الشياطين، ويكون بالفأل والزجر والطير والضرب بالحصى والخط في الأرض والتنجيم والكهانة والسحر ونحو هذا من علوم الجاهلية. ونعني بالجاهلية: كل من ليس من أتباع الرسل كالفلاسفة والكهان والمنجمين وجاهلية العرب الذين كانوا قبل مبعث النبي ﷺ. فإن هذه علوم قوم ليس لهم علم بما جاءت به الرسل عليهم السلام.

وكل هذه الأمور يسمى صاحبها كاهنا وعرافا أو في معناهما، فمن أتاهم فصدقهم بما يقولون لحقه الوعيد. وقد ورث هذه العلوم عنهم أقوام فادعوا بها علم الغيب الذي استأثر اللّه تعالى بعلمه، وادعوا أنهم أولياء وأن ذلك كرامة، ولا ريب أن من ادعى الولاية، واستدل عليها بإخباره ببعض المغيبات فهو من أولياء الشيطان لا من أولياء الرحمن، إذ الكرامة أمر يجريه اللّه على يد عبده المؤمن المتقي، إما بدعاء أو أعمال صالحة لا صنع للولي فيها، ولا قدرة له عليها، بخلاف من يدعي أنه ولي لله ويقول للناس: اعلموا أني أعلم المغيبات، فإن مثل هذه الأمور قد تحصل بما ذكرنا من الأسباب وإن كانت أسبابا محرمة كاذبة في الغالب، ولهذا قال ﷺ في وصف الكهان: «**فيكذبون معها مائة كذبة**» فبين أنهم يصدقون مرة ويكذبون مائة. وهكذا حال من سلك سبيل الكهان ممن يدعي الولاية والعلم بما في ضمائر الناس مع أن نفس دعواه دليل على كذبه؛ لأن في دعواه الولاية تزكية النفس المنهي عنها بقوله: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾[(٢)] وليس هذا من شأن الأولياء، بل شأنهم الإزراء على نفوسهم وعيبهم لها وخوفهم من ربهم.

فكيف يأتون الناس يقولون: اعرفوا أنا أولياء، وأنا نعلم الغيب. وفي ضمن

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (٧/ ٤-٥).

(٢) النجم: الآية (٣٢).

ذلك طلب المنزلة في قلوب الخلق، واقتناص الدنيا بهذه الأمور. وحسبك بحال الصحابة والتابعين وهم سادات الأولياء أفكان عندهم من هذه الدعاوى والشطحات شيء؟ لا والله. بل كان أحدهم لا يملك نفسه من البكاء إذا قرأ القرآن كالصديق. وكان عمر يسمع نشيجه من وراء الصفوف يبكي في صلاته، وكان يمر بالآية في ورده بالليل فيمرض منها ليالي يعوده الناس، وكان تميم الداري يتقلب في فراشه لا يستطيع النوم إلا قليلا خوفا من النار، ثم يقوم إلى صلاته. ويكفيك في صفات الأولياء ما ذكر الله تعالى من صفاتهم في سورة الرعد، والمؤمنين، والفرقان، والذاريات، والطور، فالمتصفون بتلك الصفات هم الأولياء الأصفياء لا أهل الدعوى والكذب، ومنازعة رب العالمين فيما اختص من الكبرياء والعظمة، وعلم الغيب، بل مجرد دعواه علم الغيب كفر، فكيف يكون المدعي لذلك وليا لله؟ ولقد عظم الضرر، واشتد الخطب بهؤلاء المفترين الذين ورثوا هذه العلوم من المشركين، ولبسوا بها على خفافيش البصائر. نسأل الله السلامة والعافية في الدنيا والآخرة»[1].

* عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعانًا لقوله، كأنه سلسلة على صفوان فإذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم؟ قالوا للذي قال: ﴿ٱلْحَقَّ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾[2] فيسمعها مسترق السمع، ومسترق السمع بعضه هكذا فوق بعض** -وصف سفيان بكفه فحرفها وبدد بين أصابعه- **فيسمع الكلمة فيلقيها إلى من تحته، ثم يلقيها الآخر إلى من تحته حتى يلقيها على لسان الساحر أو الكاهن، فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها، وربما ألقاها قبل أن يدركه، فيكذب معها مائة كذبة، فيقال: أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا، كذا وكذا؟ فيصدق بتلك الكلمة التي سمع من السماء**»[3].

★ غريب الحديث:

خضعانًا: بضم أوله ويكسر أي: تواضعا وتخاشعا. قال الطيبي: «وذلك أن

---

(١) تيسير العزيز الحميد (ص٤١٨ - ٤٢٠). (٢) سبأ: الآية (٢٣).

(٣) أخرجه: البخاري (٨/ ٦٨٩-٦٩٠/ ٤٨٠٠) وأبو داود (٤/ ٢٨٨-٢٨٩/ ٣٩٨٩) والترمذي (٥/ ٣٣٧/ ٣٢٢٣) وابن ماجه (١/ ٦٩-٧٠/ ١٩٤).

الطائر إذا استشعر خوفًا أرخى جناحيه مرتعدًا. قلت: -أي القاري- الله أعلم بكيفية ضرب جناحهم وسببه من الخوف أو غيره»(١).

★ فوائد الحديث:

قال في تيسير العزيز الحميد: «**«فيكذب معها مائة كذبة»** أي: يكذب الكاهن أو الساحر مع الكلمة التي ألقاها إليه وليه من الشياطين مائة كذبة، أو يكذب الشيطان مع الكلمة التي استرقها مائة كذبة، ويخبر بالجميع وليه من الإنس، فما جاءوا به على وجهه فهو صدق، وما خلط فيه فهو كذب، ومع هذا فيفتتن الإنس بالإنس الساحر والكاهن ويفتتنان بوليهما من الشياطين، ويقبلوا ما جاء به من الصدق والكذب لكونهم قد يصدقون فيما يأتون به من خبر السماء.

قوله: «**فيقال أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا كذا وكذا..**» والمعنى أن الذين يأتون الكهان يصدقونهم في كذبهم، ويستدلون على ذلك بكونهم يصدقون بعض الأحيان فيما سمعوه من الوحي، ويذكرون أنه أخبرهم بشيء مرة فوجدوه حقا، وتلك الكلمة من الحق. وفيه أن الشيء إذا كان فيه نوع من الحق لا يدل على أنه حق كله؛ بل لا يدل على إباحته كما في الكهانة والسحر والتنجيم».

وقال أيضًا: «وفيه الرد على المنجمين الذين ينسبون الخير والشر والإعطاء والمنع إلى الكواكب بحسب السعود منها والنحوس على حسب كونها في البروج المرافقة أو المتأخرة، ونحو ذلك لما في الرمي بها من الدلالة على تسخيرها لما خلقت له، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾(٢)»(٣).

قال القرطبي: «وفيه هذا دليل على أن النجوم لا يعرف بها علم الغيب ولا القضاء، ولو كان كذلك لكانت الملائكة أعلم بذلك وأحق به. وكل ما يتعاطاه المنجمون من ذلك فليس شيء منه علما يقينا؛ وإنما هو رجم بظن، وتخمين بوهم،

---

(١) المرقاة (٩/ ٢٩٩٢).

(٢) الأعراف: الآية (٥٤).

(٣) (ص٢٦٧ - ٢٦٨) بتصرف واختصار.

الإصابة فيه نادرة، والخطأ والكذب فيه غالب. وهذا مشاهد من أحوال المنجمين. والمطلوب من العلوم النجوميات ما يهتدى به في الظلمات، وتعرف به الأوقات، وما سوى ذلك فمخارق وترهات، ويكفي في الرد عليهم: ظهور كذبهم، واضطراب قولهم. وقد اتفقت الشرائع: على أن القضاء بالنجوم محرم مذموم»[١].

قلت: ومناسبة الأحاديث للآية رد ما كان يزعمه المشركون من كون النبي ﷺ من جملة ما يلقي إليه الشيطان السمع من الكهنة ببيان أن الأغلب على الكهنة الكذب ولم يظهر من أحواله ﷺ إلا الصدق، وبالله التوفيق.

* * *

(١) المفهم (٥/ ٦٣٨).

قوله تعالى: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟﴾

★ **غريب الآية:**

يهيمون: الهائم: الذاهب على وجهه لا يدري إلى أين. والمعنى: لا يقتصرون على الحق في المدح والذم.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «يقول -تعالى ذكره-: والشعراء يتبعهم أهل الغيّ لا أهل الرشاد والهدى.

واختلف أهل التأويل في الذين وصفوا بالغيّ في هذا الموضع فقال بعضهم: رواة الشعر.

وقال آخرون: هم الشياطين. وقال آخرون: هم السفهاء، وقالوا: نزل ذلك في رجلين تهاجيا على عهد رسول اللَّه ﷺ.

وقال آخرون: هم ضلال الجنّ والإنس.

قال أبو جعفر: وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال فيه ما قال اللَّه جلّ ثناؤه: إن شعراء المشركين يتبعهم غواة الناس، ومردة الشياطين، وعصاة الجنّ، وذلك أن اللَّه عم بقوله: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾﴾ فلم يخصص بذلك بعض الغواة دون بعض، فذلك على جميع أصناف الغواة التي دخلت في عموم الآية. قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾﴾ يقول -تعالى ذكره-: ألم تر يا محمد أنهم، -يعني الشعراء- في كلّ واد يذهبون، كالهائم على وجهه على غير قصد، بل جائرا على الحقّ، وطريق الرشاد، وقصد السبيل.

وإنما هذا مثل ضربه اللَّه لهم في افتنانهم في الوجوه التي يفتنون فيها بغير حق،

فيمدحون بالباطل قوما ويهجون آخرين كذلك بالكذب والزور . .

وقوله : ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾﴾ يقول : وأن أكثر قيلهم باطل وكذب . .

وقوله : ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ وهذا استثناء من قوله : ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ . وذكر أن هذا الاستثناء نزل في شعراء رسول اللَّه ﷺ، كحسان بن ثابت، وكعب بن مالك، ثم هو لكلّ من كان بالصفة التي وصفه اللَّه بها . .

وقوله : ﴿وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾ اختلف أهل التأويل في حال الذكر الذي وصف اللَّه به هؤلاء المستثنين من الشعراء، فقال بعضهم : هي حال منطقهم ومحاورتهم الناس، قالوا : معنى الكلام : وذكروا اللَّه كثيرا في كلامهم .

وقال آخرون : بل ذلك في شعرهم .

قال أبو جعفر : وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال : إن اللَّه وصف هؤلاء الذين استثناهم من شعراء المؤمنين بذكر اللَّه كثيرا ، ولم يخص ذكرهم اللَّه على حال دون حال في كتابه ، ولا على لسان رسوله ، فصفتهم أنهم يذكرون اللَّه كثيرا في كلّ أحوالهم .

وقوله : ﴿وَانتَصَرُوا مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا﴾ يقول : وانتصروا ممن هجاهم من شعراء المشركين ظلما بشعرهم وهجائهم إياهم ، وإجابتهم عما هجوهم به . .

وقيل : عني بذلك كله الرهط الذين ذكرت»[١] .

* عن ابن عباس قال : ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٢٢٤﴾﴾ فنسخ من ذلك واستثنى فقال : ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾[٢] .

قال ابن كثير : «هذا الاستثناء يدخل فيه شعراء الأنصار وغيرهم ، حتى يدخل فيه من كان متلبسًا من شعراء الجاهلية بذم الإسلام وأهله ، ثم تاب وأناب ، ورجع

---

(١) جامع البيان (١٩/ ١٢٦-١٣٠).

(٢) أخرجه : أبو داود واللفظ له (٥/ ٢٨٠/ ٥٠١٦) والبخاري في الأدب المفرد (٨٧١).

وأقلع، وعمل صالحًا، وذكر اللَّه كثيرًا في مقابلة ما تقدم من الكلام السيء، فإن الحسنات يذهبن السيئات، وامتدح الإسلام وأهلَه في مقابلة ما كذب بذمه»[١].

قال ابن عبدالبر: «وفي هذا دليل على أن الشعر لا يضر من آمن وعمل صالحا وقال حقا، وأنه كالكلام المنثور يؤجر منه المرء على ما يؤجر منه، ويكره له منه ما يكره منه. واللَّه أعلم»[٢].

قال القنوجي: «ويدخل في هذا من انتصر بشعره لأهل السنة، وكافح أهل البدعة وزيف ما يقول شعراؤهم من مدح بدعتهم، وهجو السنة المطهرة كما يقع ذلك كثيرا من شعراء الرافضة ونحوهم، فإن الانتصار للحق بالشعر وتزييف الباطل به من أعظم المجاهدة، وفاعله من المجاهدين في سبيل اللَّه المنتصرين لدين اللَّه القائمين بما أمر اللَّه بالقيام به»[٣].

قال الشنقيطي: «وما ذكره تعالى في هذه الآية الكريمة في قوله: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾﴾ يدل على تكذيب الكفار في دعواهم أن النبي ﷺ شاعر؛ لأن الذين يتبعهم الغاوون، لا يمكن أن يكون النبي ﷺ منهم.

ويوضح هذا المعنى ما جاء من الآيات مبينًا أنهم ادعوا عليه ﷺ أنه شاعر وتكذيب اللَّه لهم في ذلك، أما دعواهم أنه ﷺ شاعر، فقد ذكره تعالى في قوله عنهم: ﴿بَلْ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾[٤] الآية، وقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ ﴿٣٦﴾﴾[٥] وقوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾﴾[٦] وأما تكذيب اللَّه لهم في ذلك، فقد ذكره في قوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾[٧] الآية، وقوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾﴾[٨]، وقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾﴾[٩]؛ لأن قوله تعالى: ﴿بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ﴾ الآية. تكذيب لهم في قولهم إنه: ﴿لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ﴾»[١٠].

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٦/ ١٨٦-١٨٧).
(٢) فتح البر (١٠/ ٢٠٨).
(٣) فتح البيان (٩/ ٤٣٠).
(٤) الأنبياء: الآية (٥).
(٥) الصافات: الآية (٣٦).
(٦) الطور: الآية (٣٠).
(٧) الحاقة: الآية (٤١).
(٨) يس: الآية (٦٩).
(٩) الصافات: الآيتان (٣٦و٣٧).
(١٠) الأضواء (٦/ ٣٨٩-٣٩٠).

قال الزمخشري: «ومعناه: أنه لا يتبعهم على باطلهم وكذبهم وفضول قولهم وما هم عليه من الهجاء وتمزيق الأعراض والقدح في الأنساب والنسيب بالحرم والغزل والابتهار ومدح من لا يستحق المدح، ولا يستحسن ذلك منهم، ولا يطرب على قولهم: إلا الغاوون والسفهاء والشطار.. ذكر الوادي والهيوم: فيه تمثيل لذهابهم في كل شعب من القول واعتسافهم وقلة مبالاتهم بالغلو في المنطق ومجاوزة حدّ القصد فيه، حتى يفضلوا أجبن الناس على عنترة، وأشحهم على حاتم، وأن يبهتوا البريّ، ويفسقوا التقي»[1].

قال الرازي: «فذكر ههنا ما يدل على الفرق بينه ﷺ وبين الشعراء، وذلك هو أن الشعراء يتبعهم الغاوون؛ أي: الضالون، ثم بين تلك الغواية بأمرين:

الأول: ﴿فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾ والمراد منه الطرق المختلفة، كقولك: أنا في واد وأنت في واد، وذلك لأنهم قد يمدحون الشيء بعد أن ذموه وبالعكس، وقد يعظمونه بعد أن استحقروه وبالعكس، وذلك يدل على أنهم لا يطلبون بشعرهم الحق ولا الصدق بخلاف أمر محمد ﷺ، فإنه من أول أمره إلى آخره بقي على طريق واحد وهو الدعوة إلى اللّه تعالى والترغيب في الآخرة والإعراض عن الدنيا.

الثاني: ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾﴾ وذلك أيضًا من علامات الغواة، فإنهم يرغبون في الجود ويرغبون عنه، وينفرون عن البخل ويصرون عليه، ويقدحون في الناس بأدنى شيء صدر عن واحد من أسلافهم، ثم إنهم لا يرتكبون إلا الفواحش، وذلك يدل على الغواية والضلالة.

وأما محمد ﷺ فإنه بدأ بنفسه حيث قال اللّه تعالى له: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾﴾ ثم بالأقرب فالأقرب حيث قال اللّه تعالى له: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ وكل ذلك على خلاف طريقة الشعراء.

فقد ظهر بهذا الذي بيناه أن حال محمد ﷺ ما كان يشبه حال الشعراء، ثم إن اللّه تعالى لما وصف الشعراء بهذه الأوصاف الذميمة بيانًا لهذا الفرق استثنى عنهم الموصوفين بأمور أربعة: أحدها: الإيمان وهو قوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، وثانيها: العمل الصالح وهو قوله: ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، وثالثها: أن يكون شعرهم في

---

(١) الكشاف (٣/ ١٣٣).

التوحيد والنبوة ودعوة الخلق إلى الحق، وهو قوله: ﴿وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾، ورابعها: أن لا يذكروا هجو أحد إلا على سبيل الانتصار ممن يهجوهم، وهو قوله: ﴿وَانتَصَرُوا مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا﴾ والله تعالى: ﴿لَّا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾[(١)]، ثم إن الشرط فيه ترك الاعتداء لقوله تعالى: ﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾[(٢)]»[(٣)].

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في أن الشعر حسنه حسن وقبيحه قبيح

* عن كعب بن مالك أنه قال للنبي ﷺ: إن الله ﷻ قد أنزل في الشعر ما أنزل، فقال: «**إن المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه -والذي نفسي بيده- لكأنما ترمونهم به نضح النبل**»[(٤)].

★ غريب الحديث:

نضح النبل: قال الطيبي: «نضح النبل: رميه، مستعار من نضح الماء، والمعنى: هجاهم أثر فيهم تأثير النبل، وقام مقام الرمي في النكاية بهم»[(٥)].

★ فوائد الحديث:

قال الطيبي: «كأنه لما سمع قوله تعالى: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٢٢٤﴾﴾ أنكر على نفسه الشعر، وأنه من جملة الغاوين، فقال ما قال، فأجابه ﷺ بأنه ليس كذلك على الإطلاق؛ فإن ذلك من شأن الهائمين أودية الضلال، وأما المؤمن فهو خارج من ذلك الحكم؛ لأنه إحدى عُدَّتيه في ذبّ الكفار من اللسان والسنان، بل هو أعدى وأنكى، كما قال ﷺ: «**فإنه أشدّ عليهم من رشق النبل**» وإليه ينظر قول الشاعر:

جراحات السنان لها التئام ... ولا يلتام ما جرح اللسان»[(٦)].

---

(١) النساء: الآية (١٤٨). (٢) البقرة: الآية (١٩٤). (٣) التفسير الكبير (٢٤/ ١٧٦-١٧٧).

(٤) أخرجه: أحمد (٣/ ٤٥٦) (٦/ ٣٨٧) والطبراني (١٩/ ٧٦/ ١٥٢-١٥٣) وذكره الهيثمي في المجمع (٨/ ١٢٣) وقال: «رواه كله أحمد بأسانيد ورجال أحدها رجال الصحيح». وصححه الألباني في الصحيحة (١٦٣١).

(٥) شرح الطيبي على المشكاة (١٠/ ٣١٠٤).

(٦) شرح الطيبي على المشكاة (١٠/ ٣١٠٣-٣١٠٤).

* عن أبي سعيد قال: بينما نحن نسير مع رسول اللَّه ﷺ بالعرج إذ عرض شاعر ينشد فقال النبي ﷺ: «**خذوا الشيطان، أو أمسكوا الشيطان؛ لأن يمتلئ جوف رجل قيحًا خير له من أن يمتلئ شعرًا**»(١).

⋆ غريب الحديث:

العَرْج: قال السندي: هو بفتح عين مهملة وسكون راء: قرية جامعة من عمل الفُرْع على نحو ثمانية وسبعين ميلًا من المدينة(٢).

قيحًا: بفتح القاف وسكون التحتانية بعدها مهملة: المِدَّة لا يخالطها دم(٣).

⋆ فوائد الحديث:

قال الشيخ خليل السهارنفوري: «**«لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحا»** أي: بالدم المخلوط مع الصديد، **«خير له من أن يمتلئ شعرا»** إشارة إلى كون الشعر مستوليا عليه بحيث يشغله عن القرآن، والذكر، والعلوم الشرعية، وهو مذموم من أي شعر كان»(٤).

قال ابن بطال: «قال أبو عبيد: فسر الشعبي هذا الحديث قال: ومعنى قوله: «**خير له من أن يمتلئ شعرًا**»: يعني: الشعر الذي هُجِي به النبي ﷺ.

قال أبو عبيد: والذي عندي في هذا الحديث غير هذا القول؛ لأن الذي هجي به النبي - ﷺ - لو كان شطر بيت لكان كفرًا، فكأنه إذا حمل وجه الحديث على امتلاء القلب منه أنه قد رخص في القليل منه، ولكن وجهه عندي أن يملأ قلبه من الشعر حتى يغلب عليه فيشغله عن القرآن وعن ذكر اللَّه فيكون الغالب عليه، فأما إذا كان القرآن والعلم الغالبين عليه فليس جوفه ممتلئًا من الشعر»(٥).

قال الحافظ: «قوله: «**شعرًا**» ظاهره العموم في كل شعر، لكنه مخصوص بما لم يكن مدحًا حقًا كمدح اللَّه ورسوله، وما اشتمل على الذكر والزهد وسائر المواعظ مما لا إفراط فيه»(٦).

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٨) ومسلم (٤/ ١٧٦٩/ ٢٢٥٩).
(٢) حاشية المسند (١٧/ ١١٢).
(٣) الفتح (١٠/ ٦٧٢).
(٤) بذل المجهود (١٩/ ٢٤٦-٢٤٧).
(٥) شرح البخاري لابن بطال (٩/ ٣٢٨).
(٦) فتح الباري (١٠/ ٦٧٢).

قال النووي: «استدل بعض العلماء بهذا الحديث على كراهة الشعر مطلقًا قليله وكثيره وإن كان لا فحش فيه وتعلق بقوله ﷺ: خذوا الشيطان. وقال العلماء كافة: هو مباح ما لم يكن فيه فحش ونحوه. قالوا: وهو كلام حسنه حسن وقبيحه قبيح، وهذا هو الصواب فقد سمع النبي ﷺ الشعر واستنشده، وأمر به حسان في هجاء المشركين، وأنشده أصحابه بحضرته في الأسفار وغيرها. وأنشده الخلفاء وأئمة الصحابة وفضلاء السلف، ولم ينكره أحد منهم على إطلاقه، وإنما أنكروا المذموم منه: وهو الفحش ونحوه»(١).

* عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ يوم قريظة لحسان بن ثابت: «**اهجُ المشركين فإن جبريل معك**»(٢).

⋆ غريب الحديث:

اهْجُ: أمر من الهجو، وهو خلاف المدح، يقال: هجوته هجوًا وهجاءً وتهجاءً(٣).

* عن عائشة؛ أن رسول اللَّه ﷺ قال: «**أُهجوا قريشًا فإنه أشد عليها من رَشْق بالنبل**» فأرسل إلى ابن رواحة فقال: «**أُهجهم**» فهجاهم فلم يُرْضِ. فأرسل إلى كعب بن مالك. ثم أرسل إلى حسان بن ثابت، فلما دخل عليه، قال حسان: «**قد آن لكم أن ترسلوا إلى هذا الأسد الضارب بذَنَبِهِ**». ثم أدلع لسانه فجعل يحرّكه، فقال: **والذي بعثك بالحق! لأفرينّهم بلساني فري الأديم.** فقال رسول اللَّه ﷺ: «**لا تعجل، فإن أبا بكر أعلم قريش بأنسابها، وإن لي فيهم نسبًا، حتى يُلخّص لك نسبي**» فأتاه حسان، ثم رجع فقال: يا رسول الله! قد لخّص لي نسبك، والذي بعثك بالحق! لأسُلنّك منهم كما تُسلّ الشعرة من العجين.

قالت عائشة: فسمعت رسول اللَّه ﷺ يقول لحسان: **إن روح القُدُس لا يزال يؤيّدك، ما نافحتَ عن اللَّه ورسوله**».

---

(١) شرح مسلم (١٥/ ١٢-١٣).

(٢) أخرجه: أحمد (٤/ ٢٩٩) والبخاري (٧/ ٥٢٩/ ٤١٢٤) واللفظ له، ومسلم (٤/ ١٩٣٣/ ٢٤٨٦) والنسائي في الكبرى (٣/ ٤٩٣/ ٦٠٢٥).

(٣) عمدة القاري (١٢/ ١٥٧).

وقالت: سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول: «هجاهم حسان فشفى واشتفى».

قال حسان:

هجوتَ محمّدًا فأجبتُ عنهُ ... وعند اللَّه في ذاك الجزاءُ
هجوتَ محمّدًا برًّا تقيًّا ... رسولَ اللَّه شيمَتُهُ الوفاءُ
فإنّ أبي ووالدَهُ وعِرْضِي ... لِعرضِ محمّدٍ منكُمْ وِقاءُ
ثَكِلْتُ بُنيّتي إن لم تَروها ... تُثيرُ النّقعَ مِنْ كَنَفَيْ كَداءِ
يُبارين الأعنّة مُصعداتٍ ... على أكتافها الأَسَلُ الظّماءُ
تَظَلُّ جيادُنا مُتَمَطّراتٍ ... تُلَطِّمُهنّ بالخُمُر النّساءُ
فإن أعرضتمو عنّا اعتمَرْنا ... وكان الفتحُ وانكشف الغطاءُ
وإلاّ فاصبروا لِضِرابِ يومٍ ... يُعزّ اللهُ فيه من يشاءُ
وقال اللهُ: قد أرسلتُ عبدًا ... يقولُ الحقَّ ليس به خَفاءُ
وقال اللهُ: قد يسّرتُ جُندًا لنا ... همُ الأنصارُ عُرْضَتُها اللّقاءُ
في كلِّ يومٍ مِنْ مَعَدٍّ ... سبابٌ أو قتالٌ أو هِجاءُ
فمن يهجو رسولَ اللهِ مِنْكُمْ ... ويَمْدَحُهُ ويَنْصُرُهُ سواءُ
وجِبريلُ رسولُ اللهِ فينا ... وروحُ القُدْسِ ليس له كِفاءُ[1]

★ **غريب الحديث:**

رَشق بالنبل: هو بفتح الراء، وهو الرمي بها وأما الرِّشق، بالكسر، فهو اسم للنبل التي ترمى دفعة واحدة.

قد آن لكم: أي: حان لكم.

أن ترسلوا إلى هذا الأسد الضارب بذنبه: قال العلماء: المراد بذنبه هنا: لسانه، فشبه نفسه بالأسد في انتقامه وبطشه إذا اغتاظ وحينئذ يضرب بذنبه جنبيه كما فعل حسان بلسانه حين أدلعه فجعل يحركه، فشبه نفسه بالأسد ولسانه بذنبه.

---

(١) مسلم (٤/ ١٩٣٥/ ٢٤٩٠).

ثم أدلع لسانه: أي: أخرجه عن الشفتين يقال: دلع لسانه وأدلعه ودلع اللسان بنفسه.

لأفرينهم بلساني فري الأديم: أي: لأمزقن أعراضهم تمزيق الجلد.

لأسلنّك منهم كما تسلّ الشعرة من العجين: في رواية لمسلم أيضًا: (الخمير) بدل (العجين). قال القاضي: «يريد لأتلطفن في تخليص نسبك منهم حتى لا يعمّك هجوي لهم، ولا يلحق بك سبّي إياهم، كما يتلطف في إخراج الشعرة من العجين؛ لئلا ينقطع فيبقى فيه. وخص الخمير لأنه ألين وأهيأ لإخراج الشعرة منه من الفطير لقرحته وشدة عجينه»[1].

فشفى واشتفى: أي: شفى المؤمنين واشتفى هو بما ناله من أعراض الكفار ومزقها ونافح عن الإسلام والمسلمين.

برًّا تقيًّا: البَرّ، بفتح الباء: الواسع الخير، وهو مأخوذ من البِرّ، بكسر الباء، وهو الاتساع في الإحسان، وهو اسم جامع للخير، وقيل: البَرّ هنا بمعنى المتنزه عن المآثم».

شيمته الوفاء: أي: خُلُقه.

وِقاء: بكسر الواو وبالمدّ: هو ما وقيت به الشيء.

من كنفي كَدَاء: هو بفتح النون: أي: جانبي كداء، بفتح الكاف وبالمد، هي ثنية على باب مكة.

يبارين الأعنة: قال النووي: ويروى: يبارعن الأعنة. قال القاضي: الأول هو رواية الأكثرين ومعناه: أنها لصرامتها وقوة نفوسها تضاهي أعنتها بقوة جبذها لها وهي منازعتها لها أيضًا. قال القاضي: وفي رواية ابن الحذاء: يبارين الأسنة؛ وهي الرماح، قال: فإن صحت هذه الرواية فمعناها أنهن يضاهين قوامها واعتدالها.

مُصعِدات: أي: مقبلات إليكم ومتوجهات، يقال: أصعد في الأرض إذا ذهب فيها مبتدئًا، ولا يقال للراجع.

على أكتافها الأسل الظماء: أما أكتافها فبالتاء المثناة فوق، والأسل بفتح

---

(١) الإكمال (٧/ ٥٢٨).

الهمزة والسين المهملة وبعدها لام هذه رواية الجمهور، والأسل الرماح، والظماء الرقاق فكأنها لقلة مائها عطاش، وقيل: المراد بالظماء العطاش لدماء الأعداء، وفي بعض الروايات الأسد الظماء بالدال أي: الرجال المشبهون للأسد العطاش إلى دمائكم.

تظل جيادنا متمطرات: أي: تظل خيولنا مسرعات يسبق بعضها بعضًا.

تلطمهن بالخمر النساء: تمسحهن النساء بخُمُرهن، بضم الخاء والميم، جمع خِمار؛ أي: يزلن عنهن الغبار وهذا لعزتها وكرامتها عندهم. وحكى القاضي أنه روي بالخمَر، بفتح الميم، جمع خمرة، وهو صحيح المعنى، لكن الأول هو المعروف وهو الأبلغ في إكرامها.

وقال اللَّه قد يسرت جندًا: أي: هيأتهم وأرصدتهم.

عرضتها اللقاء: هو بضم العين؛ أي: مقصودها ومطلوبها.

ليس له كفاء: أي: مماثل ولا مقاوم، واللَّه أعلم.

★ فوائد الحديث:

هجاء المشركين أهل الحرب وسبهم جائز بهذه الأحاديث وأنه لا حرمة لهم إذا سبّوا المسلمين، والانتصار منهم بذمهم وذكر كفرهم وقبيح أفعالهم من أفضل الأعمال عند اللَّه تعالى، ألا ترى قوله ﷺ لحسان: «**أُهجهم وجبريل معك**» وقوله: «**اللهم أيده بروح القدس**» وكفى بهذا فضلًا وشرفًا للعمل والعامل به، فأما إذا لم يسب أهل الحرب المسلمين فلا وجه لسبهم»[1].

قال النووي معلقًا على حديث عائشة: «فيه جواز هجو الكفار ما لم يكن أمان، وأنه لا غيبة فيه، وأما أمره ﷺ بهجائهم وطلبه ذلك من أصحابه واحدًا بعد واحد ولم يرض قول الأول والثاني حتى أمر حسان فالمقصود منه: النكاية في الكفار، وقد أمر اللَّه تعالى بالجهاد في الكفار والإغلاظ عليهم، وكان هذا الهجو أشد عليهم من رشق النبل، فكان مندوبًا لذلك مع ما فيه من كف أذاهم وبيان نقصهم والانتصار بهجائهم للمسلمين. قال العلماء: ينبغي أن لا يُبدأ المشركون بالسبّ

---

(١) شرح صحيح البخاري لابن بطال (٩/ ٣٢٦).

والهجاء مخافة من سبهم الإسلام وأهله قال اللَّه تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾[١] ولتنزيه المسلمين عن الفحش إلا أن تدعو إلى ذلك ضرورة لابتدائهم به فيكف أذاهم ونحوه كما فعل النبي ﷺ»[٢].

قال ابن عبدالبر: «وإذا كان رسول اللَّه ﷺ يسمعه وأبو بكر ينشده فهل للتقليد والاقتداء موضع أرفع من هذا، وما استنشده رسول اللَّه ﷺ وأنشد بين يديه أكثر من أن يحصى، ولا ينكر الشعر الحسن أحد من أولي العلم ولا من أولي النهى..

وليس أحد من كبار الصحابة وأهل العلم وموضع القدوة إلا وقد قال الشعر وتمثل به أو سمعه فرضيه، وذلك ما كان حكمة أو مباحا من القول، ولم يكن فيه فحش ولا خنى ولا لمسلم أذى، فإن كان ذلك فهو والمنثور من الكلام سواء لا يحل سماعه ولا قوله»[٣].

* عن أبي هريرة أن عمر مرّ بحسان وهو ينشد الشعر في المسجد، فلحظ إليه. فقال: قد كنتُ أنشد وفيه من هو خير منك. ثم التفت إلى أبي هريرة. فقال: أنشدك الله! أسمعتَ رسول اللَّه ﷺ يقول: «**أجب عنّي. اللهم أيّده بروح القدس**»؟ قال: اللهم نعم[٤].

★ غريب الحديث:

فلحظ إليه: أي: أومأ إليه بعينيه: أن اسكت.

★ فوائد الحديث:

قال النووي: «فيه جواز إنشاد الشعر في المسجد إذا كان مباحًا، واستحبابه إذا كان في ممادح الإسلام وأهله أو في هجاء الكفار والتحريض على قتالهم أو تحقيرهم ونحو ذلك، وهكذا كان شعر حسان، وفيه استحباب الدعاء لمن قال شعرًا من هذا النوع»[٥].

---

(١) الأنعام: الآية (١٠٨).

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي (١٦/ ٤٠-٤١).

(٣) فتح البر (١٠/ ٢٠٧).

(٤) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٦٩)و(٥/ ٢٢٢) والبخاري (٦/ ٣٧٤/ ٣٢١٢) ومسلم واللفظ له (٤/ ١٩٣٢/ ٢٤٨٥) وأبو داود (٥/ ٢٧٩/ ٥٠١٤) والنسائي (٢/ ٣٧٩/ ٧١٥).

(٥) شرح صحيح مسلم للنووي (١٦/ ٣٨).

وقال القرطبي: «وقد اختلف في ذلك، فمن مانع مطلقًا، ومن مجيز مطلقًا، والأولى التفصيل، وهو أن يُنظر إلى الشعر، فإن كان مما يقتضي الثناء على الله تعالى أو على رسوله (أو الذب عنهما، كما كان شعر حسان، أو يتضمن الحض على الخير، فهو حسن في المساجد وغيرها، وما لم يكن كذلك لم يجز؛ لأن الشعر في الغالب لا يخلو عن الفواحش والكذب، والتزيين بالباطل، ولو سلم من ذلك فأقلّ ما فيه: اللغو، والهذر، والمساجد منزّهة عن ذلك، لقوله تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾[١]، ولقوله ﷺ: «**إن هذه المساجد لا يصلح فيها شيء من كلام الناس، إنما هي لذكر الله، والصلاة، وقراءة القرآن**»»[٢].

* عن أبي بن كعب أن رسول الله ﷺ قال: «**إن من الشعر حكمة**»[٣].

★ غريب الحديث:

حكمة: أي: قولًا صادقًا مطابقًا للحق. وقيل: أصل الحكمة: المنع، فالمعنى: إن من الشعر كلامًا نافعًا يمنع من السفه[٤].

★ فوائد الحديث:

قال ابن بطال: «الشعر والرجز والحُداء كسائر الكلام، فما كان فيه ذكر تعظيم لله ووحدانيته وقدرته وإيثار طاعته وتصغير الدنيا والاستسلام له تعالى.. فهو حسن مرغب فيه، وهو الذي قال فيه ﷺ: «**إن من الشعر حكمة**» وما كان منه كذبًا وفحشًا فهو الذي ذمّه الله ورسوله»[٥].

قال الحافظ: «قال ابن التين: مفهومه أن بعض الشعر ليس كذلك؛ لأن (مِنْ) تبعيضية»[٦].

قال السندي: «(مِنْ) تبعيضيّة، يريد أن الشعر لا دخل له في الحسن والقبح، ولا يعتبر به حال المعاني في الحسن والقبح، والمدار إنما هو على المعاني لا على

---

(١) النور: الآية (٣٦). (٢) المفهم (٦/ ٤١٨).
(٣) أخرجه: البخاري (١٠/ ٦٥٨/ ٦١٤٥) وأبو داود (٥/ ٢٧٧/ ٥٠١٠) وابن ماجه (٢/ ١٢٣٥/ ٣٧٥٥).
(٤) الفتح (١٠/ ٦٦١).
(٥) شرح صحيح البخاري لابن بطال (٩/ ٣١٩). (٦) فتح الباري (١٠/ ٦٦١).

كون الكلام نثرًا أو نظمًا فإنهما كيفيتان لأداء المعنى وطريقان إليه، ولكن المعنى إن كان حسنًا وحكمة فذلك الشعر حكمة، وإذا كان قبيحًا فذلك الشعر كذلك، وإنما يذم الشعر شرعًا بناءً على أنه غالبًا يكون مدحًا لمن لا يستحقه وغير ذلك، ولذلك لما قال تعالى: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٢٢٤﴾﴾ أثنى على ذلك بقوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾»[1].

* * *

(١) حاشية ابن ماجه (٢/ ٤١٠).

قوله تعالى: ﴿وَسَيَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٖ يَنقَلِبُونَ﴾

٭ **غريب الآية:**

منقلب: مرجع ومصير.

أقوال المفسرين في تأويل الآية

قال ابن جرير: «وقوله: ﴿وَسَيَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾ يقول تعالى ذكره: وسيعلم الذين ظلموا أنفسهم بشركهم بالله من أهل مكة ﴿أَيَّ مُنقَلَبٖ يَنقَلِبُونَ﴾ يقول: أي مرجع يرجعون إليه، وأي معاد يعودون إليه بعد مماتهم، فإنهم يصيرون إلى نار لا يُطفأ سعيرها، ولا يَسْكُن لهبها»(١).

قال القرطبي: «في هذا تهديد لمن انتصر بظلم؛ أي: سيعلم الظالمون كيف يخلصون من بين يدي الله ﷻ، فالظالم ينتظر العقاب، والمظلوم ينتظر النصرة»(٢).

قال الماوردي: «سيعلمون يوم القيامة أي مصير يصيرون وأي مرجع يرجعون؛ لأن مصيرهم إلى النار وهو أقبح مصير، ومرجعهم إلى العذاب وهو شر مرجع، والفرق بين المنقلب والمرجع أن المنقلب الانتقال إلى ضد ما هو فيه، والمرجع العود من حال هو فيها إلى حال كان عليها، فصار إلى مرجع منقلبًا، وليس كل منقلب مرجعًا»(٣).

ما ورد في السنة من النصوص الصحيحة في التحذير من الظلم

٭ عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: **«اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم»**(٤).

---

(١) جامع البيان (١٩/ ١٣٠-١٣١).
(٢) جامع أحكام القرآن (١٣/ ٢٥٣).
(٣) النكت والعيون (٤/ ١٩١).
(٤) أخرجه: أحمد (٣/ ٣٢٣) ومسلم (٤/ ١٩٩٦/ ٢٥٧٨) والبخاري في الأدب المفرد (٤٨٣).

تقدم الكلام على غريب الحديث وفوائده في سورة البقرة الآية (٢٧٠) وفي سورة النساء الآية (٣٧) وفي سورة طه الآية (١١١) بما أغنى عن الإعادة، وبالله التوفيق.



فهرس الموضوعات

سورة الفرقان

سورة الشعراء

* * *